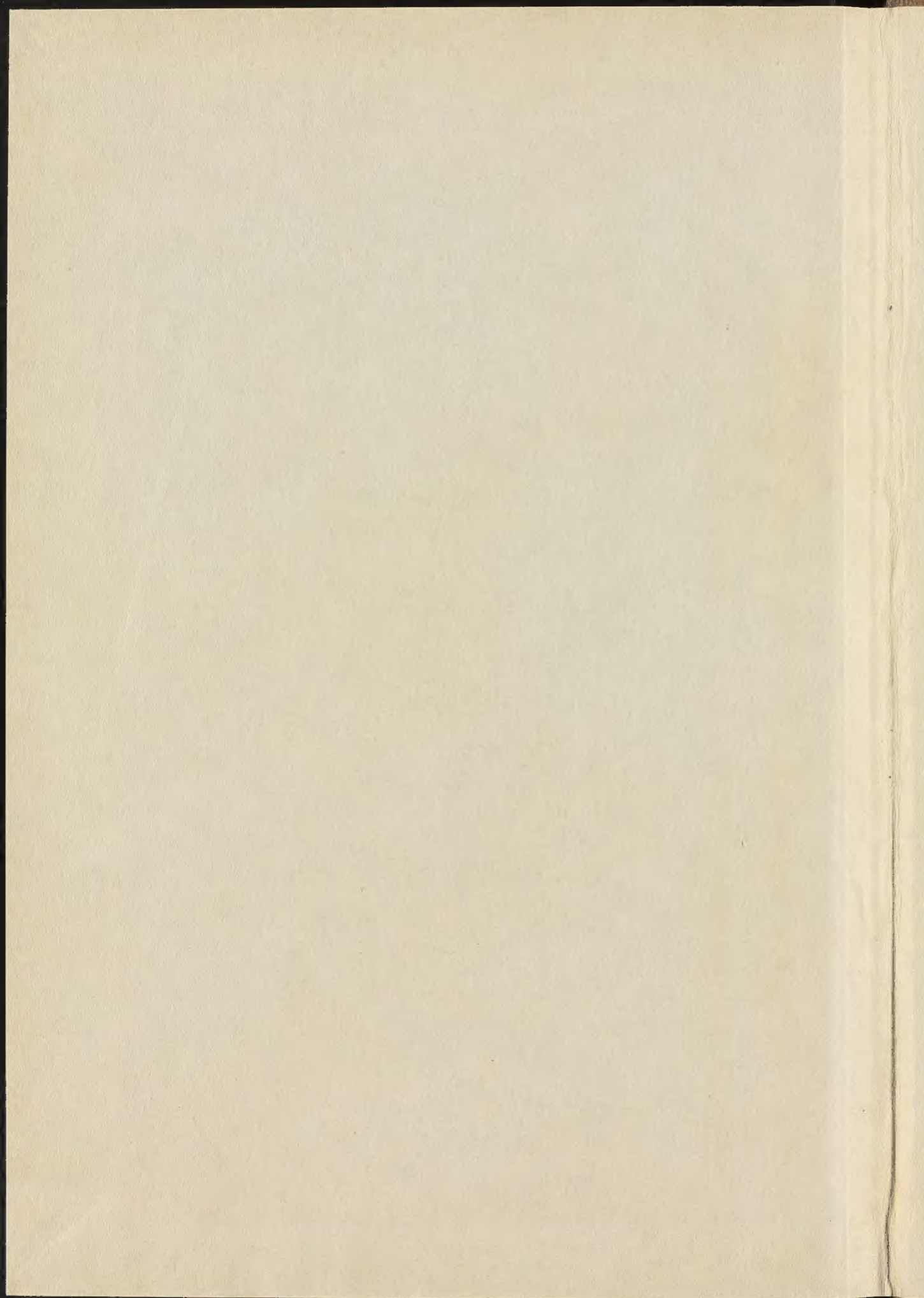
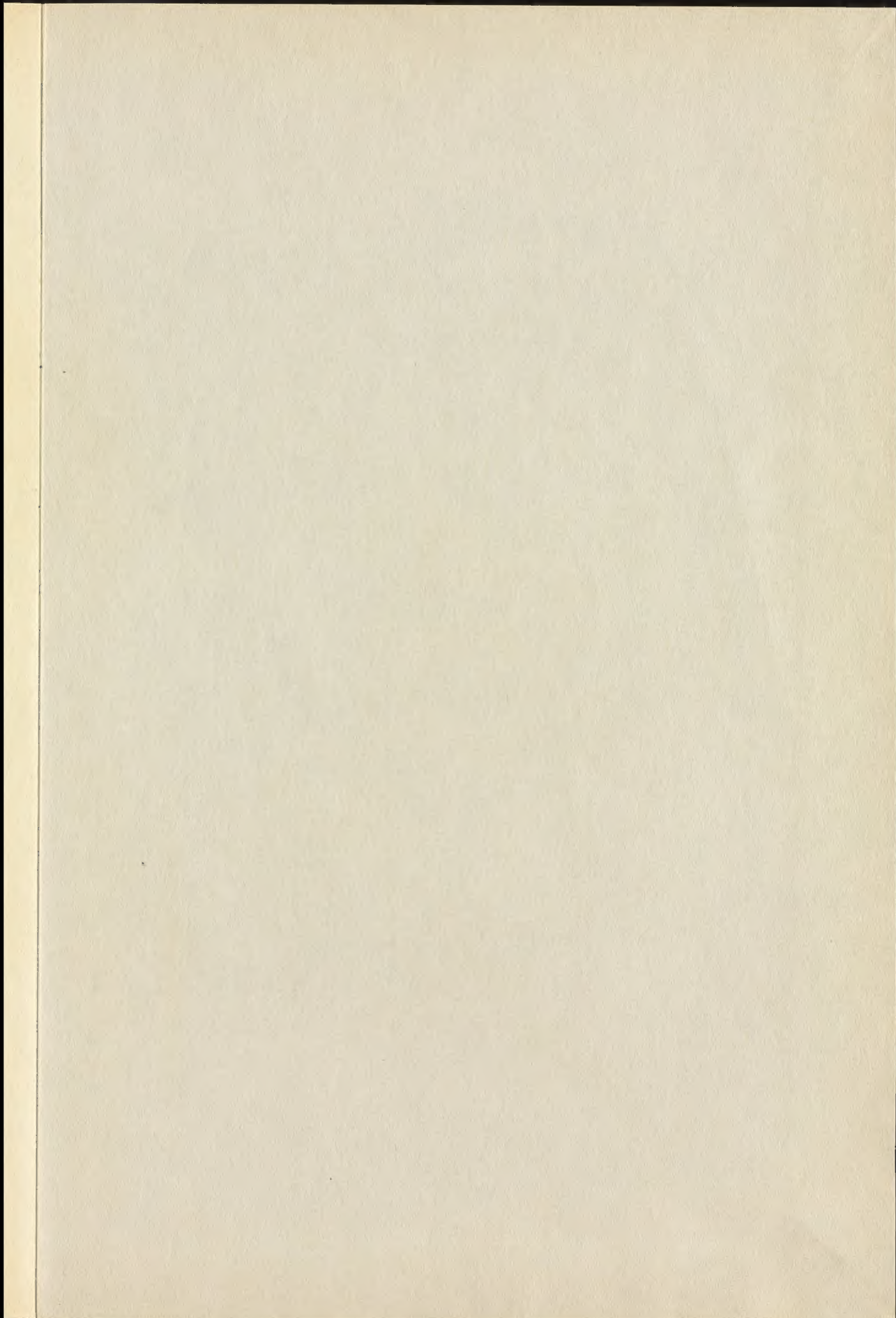


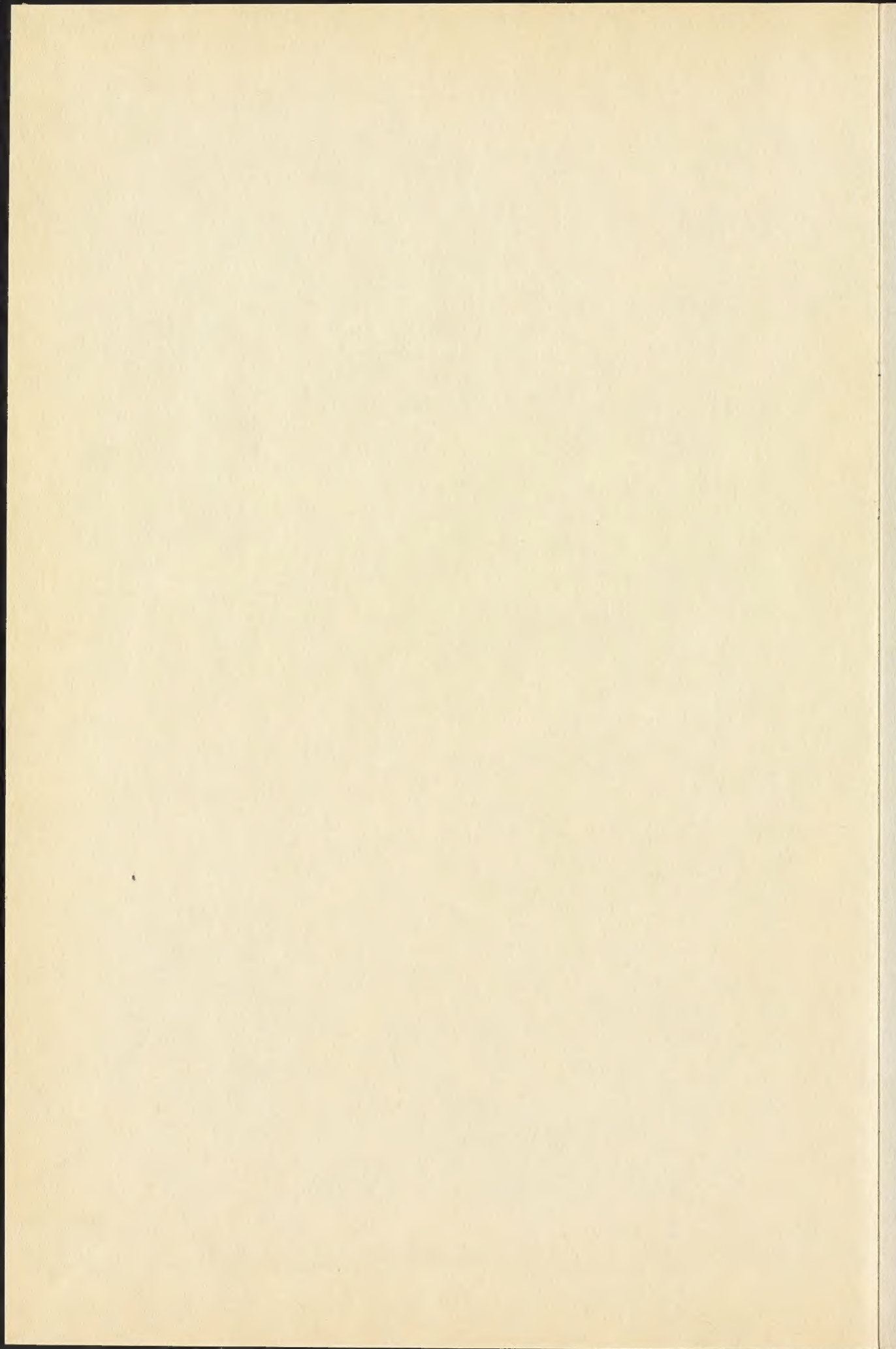
Columbia University
in the City of New York

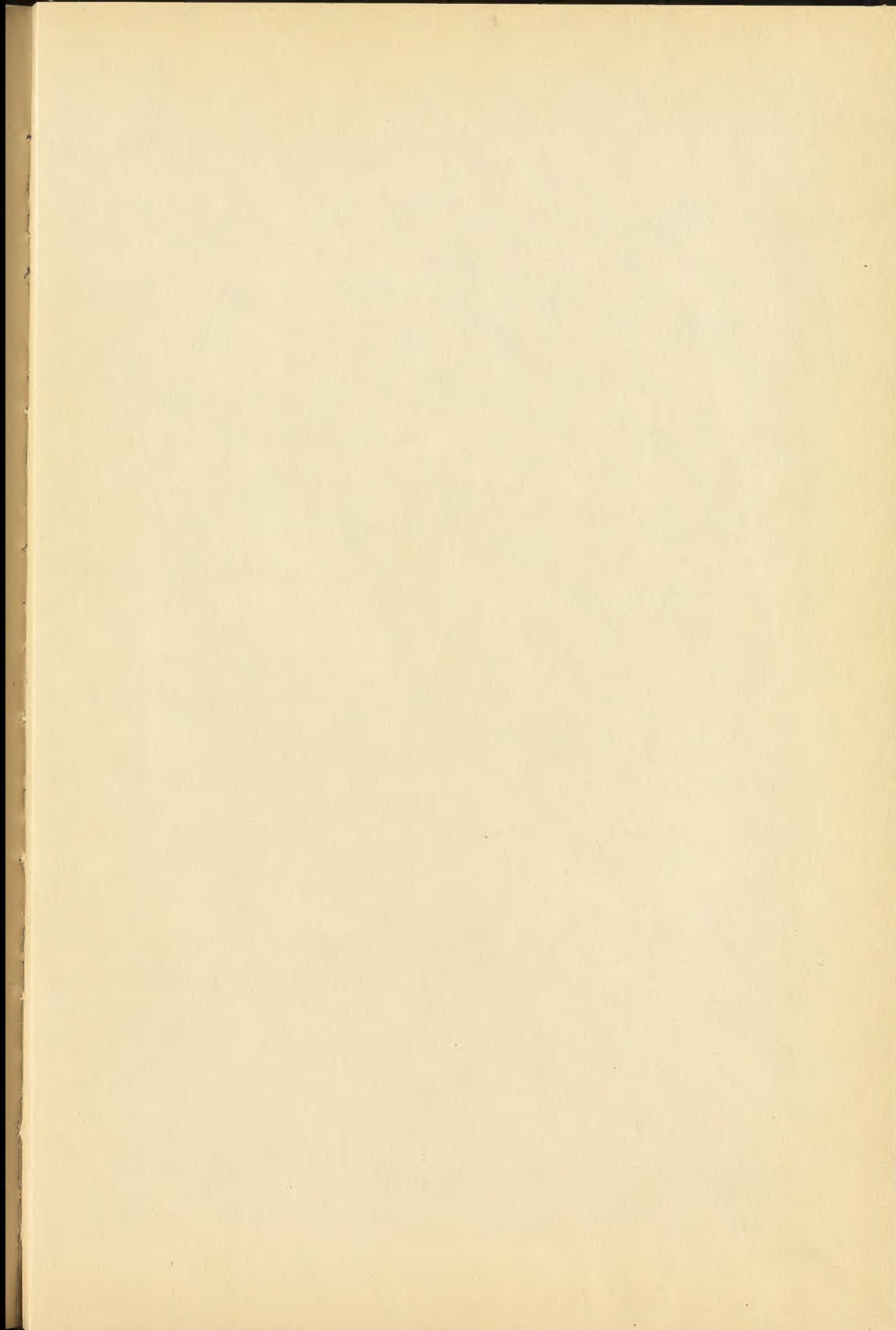
THE LIBRARIES











خاض العالم الاسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الاستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الامير شكيب ارسلان

المجلد الثالث

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

القاهرة — ١٣٥٢ — هجرية

عنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى الباني الجبلى وشركاه بمصر

893.791

St 644

v. 3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسَّرْ وَأَعِزْ

N 68-211 1955

فهرست

المجلد الثالث

من كتاب « حاضر العالم الاسلامي »

- الدعوة الاسلامية في افريقية للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٤
- الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب في أمر المدنية صفحة ٢
- الخلاصة صفحة ١١
- التبشير والمبشرون صفحة ١٢
- الكامرون صفحة ١٦
- السودان صفحة ٢١
- سكوتو وبورنو صفحة ٢٣
- الباقرمي والسنغال واداي وكانم صفحة ٢٤
- مملكة مالي صفحة ٢٩
- مسألة الرقيق والشرع صفحة ٤٣
- تتمة ذكر السودان صفحة ٤٥
- الاسلام في السودان مقال للاستاذ ديريش وسترمان الألمانى في مجلة العالم الاسلامي
- الألمانية من صفحة ٥٥ — ٥٨
- العرب في الكونغو للامير شكيب من صفحة ٥٩ — ٦٢
- سلطنة راج للامير شكيب من صفحة ٦٢ — ٦٤
- ممالك أواسط افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٥ — ٦٨
- شرقي افريقية للامير شكيب من صفحة ٦٩ — ٧٧
- مسلمو الحبشة للامير شكيب من صفحة ٧٨ — ١١٩

الاسلام في ماداغسكر وجزائر القومور وبيانات عن الحضارمة للامير شكيب

من صفحة ١٢٠ — ١٨٢

جزائر القومور أو القمر صفحة ١٤٢

جزائر انجوان صفحة ١٤٨

تصحيح وتوضيح وبيانات عن الحضارمة بقلم العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد

ابن عبد الرحمن بن شهاب العلوي الحضرمي من صفحة ١٥٧ — ١٨٣

الأمير محمد بن عبد الكريم زعيم الريف للامير شكيب من صفحة ١٨٤ — ٢٠٧

التعصب الأوربي أم التعصب الاسلامي ومائة مشروع لتقسيم تركيا للامير شكيب

من صفحة ٢٠٨ — ٣٤٢

مباحث اجتماعية ورمي الاوريين الشرع الاسلامي بالجوذ للامير شكيب

من صفحة ٣٤٣ — ٣٥٠

قضية فصل الدين عن السياسة من صفحة ٣٥١ — ٣٦٤

احصاء المسلمين للامير شكيب من صفحة ٣٦٥ — ٣٦٧

مسامو الفيلبين صفحة ٣٦٧

قفقاسيا صفحة ٣٦٨

ترجمة القرآن صفحة ٣٦٩

مسألة الصلب وقول ابن حزم صفحة ٣٧٠

عود الى رأى هورغرونيه صفحة ٣٧٢

السيد احمد الشريف السنوسي صفحة ٣٧٤

تقرير عن القضية الطرابلسية البرقاوية من صفحة ٣٧٦ — ٣٨٥

رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية ليبيريا من صفحة ٣٨٥ — ٣٨٨

الدفاع عن الحروف العربية من صفحة ٣٨٩ — ٣٩٣

اظهار محاسن الاسلام لعالم ايطالي من صفحة ٣٩٤ — ٣٩٦

طرابلس وبرقة أيضاً من صفحة ٣٩٧ — ٣٩٨

الدعوة الإسلامية في افريقية

للمؤلف

- ١ — الصراع بين الاسلام والنصرانية وأيهما الغالب في المدينة
- ٢ — الخلاصة
- ٣ — الكامرون
- ٤ — السودان . سكوتو . بورنو . البايرمي . السنيغال . واداي . كانم . مملكة مالي
- ٥ — مسألة الرقيق والشرع
- ٦ — تنمية ذكر السودان

قال المسيو موري : فلننظر الآن الى مجارى الدعاية الاسلاميه في قارة افريقية :
فالمجرى الاول هو التيار المراكشي ، الذي يتسدون من زوايا المغرب العديدة ،
ومدارس فاس ومراكش ، ويخترق بلاد الآدرار (بجهة السنيغال) فينشر دعوة الاسلام
في كآرته ، وفوتاجالون ، والسودان .

والمجرى الثاني هو الذي يخرج من مدارس القادرية في تمبكتو ، ومن بعض زوايا
التيجانية ، ويتبع مجرى النيجر الى بلاد صانقا (من الكونغو الفرنسي) ، فيتلاقى مع
مراكز التبشير المسيحي في ملتقى نهري النيجر والبنوي .

والمجرى الثالث هو الذي يصدر عن زوايا السنوسية في الجغبوب وغدامس منتحيا
جهات بحيرة تشاد ، وبه أصبحت وادي وبورنو ، مراكز تتأجج فيها حرارة الاسلام .
والمجرى الرابع يخرج من الأزهر بمصر فيتبع النيل الى كردوفان ، الى الاوغاندة حيث
ينازع مبشرى البروتستانت والكاثوليك على قيادة الارواح .

وأهم مجارى الدعاية الاسلامية هو ما يقوم به تجار المسلمين ، الذين يقصدون دارفور
والسودان تارة من مصر وطورا من طرابلس ، وأفعل من هؤلاء رهط التجار الذي يقوم
من زنجبار قاصدا بلاد البحيراب الكبير الى الكونغو ، تابعا مجرى هذا النهر الى بلاد

الباتو^(١) حيث يسابق البعثات المسيحية على أرواح هذا الشعب .
والحق يقال ان الاسلام في هذه الصفحة الاخيرة من تاريخه قد دل على أنه يملك
حيوية عظيمة ، وقابلية شديدة للانتشار . فليذكر الناس حركات أمة البله^(٢) ونشاط
ال دراويش أتباع الطرق ، وتكاثر الزوايا ، وثورة الحاج عمر الفوتي وخلفائه ، والمهدى
السوداني ، وتجارة الرقيق . ولا ينكر أن الرق ألغى وان أجودو وساموري ومحمد أجود
انكسروا ، وان الغارة الاسلامية توقفت في السودان الفرنسي وفي السودان المصري ،
ولكن التعصب الاسلامي لم ينطفئ وانما هو يتوقد تحت الرماد ، وتجد الدعوة الاسلامية
ماشية بالرغم من كل الحوائل في الاوغاندة ، ووادي الكونغو ، ووادي النيجر ، ووادي
الغامبية ، وساحل غينية ، وسرى في الفصل الآتي مواقف الديانتين بعضهما بازاء بعض .

الصراع بين الاسلام والنصرانية

وأيهما الغالب في أمر المدنية

قال : ان الديانتين الاسلامية والنصرانية ، وافقتان كل منهما في مقابلة الاخرى على
خطين طويلين ، فاذا خططنا خطأ يمتد من مصب السنيغال الدرجة ١٦ من العرض الشمالى ،
قاطعاً الى شرقى افريقية الدرجة ٢ والدقيقة ٣٠ من العرض الجنوبى . وخطاً ثانياً ، يمتد
من الدرجة ٥ من العرض الشمالى مع الدرجة ١٠ من الطول الغربى الى الدرجة ١٥ من
العرض الجنوبى مع الدرجة ٤٠ من الطول الشرقى في قرب موزامبيق ، تكونت لنا
منطقة واسعة جداً ، يضطرب ضمنها مائة مليون نسمة هم معترك النزاع بين الاسلام
والنصرانية .

وقد تقدم كون مراكز دعوة الاسلام هي فاس ، وطرابلس ، وجنوب ، والازهر ،
وزنبار ، وان طلائعها في بحيرة تشاد وتمبكتو . وأما النصرانية فدعاتها من فرنسيس ،
وطليان والمال ، وسكندينايفين ، وانكليز ، وامريكيين ، قد اخترقوا الكتلة الفتيشية من

(١) شعب زنجى كبير يتألف منه سكان الكونغو ، وأهالى بلدان البحيرات الكبرى ، وأفاهيم إفريقيا
الجنوبية كالزولو ، والبشوانه الخ

(٢) أمة سودانية تسكن ضفة السنيغال الشمالية ، ومنها أهالى فوتاجالون ، وبلاد النيجر العليا والوسطى
وسمرة ألوان هذه الأمة مشربة بحمرة ، وشعورهم مائلة الى السباطة ، وسحتهم تكاد تكون أوربية ،
ويقال لهم أيضاً الفولاه والفوليه وكلهم مسلمون

ثلاث أو اربع نقاط وهي : وادى غامبيه وأعلى السنيغال ، وسيراليون وساحل غينية ، ومثلث النيجر ، وأعلى الزاميز ، وبلاد البحيرات الكبرى . وأعز مراكز النصرانية اليوم هي السودان الغربي ، والكونغو ، وبلاد الكافر ، والاوغانده ، والزاميز الاعلى .^(١)

أما من جهة العدد فالمتنصرون من السود لا يزيدون على سبعة ملايين وخمسمائة ألف ، حال كون المسلمين ٣٦ مليوناً أكثرهم مستعمرات فرنسا فانهم في السنيغال الى شرقى بافولابه ومنهم أكثر أهالى نيورو ، وغومبو ، وسوكوتو وجيج منطقة فاقيبين ، وتمبكتو ، ووادى النيجر ، وبلاد فوتاجالون ، وبلاد كيتا ، وبامباكو ، وستادونغوالخ .

ثم أخذ يسرد المسيو بونه موري الاسباب التى جعلت للإسلام الفوز فى افريقية بين السود ، وأهم هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، التى تنحصر فى كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، مما يقبله عقل الزنجى بدون عناء كبير ، كذلك الجنة التى عند المسلمين تطابق ميول الزوج ، أكثر من فردوس النصارى ، كذلك الاسلام ليس فيه طبقات ودرجات ، فالزنجى لا يرى نفسه محتقرا فى الجماعة الاسلامية . قال : ومع كون الفقير والغنى متساويين عند كل الملل فليس عند أغنياء المسلمين هذه العظمة والخشونة اللتان عند أغنيائنا ، بل أغنياء الاسلام أكثر تذكرا لزوال النعم وتحول الاحوال من أغنياء النصارى ، والفقير المسلم لا يعز عليه أن يدخل ييب أى واحد من أغنياء الاسلام وان يجدهناك مضافا .

(١) الكونغو نهر عظيم فى أواسط افريقية يخرج من غربى بحيرة نياسا وينتهى فى الأوقيانوس الاطلانتى ، طوله ٤٦٠٠ كيلو متر وحجمه مائة من ٤٠ ألف الى ٧٠ ألف متر مكعب ، والبلاد التى تجاوره تسمى بلاد الكونغو وهى أربعة أقسام الكونغو الألمانى فى الشمال وهو الكامرون ، والكونغو البرتقالى وهو انغوله فى الجنوب ، والكونغو الفرنسى ، ثم الكونغو البلجيكى ، وأعظمها البلجيكى الذى عدد سكانه ١٤ مليوناً . وأما الاوغانده فتحقق أن تكون من السودان المصرى وهى شمالى بحيرة فيكتوريا يانزه الى الغرب ، أهلها مليون نسمة حصلت فيها فتن بعد وفاة ملكها ميترا بسبب الدعوات الدينية ، بين المسلمين والبروتستانت والكاثوليك ويقول مورييس فال الفرنسى فى قاموسه ان الغلبة كانت للبروتستانت بسبب عضد الضباط الانكليز لهم . والاوغانده كما لا يخفى أدخلتها انكلترا فى مستعمراتها . وأما بلاد الكافر فهى فى افريقية الجنوبية قد مر ذكرها ، وأما الزاميز فهو نهر عظيم يتكون من ملتقى ليا وكامبومبو الذى ينبعان فى نحو الدرجة ١٢ من العرض الجنوبى تسبب الى هذا النهر مستعمرة الزاميز البريطانية وأهلها مليون وثلاثمائة ألف

ثم ان العرب والمغاربة والبربر يتزوجون بالسودانيات ، فتحصل بينهم وبين الزوج وشائج اسباب وأرحام تريد نفوذ أولئك عليهم ، حال كونه من النادر الاندر أن يتزوج أوربي بسمراء أو يرضى بمصاهرة رجل اسود . ثم ان تعدد الأزواج ، وجواز الرق (كذا) ، ومنع القرآن للمسكرات ، كلها أسباب تجعل الرجحان في كفة الاسلام .

وأكثر الذين صنفوا على افريقية حتى الذين منهم اشتهروا بعداوة الاسلام ، اعترفوا بحسن عاقبة اسلام السود من الوجهة الدينية والادبية . لانهم تخلصوا من عبادة الاوثان والحيوانات ، وأقلعوا عن عادة الذبائح البشرية ، وتركوا السحر والسحرة ، وانصرفوا الى عبادة اله واحد عدل ، يعبدونه عبادة روحية منزهة . ثم ان دعاة الاسلام يعلمون المهتدين مبادئ اللغة العربية التي هي في الاسلام بمثابة اللاتينية في أمم النصرانية . وما لا شك فيه ، أن الاسلام يزيد النفس عزة ، وينهض بوجدان الزنجي كما قال آتربوري Atterbury وهو قوله : « بمجرد ما يدخل الزنجي في الاسلام يشعر بكرامة نفسه ، و بعد أن كان يعتقد ذاته عبدا ، يصبح في نظر نفسه حراً . »

وان جميع وصايا جمعيات المبشرين بترك المسكرات ، لم تبلغ شيئا من درجة تأثير الاسلام في حظر هذه الرذيلة . وربما قيل انه كما كان الامساك عن شرب الخمر يرفع درجة الانسان ، فالتزوج باكثر من واحدة يعمل عكس ذلك . والجواب على هذا أن أكثر المسلمين يقتصرون على الزوجة الواحدة أولا لأن القرآن شرط لتعدد الزوجات شروطا ثقيلة ، ثانيا ، لأن النفوذ الاوربي ازداد في العالم الاسلامي ، وصار كثيرون من المسلمين ينفرون من تعدد الزوجات — وأتى بونه موري على ذلك بشواهد كثيرة ، وخاض في بحث المرأة الجديدة في الاسلام ، وتكلم على كتاب المرحوم قاسم أمين ، وعلى مدارس الاناث المحدثه في الاسلام الى أن قال : « أما مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية فمنها تعدد الزوجات . »

لأن تعدد الزوجات بذاته يسقط من مكانة المرأة ، التي هي في نظر السواد الاعظم من المسلمين واسطة شهوة ، ووسيلة للنسل لا غير . فهذا من مواطن ضعف الاسلام بازاء النصرانية ثم هناك ضعف آخر وهو فساد القضاء الاسلامي وفقد العدل فيه ، اذ كل ما هو مشهور عن قضاة الحكومات السابقة في فرنسا من الرشوة والتزوير والظلم . لا يحسب

شيثا في جنب مساوى قضاء الاسلام في افريقية . فانه يكاد يكون مستحيلا نجاح فقير في دعوى مع غنى ، أو انصاف أرملة وقاصرين في نزاع مع وصى

فليفكر جيداً المسلمون في هذه الكلمة ، وليعلموا أنه اذا كان الله تعالى أباح تعدد الزوجات تحت شروط ، فلم يباح الظلم بوجه من الوجوه . بل الاسلام وضع العدل فوق العبادة ومع هذا فقد صار الأمر الى أن فساد القضاء وفقد العدل في محاكم الاسلام ، أصبحت حاجبة على الاسلام ، ونقطة يهاجم بها . ولا شك أن أمثال هؤلاء القضاة من المسامين ، هم بأعمالهم أخش نكاية بالاسلام من جميع أعدائه . أفلا يعلم هؤلاء أن مثل هذه الأحوال ، هي التي رفعت ثقة الاوربيين ، لا بل الشرقيين من المحاكم الشرعية ، وجلت الكثيرين على طلب الغائها ، أو وضعها تحت السيطرة الأوربية ؟ فأى عار على الاسلام أكبر من هذا ؟ وأى جناية على الاسلام أفظع من أن يصوره رجال الشرع بغير صورته بسوء أعمالهم ، فبدلاً من أن يرغب فيه الناس تراهم يرغبون عنه بسببهم .

جعل المسيو بونه مورى استئصال الرق من جلة نقائص الاسلام ، واعترف بان العبيد أبناء العبيد الذين يخدمون في البيوت ويدينون بالاسلام ، لاتساء معاملتهم ، ولكن أفاض في وصف سوء المعاملة التي يلقيها أسرى الحرب ، وطعن كثيراً في تجار الرقيق لاسيما من العرب ، ووصف القسوة التي تظهر منهم في معاملة من يصطادونهم من الزنوج . وجعل أصل التبعة في ذلك على الاسلام . ونسى أن الرق وجد في جميع الأزمان ، وانه وجد في النصرانية أيضاً . وان البوير الأوربيين في جنوبي افريقية ثقل عليهم تحرير الرقيق ، أكثر من تجار العرب . وان الحرب في أميركا استمرت عدة سنوات ، بسبب أن قسماً عظيماً من أهالي أميركا أبوا الخضوع لقانون ابطال الرق . ونسى أيضاً صاحبنا أن أكثر الأمة الروسية ، وهم الفلاحون كانوا أرقاء للأمراء والأشراف ، ولم يتحرروا الا منذ نحو ١٥٠ سنة وهم من الجنس الأوربي لا من الزنج . كذلك غفل أو تغافل عما أوصى به الاسلام بشأن الرقيق ، وما عظم من فضيلة تحرير الرقاب ، وكيف أن آخر كلام النبي ﷺ وهو على فراش احتضاره كان ، التوصية بالأرقاء . فنظر المؤلف من جهة واحدة ، وذكر السيئات وأغفل الحسنات .

ثم خاض المسيو بونه مورى في ثمرات الدعوة المسيحية فقال ، ان عدد المنتصرين

من المسلمين لا يكاد يذكر ، ولكن لا يخرج من ذلك أن الدعوة المسيحية لم تكن ذات تأثير على المسلمين بل ان الميل الحاضر عندهم الى الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، والاعتناء بترقية سوى المرأة ، واصلاح المحاكم ، كل هذا كان من نتائج الدعوة المسيحية . فاما بين الوثنيين فان دعاة الانجيل قاوموا عبادة الفتيش^(١) والاعتقاد بالسحر والتعاويذ ، والذباب البشرية ، والرق ، وأصلحوا حال المرأة ، واجتهدوا في تعليم الزنحى ، الاقتصار على الزوجة الواحدة ، وأفهموا السود أن على المرأة واجبات غير الولادة ، وهى تهذيب الأولاد وتمريض المرضى والزمنى ، بخلاف المسلمين الذين يرون فى المرأة واسطة للنسل لا غير . (كذا) وعاموا السود النظافة وقوانين حفظ الصحة ، ومرتوهم على الأشغال اليدوية والزراعة وأما من جهة المستشفيات ولا سيما ملاجئ المجنومين ، حدث فى هذا الباب ولا حرج . ثم ان المبشرين هم الذين نشروا فى أوربا فظائع صيد البشر حتى اهتمت الدول بذلك ، وعقدت المؤتمرات التى قررت فيها منع بيع الرقيق . ولم يتوقف المبشرون عن التشهير بمساوىء تجار الرقيق بل شهبوا بسيئات المستعمرين الاوربيين أنفسهم فيما لو خطبوا الاهالى بعضا العسف وذلك كما فعل المبشرون الانكليز ، عند ما رأوا أعمال بعض البلجيكين فى الكونغو . وبما لا يمكن السكوت عنه أن بعض الاوربيين ارتكبوا جريمة بيع المسكرات بين الزوج ، ومنهم ضباط وحكام استعملوا القسوة فى معاملتهم ، فكانوا مثالا سيئا وان بعض المبشرين أنفسهم ، ارتزقوا من حرف غير لائقة بالعمل الذى بعثوا من أجله ، وان كثيراً من المبشرين تشاجر بعضهم مع بعض ، لا سيما الكاثوليك والبروتستانت ، وحصلت فى الاوغاندة وقائع دموية بسبب نشر الدين ، فهذا مما يقدح الشكوك فى قلوب الذين ذهب المبشرون لهدايتهم ، وما ذا تقول فى حرب الترانسفال التى دارت بين أمتين مسيحيتين تحت أعين الزوج ، فجاءت بتكذيب دعوى البيض بكون انجيلهم هو واسطة السلام . قال : وبالجملة فاذا كان الاسلام قد رجح من جهة عدد الذين اتبعوه من السود ، فالنصرانية كانت الرجحى فى أهمية النتائج الأدبية والاقتصادية ، ثم لا يوجد وجه للمقايسة بين المدارس النصرانية وبين كتاتيب الزرايا فضلا عن كون مبشرى الانجيل أسسوا مدارس صناعية مثل باقامويو Bagamoyo ومدرسة لوفيدال Lovedale ومدارس زراعية

(١) لفظة برتقالية الأصل معناها الوثن أو المعبود من الحيوانات

مع انموجانها نظير مؤسسة الآباء البيض في كيتا Kita وأين تجد عند دعاة الاسلام من دور الأيتام وملاجئ العجزة والزمنى ومستشفيات المجاذيم ، ما تجده عند دعاة النصرانية ، وأين في العالم الاسلامى النسوة اللاتى مثل راهبات الرجة الكاثوليكيات والاخوات الانجيليات ، ونساء المبشرين . لا جرم أن النصرانية في هذا الموطن هي العليا وان كان الاسلام هو الفائق في قضية منع الكحول .

فنحن لا ننكر ما قاله المسيوبونه مورى من أنه لا وجه للمقايضة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية في افريقية وغيرها من جهة الاتقان والتفنن ، وتنوع العلوم ، والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال في هذه المشروعات الخيرية ، وما تأتى به هذه الراهبات من الخوارق في خدمة الانسانية . كلا والله لا ننكر ذلك ، (والحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . ولكن مما لا ينكر أيضاً أن انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، انما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية في العصر الاخيرة ، اما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر في الاسلام الا فيها البيمارستانات ، ودور المجاذيم ، والمجاذيب ، وملاجئ الزمنى ، وملاجئ العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دائمة ، ومنابع رزق ينفق منها عليها عن سعة .

لا بل الذى خطر ببال المسلمين من جهة اسداء الخير ، واماطة الأذى ، وتخفيف آلام البشر قد وصل من التناهى الى درجات ، لم تبلغها أوربا في عصر مدينتها هذه ، ودل على أن في الاسلام من رقة الشعور ، ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ، ما ليس في غيره . واليك هذا المثال :

كانت في دمشق الشام عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ، ويقال ان مرجة دمشق هذه التي هي اليوم منزله أهل الحاضرة ، كانت وقفا على الخيل التي تعبت في الجهاد وأسنت ، يطوّل لها فيها دون غيرها .

وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء لم أجد عليها نصاً ، ولكنها قريبة الى التصديق وهي ، أنهم وجدوا في الوثائق المتروكة عن المستشفى النورى الشهير ^(١) وظيفه من جلة وظائف المعالجة لم يخطر ببال الاوربيين ، مع تناهيهم في الترف والعناية بالصحة

(١) محل المحكمة الشرعية الآن وهو منسوب الى الملك العادل نور الدين زنكي رحمه الله

أن يجعلوها وظيفة ، ولا أن يرتبوا لها جعلاً معلوماً ، وهي تكليف اثنين بأن يقفا بسمع من المريض ، وبدون أن يلحظ أن ذلك جارٍ منهما عمداً يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض ، فيجاء به رفيقه بأنه لا يوجد في علته ما يشغل البال ، وأن الطبيب رتب له كذا وكذا من الدواء ، ولا يظن أنه يحتاج الى أكثر من كذا من الوقت حتى ينقه ، وغير ذلك من الحديث ، الذي اذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال وظنه صحيحاً ، زاد في نشاطه ، ونهض من قوته المعنوية بما يفعل فعل انجوع الادوية لا سيما عند ذوى الامزجة العصبية . فهذه نكتة ، لم يتنبه الاوريون الى أن يدخلوها في جلة وظائف المستشفيات الى هذه الساعة ، مع انها في منتهى درجات الرقة والفائدة .

ومن أرق وألطف ما وجد في الاسلام من هذا المعنى وقف الزبدي ، الذي كان في دمشق ، وقد حدث عنه ابن بطوطة وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصبني الجليل القدر ، وقفها أصحابها لأجل انه اذا كان غلام كسر آنية لسيده وتعرض بذلك لغضبه ، يذهب الى هذا المكان ويضع الاناء المكسور ، ويأتى باناء صحيح بدلا عنه . فهل لحظ أرباب المبرات من الافرنج معروفاً ، بلغ هذا المبلغ من الكياسة ، ولطف الشعور ؟ ووجد في الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات .

ووقف لسقيا الماء المتلوج في الصيف لعابري السبيل ، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة .

ووقف لمستشفى المجازيم ، من جلة أراضي القرى التي كانت للرحوم أحمد باشا الشمعة في حوران .

أما أوقاف البيمارستانات فهذه لا تحصى في الاسلام .

وفي مكة المكرمة وقف ، مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة .

وقف لاعارة الحلى والزينة في الاعراس والأفراح ، بحيث ان العامة والفقراء لابل الطبقة الوسطى يرتفقون بهذا المعهد الخيري ، فيستعرون منه ما يلزمهم من الحلى لأجل التزين به في الحفلات ، ويعيدونه الى مكانه بعد انتهائهم فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، ولعروسه أن تجلى بحلية راقية مما يجبر خاطرها ، وكذلك يستغنى المتوسط في الثروة عن أن يشتري مالا طاقة له به .

وفي مكة وقف آخر تستعار منه ، أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم .
و بلغنى أنه يوجد بمصر وقف لسكنى الأياشى . ووقف آخر لكسوة أولاد الفقراء .
ووقف لاطعام الكلاب .

ويوجد بتونس الخضراء وقف مرصدر يعه لتزويج بنات الفقراء واليتيمات ،
ووقف للصبيان ، لهم يوم مخصوص هو يوم الخيس يسألونهم فيه عن جميع ماقرأوه في
الاسبوع ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم بعثاً لهمهم ، وتفريحاً لقلوبهم . ووقف للاستحمام
مجاناً ، توضع فيه صرر من الدراهم كل صرة فيها مقدار أجرة الحمام ، فيدخل المحتاج الى
الاستحمام أو ازالة الجنابة ، ويتناول احدى هذه الصرر ويذهب الى الحمام ، فيدفعها
بعينها ويستحم .

ويوجد في تونس وقف غير الوقف الأول ، لتزويج البنات الا بكار اللائى بمحل
الزواج .

وفي تونس وقف لدار المجازيم . ووقف آخر للمعائيه .
وفي تونس وقف لختان أولاد الفقراء ، يختن الولد ويعطى كسوة ودراهم . وهناك
وقف توزع منه الحلواء في رمضان مجانا .
وقيل لى ان فى تونس كما فى دمشق وقفاً لمن انكسر بيده اناء ، فيذهب ويأخذ منه
بدل الاناء الذى انكسر .

ويأتى الى تونس فى بعض أيام السنة نوع من السمك تفيض به شواطئها ، فيوجد
فى تونس وقف يشتري من ريعه جانب كبير من هذا السمك ، ويوزع على الفقراء .
ويوجد فى فاس وقف أشبه بالوقف الذى فى دمشق ، والآخر الذى فى تونس ، لمن
ينكسر بيده اناء .

وفيهما وقف لاحتياط آخر ، وهو أن من وقع عليه زيت مصباح ، أو تلوث ثوبه
بشيء آخر ، يذهب الى هذا الوقف ويأخذ منه ما يشتري به ثوباً آخر .
وهناك وقف سيدى أبى العباس السبتي للعميان والزمنى ، يأخذون كل يوم من ريعه
ما يعيشون به ذكوراً واناثاً على كثرة عددهم .
ويوجد وقف اسمه وقف سيدى على أبى غالب ، ينفق منه على ذوى العاهات .

ووقف في فاس ، ينفق منه لرفع الحجارة من الطرقات .

ووقف للمؤذنين الذين يحيون الليل بالوبة ، كل منهم يسبح الله نحو ساعة بصوته الرخيم ، ويسمى هذا المؤذن « بمؤنس الغرباء » أو « مؤنس المرضى » لأن المريض لا يقدر أن ينام ولا يوجد في كل الاحيان من يحيي الليل لأجله ، فليس له أنيس احسن من هذا المؤذن الذي يشجيه بصوته الرخيم في تسبيح البارئ تعالى في ساعات الليل الأخيرة .

وفي مدينة مراکش وقف لسقي الماء المتلوج في أيام القيظ كما في دمشق .

وفيها مؤسسة اسمها « دار الدقة » وهي ملجأ تذهب اليه النساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن فلهن ان يقمن به آكلات شاربات ، الى ان يزول ما بينهن وبين أزواجهن من النفور . وعلى دار الدقة هذه ، أوقاف عديدة دارة .

ويوجد في مراکش مكان اسمه « سيدى فرج » عليه أوقاف كثيرة دارة فائضة ، وذلك لايواء المجاذيب والمعاتيه ، ولتجهيز الموتى من الضعفاء والمساكين . ويؤخذ من ريع أوقاف سيدى فرج هذا ، لشراء ملابس توزع على الفقراء في أول الشتاء .

وروى جان وجيروم تارو الاخوان ، الكاتبان الفرنسيان في رحلتهما الى مراکش ، ان في مدينة مراکش ملجأ لا يوجد مثله في الدنيا بأسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة ، وله ساحة يكاد الطرف لا يأتى على آخرها ، وفي هذا الملجأ ستة آلاف أعمى ينامون ، ويأكلون ويشربون ، ويقراءون ، ولهم أنظمة ، وقوانين ، وهيئة ادارة ، وصندوق الخ .

فهذا مثال مما في العالم الاسلامي من المشروعات الخيرية والمآثر الانسانية ، مما لم يتفطن لاكثره العالم الأوربي بعد ان وصل الى ما وصل اليه من الغاية القصوى في العمران ، والدرجة العليا في الاحتياط لازاحة علل الانسان . وربما كان كثير من هذه الأوقاف والملاجئ قد انحط وأدرس ، أو استأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة ، وهذه الخواطر الخيرية الدقيقة قد وجدت في الاسلام أيام عزه ، ولا يزال قسم كبير منها موجودا . فافتخار المسيو بونه موري على الاسلام بوفرة الملاجئ ودور الايتام ، وكثرة معاهد الخير في النصرانية ، دون الاسلام ليس في محله . ولو اطلع على هذه المعلومات ، التي هي قليل من كثير مما في الاسلام من المبرات العامة لرجع عن كلامه .

الخلاصة

استخلص صاحب كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية من ابحاث كتابه هذا ، التي
لخصنا أكثرها تلخيصا مطابقا للأصل ، ان الأديان التي جاءت افريقية بأفضل وأسلم مبادئ
المدنية هي الأديان الثلاثة ، الموسوية ، والنصرانية ، والاسلامية . وان الوثنية التي كانت
عليها قرطاجنة والاسكندرية في الأعصر القديمة لم تفد افريقية شيئا ، كما أن الفتيشية
الحاضرة بين الزوج ، هي مصدر لافطع الأعمال واسخف العبادات .

وقد كان لليهودية دور عظيم بمصر لعهد البطالسة وفي افريقية الرومانية ، قبل مولد
السيد المسيح بقرن وبعده بقرنين . ولكنها الآن انحطت كثيرا في هذه القارة ، فليس في
شمالى افريقية أكثر من ٢٦٠ ألف نسمة من اليهود ، أقلهم انحطاطا يهود الجزائر ومصر ،
وترى جمعية الاتحاد الاسرائيلي عاملة لاعلاء سويهم بهمة عظيمة .

أما النصرانية فازدهرت كثيرا في القرن الثاني الى السابع ليلاد وعت شمالى افريقية
من مصر الى أقصى المغرب ، فلما جاء الفتح العربى الاول في القرن السابع ثم الثانى في
القرن الحادى عشر جرفا كل آثار النصرانية هناك الا ما كان للقبط بمصر والحبشة .

وأما الاسلام فبعد أن أشرقت به أنوار العلوم والصناعات بمصر وبالمغرب توقف على
مستوى واحد ، ثم شرع بالتدهور بعد سقوط الاندلس .

ثم عادت النصرانية بواسطة جمعيات التبشير المسيحى الى العمل بين الزوج
الفتيشيين ، ولكنك ترى دعائهم في سواحل زنجبار ، ونواحي البحيرات الكبرى وفي وادى ،
وحول بحيرة تشاد ، وفي البلاد الواقعة بين منحدر النيجر ومنابع السنغال ، يتصادمون مع
رجال الطرق الاسلامية ، وطلبة فاس ، والأزهر الذين يأبون النصرانية بأى وجه كان .
فمنذ بداية القرن التاسع عشر اشتدت المزاجية بين هاتين الديانتين ، وتسابقتا على السيادة
الدينية بل على السيادة الدينية السياسية ، بما لا يقل حرارة عن مساجلتهم أيام القرون
الوسطى .

فإذا ينبغي لنا أن نتمنى من جهة نتيجة هذه المصارعة بين هاتين الديانتين ؟ وأية
خطة يجب أن يتبعها مبشر والنصرانية لا كمال عملهم ؟

الجواب على السؤال الأول : لا ينبغي لنا ان نتمنى لافشل الاسلام ولا فوزه . لا ينبغي أن نتمنى فشل الاسلام لأنه مما لامشاحة فيه أن دين محمد قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التي دانت به ، وخدم بذلك الانسانية . فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز ، سادت فيها البربرية وعم شرب الخمر . ولا ينبغي لنا أن نشتهي فوزه لأنه اذا فاز ، هاج التعصب الاسلامي وعقبت ذلك حروب دموية ، وربما مذابح يهلك فيها الأوربيون . هذا فضلا عن كون الاسلام اذا رفع مستوى الزنجي فانه يقف به فيما بعد على درجة ، لا يتقدم عنها ولا يتأخر . (يشير الى الجود الحاضر) .

وعندى ان الاولى بقاء الديانتين في مراكزهما الحاضرة تسعى كل منهما سعيها مع التسامح والتفاهم . فأما في البلاد التي دخلت في الاسلام فيجب العدول عن سياسة التنصير والاكتفاء بادخال مبادئ مدنيتنا بواسطة المدارس الفرنسية العربية ، أو الانجليزية العربية والمستشفيات والملاجئ ، ومدارس تعليم البنات الخ . وكذلك يحسن بالاوربيين أن يقتدوا بالمسلمين في الامتناع عن المسكرات وفي احترامهم الفتيشي ، الذي يقلع عن عقيدته الأولى ، وعده مساويا للابيض ، وفي الالفة بين الغنى والفقير .

ولكن حيث أباح الاسلام التعذيب في القضاء ، أو تجارة الرقيق ، أو الشعوب السحرية ، فيجب على ممثلي النصرانية أن يأذنوا بذلك حكوماتهم ، حتى تبطل هذه الأمور بالقوة .

وعلى دعاة النصرانية أن يسرعوا في عملهم ، ويضاعفوا همهم ونشاطهم بحيث يسبقون دعاة الاسلام ، ويعرفوا المائة مليون زنجي الباقين على الفتيشية بانجيل المسيح ، قبل أن يسمع هؤلاء بذكر القرآن . وعليهم أن يتوخوا البساطة في التعليم المسيحي ، وينهجوا الطريق الذي نهجه حواريو المسيح في وقتهم عند ما كانوا يهدون الوثنيين . وأما الفضائل فيجب على المبشرين أنفسهم أن يكونوا هم القدوة بها ، ليمحوا سيئات غيرهم من النصارى البيض . اهـ

التبشير والمبشرون

هذه خلاصة كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية عولنا عليه ، لأنه أجمع ما رأينا في هذا الموضوع . وكان ستودارد قد نقل عنه . واطلعت على كتاب عنوانه « عصر في افريقية والاوقيانوس » لجمعية التبشير الانجيلية الباريزية مطبوع في السنة ١٩٢٣ الماضية

فوجدت فيه بعض نبذات تتعلق بالاسلام في أواسط افريقية .

فذكر ان في السنيغال خمسة أو ستة أجيال ، مجموعهم مليون ونصف مليون نسمة ، وان أحصاهم عددا جيل يقال لهم الاولوف Ouolof فقال ان هؤلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ، ولكنهم بمجيئ شبابهم أثناء الحرب الكبرى الى فرنسا ، حصلت ثورة في أفكارهم وتساهلوا في الدين . قال : ولا نقدر ان نقول ان هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الأدبية . كلا بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لا يذوقون الاشربة المتخمرة أصلا ولم تقتصر هذه الثلثة في سور التعاليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم في رمضان وترك الصلاة .

قال وحصل منذ نحو عشر سنوات أن شاباً مساماً ابن عائلة وجيهة في سور Sor ، تردد كثيراً على المدرسة الانجيلية في هذه البلدة ، الى أن التمس من المسيو أندري درانكو تعليمه الدين المسيحي ، ولحقه أهله ذلك فلم يعارضوه في أول الأمر ظناً بأنه لا يصبأ عن دينه ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن الشاب ترك صلاة المسلمين وصيام رمضان ، وأنه مرق من الاسلام ، فأرسلوه الى جهة بعيدة لم يرجع منها .

قال فاما في هذه الأيام فحوادث كهذه لا تقع لالكون الأهالي تركوا الاسلام ، بل لكون النشء الجديد تخلص من القيود العتيقة . فصار بعض الشبان يغشون محلات العبادة عند النصرارى سواء في سان لويس ، أو في دافار ، ويشتركون في الأناشيد الروحية ، مما يدل على حالة عقلية لم تكن من قبل . فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها الى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضي ، فانتا نحن منذ مدة طويلة مستولون على السنيغال ، وعند ما جاء أول مبشر الى السنيغال منذ ٦٠ سنة ، كانت مقاطعات كثيرة من السنيغال لم يقبل أهلها دين الاسلام . ولكن نقصتنا الثقة وأعوزنا الثبات ، مع أن الأرض اذا كانت خصبة تحتمت فلاحتها وزرعها ولو تأخر الوقت . نعم ان السنيغال بلاد اسلامية ، ولكن فيها طوائف لا يزالون فتيشين مثل السريريين Sereres ، الذين يبلغ عددهم ٣ الى ٤ مائة ألف ، وكذلك أهالي كازامانس الذين معظمهم وثنيون .

ففي السنيغال مليون ونصف مليون نفس كلها خلائق الله ، وكلها في حاجة الى المخلص

ولقد كانت تربيتها الى هذا اليوم اسلامية بحتة ، ولكن جرى تحول في الأفكار بهذه المدة الأخيرة ، فالساعة اذاً قد أزفت للعمل . اهـ

وكتب هذا الفصل المبشر البرت درانكورت يحرض قومه على البذل والاهتمام وبث الدعاة في السنيغال .

ثم اطلعت في هذا الكتاب نفسه عن فصل آخر ، لمبشر يقال له الميسو فور Fanre يتكلم على البعثة الانجيلية في بلاد الغابون أو الكونغو الفرنسية ، ويقول فيه ان هذه البلاد بعد ان ضمت اليها مستعمرة الكامرون الألمانية ، صارت بقدر فرنسا أربعاً أو خمس مرات ، وان سكانها أقوام مختلفة من سود افريقية منهم مساهمون وأكثريهم فتيشيون . ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله :

ان الأور بيين ، قد جنوا على السلالة السوداء جنایات كثيرة لا مندوحة لهم من التكفير عنها . فاذا كانت أمم المبونغوى ، Mpongwé والغالوه ، GaIoa والنكومى ، Nakomi وغيرها وقد انقرض كثرتها فاذك الا لسكون النحاسين البيض كانوا يصطادون أبناء هذه الأقوام ، ويستعبدونهم ويبيعونهم ، ولكون أكثر أرباح التجار البيض ، هى من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، وبالأخر فلنقل الحقيقة وهى ان الزنا مع ما يجره من الأمراض التى كادت تفتى هؤلاء الزنوج ، انما فشا فيهم بواسطة الأور بيين . ولكم من جرم جره الأور بيون بين هؤلاء السود البؤساء ، ومما لا تقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصري ان هو الا استغلال المستعمرات وأهلها ، بأى وجه كان . فمسئولية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ولا سبيل لانكارها ^(١) فمن الواجب اذاً علينا . نحن البروتستانت أن نعوض الضرر الذى ألحقه أبناء جنسنا بأهل افريقية ، وان نحمل كلمة الحياة والنور والقوة ، الى حيث الانحطاط والظلمات ولنتذكر ان مئات ألوف من هؤلاء الأهالى لبوا نداء بلادنا فى الحرب الكبرى ، وقتلوا فى سبيلنا ، فان ثلث هؤلاء الذين سقناهم الى الحرب لم يعودوا الى أوطانهم ، لأن منهم من قتل ومنهم من مات بالأمراض الخ .

ومما يستجلب النظر فى هذا الكتاب فصل لمبشر اسمه فريدريك فرنيه Frédéric Vernier عن التبشير الانجيلي فى ماداغسكار أشار فيه الى نجاح الدعوة فى تلك

(١) فليتأمل القارىء فى شهادة هذا المبشر الانجيلي على قومه

الجزيرة الكبرى ، ولكنه لم يخل كلامه من شكوى مرة من أعمال الجزويت ، الذين لبثوا مدة طويلة مستخدمين قوة الحكومة الفرنسية لاعتات البروتستانت ، ولم يتمكن هؤلاء من رفع الظلم والانتقام عنهم الا ببذل أموال جزيلة ودماء زكية . وكذلك شكوا من حملة الملاحدة من الأوربيين الذين كانوا يناوئون الدعوة الدينية من أصلها ، ثم من فساد الأخلاق وفتور العزائم المستوليين على سكان ماداغسكار ، وبما يجعل وصاية البعثات الانجيلية على الكنائس الوطنية حتماً .

ثم ذكر ان نسبة المسيحيين الى الوثنيين في مقاطعات إيمرينيه Imérina ، وبيتسلينو Betsiléو ، وتاماتاف Tamatave ، وبلاد السكالاف Sakalaves هي نسبة اثنين الى ثلاثة . وشكا من كون الوثنية في المدة الأخيرة أخذت تتقدم الى الامام ، وان مبشرا انجيلياً فاجأ ٦٠٠ وثني مجتمعين لعبادتهم . قال : « وان جميع الأهالي في ماداغسكار يعتقدون بالله واحد يسمونه « اندريامانيترا » أو « ادرياماتاهاري » أى أبدى وخالق . وكما يستدل عليه من أمثالهم وعباراتهم ، لا تخلو ديانتهم من مبادئ أدبية سامية . مثلاً يقولون : اندريا ميتراتسى تياراتسى . ومعناها : الله لا يحب الشر . ويقولون عبارات معناها : انه يوجد عدل لابد أن ينتصر يوماً . والله لا ينخدع . والله لا يخطئ ولكن الناس هم الذين في الضلال وغير ذلك . ومع هذا فهذه العقيدة بقيت عاجزة عن اعطاء الماداغسكاريين ديانة قيمة قادرة على تركية النفوس . فانهم يوجهون صلاتهم الى جاجم الموتى ، ويظنون ان أرواح الأهالي الأصليين الذين طردتهم أمة الهوفا Hovas من ديارهم ، عادت فاتخذت مساكن في بعض الحجارة والينابيع ، فلهذا يقدمون لها القرابين لتسكين غضبها . وهم يعتقدون بالسحر والسحرة ، وبالتعاويذ والرقى ، والطلسمات ، وبالاجال فدينهم دين الخوف ، ولا يعرفون شيئاً عن الاله الكريم العفو الغفار قابل التوب . الى آخر ما قال .

ثم ان في هذا الكتاب فصلاً مهماً عن الكامرون نلخص منه بعض معلومات مفيدة وهو من قلم المبشر المسيو الليغره Allegret . قال :

الكامرون

ان الكامرون قطر واقع في داخل خليج غينية ، مساحتها أربع مائة وتسعون ألف كيلو متر مربع أى بقدر مساحة فرنسا ، وهو من بحيرة تشاد الى الاقيانوس من الشرق الى الغرب ، ومن النيجر الى الغابون من الشمال الى الجنوب . وأما أهالى الكامرون فعددهم أربعة ملايين أى ضعف أهالى ماداغسكر ، هذا عدا القبائل العاصية المعتصمة بالجبال والمظنون أن نحو ثلثي الأهالى لا يزالون وثنيين . ويسكن فى الآجام الجنوبية جيل متوحش اسمهم البيغمه Pygmé ، والباقيون من الأهالى ثلاثة أقسام :

الأول الباتو ، فى السواحل والوسط والجنوب وكلهم فتيشيون ، وهم فرق الدواله ، والباسة والثورى والبولو الخ . وبين هؤلاء تأسست مرا كز التبشير بالانجيل .

الثانى السودانيون الباقى أكثرهم على الفتيشية ، وأصلهم مهاجرون من الشرق وهم سكان شمالى الكامرون ، ولهم امارات وحكومات وطيدة .

الثالث المسلمون وهم الحاوسة ، والفولبة ، والعرب الذين فى سواحل بحيرة تشاد ، فأما الحاوسة ، فان بأيديهم جميع التجارة من شمالى الكامرون الى جنوبىها وهم يهود هاتيك البلاد وتراهم فى كل مكان لا تخلو منهم بقعة ، وفى كل قرية من قرى الجنوب حارة للحاوسة . كما أنه على أبواب المدن الكبيرة توجد قرى للحاوسة والأهالى لا يحبون الحاوسة ولكنهم محتاجون الى البضائع التى يأتون بها ، ويظهر أن هذه النفرة منهم ستزول شيئاً فشيئاً وسينتهى الأمر بسيادة الهلال (أى الاسلام) على كل محل ان لم يبادر المسيحيون باتقاء الخطر . وفى الحالة الحاضرة لا تجدهم مفرطين فى التعصب ، فلا يزال عبد البشرين المسيحيين الوقت الكافى لمسابقة دعايتهم .

ولقد كان احتلال أمة الفولبة لبلاد الآداموا ، منذ عهد غير بعيد . جاءوا من بلاد السنيغال والنيجر ، وبورنو واتجمعوها ، وكان أصل اتجاعهم لها رتياد المراعى لمواشيهم ، ولبشوا حقبة يؤدون اتاوة للملوك الوثنيين ، كما أنه لا يزال طائفة منهم اسمهم البورورو Bororos ، بقرب مدينة فومبان يؤدونها الى اليوم . ولكن لما تكاثرت الفولبة اعصوبوا حول زعيم لهم يقال له آدما وهو الذى انتسبت الى اسمه بلاد الآداموا فاستولى على

المملكة ، وصار الوثنيون هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين وصار هؤلاء يأخذونهم أرقاء ، وانهزم جم من الوثنيين الى الجبال حرصاً على استقلالهم . ومع هذا فقد بقي طوائف من المسلمين تحت سيادة الوثنيين . ويوجد أقوام مثل التيكار واليامون والفوت ، يتكون منهم مناطق حائلة بين المسلمين والفتيشيين .

ثم قال وان الكامرون هي أرض مختارة للتبشير ولها مستقبل عظيم ، كأن تتمكن من تنصير الوثنيين الذين فيها وتقف حاجزاً بينهم وبين الدعوة الاسلامية ، وأخيراً ننشر النصرانية بين المسلمين أنفسهم . انتهى كلامه بحرفه

ثم في محل آخر تكلم هذا المبشر عن آفات الدعوة الدينية من تراحم الأوربيين على التجارة والربح المالى . وزعم أن الألمان اغتصبوا الأهالى أراضيهم ، وانهم فى أغسطس سنة ١٩١٤ شنقوا ملك دواله ، بحجة أنه تمرد على السلطة الألمانية . ثم انتقل الى ذكر الحرب العامة فقال انها جاءت كصرصر عاتية لم تبق ولم تذر ، فخيل للناس أن عمل المبشرين حبط تماماً بزوال الحكومة الألمانية من الكامرون . إذ أنه لما سيق المبشرون الى الساحل أسارى هجمت العساكر السوداء من الفريقيين ، وثار الأهالى وخرّبوا المؤسسات والمراكز التى كانت للتبشير . وأناس كثيرون هجروا القرى ولادوا بالجبال فراراً من العساكر وان ١٥ ألفاً من الألمان وأعوانهم قبض عليهم وسيقوا الى دواله حيث كان منهم الى سنة ١٩٢٠ يعملون فى الأرض . فلا حاجة الى ذكر ما حل بالضامر ونزل بالعقائد من جراء هذه الحوادث ، فقد مات التبشير ودرست معالمة ، وحصل رد فعل استؤنفت به قوة الوثنية ، ورفعت رؤوسها دعاة الكنيسة النصرانية الأهلية ، وصاروا ينادون علناً : لا نريد أن نكون تحت سيطرة البيض ولا أن نكون مسيحيين ، اذ هذه أفعال البيض قد ظهرت للعيان ، فلنعد الى عقائد آبائنا . وهكذا عادت الوثنية الى سطوتها الأولى . وانفرد بعض تلاميذ البعثات الأوربية بمذاهب مزجوا بها بين العقائد المسيحية والفتيشية . وعاد كثيرون من الزوج الى تعدد الزوجات ، واغتنتم هذه الفرصة الكنيسة الافريقية التى قاعدتها « افريقية للافريقيين » وأخذت تنفر الأهالى من المبشرين الأوربيين ، وأباحت لأتباعها تعدد الزوجات . فان هذه الكنيسة الأهلية لم تكن فى الحقيقة ثمرة نهضة روحية ، بل هي نتيجة دخول روح الوثنية فى النصرانية . فانقسمت الكنائس الى ثلاث كل منها تقاتل

الأخرى . و انتهز دعاة الكاثوليك هذه الغرة ليقولوا للزنج البروتستانتين : « أما وقد صرتم من تبعة فرنسا الآن فلا تستطيعون أن تكونوا بروتستانتاً . »

و بينما الوثنية تهاجم النصرانية من هذه الجهة اذ هاجها الاسلام من الجهة الأخرى فان سلطان بامون الذي كان من قبل دعا المبشرين من نفسه ولى وجهه شطر الاسلام وبنى جامعاً ودعا جميع تبعته أن يتخذوا الاسلام ديناً .

ثم ذكر هذا المبشر كيف أن الحكومة الفرنسية أرسلت بعثة لاصلاح هذه الحال ، وما عانوه من الصعاب حتى أعادوا الشئ كما كان أو قريباً مما كان ، وكيف وحدوا بين الكنائس وأقاموا جبهة واحدة بازاء الاسلام من جانب ، والوثنية من جانب آخر . ثم ختم فصله بقوله :

أما موضوع الاسلام فهو من الطول بحيث لا أقدر أن أفتحه ، فقد سبق لنا أن بيّنا كيف أن نجويا Njoya سلطان البامون ولى وجهه شطر الاسلام ، ولكن اسلامه كان ممزوجاً بعقائد وثنية وأخرى مسيحية . وقد صنف كتاباً يعلن فيه مذهبه وسماه « طريق الحياة » وفي الحقيقة أنه فتيشى ، لم يسلم الا ليكون القائد المطلق لشعبه . ولولم تكن البعثة الانجيلية قد دخلت في البلاد ، لربما كان الاسلام قد عمها . وقد خالطت بنفسى أمة البله الذين في بامون فوجدتهم مسامين غير متعصبين وهم على جانب من الوداعة ، فظهر لي أنه يمكننا أن نبذر زرع الانجيل بين هذه الامم التي تغلغل فيها الاسلام ، وان نقف تقدمه بل نهاجه رأساً في أماكنه فيلزم أن نعيد الى الكنائس الاهلية الصبغة التبشيرية ، ونجعلها دائماً تحت سيطرة رسالات الدعاية ولا تنفك عن الدعوة ، ونذكر كنائس سواحل الكامرون بان الاسلام الذي أخنى على جميع كنائس شمالى افريقية ، يمكنه أن يخنى عليها هي ان لم تتدارك هذا الخطر عاجلاً . انتهى

وقد اطلعت على كتاب عن المستعمرات الالمانية للاستاذ رورباخ Rohrbach الالمانى ذكر فيه بلاد الآداموا من شمالى الكامرون فقال : « ان هذه البلاد هي مركبة من القسم الذى كان يخص المانية من قبل ، وأضيف اليه القسم الذى تخلت عنه فرنسا لالمانية بموجب اتفاق ١٩١١ . فالآداموا من الجنوب متصل بالقسم الاعلى من الكامرون ، وتشتمل على أعلى بلاد فنو مع النواحي التي بين فنو وارضى لوغونه ، التي هي حدود

الامان من جهة الاملاك الفرنسية المتاخمة لبحيرة تشاد . قال ، وفي هذه الجهات أقوام وطنيون كثيرون لهم سلاطين من أنفسهم ، ويقال للسلطان عندهم لاميدوس Lamidos ، والاهالى منذ عهد طويل هنا هم تحت نفوذ التعليم العربى ، واكثرهم مسلمون . وتوجد مدن مهمة مثل غاروه Garua ، وماروه Marrua ، الى الشمال من فنو . وأعظم امارات بلاد الفلاحين أى المسامين هي ريبوبه Riebnba ، ثم من الآداموا المقتطعة من الاملاك الفرنسية بموجب اتفاق سنة ١٩١١ مدينة ليرة Lere ، وبندر Binder ، وعلى الحدود الالمانية من جهة لونغونه مدينة كوسرى Kusseri ، وفي الشمال على بحيرة تشاد بلدة المونغو Mongo . قال : والاهالى فى الآداموا حسنو القيام على الزراعة ، وعندهم مواسم حبوب عظيمة ، ويستخرجون زيت الزيتون والسمسم والقطن بكثرة ، وعندهم صناعة النسيج مترقية ، وهم يتفنون بها ويكتسبون منها ، ولا شك أن للآداموا مستقبلاً عظيماً من جهة زراعة القطن .

ثم ذكر بلاد الطوغو من مستعمرات المانية فى خط الاستواء ، وقال ان الاسلام فيها هو فى تقدم مستمر ، ونشر صورة مسجد اسلامى فى مدينة سانزانه مانغو Sansane Mango فى شمالى الطوغو .

وقد ورد فى كتاب يسمى « المملكة الاستعمارية الألمانية » كلام طويل ، على مسامى الكامرون وأواسط افريقية نلخص منه ما يأتى :

« انه فى القرون الوسطى ، كانوا فى شمالى افريقية يعتقدون بوجود شعوب زنجية سمراء فى بلاد التوارق العليا والتيبستى من جهة وادى دراعة وقزان ، ويظن الرحالة الألمانى ناختيغال Nachtigal ، ان هؤلاء هم الذين يقال لهم كارامانت Karamant ، وكان قد ذكرهم هيرودوتس المؤرخ . ولما فتح العرب شمالى افريقية جاء قسم من البربر وأجلوا الغويير Gobir الذين هم من أطراف أمة الحاوسة الحاضرين الى السودان فامتدوا هناك وأسسوا الامارات السبع التى يروون انها كانت للحاوسة ، فأما الامارات الخارجة عنها فيظن انها ممالك الأمم التى غلب الحاوسة عليها ويرجح كون مملكة كاتم أقدم من ممالك الحاوسة وفى القرن الثانى عشر للمسيح ، جاء الاسلام ودخل بقوة عظيمة ، وانتشر فى جنوبى بحيرة تشاد وفى غربىها ، وبعد حروب شديدة مع أمة تسمى الايزو Eso ، انتهى الأمر بتغلب

الإسلام . وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر ، استولى البولالا Bulala ، الذين هم من أصل عربي سوداني مختلط على السكان . وتراهم اليوم يسكنون في الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، وقد تمكنوا من بورتو إلى الغرب من البحيرة ، وباختلاط هؤلاء مع الايزو المار ذكرهم تولد الجيل المسمى بالكانوري Kanuri ، ثم عظمى سلطنة بورتو في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر إلى أن سقطت حديثاً^(١) . وقد حقق المؤرخ دسبلاغنس Desplages انه في سنة ١٢٠٠ ، جاء شعب من أصل بربري ، وأجلب بخيله على غربي السودان ، وكان اسمه السوسو ، وكان شعارهم على أسلحتهم الافعى . ويظن انهم أنفُس الهيكسوس خرجوا من وادي النيل إلى شرقي السودان فهؤلاء السوسو يحتمل أن يكونوا هم أنفُس الايزو الذين في مدة أربع سنوات قتلوا أربعة من ملوك بورتو . والرحالتان بارت وناختيغال يظنان وقوع هذا الحادث في القرن الرابع عشر . وعلى كل حال فإن عدداً من القبائل العربية جاءوا من شرقي السودان ، وانتجعوا البلاد الواقعة جنوبي بحيرة تشاد ، واستقروا في دارفور ووادي واختلطوا بأهلها ، وهم أصحاب البلاد لهذا العهد . ثم جاء شعب آخر من الغرب من بلاد السنيغال ، وهو الشعب الذي يقال له الفولبة واشتهر باسم الفلانة ، فهؤلاء أسسوا بلاد الكامرون ، ويظن بارت أن أصلهم من جنوبي مرا كشي ، ويقول دسبلاغنس انهم بدو من القبائل الرحل في الصحراء فخذ عدة قرون جاء هؤلاء من السنيغال وأوطنوا بلاد تشاري رعاة لمواشيهم .

وسنة ١٨٠٦ حصل انقلاب في مملكة سوكوتو ، أساسه حركة زعيم ديني اسمه الشيخ عثمان يوديو ، وظهر من الفولبة هؤلاء تعصب شديد في الإسلام ، وتأسست حكومة أمراء ممتدة من النيجر إلى البلاد العالية ، إلى جنوبي بلاد الاداموا . وصارت سوكوتو هي العاصمة وصارت تحت حكم سوكوتو عدة ممالك ، من جلتها الاداموا التي كانت عاصمتها يولا Jola وكان من توابعها مدينتا تيباتي Tibati وناغاومدره Nagaumdere ، وخضع لمملكة الإسلام جانب من الوثنيين . وجرت حروب كثيرة بين أمة الفولبة ومملكة بورتو ، حضر بعض وقائعها الرحالة الانجليزي دنهام Denham ، وثبت أهالي مدينتي لره Lere ، ولامه Lama ، الوثنيون أمام الفولبة ، ولكن الفولبة استولوا على ناغا ومدره ، وبانقو ، والانحاء

(١) على أيدي المستعمرين الأوروبيين

الجنوبية .

ولما سقطت الحكومة المصرية مدة في السودان الشرق ظهر الأسود المسمى راج ، وفتح دارفور ، ودار بنده ، ودار يونقه ، ومملكة الباقرمي وبورنو وبلاد بحيرة تشاد ، وأسس سلطنة عظيمة . (وسيأتي خبر راج) .

وجاء في كتاب « المملكة الاستعمارية الألمانية » بمناسبة ذكر الكاهرون ، انه يوجد الآن في جنوبي بحيرة تشاد ، مائة ألف عربي يقال لهم شوا Schua ، جاءوا من أوائل أعصر الاسلام وقد حافظوا على لغتهم طاهرة نقية الى يومنا هذا ، حال كون قبائل عربية أخرى ، جاءت الى الاداموا واندجت في الأهالي ، ففقدت لغتها . على انه ممالا ينكر ، ان اللغة العربية تمثل دوراً مهماً في جميع العالم السوداني الاسلامي ، لكونها لغة مكتوبة ، وهي لغة القرآن .

السودان

ننقل عن الميسو موريس فال Maurice Wahl معلم التاريخ والجغرافية في مدرسة كوندورسه Condorcet ومفتش المعارف في المستعمرات الفرنسية تحت عنوان كلمة « سودان » الفصل الآتي ملخصاً :

« بلاد من افريقية تمتد من الصحراء شمالا الى خط الاستواء جنوبا ، (البحيرات الكبرى والكونغو) ومن الاوقيانوس الاطلانتيكي غربا الى الحبشة والبحر الأحمر شرقا ، وهو السودان المطلق في الغرب والوسط ، والسودان المصري في الشرق . فالسودان المطلق اذا دخل فيه ساحل الاطلانتيك مثل السنيجاميه وغينية العليا ، فساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع واكثره يفعا من الأرض قليل الارتفاع من ٥٠٠ الى ٦٠٠ متر ، فيه بعض سلاسل من الجبال مثل سلسلة فوتجالون في الغرب تعلو من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ، وسلسلة نياوري في الجنوب الغربي علوها ١٨٠٠ متر ، وسلاسل جبال الاداموا وسوكوتو في الوسط وهي تعلو ٢١٠٠ متر ، وجبال دارفور في الشرق ارتفاعها ١٨٣٠ متراً . وتهطل الأمطار في هذه البلاد من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ، وهي تنقص كلما أخذت شمالا ، وهذه الأمطار تملأ الأنهار المسماة بالسنيجال والغامبية والكازامانس وريوغراند ومالا كوري ، في الجانب الغربي ، وكافالي أو بانداميه وكوموي وفولتا وويجي ، في الجنوب . وأهم الجميع

النيجر، وهناك الشاري والدومادوغو في نواحي بحيرة تشاد. وأما الساحل الاطلانتيكي فهو شواطئ رملية من الرأس الابيض الى الرأس الاخضر، وجبال منقطعة مشرفة على البحر من الرأس الأخضر الى جزيرة شربر والمراسي الجيدة فيه قليلة، والمناخ وبي. وهواء السودان حار مع يبوسة صوب الشمال، ومع رطوبة نحو الجنوب، والحراج الكبار لا توجد الا في الجنوب الغربي. وأهم المحاصيل الذرة، والارز، والقطن، والنبغ، وهناك من الحيوانات الخيل والبقر والمعزى والغنم والجواميس، ومن المعادن الرصاص والنحاس والذهب والفضة، ويمكن تقسيم السودان الى أربع مناطق، الاولى في الشمال الغربي وهي السنغال والبلاد الواقعة شمالي النيجر، وأرضها ليست خصبة. والثانية، بلاد النيجر وجبال كونغ وفوتاجالون، وهي ذات أرضين مروية وهواء مقبول. والثالثة، بلاد الغابات المتاخمة خط الاستواء وسواحل غينية. والرابعة، البلاد التي في الوسط سوكونتو والآدامو وغيرها وهي خصبة معمورة.

أما الاهالي فانهم من ١٥ الى ٢٠ مليوناً، منهم سود يقال لهم الاولوف Oulofs والسيرير Sèrères والبامبارة Bambara والماندينغ Mandinges والكرو Krou والفانتى Fanti والاشانتى Achantis والداهومي الخ في الغرب والجنوب. ومنهم الحاوسه والسونغاي والكانوري في الوسط. ومنهم البهل Peuhls والتوكولور Toucouleurs والبربر والتوارق والغرب في الوسط والشمال. والاكثرية الساحقة في هذه البلدان كلها للإسلام، والديانة الاسلامية تكسب دائماً من أمم الفتيش. وأكثر السودان أصبح الآن مستعمرات للاوربيين، فالسنغال وغينية الفرنسية والسودان الفرنسي وساحل العاج والداهومي لفرنسا. والغامبية وسيراليون وساحل الذهب ولاغوس وأراضى شركة النيجر لانكلتر. وبين السنغال وغينية الفرنسية غينية البرتغالية للبرتغال. وللمانية بلاد توغو على ساحل غينية. وأما الممالك الاهلية المستقلة بعض الاستقلال، فهي جمهورية ليبيريا^(١) على الساحل الجنوبي الغربي، ومملكة كونغ، وأملاك ساموى على النيجر ومملكة سوكونتو بين البنيوى والنيجر والآدامو جنوبي النيجر، وبورنو الى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد، والكافم في الشمال الشرقي، والباقيرى في الجنوب الشرقي ممتدا الى الشرق

(١) هذه مستقلة تماماً

بواسطة وادى .

وأما السودان الشرقى فهو الواقع شرقى البلاد التى ذكرناها ، يشتمل على جميع وادى النيل من غوندوكورو الى وادى حلفا ماخلا الحبشة ، متوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٥٠٠ متر ، والنيل يخترقه من الجنوب الى الشمال ، منضمه اليه من الشمال انهر بحر الغزال ، ومن الجنوب السوبات وأنهر الحبشة وبحر الازرق والعطبرة . والأهالى نحو عشرة ملايين نسمة وهم سود فى ناحية الجنوب يقال لهم دينكا وبونغوس ونوير وشيلوق ، وعرب وبهل فى دارفور ، وأما فى بلاد النوبة فأجناس مختلطة ، برايرة وبجة ويشارى متمزجون بالعرب . ويقال للناحية الجنوبية الشرقية من السودان المصرى بلاد سنار ، وللبلاد التى شمالى النيل الكردوفان ولتى الى الغرب منه دارفور ، ولتى فى الشمال بلاد النوبة » . اهـ

سوكوتو

وقال الجغرافى المذكور عن مملكة سوكوتو :

« مملكة فى السودان بين النيجر الأدنى والبنوى ، مستوية فى الشمال ، مخرسة فى الجنوب ، يروىها نهر سوكوتو وكومادوقو الصادران من بحيرة تشاد ، هواؤها ناشف فى الشمال كثير الرطوبة فى الجنوب ، زراعتها الارز والقطن وقصب السكر والتمر ، مساحتها ٤٠٠ ألف كيلو متر ، وعدد الاهالى ١٠ ملايين سود ، من الخاوسه والبهل والتوكولور والسونغاي ، كلهم مسلمون ، الا القليل . أعظم مدنها كانو واورنو وسوكوتو وكفى ابديسانغه Keffi - Abdes - senga وياقوباوغومى . وقد كانت تأسست سلطنة سوكوتو على يد عثمان دانغ فوديه سنة ١٨٠٢ ، ومدت رواقها على جميع الاقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ، فانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو والاداموا وغاندونونى ، ولكنها لاتزال تعترف بسيادة سلطان سوكوتو الدينية » .

بورنو

ثم قال عن مملكة بورنو مايتى :

« مملكة فى السودان الى الجنوب والغرب من بحيرة تشاد ، بين هذه البحيرة

والصحراء وسوكوتو والآداموا والباقيرى ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها خمسة ملايين من جنس الكانورى الذين هم متولدون من اختلاط السود والبربر والعرب . والبلاد خصيبة تجود فيها زراعة القطن ، وفيها الغنم والبقر والخيول والنحل بكثرة ، وأهلها ينسجون الثياب والسجادات ، وعاصمتها كوكا .

الباقيرى

وقال عن مملكة الباقيرى ما يأتى :

« مملكة من السودان الأوسط الى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد ، يسبقها نهر شارى ، واقعة اليوم ضمن منطقة النفوذ الفرنسى ، وأهلها مليون نسمة ، وعاصمتها ماسينيه Massenya ، ويقع السلطان ببلدة بوقومان على الضفة اليسرى من الشارى » .

السنغال

وذكر عن بلاد السنغال : « انها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وان أهلها مليون وثلاثمائة ألف ، من الأولوف والسيرير والبابار والمالينكة الخ . وقال ان الفرنسيين دخلوا الى السنغال فى القرن السادس عشر ، ولكنهم لبثوا أحقاباً لا يملكون غير سان لويس وآرغين وغورى ، ثم أخذوا يوسعون فتوحاتهم شيئاً فشيئاً ، ولم تصر السنغال مستعمرة حقيقية الا سنة ١٨٧٨ ومن السنغال تبسط الفرنسيين فى أواسط افريقية » .

واداى

وقال عند ذكر واداى :

« بلاد فى السودان الأوسط بين دافور من الشرق ، والبرقوات من الشمال ، والكانم والباقيرى من الغرب ، والكونغو الفرنساوى من الجنوب ، مساحتها ٤٥٠ ألف كيلو متر مربع ، وأهلها مليونان ونصف مليون سودانيون مختلطون بعرب ، كلهم مسلمون والطريقة السنوسية سائدة هناك ، وأرض واداى خصبة فى الوسط والجانب الشرقى منها » .

كانم

وذكر عن كانم « أنها الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ، وان أهلها عرب وتيبو ،

وعددهم مائة ألف وهي اليوم تابعة واداي . اه .

وللفاضل الأديب الشيخ محمد بن عمر التونسي ، رحلة الى دارفور وواداي مترجمة الى اللغة الفرنسية بقلم الدكتور برون Perron مدير المدرسة الطبية في مصر أيام محمد علي وأحد أعضاء الجمعية الآسيوية ، وقد تضمنت هذه الرحلة فوائد عظيمة عن تاريخ دارفور وواداي والباقي من وما جاورها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وحروبها الداخلية ، نأثر منها نبذة عما يتعلق بسكان واداي ، الذين بينهم قبائل كثيرة من العرب ، وقد اضطررنا لنقل ذلك من الترجمة الفرنسية لعدم وصول يدنا الى الأصل العربي ، قال في الصفحة ٢٤٥ : « ان سكان دارصليح (اسم وادي) هم المصاليات والميمة والداجو والكاشمرة والقرعان والكوكا والجنادرة والبيرقيد . وكل من هذه الشعوب يسكن في ناحية ، فالمصاليات يسكنون في دار الصباح أي بلاد الشرق وهم انساب لمصاليات دارفور ، وعددهم كثير سواء في دارفور أو في واداي ، وهم مرايع القامات شديدي السمرة ، وأكثر بلادهم سهول . وأما أهل واداي الأصليون فيسكنون في وسط البلاد ، ومنهم ينتخب وزراء السلطان وأجناده ، وبلادهم جبلية وأعظمها جبل أبوسنون ، وهم يزعمون أنهم أصل أهل واداي وان سائر أقوام واداي متشعبة منهم ، وهم طوال القامات أشداء كالعالمقة . وأما الكاشمرة ، فيسكنون على مسافة أربعة أيام من « واره » عاصمة واداي ، في واد لطيف تجري فيه المياه وتسقى أراضيهم ، وهم كثيرون العدد ، وقراهم معمورة جداً ، واذا قرع طبل الحرب خرج من أصغر قراهم ٥٠٠ رجل شاكي السلاح ، وهم اذا اجتمعوا يشكلون وحدثهم جيشاً عظيماً مع أنهم أطوع من غيرهم للسلطان ، وعندهم وداعة بدون ضعة ، ولونهم بين الأبيض والاسود ، ولغتهم تختلف عن سائر لغات أهل واداي . وأما الكوكا فانهم كثيرون العدد ، ونساؤهم موصوفة بالجمال يضاهين أجمل النساء الحبشيات ، وهم طوال رشيقو القدود أقوياء ، مفتولو السواعد ، وقراهم معمورة وأراضيهم مروية ، والساطين تزوج منهم لجمال نسائهم .

« وأما القرعان فانهم في شمالي واداي ، ونساؤهم أيضاً موصوفات بالجمال ، وعندهم كثير

من المواشي^(١).

«وأما الجادوفانهم في جنوبي دار صليح جيران للكوكا، ولكنهم غلاظ الطباع قريبون للتوحش . ويجاورهم الميمة وهؤلاء في الجنوب . والجنا كرة هم عبيد السلطان ، وعددهم وافر ، ومساكنهم الى الجنوب الشرقى من وادى . والبيرقيد هم شرار أهل وادى ليس عندهم عهد ولا صدق ، يقطعون الطرق وينهبون السابلة ، قصار القامات ، وهم سقاط في نظر أهل وادى . وحول وادى تسكن قبائل عربية صريحة ، فن الشرق ، الزبيدية ، وعرب البحر والعريقات ، ثلاث قبائل غنية قوية . وقد حقق لى الفقيه موسى زعيم الزبيدية أخو بدر الدين الامام الذى يصلى بالسلطان صابون صاحب وادى أن الزبيدية هم من زبيد في اليمن ، أصلهم من حبر . أما العريقات فقال لى الفقيه محمد أحدهم وهو ترجان السلطان ان أصلهم من العراق ، من سلالة لخم وجندام ، وأما عرب البحر فانهم كثيرون ، العدد ، ينقسمون الى عدة بطون ويلى أمرهم زعيم واحد . والى الشمال من وادى المحاميد ، وهم بطون وأغاذ عديدة ، وعندهم أموال لا تحصى من الابل والخيول وغيرها ، وفي الجنوب يوجد عرب المسيرة والفلاّن وهم كثيرون جداً » . انتهى بتصرف .

وجاء ذكر العرب في محل آخر من هذه الرحلة فيقول في صفحة ٢١ : « ان قبائل الكوكا والكودكو والبيقو والداجو والماوييه والبيرقيد والحيمات والبنده والفيرقى في الجنوب والغرب والبرقى والميمة والغيمير والمسمجة والمادافو والبلاله والهلالات في الشمال ، والمصاليث في الشمال ، وغيرهم ، كل قبيلة منها لها ملك والقبائل العربية التى كلها تسكن أرض وادى أو بعضها مثل السلامة والجعانة وبنى راشد ، عليهم أيضا مشايخ ، وكلهم تحت نظر ولاية السلطان ، كل زعيم أو ملك تابع لوكيل السلطان الذى يليه » . اهـ .

وكننت سمعت أن سلاطين وادى ينتسبون الى بنى العباس ، وأخبرنى سيدى أحمد الشريف السنوسى أن هذا هو المشهور عند أهل السودان ، وأن أهل وادى لا يدعون على منابرهم الا لسلطانهم ولا يعرفون خليفة ولا اماماً غيره . فلما كنت أطلع رحلة الشيخ محمد بن عمر التونسي وجدته يشير الى انساب سلاطين دارفور وكردوفان ووادى ، فقال ما يأتى ملخصاً :

(١) ذكر لى الاستاذ السنوسى الكبير سيدى أحمد الشريف أن بلاد القرعان هؤلاء تمتد الى أطراف الصحراء والى الواح التى هى بلاد السنوسية جنوبي الكفرة .

« عند ما جئت الى واداي وكنت أصلى الجمعة كنت أسمع الخطيب يدعو دائماً بنصر السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جوده ابن السلطان صليح ، فخطر لي أن أسأل شيوخ البلاد عن نسب السلطان صليح ومحتده ، فكانت الأجوبة مختلفة ، فبعضهم قال لي انه سناوى أى من أهل واداي الأصليين سكان جبل أبوسنون . ثم لحظت ان ختم السلطان مكتوبة عليه هذه الكلمات « السلطان محمد عبد الكريم ابن السلطان صالح العباسى » فسألت عن كيفية اتصال نسبه بنى العباس ، فبعضهم ذهب الى أنها نسبة غير حقيقية ، وآخرون وثقوا هذه النسبة ، فسألت العقيد أجد من أكابر رجال الدولة وكان متوقد الذهن واسع المعرفة ، فقال انه عند استيلاء التتار على بغداد انهزم العباسيون الى مصر ، ولما غلبت دولة المماليك على مصر تفرقوا أيضاً فى الأصراف ، فذهب منهم واحد الى الحجاز وولد له ولد سماه صالحاً ، فلما كبر صالح صادف فى مكة حجاجاً من سنار ، وكان فقيهاً عالماً حكيماً ورعاً ، مواظباً على الفروض الدينية ، يحبه العلماء والصلحاء ، فأحبه السناريون ورغبوه فى زيارة بلدهم ، فجاء الى سنار ، فرأى فيها من الفسق والفجور ما اشمأزت منه نفسه فلم يطل المقام عندهم ، وما زال يضرب فى البلاد حتى وصل الى جبل أبوسنون فى واداي . وكان أهل هذا الجبل وثنيين ، فأساموا على يده لما رأوا من دينه وصلاحه وارشاده ، وأقاموه رئيساً عليهم وكانوا فى كثرة عظيمة ففرض الزكاة على الأغنياء لاعانة الفقراء . ثم دعا الى الجهاد فى المشركين ، فأطاعه الذين شرح الله صدورهم للإسلام وغزوا الكفار . الا أن صالحاً قدم بين يدي السيف الدعوة باللطف ، فأجابه الى الاسلام أربع قبائل كبيرة ، قبيلة أبوسنون ثم الملائقة والماداب والماداله ، وهم أصل مملكة واداي . ولا يمكن أن يكون سلطان الا اذا كانت أمه من إحدى هذه القبائل . ثم يليهم قبيلة أبو داراغ ، ولا تساوى أولئك فى الشرف لأن اسلامها وقع متوخراً . ثم شرع صالح فى الجهاد وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فلما اتسع نطاق الاسلام فى تلك البلاد ، بويع صالح سلطاناً وصار الملك فى أعقابهِ

قال : « وسمعت من جهة أخرى من الشريف سميح ، ان ملوك واداي ودارفور وكردوفان ، كانوا ثلاثة اخوة من فزارة . وذكر تفاصيل هذه الرواية ولكنه قال ، انه لا يوجد دليل من خط أو من تاريخ مدتوب على شئ من هذه الروايات ، وكلها

مسموعات وأخبار شفوية غير موثوقة ، ولكن قال ان الذى اشتهر من سجايا السلطان صليح أشبه بمناقب الرشيد والمأمون ، فى العقل والحزم والكرم وشدة البأس . وعلى كل حال فسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فان عهد تأسيس هذه الممالك الثلاث ، وادائى ودارفور وكردوفان ليس بقديم ، ولا يزيد على مائتى سنة » انتهى

أقول ان صح كون أهل وادائى لم يدينوا بالاسلام الا منذ مائتى سنة كما يذهب اليه الفاضل الشريف الشيخ محمد بن عمر التونسى ، فن المقرر ان الاسلام دخل السودان قبل ذلك بكثير . فهذا صاحب صبح الأعشى الذى عاش قبل هذا العهد بنحو خمسمائة سنة ، يقول عن أهل برنو انهم مسلمون ، ويذكر أنه وصل كتاب من ملك البرنو فى أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه انه من ذرية سيف بن ذى يزن ، الا انه لم يحقق النسب ، فذكر انه من قریش وهو غلط منهم فان سيف بن ذى يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حير . قال : وقاعدتهم مدينة « كاكا » بكافين بعد كل منهما ألف ، فيما ذكر لى رسول سلطانهم ، الواصل الى الديار المصرية صحبة الحجيج فى الدولة الظاهرية برقوق .

واليك ما قال عن الكانم : « والكانم بكاف بعدها ألف ثم نون مكسورة ، وميم فى الآخر وهم مسلمون أيضاً ، والغالب على ألوانهم السواد . قال فى « مسالك الأبصار » : وبلادهم بين افريقية وبرقة ، ممتدة فى الجنوب الى سمت الغرب الأوسط . ثم نقل عن « مسالك الأبصار » ان أحوال كانم وأحوال أهلها حسنة وربما كان فيهم من أخذ فى التعليم ، ثم قال نقلا عن « مسالك الأبصار » وسلطان هذه البلاد رجل مسلم قال فى « تقويم البلدان » وهو من ولد سيف بن ذى يزن . وقال فى « مسالك الأبصار » وأول من بث فيهم الاسلام ، الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وملكها ثم صارت بعده لليزنيين . وذكر فى « التعريف » ان سلطان الكانم من بيت قديم فى الاسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن . قال فى « مسالك الأبصار » : وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه ، فى غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد ، لا يراه أحد الا فى العيدين بكرة وعند العصر ، أما فى سائر أيام السنة ، فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً ، الا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، ويتمنهبون بمنهـب الامام مالك رضى الله عنه ، وهم ذوو اختصار فى اللباس .

يابسون في الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسة للملكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم » . اهـ . قلت من كان العدل به قائماً فلا يعد ملكه حقيراً .

مملكة مالى

ثم ذكر في صبح الأعشى مملكة مالى في السودان قال : « ومالى بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مشناة تحت في الآخروهي المعروفة عند العامة ببلاد النكرور ، قال في « مسالك الأبصار » وهذه المملكة في جنوبي المغرب متصلة بالبحر المحيط . قال في « التعريف » وحدها في الغرب البحر المحيط ^(١) وفي الشرق بلاد البرنو ، وفي الشمال جبل البربر ، وفي الجنوب الهمج » ونقل عن الشيخ سعيد الدكالي : « انها تقع في جنوب مراکش ودواخل بر العدو ، جنوباً بغرب الى البحر المحيط . قال : وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين » : وذكر صاحب « العبر » أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل اقليم منها مملكة بذاتها . الاقليم الأول اقليم مالى ، واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو . صوصو من غربيه وكوكو من شرقيه . ثم ذكر اقليم صوصو ^(٢) ثم ذكر اقليم غانة ^(٣) فقال : « بفتح الغين المعجمة ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر وهي غربي اقليم صوصو المقدم ذكره ، تجاور البحر المحيط الغربي » . قال : وقد حكى ابن سعيد : « ان لغانة نيلا شقيق نيل مصر (هو النيجر) ، يصب في البحر المحيط الغربي عند طول عشر درج ونصف وعرض أربع عشرة . واليها تسير التجار المغاربة من سجماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة في جنوب الغرب نحو خسين يوما ، فيكون بين غانة وبين مصبه نحو أربع درج ، وهي مبنية على ضفتي نيلها هذا . قال في العبر : « وكان أهلها قد أسلموا في أول الفتح الاسلامي . وقد ذكر في « تقويم البلدان » أنها مدينتان على ضفتي نيلها احدهما ، يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار » .

(١) أى الاقيانوس الاطلاتيكي ، والظاهر أن بلاد مالى هي السنغال ومضافاتها ، فقد مر بك أن الأوربيين يذكرون من أعظم شعوب السنغال المالينكة ، وبينها وبين كلمة مالى من المشابهة مالا يخفى

(٢) تقدم ذكر أمة السوسو تقلا عن بعض مؤرخي الافرنجة وذهاب بعضهم الى انهم من الهكسوس ، وقال ربما أبدلوا الصاد سينا مهملة

(٣) هي التي تقول لها الافرنجة غينية

ثم ذكر إقليم كوكو وقال ان ملكها قائم بنفسه ، له حشم وأجناد وقواد وزى كامل، قال : وقاعدته مدينة كوكو بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها ، وموقعها في الجنوب عن الاقليم الأول ، قال ابن سعيد حيث الطول أربع وأربعون درجة والعرض عشر درج قال : وهي مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غريبه من مسلمي غانة ومن شرقية من مسلمي الكانم . وذكر المهلب في العزيزي أنهم مسلمون وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف .

وذكر بلاد التكرور وهي الاقليم الخامس . قال في « الروض المعطار » وهي مدينة على النيل على القرب من ضفافه . قال : « وبينها وبين سجلماسة من بلاد المغرب أربعون يوما سير القوافل . وأقرب البلاد اليها من بلاد لتونة بالصحراء (آسفي) بينهما خمس وعشرون مرحلة » . قال في « مسالك الأبصار » ان هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر اقليما وهي : غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانه وبانغو وزرنطابنا وبيترا ودمورا وزاغا وكابرا وبراغودي وكوكو ومالي . قال : وفي شمالي بلاد مالي ، قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم يتنصر وتيغراس ومدوسة ولتونة . وبعد شروح طويلة ذكر ماقاله صاحب « العبر » وهو : ان هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من أعظمها مملكة غانة ، فلما أسلم المثلثون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو ، حتى دان كثير منهم بالاسلام ، وأعطى الجزية آخرون . وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم وملكوا غانة من أيدي أهلها . وكان ملوك مالي قد دخلوا في الاسلام من زمن قديم . قال : ويقال ان أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانه » ثم حج بعد اسلامه ، فاقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده . ثم جاء منهم ملك اسمه « ماري جازه » ومعنى ماري الأمير الذي يكون من نسل السلطان ، ومعنى جازه الأسد ، فقوى ملكه وغاب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك غانة الذي يليه الى البحر المحيط ، ثم ملك بعده ابنه « منساولي » ومعنى منسا بلغتهم السلطان ، ومعنى ولي على . وكان من أعظم ملوكهم . وحج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك بعده أخوه « والي » ثم ملك بعده أخوه « خليفة » وكان أحق ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه . ثم ولي عليهم سبط من أسباط ماري جازه المقدم ذكره ، اسمه أبو بكر . ثم تغلب على الملك

مولى من مواليهم اسمه « ساكبوره » ويقال « سيكره » فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها الى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربى الى بلاد التكرور ، وحج أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون ورجع فقتل في أثر عوده .

وملك بعده « قو » ابن السلطان مارى جازه : ثم ملك بعده محمد بن قو . ثم انتقل الملك من ولد مارى جازه الى ولد أخيه أبى بكر ، فولى منهم « منسى موسى » بن أبى بكر قال فى « العبر » وكان رجلا صالحا وملكا عظيما ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة فى أيامه الى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، انه فتح بسيفه أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياح . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألت عن سبب انتقال الملك اليه فقال : « ان الذى كان قبلى كان يظن ان البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين سفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايتهم أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عادت منهم سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقه ، فجهز فى سفينة ألفا للرجال وألفا للأزواد ، واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخر العهد به وبمن معه » .

قلت : ان صحت هذه الرواية ولا يوجد دليل على كذبها ، فيكون المسلمون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاها ، عند ما أبحر الاخوة المغرورون من اشبونة عاصمة البرتغال موغلين فى بحر الاطلانتيك ، والثانية ، على يد هذا الملك الذى حاول هذا الأمر مرتين وذهب فى سبيله شهيدا .

قال فى « العبر » وكان حج الملك منسى موسى سنة أربع وعشرين وسبعمئة فى الأيام الناصرية (محمد بن قلاون)

قال فى « مسالك الأبصار » قال لى المهندار خرجت للتلقاء من جهة السلطان ،

فأكرمني إكراماً عظيماً وعاملني بأجل الآداب ، ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجان ، مع إجادته اللسان العربي . قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حملاً من التبر ، ولم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية الا وبعث اليه بالذهب ، وكنت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية . فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول : « جئت للحج لا لغيره » . ولم أزل به حتى وافق على ذلك . فلما صار الى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الأرض ، فتوقف وأبى اباء ظاهراً . وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فأسرّ اليه رجل كان الى جانبه كلاماً . فقال : « أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني ثم سجد » وتقدم الى السلطان . فقام له بعض القيام وأجلسه الى جانبه وتحدثنا طويلاً . ثم قام السلطان موسى فبعث اليه السلطان بالخلع الكاملة له ولائحته (وأفاض في وصف الخلع) ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الا كوار والعدة لمركبه ، وهجن اتباع لائحاته وأزواد جته ، وركز له العليق في الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه . ولما عاد بعث الى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث اليه بالخلع الكاملة له ولائحاته . وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر انه كان معه مائة جلد هبا أنفقها في سفرته تلك على من بطريقه الى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر الى الحجاز توجهها وعوداً حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده . قال في « العبر » ودام ملكه خساً وعشرين سنة ومات فلك بعده ابنه « منسامغا » ومعنى مغا عندهم محمد يعنون السلطان محمداً ، ومات لاربع سنين من ولايته . وملك بعده أخوه « منسا سليمان بن أبي بكر » . قال في « مسالك الابصار » واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه الى يد الاسلام ، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام به الجمع والجماعات والأذان ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، وتفقه في الدين . قال في « العبر » ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة ، ثم مات وولى بعده ابنه « قنبتا بن سليمان » ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده « ماري جازه » بن منسامغا بن منسى موسى ، فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى

اتتهى به الحال فى السرف ، أنه كان بخزائنهـم حجر ذهب زتته عشرون قنطاراً منقولاً من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار وكانوا يرونه من أنفـس ذخائرهم لندور وجود مثله فى المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين اليه بأخـس ثمن وصرف ذلك كله فى الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد ، لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق ، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعائة .

وملك بعده ابنه موسى ، فنكـب عن طريق أبيه وأقبل على العدل وحسن السيرة . وتغلب على دولته وزيره « مارى جازيه » فحجـره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير . وبقى « منسا موسى » حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعائة . وملك بعده أخوه « منسا مغا » وقتل بعده بسنة أو نحوها . وملك بعده « صندكى » زوج أم موسى المقدم ذكره ومعنى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جازيه . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه محمود ، ينسب الى « منسا قو بن منسا ولى بن مارى جازيه » ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعائة قال فى « التعريف » وصاحب النكرو ر هذا يدعى نسباً الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله أبى الكرام بن موسى الجون ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وقد ذكر فى تقويم البلدان « أن سلطان غانة ، يدعى النسب الى الحسن بن على عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة ، لأن من جملة من فى طاعته ، غانة . » انتهى ببعض تصرف .

فأنت ترى ما للاسلام فى تلك الديار من القدم ورسوخ القدم . وجاء فى « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحت عنوان « تلخيص القول فى السودان المغرب والاشارة الى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الاسلامى الى هذا التاريخ » ما يأتى :

« اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة ، وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السودانى فيه . وتتصل بهم من

جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو (بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين) ثم بعدها أمة أخرى يقال لها مالى ، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال كاغو ، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لها أيضاً سغاي^(١) ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم ، وهو أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها ، ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر ، فأما أهل غانة فقد كانوا في صدر الاسلام من أعظم أمم السودان ، أساموا قديماً وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هي غانة ، وهي مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ، ذكرها صاحب نزهة المشتاق (الشريف الادريسي) وصاحب المسالك والممالك وغيرها . وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليه ينتهى التجار (يعنى من المغرب) والمدخل اليها من سجلماسة ومن سجلماسة اليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجلماسة اياً مسيرة شهر ونصف ، وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالأمتعة والأثقال فتباع في غانة بالتبر ، فن سافر اليها بثلاثين جلا يرجع منها بثلاثة أجمال أو بحملين ، واحد لركوبه ، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها إلخ . الى أن قال : والاماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد ، من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح . اهـ . وقال ابن خلدون كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لغوم من العلويين ، يعرفون ببني صالح . قال صاحب الاستقصا الشيخ أحمد الناصري السلاوى : ثم ان أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة ، واستفحل أمر المثلثين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر ، وزحف اليهم الأمير أبو بكر بن عمر المتونى فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه ، فلما رجع الأمير أبو بكر الى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر ، واقتضى منهم الأتاوات ، وحل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الاسلام ، فدأوا به . ثم اضمل ملك أهل غانة بالكلية ، وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورين لهم ثم ان أهل مالى كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو ، وملكوا

(١) مر بك ذكر السونغاى في ما نقلناه عن كتب الأوربيين

ما كان بأيديهم وبايدى أهل غانة ، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها الى ملكهم وصارت دولة مالى متصلة فيما بين غانة فى الغرب وأرض التكرورى فى الشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ، ومن هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبى بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبى الحسن المرينى (صاحب المغرب) من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره (١) ، وكان مع السلطان منسا موسى المذكور ، الأديب الشاعر أبو اسحاق الطويجى الأندلسى الذى بنى له القبة المربعة ، العجيبة الصنعة ، البديعة النقش والتخريم ، التى أجازة عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر ، وغير ذلك مما مر فى أخبار الدولة المرينية . وكان منها أيضا السلطان مارى زاطه (٢) ، الذى هادى السلطان أبا سالم المرينى وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم ، قالوا وكان هذا السلطان مسرفا مبذرا بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم (٣) ، ثم مات بمرض النوم . ثم توارث بنوه الملك من بعده ، فكانوا فى تراجع وانتقاص الى أن انقرض أمرهم شان غيرهم من الدول ، وظهرت دول آل سكية من أهل مملكة كوكو ، ويقال كاغو . قال الامام التكرورى فى كتابه « نصيحة أهل السودان » : ان آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان ، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية (بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث) وكان الحاج محمد المذكور رحل فى أواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز ، بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ ، فلقى بمصر الخليفة العباسى ، اذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائما بها يومئذ ، حتى محاه السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امارة بلاد السودان ، وان يكون خليفته هناك ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسامين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة ، وجرى على منهاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطى فاخذ عنه عقائده ، وتعلم

(١) ومنسى موسى هو الذى حج ومر بمصر فى أيام الناصر ابن قلاوون حسبما تقدم

(٢) وفى صبح الأعشى يقول مارى جاطه

(٣) وتقل الحكايات التى نقلناها عن صبح الأعشى

منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جلا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه . فرجع الى السودان ونصر السنة ، وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر اموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم ، فصلحت الأحوال ، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب ، رقيق القلب ، خافض الجناح ، شديد التعظيم لأئمة الدين ، محبا للعلماء مكرما لهم ، ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس ، بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب ، وفرض عليهم شيئا خفيفا من المغارم وظفه عليهم ، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطي شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكورة الى أن اخترمته المنية . فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد ، فاحسن ما شاء وتبع سيرة أبيه الى أن لحق بر به . فقام بالامر بعده ولده اسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه واستمر حاله الى أن غزته جيوش المنصور ^(١) ، فنقضت ملكه ونشرت سلكه ، وانقرض آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرد ستة أشهر من بلاد السودان . وأما مملكة تكروور وكانم فقال ابن خلكان ، ان كانم (بكسر النون) جنس من السودان وهم بنو عم تكروور ، وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم ، وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة ، وتكروور اسم للارض التي هم فيها . قال في الاستقصا انه كان لاهل كانم مع الدولة الحفصية (بتونس) في المائة السابعة وما بعدها ، مهادة ومواصله كما كان لاهل مالى مع بنى مرين . ونقل عن الشيخ أحمد بابا السودانى من تقييده المسمى بمعراج الصعود ، أن أهل السودان اساموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم ، كاهل كانوا وكنتى وبرنو وسنغاي ، ماسمعنا قط ان أحداً استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كاهل مالى أساموا في القرن الخامس أو قر به ، وكاهل برنو وسنغاي . اه . قال وقد عامت ان أهل غانة تقدم اسلامهم على هذا التاريخ

وقال المسيو اندرى آرسين André Arcin مدير القلم المخصوص بوالى غينية في كتابه المسمى غينية الفرنسية La Guinée Française المطبوع سنة ١٩٠٧ ، ان احمد بابا المذكور ، يزعم انه سنة ٦٠ للهجرة ، كان في مدينة غانة العظيمة لا أقل من ١٢ جامعا ولكن في هذا القول مبالغة عظيمة ، والارجح أن مملكة السونغاى لم تدخل في الاسلام

(١) السعدى صاحب المغرب

الا في القرن الحادى عشر (١).

اما ياقوت الجوى فيقول فى معجم البلدان عن أهل كانم انهم سودان مشركون ، وقد كان ياقوت فى أواخر القرن السادس الى أوائل السابع فيظهر أن اسلام أهل كانم أحدث عهداً من اسلام أهل مالى وغانه ، أو ان خبر اسلامهم لم يبلغ ياقوت فى وقته . وذكر ياقوت شاعراً بمراكش اسمه الكانمى ، كما أن صاحب الاستقصا ذكر شاعراً هو أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الذى أنشد المنصور الموحدى قوله : —

أزال حجابہ عنى وعينى تراه من المہابة فى حجاب

وقربنى تفضله ولكن بعدت مہابة عند اقترابى

قلت أظن الشاعر الكانمى الذى ذكره ياقوت هو هذا الذى ذكره صاحب الاستقصا لأن عهد ياقوت هو عهد الموحدين ، وأما هذا المعنى الذى نظمه فقد أخطر ببالى من شعر الحداثة قصيدة نظمها وأنا ابن ست عشرة سنة ومنها :

لقد أناك بالقدر التدانى وقد أدناك بالحلب النساءى

توقد شدة وتذوب لطفاً كطبع السيف من نار وماء

وذكر صاحب الاستقصا من علماء برنو ، الشيخ العارف بالله أبا محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى الكبير أبى فارس عبد العزيز الدباغ قال ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء .

وذكر صاحب الاستقصا دخول ملك برنو فى طاعة السلطان المنصور السعدى صاحب المغرب فى خبر طويل نقلا عن « مناهل الصفا » خلاصته أنه فى سنة تسعين وتسعمائة ، ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدم رسول ملك برنو ، ومعه هدايا مما جرت عادتهم بأن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسى السودان وطرفه . وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين . فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة ، جلس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبا به واستوقف الموالى والمماليك سباطين من التوأمتين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجاوس المعلوم بالديوان ، ثم منه الى باب المعسكر القبلى وأتى بالرسول يخترق السباطين حتى نزل

بالديوان ، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جالوساً ، وكرسی المملكة وسرير الخلافة منصوباً به ، والمهابة قد اُخست الألسن وأخشعت القلوب والأبصار ، فجلس الرسول هنالك ملياً ، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بإيصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعتة السعيدة ، فأدى الرسالة وقضى فرض التهئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله ، واعترف للمملكة العظيمة بحقوقها ، وأظهر من الخضوع والاستكانة والطواعية ما أوصاه به مرسله ثم توجه به الى معسكر ولى العهد تاج الاسلام ، وكافل الأمة بعد والده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء . فأشرف الرسول على دنيا اخرى ، وأبهة مدهشة ، ومحلة هائلة ، فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لقباب ولى العهد ومضاربه ، وكان قد قعد له بفسطاط جالوسه انخم قعود ، ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه ، حي وفدى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الانعام والاکرام ما لم يكن له فى حساب . وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار ، لمجاهدة من يليهم بقاوية السودان من الكفار . وكان هذا الرسول قد وفد من قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثماني ، يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان ، واخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول ، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل ، وعسدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء ، لظموس معالم العلوم عندهم على الجسلة . وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويج قطرى توات وتكورارين وأمل أن يجعلهم ركباً لبلاد السودان ، والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك . فبلغت مملكة مالى الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب . فاغتتم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة ، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ، ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته ، وتوجيه هدية من عتاق الخيل بكسى من ملابس الخلافة ، واسباب آخر . ولما بلغ الرسول ، والتقى المعنرة ، الى سلطانه ، استأنف الهدية واعرب اذ ذاك عن مراده ، ورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين

فوافاه بحضرته ودار خلافته من مرا كش ، فزال اللبس و بين الغرض ، فلما تحقق المنصور بقصده ، صدع له بالحق والدعاء الى التي هي أقوم ، وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية ، التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، ان الجهاد الذي ينتحلونه و يظهرون الميل اليه لا يتم لهم فرضه ، ولا يكتب لهم عمله ما لم يشدوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه ، اذ هو الكافل لهذه الأمة و وارث تراث النبوة ، وقيضه الله لخلافة بيضة الاسلام ، وخصه بالشرف القرشي ، الذي هو شرط في الخلافة باجماع من علماء الاسلام ، وائمة السنة الاعلام ، والزهم القيام في اقطارهم بدعوته . ومجاهدة اعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله (١) الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط ، فالتزمه الرسول وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء ، فانشأها كاتب الدولة ابو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها : « الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارا ، يسامى في مطالعها النجوم ، وزاح بها عن شمس الهداية المنيرة ، غياهب الغباوة المدهمة ، وسحاب الغواية المركوم » الخ وارسلوا نص البيعة الى السلطان أبي العلا صاحب مملكة برنو . وانتخب المنصور رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة باحوال السودان فبعثه معهم عيناً يأتيه باخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها . وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها ، بأن يرتب على معدن الملح الذي في تغازي بين المغرب والسودان وظيفا ، بأن يجعل على كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار ، لأن ذلك بحر لا ساحل له . وكان المنصور لم يكتبه في ذلك حتى استفتى علماء ايلاته وأشياخ الفتيا بها ، فأفتوه بما هو المنصوص من أن النظر في المعادن مطلقا انما هو للامام ، وانه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه . وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول ، من انشاء العلامة الأديب مفتي الحضرة المرا كشية ، المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي . ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان

(١) صاحب مناهل الصفا محرر هذا الكلام معاصر للمنصور

اسحق سكية واطلع عليها ، شق عليه ذلك وماطل في الجواب ، وحيث أبطأ الرسول ، فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحسة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان . قال الفشتالى لما رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقاتله وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية والمنصور أمير ناحية ، وانه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وأهل الرأي والتقى في يوم مشهود . فقال لهم « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كانغو لتجتمع كلمة المساميين ولأن بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام » الخ فاما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم اسكنم استصواباً لرأى ، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى . فأجاب كلهم بلسان واحد ان ذلك رأى عن الصواب منحرف ، وذلك لأن بيننا وبين السوادان مهامه فيحاء ، تقصر فيها الخطى وتحارفيها القضا ، وليس فيها ماء ولا كلاء ، فلا يتأتى السفر فيها ، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحيدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك ، وحسبنا أن نفتنى أثر تلك الدول ، فان المتأخر لا يكون أعقل من الأول . فاما قضى أولئك الأقوام كلامهم قال لهم « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى وفيلتم به رأى ، فليس فيه حجة ولا ما يخذش فيما عندى ، فاما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجذوبتها وعطشها ، فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامه في كل وقت ، ويخوضون احشاءها مشاة وركبانا وجاعة ووحدا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل . وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الافرنج ، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتامسان ، ونحن اليوم قد انسدت عنا باب الأندلس باستيلاء العدو عليها جلة ، وانقطعت عنا حروب تامسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا راحمة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فقالتهم سهلة

وحر بهم أيسر من كل شيء^(١) وأيضاً فإن السودان أنفع من إفريقية فلاشتغال بها أولى من منازل الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل. فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب، فإنه كم ترك الأول للاخر». فلما فرغ المنصور من خطابه، انفصل الجمع على البعث الى السودان ومتابعة المنصور في رأيه عليه. قال صاحب الاستقصا: وفي كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الأول، مقاله من ان المثلثين لم تكن لهم سلطنة على السودان، يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب مثل يوسف بن تاشفين وبنيه، فلا يرد عليه ان الأمير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر، لان ذلك بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها، واعراضه عن ملك المغرب. الثانى، مقاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة، يعنى به لم يكن موجوداً فيها بكثرة، فلا يرد عليه ان ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لأول دولة بنى مرين. ثم انه في سنة سبع وتسعين وتسعمائة. اخذ باعداد آلة السفر ومهمات، وتهيئة المدافع والعجلات التى تحملها، والبارود والرصاص، وبقي في الاستعداد مدة طويلة. وفي اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ٩٩٨ خرجت العساكر وعدتها اثنان وعشرون ألفاً، منهم ألفان من المدفعية والبحرية وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاد الباشا جوذر، وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة، وكتب الى قاضى تنبكتو العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر آقيت الصنهاجى، يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة. فنهض العسكر من تانسيغت الى ثنية الكلاوى الى درعة ودخلوا القفر فقطعوه مائة مرحلة، ولم يضع لهم عقال بعير الى أن وصلوا الى تنبكتو ثغر السودان، فأراحوا بها أياماً وساروا قاصدين دار اسحق سكية، فاحتشد لهم أمم السودان وقبائلها، والمثلثين المهادين لهم يقال انه جمع فوق مائة ألف مقاتل. ولما تقارب الجمعان عبي الباشا جوذر عساكره للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة، وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر، وكانت أسلحتهم هى السيوف والرماح، فلم تغن مع البارود شيئاً. ولما كان آخر النهار، انهزم السودان وحكمت في رقابهم سيوف جوذر وجنده، حتى كان السودان ينادون نحن مسامون، نحن

(١) لله در المنصور السعدى كأنه دولة استعمارية تسكلم

اخوانكم في الدين ، والسيوف عاملة فيهم ^(١) ، وتم النصر لعساكر المنصور في منتصف جادى الاولى سنة ٩٩٩ ، وراسل ابن سكية جؤذرا في الصلح على مال معين يدفعه ، فاجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه وكانت العساكر أصابتها الحمى فاتفق رأى الامراء على الرجوع الى تنبكتو ، وكتبوا الى المنصور ولبثوا ينتظرون الجواب . وأخذ جؤذر في انشاء السفن وتركيبها ، ولما اكملت دفعها في النيل ، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد ، وقوم عسكرا خفيفاً أرسله مع مملوكه الآخر محمود باشا وهو أخو جؤذر ، وقلده أمر العساكر كلها وعزل جؤذرا عنها ، وأمر محمود باشا أن يبقيه معه وكتب الى أمراء العساكر يعاتبهم على الصلح مع ابن سكية ، ويؤكد عليهم في الرجوع الى بلاده ، واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدو الأخرى . وخرج محمود باشا في عسكره في زمن الحر ، في وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدر ، وقطع القفر في خمسين مرحلة ، ونزل بالعساكر على رأس تنبكتو على رأس سنة الألف . ثم شحنوا السفن وساروا بالملاحين والجنود الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك سكية ، وكان هذا حشد لهم أمم السودان ، لكنهم لما سمعوا رعد المدافع والمهارييس ورأوا ارتفاع القنابر في الجو ، انهزموا وسار اسحق سكية في فل من جوعه وعبر النيل الى العدو الأخرى ، فتبعه محمود وعبر النيل خلفه وأوقع به ، ونهب جميع ما احتوى عليه معسكره ، فانهزم الى القفر وهلك فيه . وقام اخو اسحق وجع جوعاً وزحف الى محمود باشا ، فهزمه هذا وقتله . وتمهدت السودان كلها وكتب بخبر الفتح الى المنصور ، فأقام مهرجاناً عظيماً بظاهر الحضرة ، وزينت الأسواق وأخرج فيها المنصور الصدقات ، وأعتق الرقاب ، ووصلته من محمود باشا الغنائم مما لا يحصى من جلته أربعون جلا من التبر الخ وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب ، الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر . وكان في تنبكتو أسرة يقال لها بواقيت ، ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والقضاة ، وتوارثوا رئاسة العلم في السودان مدة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد لا يبالون بالسلطان فن دونه ، فلما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم محمود باشا على حالهم الى ان كانت سنة ١٠٠٢ ، فكان أهل السودان

(١) اذا لم تصدق دعوى المنصور بأنه انما يحارب لأجل الاسلام

سئموا ملكة المغاربة فتخوف المنصور من آل آقيت ، فكتب بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراکش ، فقبض على جماعة منهم ، فيهم العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت المدعو أحمد بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التأليف ، والقاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت ، وغيرهما ، وجلوا مصفدين في الحديد الى مراکش ومعهم حريمهم ، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم . واستمروا مدة في مراکش في حكم الثقاف الى أن انصرم امد المحنة ، فسرخوا في ٢١ رمضان سنة ١٠٠٤ وفرحت قلوب المؤمنين لذلك . ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور قال له : أي حاجة لك في نهب متاعى وكتبي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا ، حتى سقطت عن ظهر الجبل واندقت ساقى . قال له المنصور : « أردنا ان تجتمع الكلمة ، واتم في بلادكم من أعيانها ، فان أذعنتم اذعن غيركم » . فقال له الشيخ أبو العباس : فهلا جعت الكلمة بترك تلمسان ، فانهم أقرب اليك منا ؟ فقال المنصور : « قال النبي صلى الله عليه وسلم ، اتركوا الترك ما تركوكم ، فامتثلنا الحديث . فقال أبو العباس : ذاك زمان ، وبعده قال ابن عباس ، لاتتركوا الترك وان تركوكم . فسكت المنصور وانفض المجلس ، وبقي آل آقيت بمراكش الى أن مات المنصور ، فاذن لهم ابنه بالرجوع الى تنبكتو . » انتهى ببعض تصرف . ويعقب على ذلك صاحب الاستقصا بفصل في مسألة الرقيق والشرع آثرنا تلخيصه

مسألة الرقيق والشرع

قال : قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من قديم ، وانهم من أحسن الأمم اسلاما وأقومهم ديناً ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلاوى المغرب (والمشرق) من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة ، وبيعها في أسواق المغرب ، يسمسون بها كما تسمسر الدواب ، بل أخش ، قد تملأ الناس على ذلك ، وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون ، وكونه مجلوبا من تلك الناحية . وهذا لعمري من أعظم المناكر في الدين ، اذ أهل السودان قوم مسامون ، فلهم مالنا ، وعليهم ما علينا . ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر ، فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم هو الاسلام ، والحكم للغالب . ولو فرضنا أن

لا غالب ، وان الكفر والاسلام هناك متساويان ، فن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار . والأصل في نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدعى خلاف الأصل . ولا ثقة بخبر الجالبيين لهم والبائعين ، لما تقرر في الباعة من الكذب مطلقا عند بيع سلعهم ، وفي باعة الرقيق خصوصا ، ولا يعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء . لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك ، فان البائع قد يضربهم حتى لا يقرروا الا بما لا يقدر في صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان ، فيهبون عليه أن يقر على نفسه كي ينفذ بيعه عاجلا . وقد استفاض عن أهل العدل ان أهل السودان اليوم وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الأما كن النائبة عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب (والمشرق) في اغارة بعضهم على بعض ، واختطاف مواشيهم ، والكل مسلمون . وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل . (أن يقول) أما وضع يد الجالبيين لهم عليهم ، فلا تكفي شرعا في جواز الاقدام على شرائهم . لضعف هذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها ، وليستفت المرء قلبه فقد قال صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفنوك . فانه اذا رجع الى قلبه في هذه المعضلة ، لا يقدر أن يحوم حول هذا الحي بحال . ونقول لولم يكن في ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ، ورقة ديانة أهله ، لكان في هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لاسيما عند الامام مالك رضي الله عنه ، ما يوجب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة بالعرض والدين نسأل الله أن يوفق من ولاه أمر العباد لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله ، وسوق الناس الى دينه الذي اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا صلى الله عليه وسلم وخلافه خلاف الدين ، وغيره غير المشروع . انتهى بي بعض تصرف . والحمد لله على كون الحكومات الاسلامية العصرية ، انتبهت لسد الذريعة ووافقت على ابطال الرق .

تنمة ذكر السودان

وذكر المسيو اندرى راسين صاحب كتاب « غينية الفرنسية » ما محصله ان البربر هم الذين من الشمال زحفوا على أمم الفتيش ونشروا بينها الاسلام ، فصارت في الجنوب مرا كز عظيمة للدعاة الاسلامية مثل « دينه » Diéne المدينة التي يقطنها السونغاي ، فقد اجتمع فيها بعد اسلامها بقليل سنة ١٠٥٠ مسيحية ، من جميع أصناف مسلمي الشمال ، لاسيا المانده ، وصارت أعظم ملتقى للتجار في غربى افريقية بل من أعظم مرا كز الاسلام التجارية . وبنى فيها كومبور و مسجدا جامعاً مدهش البناء ، ثم تأسست مدينة تنبكتو في الشمال ، فصارت مركزاً آخر يتسرب منها دعة الاسلام الى الجنوب . ودخلوا الى بلاد سارا كوله Sarakholé على ضفاف السنغال ، و بلاد منابع النيجر (النيل السودانى) وغينية و بورى Bouré وقسم من سانكاران Sankaran ومن وازولو Ouasoulou ، مع المدينة الدينية كانكان Kankan وما زال الاسلام ينمو على النيجر حتى أسلم أكثر أهالى وادى النيجر وسواحل السنغال وسيراليون ، و بقيت كورة واحدة أ كثرها فتيشية لجهة البحر . وأ كثر هذا النمو الاسلامى ، كان سببه أمة الفولة والحاج عمر وسامورى وانما كان الذين أتوا بالاسلام من الأصل ، قبائل من البربر المتعلمين ، مثل القبيلة المسماة أهل سيدى على وأولاد فاضل وأولاد برى والشيوش والجيلو به والسكوتة وغيرهم . ومن هؤلاء الكوتة البكاءون الذين اشتهروا في جهات تنبكتو . وأصل الكوتة من زناتة من بلاد التوات هاجروا الى الجنوب في القرن الثالث عشر للمسيح ، وبنوا في تنبكتو المدارس والرباطات مما لمعت به تلك المدينة طويلاً ، و تراهم الآن متفرقين في السوادين ، لكن أهم مرا كزهم تاغان Tagan وارينده Aribinda . والبكاءون يزعمون انهم من سلالة عقبة (بن نافع بن عبد القيس الفهرى) الفاتح العربى ، ثم انضم الى ذلك تأثير الطرق الصوفية ، لأن هذه الطرق هى من أحسن الأجهزة للنضال . وأحدثها عهداً وأشدّها عزماً هى السنوسية ، والتيجانية . وهذه الثانية هى في السودان الغربى والسواحل أعظم انتشاراً . وأما الطريقة القادرية فهى أعظم من الجميع ، وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل ، وان كان المهدي السودانى وكثير ممن حاربونا نحن ، هم من أتباعها . وتجد القادرية في السودان أقساماً منها القادرية البكاكية

والقادرية المختارية ، والقادرية أتباع زين العابدين ابن سيدى أحمد ، والقادرية أتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بو . فالسواد الأعظم من مسلمى السنغال وغامبية وغينية والنيجر الأعلى هم قادرية من أتباع هؤلاء ، ثم فى بلاد أولاته Oualata القادرية الرقانية أتباع الشيخ أحمد الرقانى ، وهم ثلاث فرق . أما التيجانية فهى حديثة العهد تأسست فى سنة ١١٨٦ للهجرة ، وأشهر من شهرها فى السودان الحاج عمر ، ومن الغرب انها فى الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيين ، وفى السودان ترفع راية الجهاد . وأما السنوسية فوصوفون بالشدة وعداوة الأجانب أكثر من الجميع ، واتباعهم فى السودان الغربى ليسوا كثيرين ولكن مملكة واداي أكثرها لهم .

ولا يوجد فى غينية مرابطون على النحو الذى فى المغرب ، بل يوجد بمقام المرابطين رؤساء سياسيون حولهم أتباع وأعوان ، وطبقة أخرى هم معلمو المدارس والفقهاء فى الدين ، ويسمى الواحد من هؤلاء « كاراموكو » Karamokho وعندهم لقب آخر للجهاديين والذين فتحوا البلدان وهو « المامى » منحوتا من « أمير المؤمنين » (أو نسبة الى الامام) .

وليس عند أهل غينية رغبة عظيمة فى الحج ، بل الذين يحجون الى مكة كل سنة هم عدد قليل بالرغم من كون تورودو الحاج موسى بنى لهم فى مكة رباطا . ولكن لا ينبغي أن نغتر ببعض ظواهر الفتور التى تلوح على اسلام غينية ، بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا : فانك لتجدهم شديدي الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرون لا يكتفون بالقرآن ، بل يقرأون السنة وكتاب خليل فى الفقه المالكي وعندهم مكاتب شرعية مهمة . أخبر الدكتور بليدن Blyden انه عرف منهم اناسا يشتررون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية ، ولا يجدون ذلك كثيرا . وتجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثرتآليفهم مخطوطة ، ولكن القرآن صار يطبع فى سيراليون وكونا كرى . وان التربية الدينية فى تلك البلاد ، هى أوسع مما يظن لا سيما فى جهات فوته وكنكان ، فالبنت يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات وأحيانا ثمانى سنوات . ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات . ومن التلاميذ من يرغب فى زيادة التفقه ، فيذهب الى الشمال مثل بلديينه وتورو أو يقصد المغرب . ولدينا احصاء ادارى عن مدارس الاسلام

في بعض النواحي . ففي الديتين Ditinn ٣٤٦ مدرسة فيها ٢٩٦٢ تلميذاً ، وفي كانكان ٦٠ مدرسة فيها ٨٠٠ تلميذ ، وفي كوين Koïn ٤١ مدرسة فيها ٥٧٤ تلميذاً ، وفي سيغوري Sguri ٢٨ مدرسة فيها ١٦٠ طالبا . وكان في فوكومبه Foukoumba مركز بلاد فوته الديني سنة ١٨٩١ ثلاثون مدرسة للذكور والانات . وكان في دينغيراي Dinguiray سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠ طالب . وهذا العدد في دينغيراي على ٣٢ ألف نسمة لا زيادة . ووظيفة المعلم محترمة موقرة ، وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . ويأخذ المعلم عادة ٢٠ فرنكا على كل سورة يحفظها التلميذ . وعند ما يحفظ نصف القرآن يقدمون له ثوراً ، ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا . والمعلم يعلم الأولاد الكتابة بواسطة ألواح في أيديهم ، وهذا هو التعليم الابتدائي . ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير . وانما قد تبين من تقرير رسمي فرنساوي على حالة التعليم في احدى كور وادي النيجر ، انه من بين ألف ولد يخرج ٧٠٠ لا يعلمون شيئاً ، و ٢٥٠ يعرفون القراءة والكتابة و ٤٠ يحفظون القرآن كله بدون أن يحسنوا تفسيره بلغتهم ، و ١٠ يمكنهم أن يفسروه بلغتهم . أما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيداً ، واسم الصلاة « سالي » أو « دالي » وساعة الصلاة « ساليقانا » وفي بعض السواحل « سولوفانا » ، وصلاة الفجر في السواحل « سونغوفو » وصلاة العصر « لانسارا » ، ويقال لها عند المالينكة « لانساما » وصلاة المغرب « سونغوماني » وأما أمم الديولا والسونينكي والماندي فيطلقون عليها أسماءها العربية . ونهار الجمعة يجتمع المسامون في المسجد الجامع ، ولكن مما يذكر أن هذه العادة قد خفت كثيراً بعد استيلائنا لاسيا في فوتا ديالو Fouta Dialo ، وقل ازدحام المصلين في صلاة الجمعة . ويصومون رمضان لكن لا بالتشديد الذي عليه المغاربة ، وعند مايلوح الهلال يكون العيد الصغير ، فيطلقون البواريد . ويسمون عيد الفطر « سونغالوسالي » أو « كالوسالي » وهذا بلغة الماندي ، أما في لغة الفولة فاسمه « كور يليور و سومي » ، وفي العيد الكبير يضحون كل واحد كبشا . ويسمى هذا العيد « تاباسكي » بلغة الأولوف و « ساليبا كالو » أو « دونكي سالي » بلغة المالينكة و « باناسالي » بلغة السانينكة . (ثم ذكر اندري ارسين بعض الحروب التي وقعت بين المسلمين والفتيشيين ، وقال)

ان هؤلاء طالما قاوموا الاسلام بشدة بالغة الحد ، وقد استولى القتيشيون مرة على كانكان هذه المدينة الاسلامية المقدسة ، ولكن أمة السونينكة الاسلامية كانت تواصل التقدم من الشمال ، وصارت بوري وموسادوغو وموساردو مدنا اسلامية ، وهي أحسن المدن وأعمرها وأنظفها هناك ، ولكن القتيشين لبثوا قتيشين . وكانت غينية العليا أسامت بتمامها في أيام المامى سامورى ، ولكن بعد موته رجع الكورما ، والوازولو ، والتورون ، والسانكاران ، والكورانكو ، والكيسى الى أوثانهم ، وعادوا الى شرب المسكر . وأما بلاد التوما فمن البداية لم تطع سامورى .

أما في الأوان الحاضر فمدن الاسلام في غينية العليا ممتدة على طول الأنهر، وفيها كثير من الغرباء الذين يتواردون اليها منذ قرنين . وبالأجال ففي مقاطعة بوري من غينية أشهر مدن الاسلام ، كيرانه Kérouané ، والاهينا Alahina ، ومدينة Medina ، وكاكاتومبو Kakatoumbo ، وفي مقاطعة سيكك Sieké بيرامفيرا Biramfira ، وسيندوقو Sindougou ، وتوقين Togin ، وفي مقاطعة كولوكالان Kouloukalan دوقوره Dougoura ، وكوباني Kobani وكينيكرو Kiniékrou ، وفي المادينغ Mading ، أهم مدنها بالانكوما كونا Balankoumakana وأما في سائر المدن لاسيما في مقاطعتي ديوما Diouma ونوغا Nougou ، فالأكثرية ليست للاسلام . وأما كانكان فهي من أعظم كراسى الاسلام في السودان الفرنسى ، أكثر أهلها سونينكة . وكذلك كونغ ودينه . وقد أسس أشياخ الطريقة التيجانية مدارس في كانكان ومكاتب ، ونشأ فيها مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى في نشر الاسلام في افريقية الغربية والجنوبية . والى هذا اليوم هي مركز جاذبية لبلاد سيفيرى وكرروسه . وفيها آل سريفو الذين يدعون انهم أشرف من آل البيت ، وان اسمهم مشتق من شريف . ومن المدن الاسلامية العظيمة مدينة طوبا Tonba في ساحل العاج ، وبيل Beyla وذاكر الله ، وبلال الله ، ونيالا وديا كوليدغو الخ . وأما بلاد الفوته ديالوفان لها تاريخا مهما في الاسلام هناك ، فقد جاءت الدعوة من الشمال بواسطة التوكولور ، ومن الشرق بواسطة السونينكة ، ولذلك تألفت بها حزبان أحدهما يقال له « ألفيا » Alfaia والثانى « سوريا » Soria ، فالصوريا هم الشريقون اتخذوا الطريقة القادرية حال كون الألفيا بحسب قول المسيو لوشاتليه

Le Chatelier ، تمسكوا بالسنة ولم يعرفوا الطرق وقد كان مبدأ الاسلام في فوته على أيدي البهل والسونينكة ، ولكن لما أسلم على أيديهم الديالونكة صار هؤلاء من أشد الدعاة حمية وليست بلاد فوته منقسمة الى كور اسلامية وأخرى وثنية كما هو الحال في غينية العليا ، بل جميعها دار اسلام . والمدينة المقدسة فيها هي فوكومبا ، وفي جامعها جرت العادة بمبايعة المامي ، وهذا الامتياز لها ، من أجل كون أمير هذه البلدة هو أقدم أمراء تلك البلاد اسلاما ومن البلدان الاسلامية العظيمة « فوتاتورو » وهي أقرب البلاد الى ديالو . وبلاد السارا كولى وهم من الأقوام الشديدة الاعتقاد ، وفيها مدارس للعلوم الدينية . ومن المرا كنز المشهورة في تعليم الدين « تمبي » و « لابي » و « دونهول فلاح » و « فوكومبا » و « بارفلا » و « دنتارى » و « كولانغي » وغيرها وفيها الجوامع العظيمة

والاسلام ممتد أيضاً في الجهات الجنوبية الغربية من غينية ، والسبب في امتداده الى هناك هي فتوحات القبائل الشمالية مثل السونينكة والتورودو والديولا والديا كانكة ، ومن هذه الأقوام جند الحاج عمر أحسن عساكره ، وخلف مريدين قاوموا الفرنسيين أشد المقاومة ، مثل الم رابط محمد ، ولamina درامى . وقد كان اختلاط السونينكة والديولا بأهالى الجنوب سبباً في زيادة نشر الدعوة المحمدية ، حتى لا يكاد يخلو منها مكان في سواحل غينية . واشتهر بشدة التمسك بالاسلام أمة النالوماندى . حتى ان ملك النالو تلقب بأمر المؤمنين . كذلك زعيم السارا كولى في بلاد ميلاكورى لقب بمامى موريا أى امام موريا . فوريا وموريبايا وكالوم وسومبويا وبراميا وبونغو ونونز العليا ، الأ كثرية فيها هي للاسلام والأهالى من جنس الصوصو . وكان الميكيفورى Mikiforé باقين على الفتيشية ، لكن الضابط بروكارد Brocard قرر بعد فحص أجراه ، ان الاسلام غلب عليهم اليوم ، حتى قال انهم يعتفدون ان الرجل الحر له وحده الحق بالقاء السلام . وكذلك قبيلة الباغا فوره Baga Foré التى هي من أشد قبائل السواحل عتواً . دخلها الاسلام وبدأ كثير من رؤسائها بهجرة الحجرة . وفي بعض الأماكن تجد الزعماء قد صاروا مسلمين وان كان عامة شعبهم باقين على الوثنية . ولقد سرت مع أحد حكام غينية السفلى وهو الميسونوارو Noiroi في أطراف هذه البلاد ، وكانت مضت عليه سنون طوال في جنوبى غينية ، فاندھش مما رآه من آثار العقيدة الاسلامية مما لم يكن رآه قبلاً ، اذ في كل قرية حتى في صغريات القرى تجد « م ٤ - ثالث »

مصليات للإسلام . نعم ان مسلمي جنوبي غينية ليس عندهم تعصب مسلمي الشمال . ومن المدن الإسلامية المشهورة في الجنوب « بنا » و « كيسي كيسي » و « كونا كرى » و بلاد « الهوبو » وأما بلاد « كادي » و « كونسوتامى » و « بومبايا » فهي إسلامية بحتة ، ومعدودة من أقسام « فوته » الضاربة في نحر الاوقيانوس . ومن علامات تقدم الاسلام في الجنوب شيوع لقب « المامى » في ملوكهم مما يغضب أهل فوته ديالو ، الذين يقولون : مامن مامى في كل غينية سوى أميرهم . وقد يعترفون بهذا اللقب لمامى موريا ، ولكن يصعب عليهم اقراره للملك « ريو بونغو » و « كانيا » و « تاميسو » و « نالو » و « كالوم » . وجيع المرابطين الدعاة في كورة « واسو » هم في الأصل من السونينكة ، ويقال لهم « السيسى » و « الدارامى » والتورى والى الشرق من ميلاكورى يوجد قوم اسمهم « اليولا » متمسكون جدا بالاسلام ، وكان لهم يد في نشره بين الأمم المجاورة ، كذلك في جهة « فارانا » يوجد قوم اسمهم « الفيريا » مقيمون لشعائر الاسلام بكل دقة لاسيما في « داندو » و « أولادا » .

والشرف الأعظم في نظر مسلمي السودان هو الانتساب الى العرب ، فالعرب عندهم هم النموذج الشعوب كما قال المسيو فامشون Famechon ، لاسيما الانتماء الى آل البيت . « وأنهى المسيو اندرى آرسين كلامه على غينية أوغانة بقوله : ان الاسلام انتشر بسرعة عظيمة في بلاد الزنوج نعم ان تقدمه اليوم أصبح أبطأ من ذى قبل ، لكنه صار أرسخ من ذى قبل بسبب السكون والامان . واذا اعتبر الانسان انه منذ مائة وخمسين سنة لم يكن مسامون في غينية السفلى ، وانهم الآن صاروا نحو النصف من الأهالى عرف مقدار سير الاسلام في هذه الأقطار . كذلك المرابط منذ ثلاثين سنة فقط ، لم يكن يجرؤ ان يتوغل في هاتيك الاصقاع ، فصار اليوم يسير و بين يديه جماعات وله اتباع . ثم علل مؤلف « غينية الفرنسية » نمو الاسلام بين السود ببساطة قواعده ، وما أشبه ذلك من الأسباب التى أشار اليها مؤلف كتاب « الاسلام والنصرانية في افريقية » .

وقد عرفت الرحالة الشيخ عبد الكريم مراد ، نزيل كانوا من بلاد النيجر ، أصله من طرابلس الشام زارنى في لوزان سويسرة في العام الماضى ١٩٢٣ ، فسألته عن بلاد النيجر والسودان فقال لى : « ان بلاد النيجر تشتمل على ٢٠ مليون نسمة ، مقسومة بين

الانكليز والفرنسيين ، وان عاصمة النيجر الانكليزي مدينة لاغوس Lagos ، وان سلطان سوكونتو كان كبير سلاطين السودان كلهم قبل دخول الانكليز ، فلما دخل الانكليز أخرجوا كل أولئك السلاطين من طاعته ، فبقيت له سيادة اسمية . وأما السلاطين المذكورون ، فمنهم سلطان كشيننا حج في العام الماضي . وسلطان كانو . وسلطان برنو . وسلطان زاريا . وسلطان بدّا . وسلطان آبدان . وسلطان لوري وغيرهم . وأما سلطان لاغوس وسلطان أبي كتنا ، فشركان . ولكن للاسلام قوة في بلادهما وفي جميع بلاد القتيشين . وسلطان هؤلاء يحتفل بعيد الاسلام ، ويلبس فيه الملابس الرسمية وعند سلطان أبي كتنا وزير مسلم ، والجوامع كثيرة في بلاد الكفار تقام فيها ، الجع والاذان مسموع . وسأته عن مدينة كانو التي كان فيها ، فأجابني ان أهلها نحو ثلاثين ألف نسمة وهم مسلمون »

وأختم هذا الفصل بنكتة سمعتها من المرحوم الشيخ عبد الجليل براده من علماء المدينة المنورة ، وأدباء عصره ، قال : سأل واحد من أهل الأدب وهو في موسم الحج حاجاً أسمر عن بلده في السودان ، فأجابه : غاته . فأئسد السائل على الفور هذا البيت :
كذا كذا فيلزر مولاه من عرفه من غاته غاية الدنيا الى عرفه

وجدنا من تمام الفائدة في الاعلام عن غربي افريقية عقد فصل خاص بجنوبي الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى والسنغال واعتمدنا فيه على رحلة المسيو « غاستون دونه » Gaston Donnet الافرنسي الذي أرسلته وزارة المستعمرات الافرنسية سنة ١٨٩٣ الى تلك البقاع لارتياها

قال انه كُلف اختراق البلاد المسماة « الترارزة » و « أولاد أبو سبع » و « أولاد دليم » و « بلاد الادرار » والاقامة مدة من الزمن في مستعمرة « ريو دو اورو » الاسبانيولية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقي الى حد « تين دوف » ثم « رأس جوبي » أي وادي دراعة .

وقد كانت هذه الرحلة قبل احتلال فرنسة للمغرب الأقصى . ولصاحبها كتاب آخر اسمه « من السنغال الى تيريس »

وبلاد السنغال مأخوذ اسمها من نهر السنغال . وهذا منسوب الى قبيلة صنهاجة البربرية الشهيرة التي منها فروع في تلك الأصقاع ولما كان الأهالي يلفظون جيم « صنهاجة »

كالكاف الفارسية أو الجيم المصرية قالوا « صنهاكة » وجاء الفرنسيين فجعلوا منها اسم بلاد « السنيكال » واصطلح كتاب العرب على كتابتها بالغين أى « سنيغال » وقبيلة صنهاجة هي شعب كبير من البربر قد اختلط بالعرب بالزواج وتولد منه الشعب الذي يسكن الآن في أطراف الصحراء على حدود السنغال

وأهم القبائل المجاورة للسنغال هي ثلاث : الترارزة في شمالى والو والبراخنة في شمالى ديار وفوتا والدوئش في شمالى دمنغة الى الشرق والمغاربة في تلك الديار ينقسمون الى مغاربة شماليين وقبليين فالشماليون هم الذين لا يفارقون أعالي الصحراء والقبليون ويقال لهم القبالة هم الذين يذهبون جنوباً حتى يشرفوا على النهر ويبيعوا هناك الصمغ الذى هو محصولهم الى تجار سان لويس ، وللطرارزة عائلتان وجيهتان فيما بينهما إحداهما أولاد دايمان والأخرى عائد . فأولاد دايمان مرابطون أى لهم الرئاسة الدينية وأولاد عائد محاربون أى لهم إمارة السيف . ولقد تنافست أهمية هاتين العائلتين بعد أن صار أحمد سلوم أميراً على الطرارزة بمعاونة فرنسا . وأما عائلات المرابطين المشهورة فهم أولاد دامان وعائلة يقال لها أهل أبياى وعائلة يقال لها أهل ريس وتاغيت وتاجا كاند والبارك الله وايت أولى وايت أبو الحسن وتنداغة وايت يعقوب والسويلات وغيرهم .

وأما طبقة المحاربين فهي مختلطة من عرب وبربر وسودان والجيش الذى يعتمد عليه أحمد سلوم أمير الطرارزة هو مؤلف من مغاربة مختلطين بسودان من الجيل الذين يقال لهم ألوف . وأشهر عائلات هذه الطبقة الهيب الله وأولاد أككر وأولاد بوسبع والعبيدات وأولاد رقيق وأولاد عايد وزنبوق وأولاد البلمية وأولاد عبيد الواحد والمبارك والرقيبات والدغمولة والسبحات وأولاد عمران وغيرهم . وأكثر هذه القبائل تدفع ضريبة لأحمد سلوم من غنم وبقر وهجن ومعزى وسكر وسمك مقدد وتمر وبارود وبعض مسكوكات . أما عائلات المرابطين فهي معفاة من هذه الرسوم ويوجد قبيلة اسمها أليب هذه تكاد تكون مستقلة فلا تخضع لأحمد سلوم وهي ترعى المواشى وتكثر بينها وبين أولاد دليم الحروب لأن هؤلاء تغلب عليهم اللصوصية وهم عرب في الأصل^(١)

وأكثر الخوف في الصحراء من أولاد دليم وهم يجوبون البيداء من كل جهة ويبدأ

(١) قبائل دليم كثيرة بين المدينة المنورة ونجد

مكان سلطتهم في قنيطير وينتهى في ريودو أورو

واما أهالى بلاد تاسيست ونيجريت وإمشيرى ففي تاسيست البركة الله مرابطون والغورا والبنى عمر البود وهم من أولاد دليم والبويلى . وأما في نيجريت فالبركة الله والفودير وبعض بربر من صنهاجة . وأما في الامشيرى فيوجد من هذه القبائل ومن أولاد لاب وهم من أولاد دليم فى الأصل . وأولاد لاب هؤلاء متفقون مع الطرارزة . وأما أولاد بوسبع فهم طائفة من المراكشيين المهاجرين الى الرقيبات وتكنه وبلادهم تبدأ بأعلى أغادير وحدثها الشمالى قبريس . وحدثها الشرق تاسيست ونيجريت . وأكثرتهم صيادو سمك يصطادون على سواحل طافولى وقنيطير وهم تابعون للامير أحمد سلوم

والعادة فى جميع هذه القبائل أن يسودها صاحب السيف وهو الامير ثم المرابط وهو الزعيم الدينى ويأتى بعدهما العامة الذين يدفعون الضرائب ولكنهم أحرار تماماً . ثم يأتى الأرقاء وهؤلاء أصلهم من السود غير المسلمين واذا استرق الانسان زنجياً غير مسلم لا يجبره على الاسلام ، واذا أسلم الزنجى لا يتخلص من الرق ولكن لا يسوغ لصاحبه أن يبيعه من غير مسلم . ويجب على السيد أن يطعم عبده بقدر طاقته ولا يحمله أحمالاً شاقة لا يطيقها والعبد يأكل ويلبس نظير سيده وإذا تحقق أن عبداً كان سيده لا يطعمه فانه يجبر على بيعه . وأكثر هؤلاء العبيد لا يريدون الحرية فانه يقدر الواحد منهم أن يفر الى سان لويس فى السنغال فى الحال ينال حريته . ولكنهم لا يذهبون ليتحرروا لأنهم يرون أنهم لو رجعوا الى السودان وعاشوا بين قبائلهم فان حريتهم فيها لا توازى رقهم عند المغاربة ومعيشة هذه القبائل هى على وتيرة واحدة دائماً فهم يتنقلون من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . وأرقائهم يشتغلون لهم وأكثر أوقاتهم يقضونها بالأحاديث يجتمعون ويضطجعون ويشربون الشاى ويتحدثون تارة عن سلطان المغرب وأحياناً عن استانبول وأحياناً عن الافريج وكثيراً ما يشنون الغارات على القوافل ثم ذكر صاحب هذا الكتاب أنه بقى مدة عند أحد المرابطين الشيخ باباؤلد حمدى وهو من المشايخ المشهورين هناك وكان يقيم فى قرية اسمها « بوزويرة » قال : وكنت أرى الأهالى يقومون الصبح ويصلون وراء هذا الشيخ وكان يعظهم وطالما نهاهم عن النهب والتعدى ولكنهم قلما ينتهون . وتكلم أيضاً عن الشيخ سعد بو وأصله من الحوض لكنه من ثلاثين

سنة مقيم في تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الافرنسي « بول سُلَيْمِيه » من يد أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسنا عند الافرنج . وهو يسكن في بيت من الحجر لا في مضارب وبر كغيره ويجلس على كرسي لا على الأرض ويقرأ القرآن ويفسره . وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير ، وقد ذكر المؤلف تفاصيل كثيرة عن سعد بو وأخيه أهملناها نظراً لمضى زمانها ولكون الفرنسيين بعد ذلك التاريخ احتلوا بلاد المغرب وأصبحوا هم أصحاب الكلمة في تلك الأصقاع فتغيرت الحالة هناك . وهو يذكر أن هذه القبائل المغربية كانت تنفر من الأوروبي وترى فيه العدو الدائم وليست أسباب هذه البغضاء هي العداوة بين المسلم والمسيحي فقط بل يظهر أن الافرنج الذين في سان لويس يسيئون معاملة هؤلاء المغاربة عندما يذهبون الى تلك المدينة ويحتقرونهم ويجرحون عزة أنفسهم والمؤلف ينصح قومه بتبديل هذه المعاملة

ويذكر عن كسل هذه القبائل شيئاً كثيراً ويقول ان شغل أراضيهم ومواشيهم كله بيد العبيد . ولا يمدح منهم غير أولاد بو سبع ويقول انهم القبيلة الوحيدة التي تشتغل وتأخذ وتعطي وأكثر شغلهم بالسملك المقدد . ولا شك أن الحالة قد تغيرت الآن هنالك عما كانت يوم كتب هذا التأليف أي منذ خمس وثلاثين سنة الى أربعين سنة لأنه طرأ على العالم تغيرات كثيرة غير أننا نستبعد أن يكون وقع تغير في حالة العلاقات بين المغاربة والأوربيين وربما كانت العداوة اليوم أشد منها قبل أن بسطت فرنسا جأيتها على المغاربة وذلك لأسباب لا نخفي عن أحد

الاسلام في السودان

مقال قيم للاستاذ ديريش وسترمان الألماني

في مجلة العالم الاسلامي الألمانية

نشر الاستاذ الالماني المعروف ديريش وسترمان مقالا في مجلة (العالم الاسلامي) الالمانية عن الاسلام في السودان ، نشره فيما يلي .

تقتصر الابحاث الآتية عن الاسلام في بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكمرون ومنها الى الحدود الغربية للوادي في اتجاه شمالي شرقي ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولوان نفوذ قبيلتي « الهوسا » و « الفولبا » في شمالي بحيرة تشاد أقل أثراً ، الا ان اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحي بحيث لا يمكن التفويق بين مقاطعتي « بورنو » و « باجيرسي » وبين المقاطعات الاخرى الغربية

يصعب جداً تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد في بلاد السودان ، من حيث مساحة الاراضي أو من حيث عدد المسلمين ، فان عدد السكان على العموم لم يخص احصاء دقيقاً للآن في هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم احصاء عدد التابعين لكل دين بالمرّة ، وذلك لصعوبة التفرقة في كثير من الاحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، اذ انه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه مثل قبائل « تيمبوس » و « كانوس » وبين عبيد الغابات التي تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أي معرفة ، الا انه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات في صالح الاسلام وليس في صالح الوثنية أو الاديان الاخرى وبما أن الاسلام دخل الاراضي السودانية من الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاماً من باقي البقاع ، ويحتل المسلمون اغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو انهم جاسوا خلالها في كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى

السواحل . ويعتبر العرب في هذه البلاد اشد القبائل اسلاما وغيره على دينهم ويليههم مباشرة الحاميون : المغاربة والفولبا والتواريج والهوسا ، ولو اننا نسمع من حين لآخر عن بعض الوثنيين في قبيلة الفولبا ولكن ذلك يرجع في الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، ويوجد كذلك القليل من الوثنيين الآن بين من يتكلم بلغة الهوسا ولكنهم ليسوا من أفراد الهوسا الحقيقية .

أما في افريقيا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتمد على احصائيات دقيقة ، ففي السنغال مثلا يعيش ٧٨٥٠٠ من الفولبا و ١٥٨٠٠٠ من الدكرور وكل من الفريقين نخور معتر بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جداً ، وأما الولوف واليولوف وهم أكبر عنصر في المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفي الوثنية بينهم على عكس قبيلة السيرر وعددهم ١٩٠ ألفاً وهم خليط بين الفولبا والولوف فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل السوننكة التابعين للماندينجو فشيديو الغيرة على اسلامهم . وكذلك أصبح عدد الوثنيين قليلاً جداً بين قبائل المالنكة

أما في غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين الفولبا حوالي ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألفاً من المالنكة وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقي السكان فمنهم ٣٨٥ ألفاً من الجالونكة وكانوا في الاصل يقطنون في الجهات الشمالية في فوتاجلون فأغلبهم من الوثنيين ، الا ان الاسلام يتقدم بينهم تقدماً سريعاً بفضل مجهود قبائل الفولبا ، وباقي الاهالي من قبائل تمنا ومندا ونالوتوما وكيسي يكادون يكونون جميعاً وثنيين

ويبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالي مليوني نسمة ، منهم ٢٤٢ ألفاً مانداجولا من المسلمين والسينوفو وأغلبهم وثنيون وباقي الاهلين يكاد لا يكون للاسلام بينهم اثر ، وكذلك الحال في داهومي التي يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفاً ، ولا يزيد عدد المسلمين بها على ٧٠ ألفاً ، وأما المقيمون على شواطئ نهر نيجرو يطلق عليهم اسم دندى فهم شيديو التمسك بالدين الاسلامي ، وكذلك قبائل الفولبا الرحل الذين يقيمون في مقاطعة باربا بجوار قرى الوطنيين ، وأما الاهالي الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغاً بعيداً ففي سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل البامبارا الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، الا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين

السكان على وجه العموم . وكذلك الحال في مقاطعة موسى التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هودين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبعون العادات والتقاليد الوثنية و يبلغ عدد سكان سنغال الأعلى من خمسة الى خمسة ملايين ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن مليونين

وعلى العموم يمكن القول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج وداهومى وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدى فى تقاليدهم وعباداتهم

وأما فى المستعمرات الانجليزية فلانكاد نحصل على معلومات بالمرّة عن عدد المسلمين ويضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضاً

و يبلغ عدد سكان سيراليونا مليوناً و ٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لا يتبع الاسلام فيها غير القليل من الفولبا من سكان الجهات الشمالية وغالبية الماندينجو ، وأما قبائل تمنا ومندا فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضاً

وفى المدن الساحلية يغلب عدد الأهالى المسلمين ، وفى بورت لوكوه سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريباً من المسلمين ، وفى فريتون توجد ٥ مدارس اسلامية حكومية بها مالا يقل عن ٧٦٠ تلميذاً مع أن عدد السكان لا يزيد على ٣٤ ألف نسمة

فالحال اذاً فى سيراليونا هى أن الاسلام جاءها من داخل البلاد الى الشواطىء حتى عم جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنيّتها

وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مليوناً وستمائة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، الا أن الاسلام تقدم بينهم تقدماً سريعاً ، فانه لا توجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس اسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينة نامالا وهى عاصمة المقاطعات الشمالية ملايقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوماً بعد يوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشاراً هى الهوسا والماندينجو الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحي ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بمالا يقل عن مائة ألف وقد أصبح الآن بدون مغالة لا يقل عن ضعف هذا العدد

وأكثرهم في المقاطعات الشمالية

وقد لا توجد جهة أخرى في البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام في الفترة الأخيرة مثل نيجيريا ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٦ مليوناً ، خصوصاً في الأقاليم الجنوبية التي كانت حتى زمن قريب تعتبر موطناً للوثنيين ، وأما في شمال نيجيريا وهي البلاد التي فتحتها قبائل الهوسا والفلوبا فإن الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التي تقطن جنوب نهر النيجر والبنوى وعلى امتداد الشواطئ الشمالية والشرقية من نهر النيجر فأغلبها من الوثنيين . وفي شمال نيجيريا مالا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، الا انهم في طريقهم الى الدخول في الدين الاسلامي بفضل مجاورتهم للأغلبية الاسلامية الساحقة هذا فضلاً عن أثر ثقافة الاسلام فيهم

وأما في جنوب نيجيريا فإن المسلمين لا يكونون شعباً موحداً رغماً عن التقدم الباهر الذي أحرزه الاسلام بين الأهالي في السنوات الأخيرة خصوصاً في المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية في هذه النواحي ، حتى ان سكان مدينة لاجوس — وهي مركز رئيسي للتبشير المسيحي — يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامي ، وكذلك يتقدم الاسلام في باقي البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة وفي مستعمرة غامبيا أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها على ١٦ ألف نسمة أما الحال في المستعمرات الألمانية السابقة فإن توجو تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ ألفاً من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لا يذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة . وفي الكمرون يوجد شعب اسلامي موحد لا يستثنى منه غير سكان جبال المنديرا الوثنيين والذين هم في عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضاً بالرغم من ذلك . وفي اداماوه تدين البقاع التي احتلتها قبائل الفولوبا كذلك بالدين الاسلامي ولو أن الوثنية تعم النواحي الجنوبية .

ويلاحظ أن تقدم الاسلام قد وقف قليلاً في هذه النواحي منذ زالت دولة الفولوبا وان كانت التقاليد التي ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسيادهم المسلمين لازالت متبعة ومحجوبة عندهم ، وقد تقدمت قبائل الهوسا المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطئ في المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيراً ، وعلى الجلة فإن الاحصائيات الأخيرة تدل على أن ما يقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية (عن مجلة نور الاسلام)

العرب في الكونغو

للامير شكيب

اطلعت على رحلة لأحد أدباء البلجيكي المسمى فريزفان در ليندن Fritz Van der Linden استوفى فيها الشرح على الكونغو ، فعثرت فيها على بعض جل تتعلق بالعرب في الكونغو ، وعلمت أن الاسلام قد دخل في هذه المملكة العظيمة التي هي الكونغو البلجيكي . قال في الصفحة ٢٦١ ، في بحث عن تداول الأهالي للسكوكات : « ان أكثر الأهالي المستعربين Arabisés يعرفون النقود ، وان تجار العرب من الكاسونغو وأكبر التجار الذين لهم علاقات مع زنزيبار ، يؤثرون الذهب لاسيما الليرة السترلينية ، لأن علاقاتهم متصلة مع عرب أوغانده ، والمستعمرات الألمانية في شرقي افريقية . وتراهم مع شدة مراقبة الحكومة ، يتمكنون من أخذ العاج وادخال البارود الى مستعمراتنا سراً . وأما تجارة الرقيق فانهم لا يتعاطونها الا في داخل البلاد من قرية الى قرية ومنع ذلك يكاد يكون مستحيلاً ، اذ ليس الاسترقاق هو اليوم بالقوة المسلحة كما كان قبلاً ، بل فظائع الاستعباد التي كان يصفها ليفنسون وستورم وهوديستر هذه كلها دخلت في خبر كان . ولكن العربي أو المستعرب لا يشتغل بيده فلا يستغنى عن العبد ، لأجل الغراس وخدمة البيت والنقل والجل ، وليست معاملته للعبد بسيئة وقد ينتقل العبد من سيد الى سيد ، والذي يظهر انه لو تحرر هؤلاء العبيد كلهم دفعة واحدة لكانت ضربة قاضية على سعادة البلاد ، وتحول هؤلاء الى رعاع متشردين .

وان العنصر العربي لا يزال عظيماً في جهات كاسونغو ، لكن مجده الماضي قد زال ، والمراكز التي كانت لموني محره (١) وسعيد بن عبدلى قد ذهبت . أما كاسونغو القديمة ، فهي قرية جميلة مبنية باللبن مقطعة بالشوارع وهناك عرب صراح يلبسون جبياً بيضاء ، ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزاً بديعاً ، سيأهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم

(١) يظهر انه اسم زعيم عربي

وسكناتهم مقرونة بالأدب التام ، والكياسة المتناهية ، والرصانة الفائقة ، فنسق حياتهم يختلف كثيراً عن نسق الزنزيباريين العبيد القدماء ، الذين يظهرون عظمة تستحق السخرية ، بتقليدهم ساداتهم العرب في كسوتهم ورفاهيتهم .

ومرة دعاني أحد العرب في كاسونغو الى منزله قائلاً : سفا كيدي كاريبو . ومعناها : صباح الخير تفضل . فدخلت الى بيته فوجدته مفروشاً بالحصير ومزيناً بالمتاع اللطيف ، وأبواب البيت والشبابيك كلها منقوشة ، وعلى أحد الأبواب كتابة عربية أظنها آية من القرآن . فقدم لي العربي طاساً لذيذاً من القهوة ، وباعني بعض الحصر ، وهو يظهر الله انما أسدى الى مكرمة .

وترى القرى على الطريق المؤدية من كاسونغو القديمة الى كاسونغو كلها جميلة نظيفة والمسحة العربية بادية عليها ، ولكن مرض النوم فاش في هذه الأنحاء ، وقد نقص كثيراً في عدد الأهالي في جوار كاسونغو . ولا تجد في جوار كاسونغو أكثر من ألف مستعرب من الرجال البالغين ، وثلاثة أو أربعة عرب صراح ، وأربعة أو خمسة زنزيباريين . وليس بين الأهالي جامعة يخشى من عواقبها ، فنقدر أن ننظر الى المستقبل باطمئنان .

ثم ذكر مدينة نيانقفة Niangwe ، فنقل عن قائم المقام السويدي غليروب (Gleerub) قوله في سنة ١٨٨٦ :

« ان نيانقفة هي مقر العرب الأصلي وهي مقسومة الى قسمين يفصل بينهما واد عميق تكثر فيه مزارع الأرز ، فاذا بلغ ارتفاع نهر الكونغو معظمه طمت المياه على هذا الوادي . وقد ازدادت هذه المدينة من عهد ستانلي ازدياداً عظيماً ، فأهلها اليوم يبلغون نحو عشرة آلاف . وترى على جانبي الوادي أنحر المزارع والمغارس وجميع الأشجار المثمرة المجلوبة من افريقية الشرقية ، كذلك العرب أدخلوا فيها المواشي والخيول الفارحة للركوب » اه . قال فريتران درليدن : « أما اليوم فقد نزلت نيانقفة عن درجتها هذه ، بسبب ثورة سنة ١٨٩٣ ، وبمرض النوم أيضاً ، ولم يبق فيها الا ألفا رجل . وتحولت تلك المخاريف البديعة التي كانت مصطفة بها الأشجار على ضفتي النهر ، الى شعاب سطاً عليها العوسج والشوك ، ولم يبق في نيانقفة منزل يستحق الذكر ، سوى بيت بيانسنغا Pianisengha

هذا الزعيم العربي الذي بقي أميناً للحكومة البلجيكية ، وحظي بمقابلة الملك في قصر بروكسل .

ثم في الصفحة ٢٧٤ من الكتاب ذكر المؤلف نهراً يتشعب من الكونغو ، ويمتد نحو ٣١٥ كيلومترا بعرض يتفاوت من ٢٠٠٠ الى ٦٠٠ متر ، وقال ان على جانبيه القرى ، وان الأهالي هم من العرب والمستعربين ، والطرّاء من أما كن بعيدة . ووصف العرب بالنظافة والالتقان في العمل ، وقال ان المستعربين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز واسعة . ثم أطرى هؤلاء الأهالي في شدة انهما كهم بالتجارة .

وفي الصفحة ٢٩٠ ذكر قرية مستعربة مدحها بنظافتها ، وبين الفرق العظيم بينها وبين القرى الأخرى التي يسكنها غير المستعربين ، وشاهد فيها سوقاً مهمة تقام كل يوم من الصبح الى نحو الظهر في ساحة القرية ، ووصف الدكاكين التي فيها ، معروضة أمامها أصناف البضائع ، وحوانيت الخياطين وباعة الخزف والحوص وغير ذلك ، وقال ان المستعربين رحبوا بهم ترحيباً ودعّوهم الى منازلهم ، فعاجوا على معلم كتاب أمامه جماعة من الصبيان يعلمهم القرآن .

وذكر ان سكان هذه القرية المستعربة يبلغ عددهم ألفي رجل . وقال انه سأل المسيو دومونستر المندوب العام في الكونغو ، عن عدد المستعربين في الولاية الشرقية من الكونغو فقال له : لا أقدر أن أجزم بشيء ، ولكنني أظن انهم نحو مائتي ألف . فقال له : أفلا تراهم خطراً دائماً على المستعمرة ؟ فأجابه : كلا . لأنهم متفرقون ، ولاننا نحن نملك القوة اللازمة لقمع كل ثورة . ثم قال له :

« طالما انهم هؤلاء العرب والمستعربون تهما باطلة ، فلا أنكر انه يجب علينا مراقبتهم واجبارهم على طاعة القوانين ، ولكن بما لأنكره أيضاً انهم عنصر جيد في البلاد ، لأنهم قوامون على الزراعة ، مديون بطبعهم ، وعندهم ميل الى الجنس الأبيض ، ونحن كل سنة نشترى منهم في جهات ستانليفيل وبونتيارفيل ولوكاندو وكيروندو ، مقداراً مهماً من الأرز » . اهـ

سلطنة راج

للشيخ

معلوم انه كان رجل يقال له الزير باشا حاكما من قبل الايالة المصرية على بلاد بحر الغزال من السودان ، فصرفته الحكومة المصرية من هناك برجل ايطالى الأصل ، اسمه غسى باشا ، واعتقلت الزير باشا بمصر . فثار ابنه سليمان انتقاما لأبيه ، فانهزم وقتل ، وتفرق الجماعة الذين كانوا حوله وحول أبيه ، ومنهم عبد الزير اسمه راج ، انفرد بنفسه وتبعه كثير من الضباط الذين كانوا مع الزير ، فخذ ثمانية ييارق كل يرق ١٢٠ رجلا الى ١٣٠ رجلا مسلحا . ووقع ذلك سنة ١٨٧٩ فباشر راج بهذه القوة غزواته الشهيرة ، ولقبه رهطه السلطان راج وهذا كان مبدء أمره .

وقد كتب كثير من الأوربيين على راج هذا ، من جلتهم صديقنا البارون ماكس أو بنهايم الألماني الذي هو من أشهر الرحالات الذين عرفوا الشرق وأهله ، فانه ألف كتابا اسمه Rabe und Tchadgebiete أى ، « راج وبلاد تشاد » ، جاء فيه بخبر هذا الرجل الأفاق على وجهه (١٩٠٢) وكذلك كتاب جنيتل Gentil المسمى « سقوط سلطنة راج » المطبوع سنة ١٩٠٢ أيضا . وقد جاء ذكر راج في كتاب للدكتور دكورس Decorse طبيب الجنود في المستعمرات الفرنسية ، والمسيو دمومبين Demombynes أحد أساتذة مدرسة المستعمرات ، واسم هذا الكتاب « راج وعرب الشاري » وألف المسيو دوجارى Dujarrie كتابا اسمه « حياة السلطان راج » وغير ذلك .

وأول ما بدأ راج بالعمل كان في « دار مانغا » اذ منها غزا غزوة في دارفور ، ثم في واداي ، ثم واصل غزواته في باطن السودان ، وجعل مركزه في بلاد شاري . ثم صعد في نهر شاري الى ضفته الشمالية ، ثم نزل الى ضفته الجنوبية وأقام مدة ببلد « كوتى » وغزا بلاد « سومراى » ومازال من غزاة الى غزاة الى سنة ١٨٩٢ فأقام ببلدة « بوسو » على الشاري وجهاز حلة على « الباقرى » ، فاستولى عليها . والتجأ سلطان الباقرى الى بلاد الشاري الأسفل ، ثم الى واداي (١٨٩٤) فوجه راج حينئذ عزمه الى بورنو واستولى على

« كرناك لوغبون » فأرسل اليه سلطان بورنو قوة يقودها محمد طاهر وما لا كريم ، فهزمها راجح وزحف راجح قاصدا « كوكا » عاصمة بورنو بطريق « نقالة » نخرج هاشم سلطان بورنو لقتاله ، والتقى في أم « حيس » فانكسر هاشم ودخل راجح « كوكا » ، وجعل عاليها سافلها ثم اعتصم ببلدة اسمها « ديكوا » فقام بسلطنة بورنو أبو خياري عم السلطان هاشم ، وناوش راجحا القتال . ثم انبرى لمقاومة راجح زعيم ديني اسمه الشيخ أبو قنطور ، فصارت بينهما واقعة في « غاجيبو » الى الشرق من ديكوا ، ومع هذا فبقى راجح سائدا ، وكان سلطان زيندر يدفع اتاوة لسلطان بورنو ، فاما استولى راجح على بورنو أبي دفعها له ، فزحف فضل الله بن راجح الى سلطان زيندر المذكور وقاتله فلم يظفر منه بطائل .

وبينا الأمور متسقة لراجح وهو يفكر في تأسيس سلطنة عظيمة اذ زحف اليه الفرنسيين الذين هالهم مستقبل أمره ، فقصدها خضد شوكته قبل أن يستفحل شأنه ، ففي ١٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٩ وصل الضابط بريتونه Bretonnet الى كونو ، فنهد اليه راجح بقوة صاعدا نهر شاري وما زال من بلد الى بلد حتى وصل الى كونو ، فلما علم الضابط الفرنسي بوصوله أخلى كونو واعتصم بهضاب عالية موافقة للدفاع من بلاد « نياليم » ، ولكن راجح استأصل تلك القوة الفرنسية بأسرها مع قوة « غاورانغ » سلطان البايرمي ، الذي كان حليفاً للفرنسيين ، وذلك في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وعاد راجح الى كونو فهاججه الفرنسيين بقيادة جنيتيل في ٢٧ أكتوبر من السنة المذكورة ، فلم يقدروا على أخذ المدينة ، ولكنهم اضطروا راجحا الى اخلائها من نفسه . فانحاز راجح الى بلدة « ميلتو » ثم قصد « لوغون » من جهة بحر الرقيق وعاد الى ديكوا ، فلم يبق بها الا شهرا وذهب يحشد جنوده في « كوسرى » .

فزحفت اليه معاً جنود البعثة الصحراوية ، وبعثة افريقية الوسطى ، وبعثة شاري ، تحت قيادة جولاند Jolland وما نيه Maynier وذلك في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ثم في السنة التالية أردفا بقائدين آخرين ، فورو Foureau ولامي Lamy فجاء فضل الله بن راجح وناوش مانييه القتال ، وكانت قوة فضل الله ستمائة بندقية . ثم بلغه ان لامي استولى على كوسرى . فزحف الى كوسرى من الجنوب ثم اضطرا ان يرجع الى لوغون . وجاء راجح بنفسه فخيم في « ختة » ودارت رحى الحرب فانكسر راجح وقتل في ٢٢ ابريل ، ولكن

رجاله قتلوا من الفرنسيين عدداً كبيراً ، منهم القائد لامى نفسه ، وقائد آخر اسمه « كوانته » . وبلغ فضل الله خبر مقتل أبيه ، وهو فى لوغون ، فاخلى هذه المدينة قاصداً ديكوا التى كان فيها اخوه « نيابى » ، فقصده الفرنسيين الى ديكوا فخرج منها بدون قتال ، فتعقبه الفرنسيين بقوة أدركته فى ٢ مايو سنة ١٩٠٠ فى مكان يقال له « دغيمبه » فدحرته الى الجنوب فصاروا وراءه الى محل يقال له « ايشيغوية » فلم يفوزوا منه بطائل ، ثم وقف فضل الله فى بلدة تسمى « برغامه » وأخذ يحشد جنوده مراقباً حوادث بورنو .

وكان سلطان بورنو « عمر سانداه » يكره الفرنسيين فعزله هؤلاء ولوا مكانه اخاه « غرباى » فقصده فضل الله وتغلب عليه فى واقعة « نقاله » ففر الى جهة كانم . فاشتد عزم فضل الله وكثر عن ناب العداوة للفرنسيين وبعث الى قائد منهم اسمه « رويوليو » يطالبه بإسلاف أبيه التى أخذوها من كوسرى ، فأرسل رويوليو الى فضل الله ثلاثة رسل يعرض عليه الملاقاة فأمر فضل الله بقطر قباهم . فقصده رويوليو بجيشه وهزمه : فالتجأ فضل الله الى مستعمرة النيجر الانكليزية ثم رجع الى معسكره الأسمى فى « برغامه » وهناك دخل فى مفاوضات مع الانكليز وزاره الماجور « ماك كينتوك » ، ثم بلغ فضل الله ان غرباى عاد الى بورنو واستوى على عرشها . فقصده وهزمه ودخل ديكوا . فزحف الكولونيل الفرنسى دستناف الى ديكوا فوجد فضل الله قد برحها فأرسل فى أثره فوة دهمته فى « قوجبه » من أراضي المستعمرة الانكليزية فقتل فضل الله فى المعركة وتشتت الذين معه ، ودخلوا الى بلاد « كيردى » التى أهلها وثنون فقاتلوهم بالسهم فاضطر نيابى بن رباح أن يستسلم الى الفرنسيين . وهكذا انتهت سلطنة راج وأولاده بعد أن لمعت سيوفهم لمعانا هائلا فى باطن افريقية .

﴿ تابع للكلام على مملكة واداي ودارفور وباقيرمي ﴾

وبونو وغيرها من ممالك أواسط افريقية *

الملك شبيب

تقدم ما نقلناه عن تأسيس سلطنة واداي من رحلة الشريف بن عمر التونسي ، وقد اطلعنا على رحلة لرجل انكليزي محفوظة عند السادة السنوسية ولم يصرح فيها باسم المؤلف ، ففيها رواية ثانية وهي هذه ملخصة :

في السنة العشرين بعد الألف أسقط عبد الكريم بن يامي حكومة « تينجر » الكافرة وأسس حكومة واداي . وابنه خاروط الذي خلفه أسس مدينة « وارا » وجعلها عاصمة للمملكة المذكورة . وخلفه ابنه خريف الذي قتلته قبيلة « تاما » ثلاث سنين من ملكه . وخلف هذا أخوه الأصغر يعقوب عروس . وهذا هو الذي كان قاتل سلطان دارفور موسى ابن سليمان وسليمان هذا هو أول سلطان مسلم على دارفور . وقد دارت الدائرة على يعقوب سلطان واداي وخلفه ابنه خاروط الثاني الذي استمر ملكه أربعين سنة بالراحة والسعادة . ثم خلفه ابنه جوده الملقب بخريف التيمان ، والملقب أيضاً بمحمد صولاي الذي معناه محمد المنجي ، لأنه نجى واداي من نير دارفور في مدة السلطان أبي القاسم سلطان دارفور وهذا هو المسلم السادس من سلاطين هذه المملكة . ثم ان محمد صولاي هذا استولى على كانم ، انتزعها من يد السلطان بورنو ، وتولى أربعين سنة . وخلفه ابنه صالح الملقب « بدر » ولم يكن محمود السيرة . وفي السنة الثامنة من حكمه ثار عليه ابنه عبد الكريم الملقب بصابون فقتل الوالد وتولى الولد وكانت حكومته أكثر حكمة من جميع الحكومات التي عرفتها واداي . فتقوت في أيامه واداي وطوّعت الباقرمي وأراد أن يفتح طريقاً الى الشمال الى البحر الأبيض ، لكنه توفي سنة ١٢٣٠ تاركاً ستة أولاد من الذكور لعشر سنين من ملكه . ووقع اختلاف بين أولاد صابون وحروب ، انتهت بظفر حزب ولده يوسف . فهذا تولى ١٦ سنة بالظلم والقهر ثم قتل سنة ١٢٤٥ وخلفه ابنه راكب ، فات بتلك السنة . وجلس على كرسي الملك

أحد أفراد البيت المالك واسمه عبد العزيز بن راداما ، فتولى نحو خمس سنوات ونصف سنة وتوفى ، فتولى ولده الصغير آدم فهذا بقي سنة واحدة ثم أخذ أسيراً الى دارفور بطلب محمد صالح أخى السلطان عبد الكريم صابون الذى استمد محمد فضل سلطان دارفور لاسترجاع مملكته . جلس محمد صالح على كرسى واداي سنة ١٢٥٠ وأحسن السياسة ، وفى سنة ١٢٦١ هاجم مملكة بورنو فلم يغز بطائل ثم ثار محمد بن محمد صالح بابيه ونشبت حرب داخلية . قال الرحالة الانجليزى : ولما برح الناقل باقرى ، كان سمع أن الابن غلب أباه وجلس مكانه فليس فى هذه الرواية شئ* من خبر انتساب سلاطين واداي الى بنى العباس .

وذكر هذا الرحالة فوائد كثيرة عن أواسط افريقية ، فلما كان فى سياحته هناك أى منذ ثمانين سنة ، كان جيش دارفور عشرة آلاف فارس ، وكان فى وسع واداي أن تجهز خمسة أو ستة آلاف من الخيالة ، وكانت مملكة الباقرى تقدر أن تجند ثلاثة آلاف فارس ، هذا مع العرب الذين يقال لهم « شوا » ويقولون لهم « شيوا » .

قال : وعرب شيوا الذين فى باقرى ، ينقسمون الى أولاد سلامه وبنى حسن وأولاد موسى وأولاد على وديغاغره

وذكر معلومات أخرى عن تأسيس ممالك دارفور والباقرى أو الباجيرى ماآها : انه من السنة التسعمائة الى الألب للهجرة ، كانت أمة التينجر من الكفرة تملك جميع دارفور وواداي والباقرى ، فى نحو السنة الألف غلب على دارفور الأمير المسمى كورد وأسس سلطنة دارفور وكان خلفه الناك سليمان وهو أول من أسلم من ملوك دارفور . ثم فاز عبد الكريم ابن يامى بسلطنة واداي . وأسست سلطنة الباقرى بعد واداي بعشر سنوات ، وأول من ملكها من المسلمين السلطان عبد الله ، وخلفه ولده « وانجا » وخلف وانجا « لاونى » وفى مدة لاونى اضطرت الباقرى أن تدفع اتاوة لسلطنة بورنو . ثم ملك السلطان بوغوماندا فى الباقرى ، ثم الحاج محمد الأمين ، وكان ملكه حليفاً للاقبال والمجد وخلفه ابنه عبد الرحمن فخار به عبد الكريم صابون سلطان واداي ، وقهره وقتله بطلب محمد الكانمى شيخ بورنو من عبد الكريم^(١) ووضع عبد الكريم على تخت الباقرى ابن السلطان المقتول وهو عبد الرحمن وكان صغيراً . فجاءه أخوه الأكبر عثمان وسمل عينيه

(١) الرحالة التونسي يذكر أن سبب غزو عبد الكريم صابون للباقرى ، هو سوء سيرة سلطان هذه البلاد وتماديه فى اتباع شهواته حتى انه تزوج باخته مع نهى علماء الدين له بأجمعهم

وجلس مكانه فعاد سلطان واداي الى الباقرى وحارب عثمان وهزمه وأعاد الى السلطنة أخاه الأعمى . ولما عاد عبد الكريم الى بلاده ، ظهر عثمان وغلب أخاه وأغرقه فى النهر وجلس محله ثانية . ثم نار به الأهالى فخلعوه ، ونصبوا أخاً آخر له يسمى الحاج فالتجأ عثمان الى عدوه القديم سلطان واداي . فأعاده عبد الكريم الى ملكه ولكنه ضرب عليه اناوة أعظم مما كانت تؤدى الباقرى الى بورنو . فلما رأى الشيخ سلطان بورنو أن الباقرى لا تريد أن تكون تحت سلطة بورنو ، استمد يوسف باشا والى طرابلس لقتال الباقرى ، فأرسل اليه أمير فزان مصطفى الأجر ومعه قوة سنة ١٢٣٣ ، ثم فى سنة ١٢٤٠ كانت حرب انفالا الثانية ولم يوفق سلطان بورنو لتدوين الباقرى . ومات عثمان سنة ١٢٦٠ وخلفه ابنه عبد القادر الذى كان هو الجالس على عرش باقرى يوم حرر ذلك السائح رحلته وقال ان سكان باقرى يومئذ كانوا مليوناً ونصف مليون نسمة .

وذكر سياحته الى مملكة « لوغون » ومقابلته لسلطانها ، ولكن بدون أن يشاهده وجهاً لوجه بل كان السلطان قاعداً وراء ستر من الحصير ، وكان يترجم بينهما ضابط بورنوى ، اسمه « كاشلا معدى » كان ذهب الى هناك لقبض الاتاوة السنوية التى تدفعها لوغون الى بورنو . ويقال لسلطان لوغون « ميتارا » (بتشديد الياء) فعرض السائح الانكليزى السلطان المذكوران الدولة الانكليزية كانت أرسلت ضابطاً معتمداً من قبلها وهو المسمى بالرئيس خليل ، لاجل تقديم التحية لوالده « ميارا صالح » ، وهى الآن مرسلته هو لاجل تقديم التحية لسعادته السلطانية . فسر السلطان بذلك وكان اسم هذا السلطان ميارا يوسف . وكانت مملكته تدفع اناوة لبورنو وللباقرى معا . ويقول السائح الانكليزى ان مملكة لوغون كانت جديدة ولم يكن مضى على دخولها فى الاسلام أكثر من ستين سنة ، يوم جاءها السائح . وقال ان فيها قبائل من العرب وذكر انه فارق مدينة قارناق لوغون عاصمة لوغون قاصداً الباقرى ، وبعد أن ذكر تفاصيل كثيرة عن أحوال تلك البلدان ، وصناعتها وزراعتها وغاباتها وأنهارها ، ومن عرف من رجالها ، ذكر رجلاً اسمه الحاج أبو بكر صادق من أهل الباقرى كان يحسن العربية ، أنه سهل له أموره وساعده فى شئائى كثيرة عرضت له ، وفى دخول « ماضه » عاصمة الباقرى . وكان سلطان الباقرى يوم وصول السائح غائباً فتعرف فيها بثلاثة رجال أحدهم الحاج أحمد ، أصله من البامبارة

على ساحل البحر المحيط ، كان يتجر بين تنبكتو والتوات ثم قصد المدينة المنورة ، ومنها جاء الى بر الشام وحضر حصار ابراهيم باشا ابن محمد على لعكا ، ثم ذهب الى بغداد والبصرة وأخيراً عاد الى المدينة المنورة ، وكان مجيئه الى الباقرمي لاجل أخذ عبيد لخدمة الحرم النبوي . والثاني هو المسمى بالفقيه سامبو من الفلانة ، كان مكفوفاً ، لكنه في غاية النباهة ، قرأ في الازهر وتبحر في الادب والفلسفة ، وكان قصد مدينة زبيد في اليمن لدرس الحساب والجبر لاشتهار زبيد بهذه العلوم ، فبال دون وصوله الى زبيد ما كان من حروب الوهابية ، فجاء الى دارفور ومنها الى واداي ، واتصل بسلطانها عبد العزيز ، ثم بعد موت هذا السلطان تحول الى الباقرمي . قال السائح الانكليزي ان فقيه سامبو كان يروي تاريخ الخلافة ، ويحدث عن عظمتها من بغداد الى الاندلس ، ويعرف ذلك حق المعرفة . وأما الثالث ، فكان رجلاً مصرياً اسمه سليمان هو في غاية التهذيب ، وقد عرف استانبول ومكة وغيرهما من البلدان . قال واثناء اقامته بمأضه احتبس المطر طويلاً ، فتطير به الالهالي وقالوا ان قدوم هذا السائح الانكليزي هو السبب في امتناع الغيث فقال لهم : ان هذا عيب عليكم لانكم مسامون ولا يجوز أن تكون لكم أفكار عبدة الاصنام . فقال له أحد رجال تلك الدولة : نعم انه لا يحتبس المطر بسبب أحد ولكن نرغب اليك أن تشترك أنت مع الالهالي في الدعاء بنزول الغيث . ثم وردت الى السائح كتب من الحكومة الانكليزية تشكره فيها على عمله ، ومن سلطان بورنو يلتمس منه الرجوع اليه . فوقعته هذه الكتب في أيدي رجال الحكومة الباقرمية ، فحصلت لهم فيه شبهة وأرادوا أن يعتقلوه ، وطلبوا منه كتاب الرحلة الذي كان يحرره ، وأحيلت هذه الكتب والرحلة الى جماعة العلماء الذين هناك ومنهم الفقيه سامبو ، فبعد البحث فيها قالوا للحكومة ليس في هذه المكاتبات شيء يوجب الخنر ، وهذا الرجل انما غايته العلم والاطلاع . وبعد ذلك امكنت السائح مقابلة السلطان عبد القادر الباقرمي ، فقال للسلطان : ان الدولة الانكليزية هي متفقة مع سلطان استانبول ! ومن هنا يظهر انه طالما تقرب الانكليزي الى ملوك الاسلام ، حتى في السودان ، بدعوى الاتفاق مع سلطان استانبول

شرقي افريقية

المقدمة

من البلاد الاسلامية المكدودة في افريقية ، بلاد سواحل زنجبار والصومال والغالـه Gallas والقسم الاسلامي من الحبشة . ولما كان هدفنا الذي نرمي اليه في هذه التعليقات ليس التعريف بجميع بلدان الاسلام وشؤون الاسلام ، بل التعريف بما نأى من البلاد وغمض من الشؤون وخفي من الأخبار ، مع ترك الحقائق المشهورة والتواريخ التي يعرفها الخاص والعام ، رأينا أن نقول كلمة عن هذه البلاد .

لا يخفى أن سياسة « المناطق » هي الصفحة الأولى من الاستعمار ، ولا يوجد شيء أشد خطراً على الممالك المستقلة من تعيين الدول العظام « المناطق » التي يتفقدن على اعطائها لكل منهن ، فقد تكون أعدى من الجذام ، وقد تجر الى الحروب العظام . وما أخذت فرنسا مرا كش الامقابلة لأخذ انكلترة مصر ، وما دخلت ايطالية طرابلس الامقابلة لأخذ تينك الدولتين مرا كش ومصر . وما شبت حرب البلقان الا على أثر الغارة الايطالية على طرابلس وذلك أن دول البلقان الصغيرة لما رأت ايطالية قد استباححت حي الدولة العثمانية بدون أدنى تحرج ، وخلافاً للمعاهدات الدولية ، أباحت هي لنفسها ما أباحه غيرها لنفسه ، فكانت الحرب البلقانية التي هي بلا مرأ أم الحرب العامة . فأنت ترى ما ولده جشع الدول الكبرى وما نشأ عن تقسيمات فرنسا وانكلترة في افريقية بموجب عقد سنة ١٩٠٢ ، ولندكر لك الآن خلاصة استيلاء الألمان على مستعمرة شرقي افريقية ، وقضاءهم على سلطنة تلك البلاد التي كانت للعرب فنقول :

كان بسمارك يكره الاستعمار ويذهب الى كون ألمانيا يجب أن تكتفي باستثمار داخل بلادها ، وتمضي في طريق ترقيقها الصناعي الذي فاقت فيه جميع الأمم ، وكان يتجنب مشكلات الاستعمار التي هي مفاتيح للحروب والمصائب ، ولكن جميع الألمان الذين كانوا يسيحون في البلدان الشرقية ، ويرون أعلام فرنسا وانكلترة وهولاندة خافقة على بلاد

السود والجر والصفرة ، لم يكونوا يرون رأى بسمارك ، بل كانت تأخذهم الغيرة من تبسط هاتيك الدول وراء البحار مع انكماش ألمانيا في داخل بلادها . مع أنه كما قال الشاعر :

فلا كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

فم لما اتسعت تجارة ألمانيا وارتقت صناعاتها هذا الارتقاء الهائل ، لم تشأ الشركات الألمانية أن تبقى في استغلال المواد الخام عالة على تجار الممالك الأخرى ، بل أحببت أن تكون لها مستعمرات هي أيضاً تأخذ منها ما تحتاج اليه رأساً ، وما زال الألمان يبسمارك حتى أنزلوه الى ميدان الاستعمار .

وأول شركة تجارية ألمانية حاولت التملك في افريقية هي شركة فرمن Wöermann النقلية ، كانت لها مصالح عظيمة في سواحل افريقية الغربية ، فأرادت عام ١٨٨٢ أن تملك لنفسها مرسى على تلك السواحل ، وسنة ١٨٨٣ أبلغ سفير ألمانية في لندن حكومة بريطانية العظمى ، ان الأراضي التي لا يكون عليها دعوى من انكلترة أو دولة أخرى ، تحفظ ألمانية لنفسها حق وضع اليد عليها . وفي ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٤ أبلغت ألمانية انكلترة أن الأراضي التي تملكها الألمان داخل مرسى « انغرابكينا » وشمالى نهر الاوراج بموجب صكوك بينهم وبين بعض زعماء الهوتنتوتوه هذه ، قد صارت تحت الحماية الألمانية . وأبدت حكومة مستعمرة الكاب معارضة لهذا التملك الألماني في تلك الناحية ، فأرسل بسمارك بارجتين حريتين سلمتا الالمان هاتيك الأراضي بالقوة .

وفي تلك الاثناء كانت فرنسا قد اتفقت مع انكلترة على اقتسام البلدان الواقعة شمالى سيراليون ، وانكلترة اتفقت مع البرتغال على اقتسام مستعمرات جنوبى افريقية ، فاشتدت حركة الغيرة في المانية ، وسنة ١٨٨٣ اشترت شركة فرمن السالفة الذكر أرض مالنبا Malinba فى الكامرون ، وسنة ١٨٨٤ التمس بعض زعماء بلاد توغو باغراء تجار الالمان حاية الامبراطورية الألمانية ، ومنذ ذلك الوقت تأسست مستعمرة الكامرون واضطرت انكلترة وفرنسا ان تحدد حدود مستعمراتهما بينها وبين المانية ، التي صارت مالكة الكامرون والتوغو ، وتم ذلك سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٦ .

ولم يقتصر الالمان على منافسة الانكليز والفرنسيين فى غربى افريقية بل تبسطوا فى شرق هذه القارة ، فاشترت « شركة الاستعمار الالمانى » سنة ١٨٨٤ أراضي واسعة فى

بلاد فيتو Witu ، واتفقت مع سلطان فيتو على أن يعترف بحمايتها للاراضى المذكورة . فاحتج سلطان زنجبار على عمل سلطان فيتو وزعم أنه لا يملك حق النزول للامان عن شى ، وسرح جنودا الى هاتيك الارزاء لحفظ حقوق سيادته عليها . وكان سلطان زنجبار يدعى حق السلطنة على جميع البلاد الممتدة من رأس دلفادو Cap Delgado جنوبا ، الى فارشيخ Warscheich شمالا ، والتي تمتد من البحر الى البحيرات الكبرى داخل القارة .

فالامان نالوا من الانكليز الاعتراف بصحة عملهم ، فى اتفاق مؤرخ فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ وفى ٧ أغسطس من تلك السنة جاءت خمس بوارج حرية المانية ، وهددت سلطان زنجبار فى عاصمته بجزيرة زنزيبار . فاتسهى الخلاف بعقد معاهدة بين السلطان والامان ، على أن تعفى من المسكوس جميع البضائع والمتاجر المشحونة الى بلاد الامان ، وجعلت فرضة دار السلام على الساحل الافريقى فى يد المانية . وتأسست مستعمرة شرقى افريقية الالمانية ، وتعينت لجنة المانية مختلطة بانكليز وفرنسيين لتحديد حدود هذه المستعمرة .

وسنة ١٨٨٦ تم تعيين الحدود ، فخرج فى نصيب سلطان زنجبار جزر زنزيبار وبمبا ولامه Lamee ومافيا Mafia ، وعشرة أميال بحرية من العرض على طول سيف البحر الممتد من مصب نهر المينيغانى فى جون زونغى Zungbi الى كيپينى Kipini ، مع بلاد كيسماجو Kismaju وبارافا Barawa ومركا Merka ومقديشو Makdishu وفارشيخ . وتعين لسلطان فيتو البلاد التى تمتد من كيپينى الى شمالى جون ماندا Manda .

وكان حد المستعمرة الألمانية من الجنوب نهر روفوما Rovuma ومن الشمال خط يمتد من مصب نهر الفانغا Wanga الى بحيرة جيب Jipe ومن هناك فى وسط أراضى زافتا Zaveta ودشاقا Dechagga تابعاً المصب الشرقى من « الكليمانجارو » حتى بحيرة فكتوريا نيانزا وتعهدت المانية بان لا تمتد شمالى هذا الخط ، وانكثرة بان لا تمتد جنوبيه وأما البلاد التى فى الشمال الى زانا Zana ومنها الى معارضة الدرجة ١ من العرض الشمالى مع الدرجة ٣٧ من الطول الشرقى ، فجعلت منطقة نفوذ انكليزية . واتفقت دولتا انكثرة والمانية على اقناع سلطان زنجبار بقبول معاهدة الكونغو ، كما ان المانية رضيت بامضاء الاتفاق الانكليزى الفرنسى ، المتعلق بتام استقلال زنزيبار . وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦

امضى سلطان زنزيبار هذا الاتفاق الذى امضته فرنسا أيضا . وفى ١٠ ديسمبر رضيت البرتغال أن يكون نهر روفوما حداً بينها وبين المستعمرة الألمانية ولكن الألمان اتبعوا خطة غيرهم فى التوسيع ، فاضطرت انكلترة ان تذكر المانية بكون معاهدة سنة ١٨٦٢ الانكليزية الفرنسية تضمن استقلال سلطنة زنزيبار ليس الجزر فقط ، بل السواحل التى تقابلها . فادعت المانية أن كلا من سلطان زنزيبار وسلطان فيتو عاجز عن توطيد الأمن والنظام فى أرضه ، وأرادت ارسال حملة عسكرية بحجة الغاء الرقيق وتنظيم البلاد . ولما كان بسمارك بدهائه لا يريد إيجاد معضلة سياسية بينه وبين دولة عظيمة كانكلترة لاجل مستعمرة ، فقد اختار طريقة أخرى وهو ان يشتري سدوت انكلترة ببعض المساحات ، فاعترف فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٩ بان المانيا تعتبر الاوغانده ووادلای والاراضى الواقعة شمالى الدرجة الواحدة من العرض الجنوبى ، خارجة عن دائرة العمل الالماني .

وفى مدة كاپرينى عقدت المانية مع انكلترة اتفاقا تنزل فيه هذه عن جزيرة هليجولاند التى فى البحر الشمالى ، بمقابلة تخلى المانية لانكلترة عن حامية سلطنة فيتو وساحل الصومالى ، وصار لانكلترة بموجب هذا الاتفاق حق السيطرة على سلطنة زنزيبار . مع جزر بمبا والاراضى التابعة لفيتو ، وأنزل سلطان زنزيبار لالمانية عن جزيرة مافيا وما يقابلها . وذهبت سلطنة فيتو باستيلاء انكلترة عليها ، وهكذا تمزقت هذه السلطنة العربية كل ممزق باتفاق انكلترة مع المانية ، وهو الذى نقضت بموجبه جميع هاتيك العهود السالفة . وكان ينبغى للعرب الذين اغتروا بمواعيد انكلترة لهم فى أثناء الحرب العامة ، أن يطلعوا على ما جريات هذه الدولة ومعاهداتها مع عرب آخرين مثلهم ، فربما كان لهم بذلك عبرة يعتبرون بها ...

ولم تقبل فرنسا ان تصدق هذه المواطات الانجليزية الالمانية الا ببدل ، هو اعتراف انكلترة بحماية فرنسا لماداعسكر .

وتبلغ مساحة المستعمرة الالمانية المسماة بمستعمرة شرق افريقية ، ٩٩٥٠٠٠ كيلو متر وعدد سكانها سبعة ملايين وخمسمائة وأحد عشر ألف نسمة ، من أصلها ثلاثة ملايين من أمم البانتو والواميهى والمافيتى والفاهوما والمأساني . وهم سكان البلاد الأصليون ، ومن بقى فهم جنس اسمه السواحلى ، متولد من اختلاط العرب والزنج ، فهؤلاء يبلغون ثلاثة

ملايين ونصف مليون هذا بحسب تقويم الميسو براديه Prader ناموس مجلس الأمة الفرنسي في كتابه المسمى « بالمستعمرات الألمانية وقيمتها » المطبوع في سنة ١٩١٩ ، ويقول المؤلف المذكور ان في هذه المستعمرة خمسة آلاف عربي . ونحو عشرة آلاف هندي ، ونحو ٥٣٠٠ أوروبي أكثرهم ألمان . وهذه البلاد من أوفر بلاد الله محاصيل وغللات ، وفيها معادن كثيرة ، وقبل الحرب بقليل صدر منها الى ألمانيا ١٢ ألف بالة قطن ، ونصف مليون كيلو من البن ، وأطال الكتاب .

وقد ورد في كتاب « السلطنة الاستعمارية الالمانية » ما يأتي ملخصا :

« ان البرتغاليين لما جاءوا الى هذه البلاد في أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوا فيها كثيرا من التجار الهنود والصينيين ، ولكن هؤلاء لم يتركوا أدنى أثر من مدينتهم بين الأهالي السود حتى ان ما يوجد من الخزف الصيني بهذه البلاد انما وجد بواسطة العرب والفرس .

يقول المؤرخ بطوليموس ان العرب في النصف الثاني من القرن الأول للمسيح ، كانوا بدأوا يتجرون مع شرقي افريقية بالعاج والعبيد ويصلون الى حدود الموزامبيق . أما بعد ظهور الاسلام فازدادت هذه التجارة في شرقي افريقية ازدياداً عظيماً حتى انقلبت في نحو القرن الثامن للمسيح استعماراً حقيقياً . وتأسست في أوائل القرن العاشر « مغدشو » و « بارا كا » وفي السنة ٩٧٥ جاء فرس من شيراز وأسسوا « كيلفا » ، وتوغلوا في السواحل الى « رودسيا » طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ووصلوا الى مغدشو وبارا كا وماليندي ومونباسه وتونغوني وزنزيبار وبما عند دار السلام الحالية ومافيا وغيرها . ووجدت امارات فارسية صغيرة بين الامارات العربية . ولما ورد البرتغاليون تلك البلاد ، وجدوا فيها المدنية الاسلامية مؤسسة مؤثثة . ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس ، مثل المانغو والرمان والاترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والأرز واتوا بكثير من حيوانات بلدانهم . وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل . على أن البرتقال ، كانوا قد

وضعوا حداً للدور الأول من مدنية العرب عند ما احتلوا زنجبار سنة ١٥٠٣، وباراكا سنة ١٥٠٤ وكليفا سنة ١٥٠٥، ومونباسه في السنة نفسها. وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التي تأتي من الهند، ووضع اليد على معادن الذهب في «سوفالا» وبقي البرتقال هم السادة في تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر اذ قاتلهم عرب عمان قتالا شديداً، بدأوا به في ساحل عمان نفسها سنة ١٧٥٠، فلما جلوه من هناك، هاجوهم في مستعمراتهم بالهند وفي شرقي افريقية، وفتحوا زنجبار ومافيا وبمبا ومونباسه في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. ثم ان حروبا داخلية في عمان حلت السلطان سعيداً على تحويل كرسية الى زنجبار، ثم صار ماجد سلطاناً لشرقي افريقية، وبقي السلطان تويني على كرسى مسقط. وهذا في نحو سنة ١٨٥٦، ثم توفي ماجد وخلفه أخوه برغش. وفي أيام هذا السلطان بدأت الحوادث، التي انتهت بتقسيم هذه السلطنة العربية. وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية، التي استمرت من آخر القرن السابع عشر الى آخر القرن التاسع عشر، قد تمكنت من التوغل في داخل افريقية أكثر من جميع الدول التي قبلها ولم يكن السبب في ذلك هو التجارة فحسب، بل الزراعة التي كان العرب يستجلبون لها العملة من داخل البلاد. وازدادت تجارة الرقيق بازدياد الغراس ونمو الزراعة في السواحل، وأسس العرب في البلاد الداخلية في قسم انجامفيزي Unjamwesi المدينة المسماة «طابوره» و«اودجيشي» وغيرهما، ووصلوا الى الكونغو الأعلى وأسسوا فيها مدناً وقرى، وكانت لهم هناك جنود مسلحة لحاية قوافلهم ولا جرم أن العرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الزنجية السوداء. ولما ألغيت تجارة الرقيق في زمان السلطان برغش سنة ١٨٧٣ ساءت حالة الزراعة في السواحل وتقهقرت البلاد الى الوراء بسبب ندرة العملة. اهـ.

ثم ذكر مؤلفو كتاب «السلطنة الاستعمارية الألمانية» تاريخ بسط انكلاثة وألمانية حمايتهما على سلطنة زنجبار وملحقاتها مما لا يخرج عما تقدم، ولكنهم قالوا: انه في ٨ ابريل سنة ١٨٨٨ استأجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان زنجبار مكوس السواحل كلها فلما أرادت وضع اليد عليها ثار العرب مع من معهم من الزنوج ثورة عظيمة لاسيما مع كراهيته من قبل للجنس الأوربي، وكان مقدم هذه الثورة الشيخ أبو شيري

وسنة ١٨٩٠ في الثلاثين من يناير (كانون الثاني) أصدر المجلس الألماني (الرايستاغ) قراراً بتجنيد جيش من السود وايجاد نار الثورة ، وعين اهرفيزمان قائداً عسكرياً واليا ، وكانت حرب شديدة صعبة المراس ، لأنه كان لا بد من ايجاد كل شئ من العدم ، ولكن هذا الجيش بمساعدة الأسطول تمكن من فتح البلاد .

ثم جاء في هذا الكتاب ذكر أهالى البلاد ، فقيل اهتم عرب وعجم وهنود وكومور وزنوج والأمة التى يقال لها السواحليون ، وهم من أصل يقال له فانقفانا Wangvana اختلطوا مع العرب من ألف سنة ، واختلطوا مع السود سكان الداخل ومع سائر الأجناس حتى الأجناس البيضاء . وهم يزعمون كونهم من أصل شيرازى ، وصورهم جميلة ، وتقاطيعهم لطيفة ، وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتسلون دائماً ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختتنون لأنهم مسامون . ومن عاداتهم لبس البياض ، ويجعلون على رؤسهم كمة بيضاء ان لم يلبسوا الطربوش الأحمر . ولكنهم الى اليوم لا يلبسون البنطلون . ونسأؤهم لا يتنقبين ، ولكنهن يأنزرن بشئ اسمه (الشقة) يغطى الجسم ويجعلون على الاكتاف شيئاً اسمه (كسونو) وهم اجالا سواء منهم سكان المدن أو القرى ، لا يشبهون فى شئ سكان الداخل من الزنوج ، بل عندهم أدب وكياسة ، ومن صفاتهم حسن المعاشرة ، وقرب الألفة ، وسرعة العاطفة والبر بالاهل والحنو على الأولاد ومحبون السكنى بعضهم بقرب بعض ، ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التى بين بيوتهم نظيفة ، ويبنون بيوتهم صفوفاً ويغرسون أمامها صفوفاً من الأشجار الكبيرة مثل الكوكو والتاماريند ، وأينما وجد السواحلى اعتنى بغرس الشجر . وأكثر شغل الحقول يقوم به نسأؤهم وأما الرجال فيصطادون السمك أو يتجرون بالبضائع أو يحملون الأثقال . وبالأجمال فلا تعد هذه الأمة بين الأمم الموصوفة بالشجاعة ، لكن بين الأمم الموصوفة بالوداعة . ويتمال ان عندهم شيئاً من الكذب والكسل ، وان عندهم ميلا عظيماً الى الطرب ، يحبون الزفن والغناء ، ويعزفون بالطبول والطناير ، ويقضون أوقاتهم بالسرر . ولغة السواحليين أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً يقال لها « كيسواحلى » Kist aheli وأتق هذه اللغة ما يتكلم به فى بلد (لامو) ويسمى (كينغوزى) وهو بمقام لغة ثقيف أو سعد بن بكر فى العربية . وأردأ السواحلى ما يتكلمون به فى جزيرة زنزيبار ، لأنه خليط من العربى والفارسى والاوردو

والانكليزي والبرتغالي، وبعد الاحتلال الألماني دخل فيه الألماني أيضا. وليس للغة السواحلية كتابة ولا آداب وكانوا يكتبون بالحروف العربية، وصاروا اليوم يكتبون كثيراً بالألماني والانكليزي، واللغة المذكورة غنية بالكلمات الدالة على العواطف والمعاني المجردة. ويوجد في لغتهم خاصة لا توجد في غيرها، وهي ان بعض الكلمات يتغير معناها بتغير كيفية لفظها كأن تمد الحرف أو تقصره أو ترفع صوتك عند اللفظ أو تخفضه.

أما شعب جزائر الكومور أو القمر فاسمهم (انغاسيغا) أجسامهم حسنة التركيب وعقولهم جيدة، ولكن أخلاقهم غير جيدة، وبسبب لباقتهم وذكايتهم يستخدمهم الأوربيون في البيوت حشما وفي السفن نواتية.

أما السوماليون فكانوا يأتون الى هذه السواحل للتجارة ثم استقروا بها، وهم طوال القامات مع دقة في العضلات.

وأما العربي العماني النبيل، فقد بدأ يقل وجوده هناك (وياللاسف) ! وكانت له هيئة جميلة جدا في زنجبار وتلك السواحل، وكانت على العربي سياء الشرف والسراوة، حتى الى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسي والتجاري. فم يزل الباقون منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم والعبيد ولا يعملون بأيديهم. وهم ينظرون الهنود في التجارة. وكانت منهم بيوتات غنية كثيرة، هوت في الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها، لأن العرب في تلك البلاد هم أشرف البلاد، لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا. ويرتدون ملابس بهية منها مايسمونه القفطان، جوخ أسود مطرز مفتوح من الأمام تحته قميص أبيض طويل يسمى كانزو ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرأ محلي بالقضة، وهم طوال القامات، رشاق القدود، سمر الألوان ظاهر والرصانة تجدد حركاتهم كلها موزونة بدون تملق بل بشيء من الانقباض ويوجد صنف آخر من العرب اسمه «شجري» نسبة الى الشجر من جهات حضرموت، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتجرون بالسجاد والزيت، وليسوا بمن يقدرن على مزاجاة الهنود في التجارة.

وفي سواحل زنجبار أناس من البلوج، وهم فقراء، قليلو العدد. وأناس من الفرس الباقين على عبادة النار، يعرف الانسان بمجرد رؤيتهم انهم من الجنس الآري، ويلبسون

مثل الأوربيين تقريباً ، ويجعلون على رؤوسهم قبعات مخروطية الشكل وهم تجار ، ومنهم محامون صغار لدى المحاكم

وأكثر الغرباء في تلك السواحل هم الهنود ، وهم قسمان المسلمون والوثنيون ، فالمسلمون أكثرهم من طائفة « الخوجه » (قسم من الاسماعيلية) وهم تجار وصناع ، منهم صاغة ، ومنهم خياطون وحذاءون وقصارون ، ومتى أثرى الخوجه عاد الى وطنه . وأما الوثنيون فبراهمة وبوذيون ، وكلهم يتعممون كالعرب لكن بعمائم مطرزة بالقصب ، ويستحضرون نساءهم الى تلك البلاد ، وهن جيلات يتحلين بالجواهر الكريمة ، ولكن داخل منازلهم قدر لا يعرفون النظافة ، حتى ان الشوارع التي أمام منازلهم تغلب عليها القذارة . ومن الهنود صنف اسمهم البنجان ، ضعفاء لا يأكلون لحوم الحيوان ، ولا طعام لهم الا من النباتات ، ولا يقدرّون أن يقربوا سائر الأمم ، ولا يأتون بعائلاتهم من الهند . وبالاختصار فانهم مثقلون تحت التكاليف الدينية ، ومنذ مدة بدأ الهنود يدخلون الى الداخل ويوغلون في البلاد ، فازداد عددهم في « موروغورو » و « كيالوسا » و « ايرنيغا » و « طابوره » و « موانزه » و « بوكوبا » واجتمع منهم طرء كثير .

وهناك صنف اسمهم « الغوانزه » نسبة الى « غوا » بلدة من الهند تولاهما البرتغاليون مدة طويلة ، فاختلطوا بالأهالي وتناسلوا وجاء منهم هذا الصنف ، ويسمون أنفسهم بأسماء برتغالية مثل « دوسيلفا » و « دوسوزا » وما أشبه ذلك ، وهم يشتغلون بالتجارة والخياطة والطبخ وخدمة الفنادق .

وفي تلك السواحل عدة آلاف من الألمان ، ثم عدة مئات من الانكليز ، ثم جماعات من الهولانديين والنمساويين والسويسريين واليطاليين ، وهناك أروام وسوريون ويقال لهم « الاوريون المتوحشون » وهؤلاء يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وبأيديهم الفنادق ، وهم في غاية الجد والنشاط وقد تملكوا الأملاك ، ففي الثلاثمائة رجل منهم ١٥ رجلاً متملمون . اه ملخصاً وقد آلت مستعمرة شرق افريقية الألمانية الى مستعمرات انكلترة بموجب معاهدة فرساييل .

مسلمو الحبشة

المؤلف

أما الحبشة فبلاد من شرق افريقية يحدها من الشمال النوبة والبحر الأحمر ومن الشرق بلاد الدناquil والصومال ومن الجنوب بلاد الغاله ومن الغرب السودان المصري وهي بلاد جبلية مرتفعة متوسط ارتفاعها ٢٠٠٠ متر وفيها قنن يبلغ علوها نحو ٤٦٠٠ متر كالني في جبل « أبا » في الشمال وأخرى يبلغ علوها ٤١٢٠ كالني في جبل « غوتة » في الجنوب ويوجد الثلج على قنن الجبال المتناهية في العلو صيفاً شتاء . وأما الهواء فهو حار في القسم الأدنى الذي هو دون ارتفاع ١٥٠٠ متر ومعتدل في الأماكن التي ارتفاعها يقع بين ١٥٠٠ متر و ٢٧٠٠ متر وبارد فيما هو أعلى من ذلك . وفي أراضيها الحديد والذهب والصفير وفيها زراعات متنوعة ولكن اعتماد أهلها على المواشي . وفي جنوبي الحبشة بحيرة « تانا » التي يخرج منها بحر الأزرق والى الشمال من هناك يخرج نهر العظيرة الذي مصبه في النيل ومارب الذي لا ينفذ من صحارى بلاد النوبة . والأحباش أجناس مختلفة منها من السلالة السامية ومنها من البهل ومنها من الزنج وهم يفرقون عن الجنس الزنجى بالرغم من شدة سوادهم . وبين اللغة العربية واللغة الحبشية تشابه يثبت كون اللغة الحبشية هي من اللغات السامية . وبلاد الحبشة ثلاثة أقسام ففي الشمال بلاد « التيغرى أو التيجرى » ومدنها عدة واكسوم . وفي الوسط « الأمبار » وعاصمتها غندار وفي الجنوب « الشوا » ومدينتها آنكوبر . والى ولاية الشوا هذه أضيفت بلاد هرر التي أخذها الأحباش من يد أمراءها المسلمين سنة ١٨٨٧ .

و بلاد الحبشة من قديم الزمان هي في منازعات وحروب دائمة منها ما هو بين الأحباش النصارى والأحباش المسلمين ومنها ما هو بين رؤوس الأحباش بعضهم مع بعض . وفي سنة ١٨٥٥ تنزى على عرش الحبشة قائد اسمه كاساي بعد أن قهر جميع أقرانه وتزوج ملكا ملوك الحبشة باسم تيودوروس الثالث الا أنه خاشن في معاملته دولة انكلترة فسأقت عليه جملة قهرته فانتحر سنة ١٨٦٨ خلفه في السلطنة أمير التيغرى وتلقب يوحنا . وحصلت

بينه وبين المصريين حرب كانت الطائفة له فيها آخر مرة فكف الخديوى اسماعيل عن قتاله . ثم خلفه نجاشى آخر اسمه يوحنا فى أيامه دبت دولة ايطالية الى هناك تبغى الاستعمار فصادمها بقوة الا ان السودانين جماعة المهدي تغلبوا عليه وقتلوه . خلفه منليك ملك شوا وصالح الطليان وامتد هؤلاء فى الاريتره وأطراف التيغرى لولا أن الخلاف وقع بينهم سنة ١٨٩٥ فاتتهى بواقعة « عدوه » الشهيرة التى انهزم فيها الطليان هزيمة شنيعة عدلوا من بعدها عن استعمار الحبشة واكتفوا بالأريتيره .

أما عدد أهالى الحبشة جغرافيات الاوربيين تحصيه خمسة ملايين . وهو من باب المتابعة والتقليد لأقوال قديمة العهد اذ بما لاشك فيه أن الحبشة اليوم فيها أكثر من ثمانية ملايين وقد ورد فى جريدة الطان (عددها المؤرخ فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٤) فصل عقده بمناسبة الرأس تافارى كافل ملك الحبشة لهذا العهد زيارته لباريز جاء فيه مايتأتى :

« ان الحبشة مساحتها نحو ٦٠٠ الف كيلو متر مربع وأهلها نحو ٧ ملايين الى ٨ ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نصارى (على مذهب الكنيسة القبطية) وثلاثة ملايين مسلمون داخلا فى هذا العدد البلاد الاسلامية التى أطاعت مؤخرا . ومليون ونصف مليون وثنيون ونصف مليون يهود وبعض كاثوليك وبرستانت .

« ان البلاد الواقعة فى شرقى افريقية المسماة بالحبشة هى أشبه بقلعة طبيعية كبرى شواخها مطلة على سيف البحر الأحمر وبلاد الصومال الفرنسى والصومال الانكليزى والاريتيره الايطالية وأرض النوبة والسودان المصرى ، ولا يدخل الى هذه القلعة الا من منافذ ضيقة تحميها قبائل عاتية .

« أما ملك الحبشة الحديثة فينتهى الى زعيم وصل بغزواته وحروبه الى أن أخذ تاج الحبشة وتلقب بتيودروس الثالث ثم غلبه الانكليز سنة ١٨٦٨ فانتحر فى مغلة وخلفه أمير آخر تنزى على الملك وتلقب بالنجاشى الأكبر أى ملك ملوك الحبشة . واسمه يوهانس وكان فى زمانه حاكم ولاية شوا واسمه (ساهالا مارييم) قد حارب يوهانس هذا وعانده ثم صاهره واتتهى الأمر بأنه خلفه على العرش باسم منليك الثانى وذلك لأنه ادعى كونه من ذرية سليمان بن داود الذى عشق الملكة سبا وجاء منها ولد اسمه منليك كان هو النجاشى الأول . ولأجل توطيد وشائج الملك أعطى منليك ابنته (زاوديتو) الى ابن يوهانس فات

هذا بدون ذرية ولم يكن لمنليك أولاد ذكور وإنما كانت له ابنة ثانية (شوارقاد) زوجها من أمير مسلم كان حاربه وتغلب عليه ثم تنصر على يده وهو المسمى بالرأس ميكائيل . وولد له من ابنته هذه ولد اسمه (ليج ياسو) فجعله ولي عهده فلم يرق ذلك للامبراطورة (تايتو) ولا للأهالي ولكن توج بالرغم من ذلك ياسو امبراطورا سنة ١٩١٤ وتسمى أبوه الرأس ميكائيل ملكا على (فولو) و (التيجري) والنائب العام للمملكة . وكان مولد الامبراطور الفتى سنة ١٨٩٧ فظهرت منه أفعال شاذة أغضبت الأهالي واشتد الغضب عند ما أظهر الاسلام راجعا الى دين أهله فاجتمع الاساقفة والامراء وعظماء المملكة وعقدوا مجمعا خلعوا فيه ياسو وبايعوا زاوديتو ابنة منليك امبراطورة وجعلوا الرأس تافارى كافلا للمملكة ووليا للعهد (٢٧ سبتمبر ١٩١٦) وكان الرأس تافارى متزوجا بابنة الرأس ميكائيل أخت ياسو فعزله ياسو من ولاية هرر فزحف على رأس العساكر الحبشية لقتال حميه وابن حميه فكانت حربا ضروسا طالت واشتدت ولكنها انتهت بتغلب تافارى على حميه وجرى بهذا مصفدا بالحديد الى اديس بابا بعد ان دارت عليه الدائرة في وقعة « دبره برهام » (٢٧ اكتوبر ١٩١٦) وفي ٢ نوفمبر استعرضت الامبراطورة الجيوش وجرى بالرأس ميكائيل أيضا مقيدا بالسلاسل امام العرش الامبراطوري فيقال ان صهره وغالبه الرأس تافارى رق لحاله وتذكر ما بينهما من الرحم فقام وأجلسه مكانه . أما ياسو فبعد مقاتلات شديدة أيضا أخذ أسيرا وحبس في قلعة واستوسقت الأمور للرأس تافارى « انتهى » .

فقد ظهر لك ان الحبشة هم مسلمون ونصارى وان المركز الأول في هذه المملكة للنصارى وجريدة الطان تنقل ان عدد النصارى ثلاثة ملايين ونصف مليون وعدد المسلمين ثلاثة . ولكن الملحوظ ان عدد المسلمين في مملكة الحبشة بعد ان توسع ملك الحبش الى جهات هرر والصومال والغاله أصبح أكثر من عدد النصارى حتى نقل عن كافل ملك الحبشة يوم كانت الحرب واقعة مع تركية على أثر الحرب العامة انه لا يريد زوال تركية لأنها مملكة اسلاميه ولأن المسلمين من رعاياه أكثر من النصارى . وقد اطلعنا على حديث أفاض به رجل من علماء الترك أقام بالحبشة مدة طويلة وعاد الى الاستانة في العام الماضي فسأله أصحاب مجلة سبيل الرشاد ان يفيدهم ما عرفه من أحوال الحبشة فذكر لهم فوائد جمة وقدر عدد مسلمي الحبشة بسبعة ملايين .

وقد يظن بعض القراء ان في هذا العدد مبالغة وليس هذا الظن بصحيح . فعليك بأن تقرأ ما ذكره المسيو موريس قال في معجمه الجغرافي تحت اسم غاله Gallas : « شعب من افريقية منتشر في جنوبي الحبشة وفي البلدان الضاربة الى الجنوب أيضا مما يجاور اقليم البحيرات الكبير المنفصل عن البحر ببلاد الصومال . وهم أقوام جيلة الخلقة لونهم نحاسي يختلفون في الشكل عن الأقوام المجاورين لهم من جنوبيهم كما أنهم يختلفون عن الأحباش والصومال ويقدر عددهم من ٦ الى ثمانية ملايين وأكثرهم سكان مدر والغالب عليهم الزراعة ومعظمهم مسلمون . وقد كانوا أكثر الأحيان مع الاحباش وأخيرا تغلب هؤلاء عليهم فقسم من قبائل الغاله يؤدون أتاوة لملك شوا من الحبشة »

فانت ترى انه ليس في كلام السائح التركي أدنى مبالغة لأنه عدا القسم الخاضع من الغاله لمملكة شوا الحبشية يوجد مملكة هرر التي استلحقها الاحباش بمساعدة بعض الدول الاوربية ويوجد مسلمو نفس الحبشة الذين هم كثيرون في وسط تلك المملكة منذ وجد الاسلام .

وقد ذكر جغرافيو العرب بلاد المسلمين التي في أطراف الحبشة فقال ياقوت : زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح اللام وآخره عين مهملة جيل من السودان في طرف أرض الحبشة وهم مسلمون . ثم ذكر غرائب من عاداتهم في أمر الزواج وغيره .

ونقل صاحب صبح الاعشى جلا كثيرة عن الحبشة القسم المسيحي والقسم الاسلامي منها فتأخذ تنفا مما قال : مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الارحاء فسيحة الجوانب . قال في مسالك الابصار : وأرضها صعبة المسالك لكثرة جبالها الشاخنة وعظم أشجارها واشتباك بعضها ببعض حتى ان ملكها اذا أراد الخروج الى جهة من جهاتها تقدمه قوم مرصدون لاصلاح الطرق بالآت لقطع الأشجار واحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الانساني لأنهم اجبر بنى حام واخبر بالنوغل في القتال والاقترحام طول زمنهم في الأسفار وصيد الوحوش وقتالهم انما يكون عريا من غير لامة تدفع عنهم ولاعن خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لولا ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بنى آدم فذكر أن المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجاعة انهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله

ويكرمون الضيف ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه واذا أحبوا أظهروا المحبة واذا أبغضوا أظهروا البغض والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الخدس . ولهم قلم يكتبون به من اليمين الى الشمال كما في العربي حروفه ستة عشر حرفا لكل حرف منها سبعة فروع فيكون عدتها مائة واثنين وثمانين حرفا سوى حروف آخر مستقلة بذاتها لا تنفصل عن الحروف المذكورة مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لا منفصلة عنه . ومع كونهم جنسا واحداً فلغاتهم تزيد على خمسين لسانا الخ ثم ذكر في صبح الأعشى القسم الأول من الحبشة وهو بلاد النصرانية قال وهو القسم الأوفر عدداً الأوسع مجالا . وهو الذي يملكه ملك « أمحرا » بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين والفاء في الآخر وهم جنس من الحبشة . ثم ذكر تقاسيم مملكة أمحرا وصفات تلك البلدان بلداً بلداً الى أن قال ان ملكهم في الزمن المتقدم كان يلقب بالنجاشي وقد ذكر المقر الشهابي ابن فضل الله في مسالك الأبصار ان الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم « الحطى » بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت في الآخر ومعناه السلطان اسماً موضوعاً لكل من قام عليهم ملكاً كبيراً . الى أن قال : ومع ما هم عليه من سعة البلاد وكثرة الخلق والاجناد مفتقرون الى العناية والملاحظة من صاحب مصر لأن المطران الذي هو حاكم شرعيتهم في جميع من أهل النصرانية لا يقيم الامن الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر للبطررك المذكور بأرسال مطران اليهم وذلك بعد تقدم سؤال ملك الحبشة الذي هو الحطى وارسال رسله وهداياهم ، قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر ويساعدون على اصلاح سلوكه تقرباً لصاحب مصر وقد ذكر ابن العميد مؤرخ النصارى في تاريخه انه لما توقف النيل في زمن المستنصر بالله الفاطمي كان ذلك بسبب فساد مجاريه من بلادهم وان المستنصر أرسل البطررك الذي كان في زمانه الى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه .

ثم ذكر القسم الاسلامي من بلاد الحبشة وقال انه البلاد المقابلة لبر اليمن على أعلى بحر القلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامي لأنها على جانب البحر كطراز له^(١)

(١) قرأت في تاريخ نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ان ساحل فلسطين يقال له أيضاً الطراز الأخضر

قال في مسالك الأبصار وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع قال : والزيلع انما هي قرية من قراها قال الشيخ عبد المؤمن الزيلعي الفقيه : وطولها براً وبحراً خاصاً بها نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك لكن الغالب في عرضها انه مقفراً مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوماً طولاً وأربعون يوماً عرضاً . الى أن قال : ان بلادهم ليست بذات اسوار ولا لها نخامة بناء ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين الا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية وهي بلاد شديدة الحر وألوان أهلها الى الصفاء وليست شعورهم في غاية التفلفل كما في أهل مالى وما يليها من جنوب المغرب . وفطنهم أنبه من غيرهم من السودان وفطرهم أذكي وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء ويتمذهبون بمذهب أبي حنيفة خلا « وفات » فان ملكها وغالب أهلها شافعية .

وقال ان هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد : الأولى « وفات » والعامة تقول أوفات ويقال لها أيضاً « جبرة » والنسبة اليها جبرتي وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء . وقال الشيخ عبد الله الزيايى : وطول مملكته خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد وكلها عامرة أهلة بقرى متصلة وهي أقرب أخواتها الى الديار المصرية والى السواحل المسامتة لليمن وهي أوسع الممالك السبع أرضاً وعسكرها خمسة عشر ألفاً من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفاً فأكثر من الرجلة . والقاعدة الثانية « دوارو » وطولها خمسة أيام وعرضها يومان وهي على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات فى الفارس والراجل والثالثة « أراينى » وطولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس أما الرجلة فكثيرة للغاية . والرابعة « هدية » بالهاء والبدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء فى الآخر وموقعها بين الاقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء وطول مملكته ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام وصاحبها أقوى اخوانه من ملوك هذه الممالك السبع وأكثر خيلاً ورجالاً وأشد بأساً على ضيق بلاده عن مقدار اوفات وملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجلة فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر . والخامسة « شرحا » وطولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالة مثل ذلك مرتين فأكثر . والسادسة « بالى » وهي تلى شرحا المتقدمة ولكنها أكثر خصباً

وأطيب سكنا وأبرد هواء . والسابعة « دارة » وهي تلى بالى المقدمة الذكر وطولها ثلاثة وعرضها كذلك وهي أضعف اخواتها حالا وأقلها خيلا ورجالا وعسكرها لا يزيد على ألفى فارس ورجالة كذلك . انتهى ملخصاً .

ثم ذكر ان هذه الممالك السبع هي كلها خاضعة « للخطى » أو النجاشى سلطان أمحرا . وان الملك فيها في بيوت محفوظة الا بالى اليوم فان الملك فيها صار الى رجل ليس من بيت الملك تقرب الى سلطان أمحرا حتى ولاء مملكة فاستقل ملكا بها . قال نقلا عن مسالك الأبصار : وجميع ملوك هذه الممالك وان توارثوها لا يستقل منهم ملك الا من أقامه سلطان أمحرا واذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أمحرا وتقربوا اليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه فاذا ولاء سمع البقية له وأطاعوا فهم له كالنواب وأمرهم راجع اليه ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون اليه . ثم قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ثم حكى عن الشيخ عبدالله الزيلعى وغيره انه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على مدافعة الخطى أو الهاسك معه ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف واقتراق الكلمة بينهم تنافس . ثم قال : وقد كان الفقيه عبدالله الزيلعى قد سعى في الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا الى مصر في تنجز كتاب البطريك اليه بكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وأخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك فكتب اليه عن نفسه كتابا بليغاً شافياً فيه معنى الانكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعلها بعبارات أجاد فيها . قال : وفي هذا دلالة على الحال . قال : القلقشندى صاحب صبح الأعشى . قلت وقد كتب في أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان في معنى ذلك وقرينه كتاب من البطريك متى بطريك الاسكندرية يومئذ وتوجه به الى الخطى سلطان الحبشة برهان الدين الدمياطى الخ ملخصاً .

ثم قال : وأهمل المقر الشهابى بن فضل الله في مسالك الأبصار والتعريف عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين منها جزيرة « دهلك » وهي جزيرة مشهورة عن طريق المسافرين في بحر عيذاب الى اليمن وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا . وملك دهلك من الحبش المسلمين . ومنها مدينة « عوان » على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن . واذا كان

وقت الضحى ظهر منها « الجناح » وهو جبل عال في البحر. ومنها مدينة مقدشو قال في « مزيل الارتياح » وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة وهي على بحر الهند ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر في زيادته بالصيف وقد ذكر أنه شقيق لنيل مصر في مخرجه من بحيرة كورا ومصبه ببحر الهند على القرب من مقدشو. ثم قال القلقشندي: وقد أتى الخطي ملك الحبشة على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف وأكره الكثيرين منهم على الدخول في دين النصرانية ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الخطي ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقررة. والسلطان سعد الدين صاحب زيلع وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته وبينه وبينه الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء اه ملخصاً.

وقد حرر كثير من مؤرخي الافرنج ورحلاتهم كتباً عن الحبشة ملأى بوقائع الحروب بين مملكة الحبشة النصرانية وملوك الحبشة المسلمين كأصحاب هررو بلاد الزيلع وكما أنه وجد في ملوك الحبشة النصارى من قهر الاسلام وأئخن في المسلمين وقتل وسبي وأحرق ودمر كذلك وجد في أمراء الاسلام هناك من كال ملوك الحبشة بكيلهم وأزيد ومن أشهرهم السلطان سعد الدين هذا وأشهر منه الامام أحمد بن ابراهيم الذي ألف على غزواته وفتوحاته شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الملقب بعرب فقيه كتاباً ممتعاً اسمه فتوح الحبشة نشر الجزء الأول منه بنصه العربي المستشرق الفرنسي « رينه باسه » René Basset مع فذلكة للكتاب باللغة الفرنسية فهذا الامام الغازي أحمد بن ابراهيم يصح أن يقال انه صلاح الدين يوسف الحبشة فقد والى الهزائم على الحبشة النصارى مع شدة بأسهم وصعوبة مراسيمهم ووعورة جبالهم وكون بلادهم بقيت بكرة لم تطمئنها قدم قاتح ولا ترقى إليها همة غاز فكان هو الذي أوغل في قلب بلادهم وملوكهم من نواصبيهم واستنزهم من صياصبيهم حتى قال المستشرق « باسه » ان أشهر دور من أدوار تاريخ الحبشة التي بقيت أخبارها محفوظة في أذهان الغربيين هو دور أحمد جران (لقب الفاتح المذكور) الذي كاد أن يسحق نصرانية الحبشة ويعيدها كبلاد النوبة. وقد كان دخول البرتغاليين في هذه المعممة هو الذي استجلب الأنظار الى هذه القطعة من تاريخ المشرق وجاءت كتابات البرتغاليين والطلين

موضحة لها فلهذا نقول : « ان هذا الدور هو أصح أدوار تلك البلاد أخباراً لتضافر الروايات على وقائعه من كل جهة فقد انضمت الى المنابع الغربية المنابع الشرقية مثل الكتاب العربي الذي نحن ناشره الآن (تأليف عرب فقيه) وكتب مؤرخي الحبشة أنفسهم فيكون لدينا شهادات من جميع الأمم التي اشتركت في هذه الحرب وتجد الغالب والمغلوب مدليين بالوثائق والبيّنات التي يكمل بعضها بعضاً ويؤيد واحداها الآخر على أنني أذهب الى كون الموقع الأول في غزارة التفاصيل هو للتأليف العربي الذي حرره شهاب الدين أحمد عرب فقيه لا من جهة كونه أقل ميلاً من غيره الى قومه بل من جهة كونه شهد بنفسه أكثر وقائع الامام غران فلهذا تجد في مؤلفه تفاصيل دقيقة موضحة لا تجد في كتاب آخر من كتب المسيحيين على أن هؤلاء متفقون معه في الروايات عن الحوادث الواردة في كتابه » .

واند روى عرب فقيه من خبر الامام أحمد بن ابراهيم ما ملخصه :

كان للسلطان سعد الدين من الأولاد أبو بكر وبدلاى فبدلاى له ولدان أحدهما محمد ابن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان .

ولأبي بكر ولدان أحدهما علي وهو جد السلطان بركات وحبيب . فعلى له أولاد منهم أظهر الدين وهذا له محمد ومحمد له عمر دين . والولد الثاني لأبي بكر اسمه آزر وهو جد السلطان محمد ابن أبي بكر بن محمد بن آزر بن أبي بكر بن سعد الدين .

والولد الثاني الذي لبداى بن سعد الدين اسمه شمس الدين وقد انقرض ذريته وتولى البلاد السلطان محمد بن آزر بن أبي بكر بن سعد الدين ثلاثين سنة من القرن التاسع وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والحبشان فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً . وعاد السلطان محمد الى بلاده فقتله صهره محمد بن أبي بكر ابن محفوظ وملك البلاد بعد سنة فقتله ابراهيم بن أحمد صاحب بلاد هو بت وملك بعده ثلاثة أشهر فقتله « وسنى » مملوك الجراد محفوظ وملك البلاد ثلاثة أشهر وأسر بعد ذلك أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع وقتل في زيلع . وملك البلاد بعده الأمير منصور بن محفوظ بن محمد بن الجراد آتش وتحارب الأمير منصور مع الجراد ابون سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر واستأصل قطاع الطرق وأبطل الخور واللعب والرقص وعمرت في زمانه البلاد وصلحت الأحوال . وكان

أحمد بن ابراهيم (مترجم عرب فقيه) يومئذ فارساً من فرسان الجراد ابون وكان ذا عقل ورأى وشور في صغره وكبره الهاماً من الله تعالى للامر الذي أراده الله على يديه وكان الجراد ابون يحبه حباً شديداً لما رأى من شجاعته وبراعته . وكان السلطان ابو بكر بن السلطان محمد بن آزر من ذرية سعد الدين قد جمع جوعاً من الصومال وغيرهم وقاتل الجراد ابون فقتل الجراد ابون بن آدش وتولى السلطان أبو بكر البلاد ولكنه أساء السيرة في الرعية وظهر قطاع الطرق وحدثت أمور أوجبت انكار العلماء والفقهاء من المظالم وشرب الخمر وكان الامام أحمد (الغازي) في عسكر الجراد ابون كما تقدم فخرج هو وجاعة من رفاقه واجتمعوا في محل يسمى هوبت وكانوا نحو مائة فارس وأمرورا عليهم الجراد عمر دين فينما هم كذلك اذ سمعوا بأن بطريقاً من بطارقة الخطي ملك الحبشة من النصارى يسمى فانييل من أهل دواروا ومعه جاعة من البطارقة قصدوا بلاد المسلمين وأسرهم وسبوا عيالهم ونهبوا مواشيهم . فسمع أحمد بن ابراهيم بذلك فقصد جيش النصارى في مكان يسمى عقم وهو نهر عظيم كثير الماء فاشتبك الفريقان في قتال شديد انتهى بالدبرة على النصارى وقتل جاعة من البطارقة وغنم المسلمو غنائم كثيرة ورجعوا فرحين مستبشرين الى محل اسمه زيفه بقرب بلد السلطان أبي بكر بن محمد . فلما سمع السلطان بخبرهم وما فعلوه من الجهاد وحازوه من الغنائم انهزم هو ومن معه من الصومال الى بلد يسمى كداد من بلاد الصومال فقصدهم أحمد بن ابراهيم الى هناك فتلاقى الفريقان عند نهر يقال له قرن فاقتتلوا وانهزم السلطان ومن معه وقتل منهم جاعة . فانثنى أحمد وأصحابه راجعين الى بلادهم هرر من بر سعد الدين فلم يستقروا بالجلوس حتى جمع السلطان أبو بكر جوعاً من الصومال وغيرهم وجاء بنحبول وجيوش لا يحسبها حاسب فاخلى أحمد بن ابراهيم هرر وسار الى بلد اسمه هوبت زبرت واعتصم بجبل عظيم فيه فقصدهم السلطان بجموعه وحصرهم وضيق عليهم فنزلوا من الجبل وناجزوا السلطان القتال فانهزموا وقتل أميرهم عمر دين ورجع أحمد بن ابراهيم وأصحابه الى بيوتهم ودخل الناس واصلحوا بينهم . وما طال الصلح حتى غدر السلطان أبو بكر بإحمد وجرده من خيله ورجله وقتل أميراً كبيراً اسمه عثمان بن يس ففر أحمد من وجهه لاحقاً ببلده زعكه وليس معه الا ثلاثة من الخيل فتلاقى مع غلام للسلطان جدوش بن محفوظ معه اربعة من الخيل فاخذها منه وخرج الى

مكان اسمه شيخ ومعه سبعة من الخيل فانضم اليه أمير يسمى جراد أبو بكر ابن اسماعيل ثم وصل اليه الأمير حسين الجاتري فقصدهم السلطان بعساكره فلم يزلوا من بلد الى بلد يغير السلطان عليهم ويغيرون عليه فحدثت بين الفريقين وقائع عديدة انتهت بظفر أحمد ابن ابراهيم ودخوله هرر فاقام الحق وأزال المنكر وصاح المنادي كل أحد يلزم بيته وكل على عادته ولا تخافوا ولا تحزنوا . ولكن السلطان عاد فجمع الجوع من الصومال وغيرهم وقصد أحد للقتال فرتب هذا عساكره وزحف اليه فاعتصم السلطان بجبل اسمه حون فدخل الناس من الاشراف والفقهاء بينهم بالصلاح على ان السلطان يكون سلطانا على حاله وأحد بن ابراهيم يكون من تحته ويقاب بالامام والبلاد بينهم بالسوية فارتضى أحد بذلك حقنا للدماء واقام ببلدة سيم وأقام السلطان بهرر . وأما وجه تسمية أحد بالامام فاشهر رواية فيها ان رجلا اسمه سعد ابن يونس العرجي رأى النبي (ﷺ) وعن يمينه أبو بكر الصديق وعن يساره عمر بن الخطاب وبين يديه علي بن أبي طالب رضى الله عنهم وبين يدي علي ابن أبي طالب أحد بن ابراهيم فقال الرائي لهذه الرؤيا يا رسول الله من هذا الرجل الذي بين يدي علي بن أبي طالب فقال ﷺ هذا رجل يصلح الله به بلاد الحبشة . وكانت هذه الرؤيا والامام حينئذ جندي ولم يكن الرائي يعرفه من قبل . فوصل هذا الرائي الى هرر في زمان الجراد ابون فقص رؤياه على أهل البلد فقالوا له هذا الذي رأيته في منامك فقال لا فلم يزل يتولى البلاد أمير بعد أمير الى ان جاء الرائي في زمن أحد بن ابراهيم فلما رآه عرفه وقال لاهل البلد هذا الذي رأيته في الرؤيا بين يدي علي بن أبي طالب فسماه الناس الامام . وقيل ان بعض المشايخ رأى في المنام الولي الصالح أحد بن محمد بن عبد الواحد القرشي التونسي والشريف الولي أبا بكر بن العيدر وسي وهما يقولان لا تسموه السلطان ولا الامير ولكن سموه امام المسلمين .

وبدأ من ذلك الوقت الامام أحد بن ابراهيم يغزو الحبشة النصارى لانهم كانوا في زمان سعد الدين وفي زمان من تولى بعده وفي زمان الجراد أبون يغزون بلاد المسلمين وقد خربوها مرارا كثيرة وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج فلما ظهر الامام أحد منهم من ذلك وكان يجلس لاقامة العدل ويرفق بالمساكين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على الارملة واليتيم وينصف المظلوم من الظالم ولا تأخذه في الله لومة لائم .

ثم اختلف الامام مع السلطان أبي بكر وتجددت الحرب فقتل السلطان وانفرد الامام بالامر وأقام عمر دين أخا السلطان محل أخيه . وغزا النصارى بلاد المسلمين وكان عليهم بطريق كبير من الجبابة اسمه دجلجان صهر الملك وتحت بطارقة كثيرة فوصل الى أطراف بلاد المسلمين وخربها ونهب أموالهم وسبي حريمهم وسبي أم أمير من أمراء المسلمين اسمه الأمير أبو بكر قطين . فسار الامام اليهم بعسكره فالتقى الجمعان في موضع يقال له الدير (بكسر الدال) وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أسير وعاد الامام الى بلده منصوراً محبوباً . وكان عمره مع كل ذلك يومئذ احدى وعشرين سنة لا غير . ثم توالى غزواته منها غزاة الفطجار وغزاة قيجي وغزاة وانباريه في داوارو وغزاة افات التي كانت فيها امرأة الامام مع زوجها . وكانت واقعة هائلة غنم فيها المسلمون ما لا يحصى وسبوا نساء كثيرة منهن بنت خالة الملك فوهبها الامام الى وزيره عدلى ففداها ملك الحبشة بخمسين أوقية من الذهب الأجر . واستولى الامام بعد هذه الواقعة على أنطوكية ودخل كنيسيتها العظيمة ومعه زوجته دلونبره بنت الأمير محفوظ وجم غفير من الأمراء مثل الأمير حسين الجاترى صاحب دوارو بعد الفتح والأمير على صاحب عنقوت بعد الفتح والجراد اجوش وكوشم أبو بكر والشيخ الزاهد حامد ابن الزاهد الفاضل شيخ واشره ثم خرب الكنيسة وأحرقها . وقصد الامام بلدة جندبله وهي بلدة يملكها ملك الحبشة ولكن أهلها مسلمون فتلقوا الامام بالفرح والسرور وأعانوه بعشرين أوقية من الذهب وقالوا له نحن نعطي هذا الذهب لزوجتك دلونبره فرفض الامام ذلك وتوسط الأمير حسين الجاترى والوزير عدلى والجرادين والأمير على صاحب عنقوت في أن يقبل الامام هذه الهدية لزوجته فأصر الامام على الرفض وقال لا يحل هذا وأنفقها على الجهاد واشترى بها ١٠٠ سيف وشهدوا بها وقعة شيزكوره (أول رجب سنة ٩٣٥ هجرية) .

وسار الامام من جندبله في طريق حار دليله فا درى هو وجيشه الا وهم وسط شجر مشتبك أصبحوا لا يقدرون معه أن يتقدموا فأمرهم الامام بقطع الاشجار فا زالوا يقطعون منها حتى خرجوا الى الطريق الواضحة ووصلوا الى الدير فقسم فيها الغنائم وعاد الى هرر مؤيداً منصوراً . ثم استغفر قبائل الصومال للجهاد فكانت أول قبيلة لبث نداءه « هب مفدى » مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين الصومالى فوصلوا الى هرر بعدتهم وخبولهم

وسر بهم الامام سروراً عظيماً . ووصل بعدهم قبيلة جرى ومقدمهم متان بن عثمان بن خالد الصومالي فأظهروا آلائهم وسلاحهم وتنكبوا قسيهم وركبوا جيادهم وكانت معهم أخت الامام فردوسة وهي امرأة كبيرهم . ثم طلعت قبيلة زربه ومقدمهم السلطان محمد بن عممة الامام ومعه من الرجال الصناديد ألف وستون رجلاً وتحلفت قبيلة مريحان بعدم استقامة مقدمها حرابو فعزله الامام وأمر عليها ابن أخيه فجاء منهم نحو ثمانمائة مجاهد بين فارس وراجل . وبعد ذلك تهيأ الامام لغصد بلاد الحبشة وجهاز الجيوش وأنفق الأموال وباع حتى حلى نسائه وأثاث بيته وخرج بجيوشه ومعه امرأته ولونبره وكانت حاملاً ووصلوا الى زيفه فلتقاهم الجراد دين ابن آدم وكان رجلاً صالحاً فأضافهم وأكرمهم وكذلك الجراد شمعون والجراد كامل صهر الامام والامير مجاهد فأكرموا الامام اكراماً زائداً . ووضعت امرأة الامام في زيفه غلاماً سماه محمداً وتأخرت بسبب الوضع عن المسير وبقيت في زيفه عند مؤنسة أخت الامام . وسار الامام قاصداً ملك الحبشة « وناج سجد » وهو في أرض بادقي فأخذ ملك الحبشة يجمع جموعه قبائل التجري أو التيغري وقبائل آقوا وقبائل قجام وأهل العنقوت وأهل جن وأهل قده وغيرهم وانقلبت الحبشة بأسرها وكان بطارقة التجري أربعة وعشرين بطريقاً كل منهم تحته جيش عظيم . وكان من جملة البطاريق بطريق اسمه عثمان بن دار على كان مساماً وكان أبوه مساماً أسره الاحباش في زمان السلطان محمد فارتد وصار بطريقاً وولد له أولاد كثير ونصارى ثم في آخر عمره عاد الى الاسلام وجاهد واستشهد . ثم ان ملك الحبشة ما زال يحشد الجيوش ويستفز القبائل لملاقاة الامام وبقى ينتظره في أحمره كما أن جيوشاً أخرى كانت معبأة في بادقي . وكان الامام قاصداً كنيسة بادقي ناوياً احراقها والاحباش يقولون لا يصل الى الكنيسة حتى نقتل عن آخرنا . وقيل ان خيل الحبشة كانت ١٦ ألفاً والرجال كانت نحو مائتي ألف لذلك طالت الوقائع في شبركوره وكانت أيام للسامين وأيام للنصارى وعبي الامام أحمد جموعه هكذا : السلطان محمد بن السلطان علي ابن خالته والشيخ أنس ابن الشيخ شهاب بن عبد الوهاب وقبيلة « زمن برة » وقبيلة « برزرة » وقبيلة « يقله » وقبيلة « جاسار » وقبيلة « عرب تخا » وقبيلة « القى » وغيرهم من قبائل الحرله في الميمنة . وقبيلة « جرى » وقبيلة « مريحان » وقبيلة « يبرى » وقبيلة « هرتى » وقبيلة « جران » وقبيلة « مزر » وقبيلة « برسوب » وكلهم صومال في

الميسرة وكل قبيلة بأمرها . وكان الامام في القلب ومعه أعيان الفرسان مثل الأمير حسين الجاتري والأمير زحربوى محمد . وفرشحم على والوزير نور بن ابراهيم والامير مجاهد وفرشحم السلطان وعبد الناصر والشيخ داوه وأبو بكر قطين وفرشحم دين والجراد اجدوش وصبر الدين وجاسا عمر والجراد عثمان بن جوهر الخ وجع خمائة من الابطال ممن حضروا الحروب والغزوات وأمرهم بأن يلازموه . وضم اليهم ثلاثمائة من قبيلة هرتى من الصومال وأربعمائة من قبيلة يبرى لشدة صلابتهم وكان الثلاثمائة من أهل السيوف والاربعمائة من أهل الفسى . ثم التقى الجمعان وكان المسمون كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود . وقام الامام يخطب في المسمين ويحرضهم على الجهاد وقرأ : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . فحينئذ قال له المسمون دعنا نحمل عليهم . فنعهم الامام من الحلة وقال لهم اثبتوا مكانكم ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم به واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق ولا تخطوا بأرجلكم خطوة واحدة الا وأنتم تذكرون الله . ثم حمل الحبشة على المسمين من جهة الميمنة حلة رجل واحد فصر المسمون لهم وجملت ميمنة الحبشة على ميسرة المسمين من الصوماليين وجملت قبائل التيجرى والبطارقة على القلب الذى فيه الامام واختلط الجمعان واستمر القتل فانكشفت ميسرة المسمين التى فيها الصومال وقتل الحبشة منهم ثلاثة آلاف واسروا كثيراً وانحاز من ثبت منهم الى القلب وأما ميمنة المسمين من الحرلة فتكاثرت عليها الحبشة أيضاً وزلزلوها فانحازت أيضاً الى القلب فحمل الحبشة بأجمعهم على القلب ودامت الحرب من الضحى الى العصر الاخير فرد الامام الحبشة على أعقابهم وقتل منهم ألوف وامتلاّت الارض من جثث القتلى وضج المسمون بالهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وولى الحبشة الادبار والمسمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون فقتل من بطارتهم البطريق روييل من بطارقة التيجرى قتله أرعدى من خدمة الامام . وقتل البطريق عقبا أخوه وكان من أبطاهم قتله الامام بنفسه طعنه بالرمح فى صدره فخرج السنان يلمع من ورائه وقتل بطريق سبرى شوم قتله الجراد دين . وقتل الطريق زمنجان ابن عم البطريق وسن سجد قتله الوزير عدلى . وقتل بطريق محنطى

رماه رجل من الصومال مقدم الرماة فقتله . وقتل بطريق زونجيل قتله عبد الرازق بن سوحه أخو الأمير مجاهد . وقتل بطريق شوم عجمية . وقتل بطريق النبتين وقتل بطريق عمدو قتله رجل اسمه آداموا . وكان جملة من قتل من الحبشة عشرة آلاف ومن البطارقة مائة وأربعة عشر . وكل بطريق تحته ألف فارس أو خمسمائة أو مائتان وعرب المسلمون من خيل الحبشة في المعركة ستمائة فرس . وكانت جملة من قتل من المسلمين من الصومال ومن الحرله ومن الملساي ومن العرب خمسة آلاف ختم الله لهم بالشهادة . وغنم المسلمون غنائم لا تحصى وأسروا بطريقاً كان صهراً لملك اسمه تحلى مدحن ففدى نفسه بخمسمائة أوقية من الذهب الأحمر .

وبعد هذه النصر الطائلة أراد الامام أن يسير المسلمين الى قلب بلاد الحبشة ويجهز على الباقي من جيشها فشكاه المسلمون ماحل بهم من الجهد وطلبوا الجاه فعاد الامام الى بلده واستراح شعبان ورمضان ونصفا من شوال ثم نهض غازيا الى جهة دوارو فدخلها من جهة نهر الوبى وهو نهر كبير يكثر فيه التمساح وطواش كثيرة يسب في البحر المسالخ من ناحية مقدشو وقسم الجيش الى فرقتين فرقة عليها الوزير نور بن ابراهيم والفرقة الثانية قادها الامام بنفسه فوصلوا الى الجواتر وقتلهم بطريق ادل مبرق فهزموه وأسروه ويقال ان الذى أسره كان رجلا اسمه تكية قد قطع الامام يده اليمنى ورجله اليسرى في حق الله تعالى فبلغ من شجاعته ان اسر البطريق وهو مقطوع اليد والرجل . وغزا الامام بلد راس بنيات فاتفق مع بطريقها على أن يقدم له الضيافة وبعض هدايا والامام لا يتعرض له . ثم تقدموا الى بلد اسمه مصيحب فخرّبوها وخلوها رماداً وساروا الى بلد اسمها « مى فليح » ونهبوها وكان رجل اسمه راجح أصله مسلم تنصر وأعطاه ملك الحبشة أرضا وصار يغير على أطراف بلاد المسلمين فلما قرب الامام من أرضه أرسل اليه الامام قائلاً : أنت مسلم وابن مسلم ومجاهد بن مجاهد من أول الزمان وقدر الله بالذى كان قتب وارجع الى الاسلام وكن أخانا ولا تقنط من رحمة الله . فلما وصل اليه الرسول . قال : كم فعلت وقتلت ونهبت من المسلمين وأخشى اذا رجعت ان تأخذونى بما فعلته . فراجع الامام قائلاً قد عفونا عنك فارجع فارسل راجح يقول : ارسلوا لى أميراً بجيوش كثيرة حتى أدلكم على أموال العدو فذهب اليه الوزير عدلى ومعه جيش فقتلوا وأسروا ونهبوا وعادوا وراجح

معهم . وحصلت بعد ذلك عدة غزوات والفريقان يبديان من ضروب الصبر وصدق اللقاء ما يندر مثله في التواريخ . وعاد الامام الى هر رثم جمع جوعه وقصد بلاد الحبشة وجعل هؤلاء جوعهم وتلاقوا في محل اسمه انطاكية وكان المسلمون خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل فاجتمع عليهم من الحبشة ستة آلاف فارس ومائة ألف راجل وكانت مع الامام مدافع وأمر الامام عشرة من شجعان رجاله وهم الأمير زحربوى وأحمد جويتا والأمير على والجراد أحمد بن لاد عثمان والأمير أبو بكر قطين وتكية السابق الذكر مقطوع اليد والرجل بأن يسيروا معه الى جهة «بالي» وكان عسكرهم قد آذى المسلمين كثيرا وأمر بأن يأتوا له بمدفع وأمر مقدم المهرة من العرب بأن يضرب عليهم بالمدفع فضرب فاج بعضهم في بعض فحمل عليهم المهرة والمسلأ فهزموهم وذهبوا في طريق أخرى ولم يرجعوا الى بطريقهم . وكان تكية مقطوع اليد والرجل قال للامام في بلده : ان شاء الله هذا السوط الذي في يدي أضرب به فارسا من الكفرة وانزله عن فرسه وأخذ فرسه . وكان الأمر كما قال ففي ذلك اليوم ضرب فارساً حبشياً بسوطه ورماه عن فرسه وغنم فرسه . ثم ان الحرب دارت رحاها وانتهت بفوز المسلمين وأشبهت وقعة صمبر كورى في كثرة من قتل فيها من الأحايش . واحرق المسلمون كنيسة انطاكية وغنموا غنائم لا تحصى وكان ذلك في الخامس من رجب سنة ٩٣٧ هجرية . وأوغل بعدها الوزير عدلى في بلاد الحبشة واشحن فيها . وكان ممن أسره اثنان من كبار الحبشة عرضا فدية أنفسهما الواحد بمائتي أوقية ذهب والآخر بمائة أوقية فرفض الوزير الفداء وقتلها وأقام أياماً بأرض جنبه ثم سار الى أرض شرخه وتلاقى فيها مع الوزير نور واسروا وسبوا . وكان من جملة السبي امرأة البطريرق ازماج وأولاده فلما علم هذا بأسرهم دخل وأسلم فردوا عليه امرأته وأولاده وأسلم كثير غيره . وبعد ذلك وصل الامام ومعه وزيراه الى عندورة وفيها كنيسة لوسن من أعظم كنائسهم وأغناها فأحرقوها ونهبوا ماوصلت اليه أيديهم .

فجمع ملك الحبشة جوعاً أخرى وأمر عليهم بطريقاً اسمه تخلى سوس وكان معه ثلاثون بطريقاً من التجري فجاء اثنان من المنتصرة أحدهما اسمه عمر والآخر اسمه سكوكانا ارتدا عن الاسلام وأقطعهما ملك الحبشة بلداً يأكلان خراجه فلما وصل الامام بجيوشه الى قرب بلدهما دخلا على الامام وطلبا العفو ودلاه على عورات النصارى فقصدهم الامام

وتلاقوا في واد حمل المسلمون على النصارى وكان أول من جل منهم صبر الدين صاحب وشلة بعد الفتح ودخل وسطهم ومن بعده على اليزيدي وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وآدش ابن ماسي وانضى هذا سيفه وضرب به رأس البطريق تخلى سوس ضربة ابانت رأسه عن جسده وجل سائر المسلمين فانهزم الأحباش وقتل منهم البطريق اسلامو قتله أبو بكر بن جراد يماج واسر بطريق مرجاي والبطريق شوتلاي أسرها فرشحهم على ثم أسلم شوتلاي وحسن اسلامه وقتل في الجهاد وكذلك أسلم بطريق مرجاي وجاهد في صفوف المسلمين .

واسر في ذلك اليوم البطريق كفلي والبطريق أسير واسر البطريق جرجيس صاحب قجام وكان جملة من قتل من البطارقة الكبار مائة وثلاثون واما فرسانهم ورحلهم فقتل منهم الوف وغنم المسلمون خمسمائة فرس وكثيرا من الاثقال . ثم سار الامام في أثر المهزومين الى عواش ومنها الى دل ميده ثم الى حيت وقسم الامام الغنائم وفرق الخيل والبغال على المجاهدين ثم سار الامام من حيت الى قنبورة وسوق دوارو وكان أهل سوق دوارو مسلمين يدفعون الخراج لبطريق داورو . وفي تلك الاثناء تشاور أهل دوارو بعضهم مع بعض وقر رأيهم على مهادة الامام وكف الحرب ولو نذبهم النجاشي لم يطيعوه وان يبق كل منهم على ملكه ودينه ومن أراد منهم الاسلام فله ذلك فكف عنهم الامام وتقبل هداياهم وسار الى الامام فوصل الى أرض المائة ودخلوا المرزير من أرض المائة . وكان فيها كنيسة عظيمة فأحرقوها وكان نجاشي الحبشة على مسافة يومين من هناك فعلم ان الامام يقصده فزحف الامام الى أرض بادقي طانا ان ملك الحبشة يخرج لصدده فيقاتله . فلما وصل الامام الى نهر دوخم نظروا نارا تشتعل في وسط بادقي فاستدعى الامام بطريق حيب الذي كان أسلم وصار معه فسأله عن موضع هذه النار فقال له هذه قرى الملك فقال له هل تعرف سبب هذا الحريق فقال له نبئت هنا ولا نلبث أن يأتينا الخبر واذا بتجار مسلمين يسكنون بادقي اخبروا ان الملك كان في أرض جبرجي فلما علم بقرب وصول المسلمين أرسل بطريقا من بطارقه وقال له سر الى بادقي وحرق بيوتى وبيوت اخوانى قبل أن يسبقك المسلمون اليها فيحرقوها ويقولوا حرقنا بيت الملك أما الكنيسة فلا تحرقها اذ لا يحل لنا تحريقها في كتبنا . فلما كان الغد أرسل الامام سرية عليها فرشحهم على فأحرقوا كنيسة بادقي وكان في شراريفها ذهب ومن فوقها صليب من الذهب الأحمر . وسار الامام وجيشه الى « اندوتنه »

وهي قرية الملك نفسه وكان له فيها بيت فيه تصاوير كصورة الأسد وصورة الآدمي والطيور
فدخل المسلمون البيت وحرقوه وعين الملك تنظر وكان بينه وبين البيت مرحلة واحدة
فأصابه من الحزن أشد مما أصابه لنحريق بيوته في بادق وبكى وجع الجوع وعبى الجيوش
وسار الى قتال المسلمين وكان نهر عواش فاصلا بين الفريقين وكان فياضا لا يقدر أحد أن
يقطعه فأخبرت طلائع المسلمين الامام بأن النصارى وصلوا الى نهر عواش فأرسل الامام عبد
الناصر صاحب جنز وبشاره وشمعون وصبر الدين وعلى ورادى ومعهم ثلاثون فارساً
يستقصي أخبار الحبشة فوصلوا الى النهر فوجدوهم على شاطئه من الجانب الآخر ومعهم
الملك بنفسه فتشامخوا بالكلام ولم يصل أحد الى الآخر. ثم رجع النصارى الى أرض « ورب »
وجلسوا فيها وانبت المسلمون في الاطراف ينهبون الكنائس وكان فيها من الذهب والفضة
والنفائس مالا يقع عليه احصاء ف وقعت كلها في أيدي المسلمين وأحرقوا الكنائس . ثم
تجاوز المسلمون عواش بعد أن قل مأؤه ووصلوا الى جبرجى وحرقوا بيت الملك فيها فأنحاز
الملك الى « نزارجح » من أرض الداموت ووافاه بطريق كبير اسمه « وسن سجد » كان
معظما عندهم يسمونه أبا المساكين ويخافونه أكثر مما يخافون الملك فقال للبطارقة كيف
ترضون أن يفعل بكم المسلمون هذه الفعائل وقد مات آباؤكم وأجدادكم وما فعل بهم أحد
من المسلمين مثل ما فعل هذا الرجل (يعنى الامام) وما هذا الا من ظلمكم وجوركم فسلط الله
عليكم هؤلاء المسلمين أخبروا عليكم بلاد دواروا وفطجار وبادق وبرارة وحرقوا
الكنيسة التى فيها بطرككم والتابوت الذى فيه جسد البطريرك الخ فلما سمعوا كلام
وسن سجد هذا قالوا له مر بما شئت فنحن نقاتل المسلمين ونموت بين يديك فقال
لهم مضى ما مضى فكونوا بعد الآن رجالا ثم كتب الى الامام كتابا يقول له فيه :
أما بعد انتم المسلمون ونحن النصارى وقد كنا نسير الى بلادكم ونحربها ونحرقها والآن
فقد أدالكم الله علينا والنصر لا يدوم كل يوم والآن يكفيك ما فعلت وارجع الى بلادك
وأنت تقول فى نفسك انك هزمت الملك فى صمبر كورى وتقول فعلت فى انطاكية وفعلت
فى ازرى فلا تغتر بنفسك فان الملك صارت عنده جيوش كثيرة مارأيتها ولا سمعت بها
فأرجع الى بلدك بغنيمتك وذهبك والا فالليعاد بيننا وبينك يوم السبت فانا الذى قتل أخاك
الجرادابون ابن الجراد ابراهيم وهو أكبر منك وهزمت جيشه وفعلت ذلك مرارا ولا تظن

اننى مثل من لقيت من البطارقة . فلما وصل هذا الكتاب الى الامام كان الامام مريضاً فقال
 الأمراء الذين بين يديه لرسول البطريق وسن سجد : أما ماخوفتنا به من لقائنا يوم السبت
 فقد أعلمنا مشايخنا ان قتلك يكون يوم السبت وان القتال هو بغيتنا ومرادنا وهذه البلاد
 لسنا بتاركها حتى نأخذ الحبشة بأسرها ان شاء الله . فرجع الرسول وأخبر البطريق بما سمع
 فدخله الخوف والجزع وأرسل الى الامام مرة أخرى يقول : اننى ماتكلمت بكلامى الأول
 الا خوفاً من الملك والبطارقة ولقد أعلمنى الرهبان اننى سأقع فى يدك فاذا وقعت فارحنى .
 فلما جاء رسوله وأخبر الامام بذلك ضحك الامام وقال له ، قل له ، اذا صرت فى أيدينا
 رحناك .

وفى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٩٣٧ تعافى الامام من مرضه ونوى أن يقصد
 ملك الحبشة فى أرض الداموت فراوده من معه عن ذلك فلم يسمع لأحد كلاماً وزحف وأول
 ما حط فى بلدة زرارة وهى بلدة كبيرة يسكنها التجار من نصارى مصر ونصارى الشام ومن
 تولد منهم بأرض الحبشة يسكنها اطيّب هوائها . ثم تقدم منها الى ويز وهى أيضاً مدينة
 عظيمة فيها سوق ليس فى الحبشة مثلها وجاءت جواسيس للامام تخبره ان الملك دخل أرض
 الداموت وان البطريق وسن سجد رجع الى وراء فى أرض وج كأنه يتهدد بلاد المسلمين .
 فضى الامام يطلب الملك فاعتصم الملك بجبل مانع له طريق واحدة لا غير وعبى جوعه فى
 الجبل ووكّل بمدخل الطريق الواحدة رجلاً اسمه أورعى عثمان بن دار على وكان مرتداً فجاء
 المسلمون وهاجوههم وتسلق فريق منهم الجبل قاصدين الملك فى مكان ظن أن لن يصلوا اليه
 ففر الملك وجيشه قاصدين بلاد وج والمسلمون فى أثرهم ثم قصدوا بلادشوا لأخذ خزائن
 الملك وأحرقوا كنيسة اند قبطن وكنيسة داردبنى . وخضع للامام أهل شوى وأهل ورب
 وأدوا الجزية وصالحوا على بلادهم ووصل الامام الى برارة فقدم له أهلها الطاعة والضيافة .
 وهطلت فى هاتيك المدة الأمطار الغزيرة واشتدت العواصف وكل هذا لم يثن الامام عن
 عزيمته فى متابعة الجهاد وأرسل من أحرق كنيسة دير لبانوس على شاطئ نهر أورمه وهى
 من أعظم وأقدس كنائسهم . ومازال طول هاتيك المدة يضيق على الملك وهو يفر من وجه
 الامام من مكان الى مكان ومعه أربعون رجلاً من الافرنج . ولكن البطريق وسن سجد
 تلاقى مع المسلمين واشتدت الحرب وجرت عدة وقائع وتبارز البطريق وسن سجد مع فارس

من أمراء المسامين اسمه الجراد عابد فطعن البطريق الجراد عابدا بالرمح طعنة نافذة في يده اليسرى وكان عليه عدة مانعة فخرج السنان من يده ومن العدة وأراد البطريق أن ينزع رمح فانسكس في يد الجراد عابد فأراد أن يسل سيفه ويضرب الجراد عابداً فكان هذا قد ضربه في رأسه ثم نثى فأسقطه عن جواده فقال له لا تقتلني أنا وسن سجد فنأدى الجراد عابد أصحابه ان وسن سجد قد سقط فنأدى المسامون الأحباش ان رئيسكم وسن سجد قد مات فانهزموا وأخذ البطريق يصيح وهو في الأرض صريع : الخ بلا ، الخ بلا . أى أنا حي ولكن الحبشة كانوا انهزموا وتبعهم المسامون يقتلون ويأسرون وأجهز الجراد عابد على وسن سجد فعاتبه الامام فيما بعد قائلاً له : لم قتله قبل أن أنظره ؟ فأجابه : قلت له أريد أن أوصلك الى سيدى فاضطجع الى شجرة هناك وأبى وقال اقتلني في مكانى هذا وشتمنى فقتلته . وبعد هذه الواقعة أمر الامام بالأسارى من البطارقة فكانوا ثلاثين بطريقاً فقتلهم منهم البطريق جان نهد الذى أسره الوزير عدلى والبطريق قاسم وكان مسلماً مرتداً ولاء الملك جان أموره بين التجرى والعنقوت ، وكان من أشد البطارقة أذى للاسلام أسره رجل من الصومال من قبيلة متان . ومنهم بطريق هنه . ومنهم بطريق اسمه جبر اندرياس عمره تسعون سنة مابق أرض في الحبشة من زمان الملك ادماس الى اسكندر الى ناود الى أيام الملك وناج سجد الاتولاها .

قال شهاب الدين أحمد الملقب بعرب فقيه : فلما قتل وسن سجد افتتحت البلاد وذلت جيوش الكفرة وأسلم أكثرهم كما سيأتى ذكره . ثم وصل الامام الى جان زلق فهرب أهالى البلد الى بلد شجره فأرسل الامام بعض من أسلم من الأحباش فنصحوهم فجاءوا الى الامام وأسلموا . وأرسل الوزير عدلى الى « زقالة » والى « لال بلا » فسبقه الأمير مجاهد ونهبهم فأسلموا . فلما وصل الوزير وجدهم مسلمين . فسار الوزير عدلى الى « عواش طبوا » فأسلم أهلها . وسار الامام الى أرض انطيط وكان هناك كنيسة للملك اسكندر مملوءة ذهباً فخط المسامون عندها وأخذوا مافيهما من الذهب ثم أحرقوها . وفر أهالى جان زلق الى الجبال ولم يسلموا فأرسل اليهم الامام خالد الواردى وكان يعرف مسالك بلادهم فقال لهم : تعرفون أننى أعرف جميع بلادكم فأسلموا قبل أن نقاؤلكم . فتشاور بعضهم مع بعض وقالوا ان لم نسلم نحن وقد أسلم أكثر الحبشة يرسل الينا الامام جيشاً يأخذنا كننا ولا يفلت منا أحد

فقدموا على الامام هم وأهل قوت وأسلموا جميعاً . وأسلم من البطارقة بطريق دلو و بطريق دبل و بطريق اسمه حيزو وحسن اسلامهم وشهدوا المشاهد التي كانت بعد . ولما أسلم أهل قوت كانوا الف فارس وأربعة آلاف راجل كان معهم بطريق اسمه ايبس خطى أبى أن يسلم وقال أنا ماجئت لهذا ولا أفارق ديني الذي مات عليه آبائي وأجدادي فقال له الامام : أنت أحسن من هؤلاء الذين أسلموا ؟ . فقال البطريق : هؤلاء بدو لا يعرفون دينهم ولاديسكم فاذا أسلموا لا عار عليهم أما أنا فاذا أسلمت يعيرني الناس عند الملك والرهبان . فقال له الامام لا تفعل فأنت كبير النصارى و بيننا وبينك مصاهرة . وذلك لأن جارية الامام هاجرة كانت انة عمه . فبقى أسيراً ولكنه على دينه فقام البطارقة الذين أسلموا وقالوا له أسلم والا تقتلك أفانت أحسن منا فاسلم وجلس مع الامام ثلاثة أشهر فلما غزا الامام أمحرا هرب ولحق بالملك ورجع الى النصرانية ثم أمر الامام على جان زاق الجراد عثمان بن جوهر وعلى أهل قوت خالد الورادى فسار اليهم وأسلم نساؤهم وأولادهم وحسن اسلامهم . ثم سار الامام الى بلد شجرة فتقبله الجراد نصر وقال له : بلادنا كلها أسلمت ببركة الله تعالى و ببركتك . فقال له الامام : أمرتك على الذين أسلموا وأما الذين لم يسلموا فسر اليهم وائتني بهم فسار اليهم وقتلهم وأتى ببطريقين أسيرين فقال لهما الامام : كل البلاد أسلمت فالكما لاتسامان . فاييا الاسلام . فقال الامام : حكمنا بضرب أعناقكما . فقالا : مرحبا . فتعجب الامام من كلامهما وأمر بقتلهم .

وأمر الامام أميراً اسمه شمسو ان يسير الى افات ويفتحها فسار اليهم وقهرهم وحصرهم في الجبال فأسلموا وأحرق المسلمون كنيسة للالك المتقدم اسكندر كان فيها ذهب كثير وانجيل ورقه من الذهب لا يحمله الارجلان . وسار الامام الى ابونه فأسلم أهلها ومعهم بطريقهم اسلامو . فلما سار الامام الى أمحرا ارتد البطريق ولحق بالملك أما عسكره فقد جلسوا على الاسلام وقاتلوا مع شمسو عامة فتوح الحبشة . وكان اورعى عثمان المرتد في افات فلما رأى جيوش الامام أقبلت وابقن ان قد احيط به قال لعساكره : أنا أقاتل المسلمين ولا يدخلون بلادى . ولكنه من جهة ثانية ارسل الى الامام سراً يقول : أنا مسلم وابن مسلم اسرنى المشركون ونصرونى وقلبي مطمئن بالايمان والآن أنا جار الله وجار رسول الله وجارك أن تقبل تو بى ولا تؤاخذنى بما عملت وهذه الجيوش التي معي أحتال عليهم حتى

يدخلوا عليك ويسلموا . فاجابه الامام : اذا فعلت هذا فقد قال الله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . لا تخف ولا تحزن . ويكون الميعاد بيننا وبينك ارض طويبة فاني سائر اليها . وأرسل اليه الامام مسبحته للامان وطيبة لنفسه . وبعد أيام جاء اورعى عثمان ومعه مرتدان آخرون من صبيان الامام يريدان الرجوع الى الاسلام ومعهم نحو عشرين الف نسمة من الحبشة من رجال ونساء واولاد فدخل اورعى عثمان على الامام وقبل يده وطلب العفو فتقبله الامام تقبلا حسنا وقال له : لا تخف ولا تحزن وقل للعسكر اسلموا . فاسلموا جميعهم من الظهر الى المغرب ومعهم نساؤهم وأولادهم وكان فرشحهم على في دبر برهان فارسل اليه الامام أن يسير الى أرض « تقلت » والى وقدة والى حجر ويقاقل أهل هذه البلدان أو يسلموا ففعل فرشحهم على ما امره به وسار الامام الى « جدم » فاسلم أهلها باجمعهم .

أما ملك الحبشة فقطع الأمل من استرجاع البلاد التي ذهبت من يده وانهمزم الى بيت احمرة أصل المملكة وجع حوله ما بقي من قوته : وكان هناك كنيسة أسس بناءها الملك ناود أبو الملك وناج سجد اشتغل بينها ثلاث عشرة سنة ثم خلفه ابنه فقام يجهد في عملها أحسن مما جهد أبوه وبقى يتم بناءها خمسا وعشرين سنة . وكان طولها مائة ذراع وعرضها مائة ذراع وعلوها مائة وخمسين ذراعا وكلها بالذهب مرصعا بفصوص الجواهر واللؤلؤ والمرجان وكان قبر الملك ناود ابن ادماس بن زراقوب فيها . فلما فرق الملك جيوشه الى أبواب المدينة دخل هذه الكنيسة فنظر اليها يمينا وشمالا وقال : هؤلاء المسلمون يريدون أن يحرقوا هذه الكنيسة وهي دار ملكي ودار الملوك المتقدمة . فقال له من معه : المسلمون لا يصلون الى هنا أبداً ونحن نقاتل دونها حتى نموت .

أما الامام فارسل احد امراء جيشه « جويته نور » الى بلد كسايه من أرض جدم وكان بها كنيسة عظيمة فيها ألف راهب فنهبها وأحرقها . وأرسل أناساً الى بلد جن يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعضهم . ثم وصل الى الامام رجل من النصارى اسمه « وسن جان » ومعه خمسمائة من أهل الدرق الأبيض فأسلموا . وما زال الامام يجهد في أثر ملك الحبشة حتى أدركه ودارت بينهما الوقعة المسماة بوقعة واصل فانهمزم الملك ومن معه وقتل من رجاله خلق كثير وبلغ الأمر به أن فر بنفسه شريداً ماشياً على رجله ومعهم خمس جنائب تقاد أمامه بألحقتها

وعدها وذلك من وعورة الطريق . وذهب الامام من طريق أخرى هو وأصحابه وقد ترجلوا من صعوبة الطريق أيضاً . ومر الجراد عثمان بن جوهر وأورعى عثمان من على مقربة من الملك وهم لا يعلمون به وهو قد اختفى في شجرة في تلك الأوعار الى أن مر المسلمون ففر قاصداً بلد العنبا واحتوى المسلمون على غنائم لا تحصى ووصلوا الى خيمة الملك وهي منصوبة كما هي وفيها سريره وسلاحه وفرحوا فرحاً عظيماً وكانت هذه الواقعة في ١٦ ربيع الأول

سنة ٩٣٨

ودخل الامام بعدها بيت المحره في أيام برد شديدات فيه بعض عسكره من شدة البرد وكان العسكر يطعنون الماء المتجمد بالحديد حتى يكسروه . ولما وصل الى كنيسة المحره العظيمة التي سبق الكلام عليها دخل اليها هو والمسلمون فاعتزتهم الدهشة مما شاهدوا فيها من بدائع الصنعة وروائع العظمة ووفرة الكنوز ونهبوها وبات الامام بجانبها واستدعى من كان معه من العرب وسألهم هل يكون في الروم أو في الهند أو غيرها مثل هذه الكنيسة ؟ فأجابوه لا نظن في الدنيا مثلاً . وكانت بجانب الكنيسة ثلاثة بيوت للملك يسكنها وكانت فيها عجائب لمن نظرها فجلس الامام في أحدها وأعطى بيتاً الى الامير اجوشه والأمير أبي بكر بن قطين وجعل البيت الثالث مسجداً . وأما الوزير نور فوصل الى كنيسة اتووس مريم ووصل آخرون الى كنيسة بيت سمايات التي بنتها أم الملك وآخرون الى كنيسة دبر نقداد وكان الملك ادماس قد بناها وهو مدفون فيها كما أن أم الملك مدفونة في كنيسة بيت سمايات فانتهب المسلمون جميع هذه الكنائس وأخرجوا منها من أجمال الذهب والفضة والديباج والحرير ما يعجز وصف الواصفين وأحرقوا الكنائس ووجدوا في كنيسة بيت سمايات أربعة رهبان لما شبت النار بها دخلوا اليها واحترقوا معها . ووصل عبد الناصر الى كنيسة يقال لها جنت جرجس من بناء الملك اسكندر فلم يجد فيها شيئاً لأن أهلها كانوا أخذوها معهم فخرقها . وأرسل الامام ألفين من أصحابه الى بلد « واله » فوجدوا فيها أربع كنائس منها كنيسة مصفحتان بصفائح الذهب فجعلوا يقلعون الذهب بالقداديم . وأرسل الامام سرية الى جبل العنبا وهو جبل يسكن فيه أولاد الملوك ومن عادتهم أنه اذا ولد للملك ولد ذكر أصدوه الى هذا الجبل وبقى فيه حتى لا يكون خلاف في الدولة فاذا مات الملك أنزلوا من يريدون توليته من أبناء الملوك من هذا الجبل وولوه الملك . وهو جبل لا يصعد

اليه الا بالسلام فوقعت هناك مقاتلات انهزم في آخرها المسلمون وقتل أورعى عثمان وعلى ورادى والجراد متان الصومالى وعبد الله بن ناصر الدين الجوى وأسر الجراد اجموشه . وكانت هذه الهزيمة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٩٣٨ ورجع المنهزمون الى الامام وأخبروه بما جرى فخرن لا سيما على صهره متان واسترجع وبكى ولكنه أراد أن يعاقب المنهزمين فربط أكابرههم فرشحم على والجراد اجمدوش ومائة فارس معهم وأراد قتلهم فشفع فيهم الفقهاء والأمراء فخلوا كتافهم ولكنه قال لا بد أن تسيروا الى جبل الغنبا وتقاتلوا فقال الأمراء للامام أتريد أن تخلص الجميع في ذلك المكان الضيق فان كنت تريد أن تهلك الجميع فسر أنت بنفسك على أنه ان أعطاك الله النصر وفتحتها لم تجد الا أولاد الملوك اذ ليس فيها شئ غير ذلك ونحن والحمد لله صار عندنا مال مثل التراب والأولى أن نرجع الى الورداء ونجتمع مع الوزير عدلى والجيوش التى خلفناها فى فطبحار . فانتقاد الامام لنصيحتهم ورجع وسار يريد عنقوت فخط فى بحر حيق وهو عذب الماء فى وسطه جزيرة وفى وسط الجزيرة كنيسة وبساتين فيها ألد الفواكه وكان الامام أرسل الأمير زحربوى محمد بن عمه والوزير مجاهداً وعبد الناصر وجيشه والجراد صديقاً وأورعى أجد وضم اليهم ثلاثمائة فارس فقاتلوا مع الحبشة عند كنيسة دبرازهير ونهبوها وأخذوا منها من الكنوز ما لا يحصى عدده . وكان لها من التاريخ يوم أحرقوها سبعمئة وعشرون سنة . أرسل الامام الى أهل جزيرة بحر حيق يدعوهم الى الطاعة ويأمرهم بتسليم الأسير المسلم الذى عندهم .

وكان من قصة هذا الأسير انه غزا مع السلطان محمد فلما انهزم المسلمون فى « دل ميده » وقع أسيراً فلما علم الملك انه من حشم السلطان محمد أرسله الى تلك الجزيرة وأمرهم أن ينصروه فتنصروا بقى عندهم ١٦ سنة وقلبه مطمئن بالإيمان . فهذه المرة أرسل الامام رسولا سبى فى البحر حتى وصل الى الجزيرة فرماه أهلها بالحجارة فقال لهم : لا ترموني أنا رسول . فقالوا له : أنت رسول هذا الساحر أى الامام فكلمنا من بعيد . فبلغهم الرسالة فأجابوه : قل لسيدك لا نعطي الجزيرة ولا الطاعة ولا نفك الأسير يفعل الذى يقدر عليه عرفنا انه يطلع الجبال بالخيول والرجال أما هذا فبحر . فرجع الرسول وأخبر الامام بما وقع فجمع الأشراف والعرب والمغاربة والمهرة وقال لهم : نحن مانعرف أيها العرب الا البر والجبال وأما البحر فهو شغلكم تعرفون أموره فطلب منه العرب الأخشاب والجبال فجمعوا لهم

أخشاباً كثيرة ونحو عشرة آلاف جبل فشدوا بها شيئاً يقال له الرمس^(١) وأنزلوه فصار سيراً بطيئاً فقال لهم الامام لا تصالون بهذا السير الى قرب الجزيرة حتى يكونوا أهلكوكم بالحجارة والنشاب . فاحتالوا للسرعة بشيء آخر وهو انهم وضعوا تحت الخشب قرباً فسارت مثل السهم ففرح الامام وقال هذا ما كنت أريد . وأمر مقدم المهرة احمد بن سليمان المهري أن يركب البحر هو وأصحابه وأردفهم بغيرهم من الجيش وكان أهل الجزيرة قد نظروا تجربة الارماس وعلموا أن المسلمين واصلون اليهم وقالوا هذا من شغل العرب ومعهم المدافع وإذا خالفنا أمرهم أخذونا عنوة ، فعولوا على طلب الأمان وأرسلوا الاسير في سنبوق ليلا فأوصله رجالان منهم وعادا في الليل فلما أصبح الصباح شاهده الأمير ابيساور عند صلاة الصبح فقال له من أنت فقال : أنا حرب أرعد بن اروعي حبر الدين الاسير في الجزيرة . فأخبر الامام بخبره فأمر بدخوله فلما رآه الامام بكى شفقة عليه لما رآه من تغير حاله بالاسر وبكى الاسير ثم أبلغه أن أهل الجزيرة خافوا من شغل العرب وهم يطلبون الصلح على شرط انك لا تقتلهم ولا تحرق كنيستهم فقبل الامام ذلك وقال له : ارجع اليهم وقل لهم يكون ذلك . فرجع الاسير وأخبرهم وأشار عليهم بأن يرسلوا الأبون الذي عندهم (الرئيس الديني) ويعقد لهم الامان . فركب الابون سنبوق وجاء الى الامام وأراد أن يقبل الارض فمنعه الامام وقال له : يا خسيس لا تسجد للناس . ثم قال له : تكلم حاجتك . فقال : جميع الرهبان يريدون أن تعطيهم الامان على أنفسهم وكنيستهم . فقال الامام بشرط أن لا تخفوا المال فقال : السمع والطاعة أنا أذهب الى الجزيرة وأجىء بالمال . فقال الامام : لا نأمن لكم ولا بد أن يذهب أصحابي الى الجزيرة ويأتوا بالمال . فقال الابون : اذا كان لابد من دخول أصحابك فأوصهم بأن لا يغيروا على كنيستنا ولا ينقضوا عهدك . فقال له الامام : اذا أعطيتك الأمان أنا فلا أحد يقدر أن ينقض عهدي . فأمر الامام زحربوى محمداً بأن يذهب ومعه رجال من العرب والمهرة والمغاربة وأوصاه بأن لا يفعل شيئاً سوى نقل المال . فكان من الذهب والفضة حمل مائة رجل وأصاب كل رجل من المسلمين ثلاثمائة أوقية ذهب وفضة وأرسلوا الى الامام الارمسة ثلاث مرات مشحونات وليس في الواحد منها أكثر من خمسة رجال مع انها يسع الواحد منها ١٥٠ رجلاً . فرأى الامام أموالاً هائلة وقسمها فسهم

(١) ارتمس في الماء انغمس فيه

أعطاه للعرب وسهم أعطاه لبحر بوى ولعسكر بحر والسهمان الباقيان فرقهما على جيوش المسلمين . ثم سار الامام الى بيت المحرّه وذلك لأنه كان بقى فيها كنيستان فأراد أن يحرقها احدهما مكان مريم والاخرى دبته مريم فوصل الى المحرّه وأحرقهما . وذهب منها الى حنبورة حيث جلس لمرض الشريف أحد القديمي الذي كان معه فبقى معه الى أن مات رحمه الله وصلى الامام عليه . وأرسل الامام الوزير عدلى الى دوار و فوصلوا الى نهر عواش فوجدوه ملاّن وفي جانبه جيش الحبش فجعلوا يرمون المسلمين بالسهم في الليل فقام من أبطال المسلمين الجراد شمعون وقال نحمل في الماء وخيولنا تسبح فيه وحمل هو و خيله في الماء وحمل المسلمون من ورائه والحبشة يرمونهم بالنشاشيب الى أن خرجوا الى الجانب الآخر . فدخل الجراد شمعون وسط صفوفهم وهو يجندل أبطالهم وحمل معه أصحابه فانهمز الاحباش وقتل منهم ثلاثمائة وخمسون . ثم جاءتهم من الاحباش كرة أخرى فتقاتلوا قتالا شديداً وانهمز هؤلاء وقتل منهم نحو ١٥٠ رجلاً ثم أعادوا الكرة ثالثة فانهمزوا وقتل منهم نحو ٥٠ رجلاً .

ثم سار الجراد شمعون الى « دبر برهان » فصادفه البطريق جرجيس فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل من الحبشة ألوف . أما الامام فكان سار الى بلد ملك الحبشة وهزمه هو و بطارقه وسبى نساءهم وفر الملك برأسه . وعاد الامام بالغنائم الى معسكر الوزير عدلى . وكان هذا سار الى دبر برهان فلما وصل الامام أحب الوزير عدلى أن يعرض أمامه الجيوش لأنهم كانوا في وسط بلاد الحبشة وعليهم جواسيس للعدو فاستحسن الامام رأيه وجاء الوزير عدلى بخمسين راية وكل راية بمقدمها من الجرادات والامراء فكان عدد خيل الوزير يومئذ ثلاثة آلاف فارس لابس وثلاثة آلاف فارس غير لابس وكان عدد أصحاب التروس البيض عشرين ألف تراس وكان عدد أهل القسي مثلهم وكان مع الامام خمسة آلاف فارس كلهم لا بسون بتجافيف التماسيح والقטיפفة المثقلة بالذهب لا تظهر منهم الا احداق عيونهم من الدروع . ودخل أصحاب عدلى في الصف الاول من الصومال مع مقدميهم والتقوا مع الامام وسلموا عليه وداروا ناحية الى جنب المحطة . ودخل الصف الثاني من أهل القطبحار والمالية وأهل شوا ومن دخل في الاسلام وسلموا على الامام وداروا ناحية جنب الصف الأول . وجاء الصف الثالث وفيه الوزير عدلى والأمير حسين والأمير شمعون واورعى نور

وكانوا خمسين أميراً في عدد عديد وزرد نضيد فجعلهم صفا بعد صف لكثرة جيوشهم فتواجهوا مع الامام وسلموا عليه وجلسوا وتحدثوا فبكى الامام بكاء السرور . وكان من يوم فارقه الامام الى اليوم الذي واجههم فيه سبعة أشهر وأخرج الامام الغنائم من الذهب والفضة والحريز وفرقها وكثر الذهب بين أيدي الناس حتى صار البغل يباع بأربعين أوقية من الذهب لكثرة الذهب وابتذاله وكان الرجل يعطى صاحبه مائتي أوقية من الفضة فلا يرضى بها .

ولما رجع الامام الى دبر برهان ارسل ملك الحبشة البطريق راس بنيات وكان من أعظم البطارقة وأمره بكبس افات والقبض على اورعي ابون الذي كان فيها . وكان الامام أرسل الى افات الوزير عباس مع نجدة قتلاقي الفريقان في كساية وانهمزم البطريق ومن معه . ثم شاور الامام أصحابه فيما يصنع فقال بعضهم ان البلاد ما أسلمت من نهر عواش الى نهر وبي وكذلك أرض بالي والجنز والوج فالرأى أن نسير اليها . فقال لهم الامام : ان أهل افات وجدتم وشجره أسلموا فاذا سرنا عنهم وتركناهم بلا عسكر فقد يرتدون . فقالوا له : المهم هو البلاد التي نقصدها لا التي نحن فيها . فوافقهم الامام وساروا الى أرض اماية وبعد قتال شديد في الجبال والاعوار قاتل فيه الحبشة بالسهم المسمومة فلم تنفعهم وتغلب عليهم المسلمون فأسلموا وأرسل فرشحهم على الذي كان قائد الحملة في جهة الماية بكتاب الى الامام يقول فيه ان أهل «مايه» أسلموا وكذلك أرض «زقاله» وبلاد «جتوا» و «ارحتلو» و «شجن» أسلموا جميعهم ففرح الامام فرحا شديدا . وكذلك كان أرسل عبد الناصر الى «جنز» وقال له قاتلهم أو يسلموا أو يعطوا الجزية . وأرسل الوزير مجاهدا الى أرض «وج» والى «جبرجي» وقال له : قاتل وأنا سأر من ورائك . فاهل وج وجبرجي أعطوا الطاعة وأدوا الجزية واما بطريقهم «اسلام دحر» والبطريق الآخر «وينداب» صهر الملك فأيا أن يسلموا . فاما وينداب فسار بمائة وخمسين فارساً لاحقا ببلاد الداموت وأما اسلام دحر فأرسل الى الامام ولده و بطريقا اسمه عسبو ليتكلم مع الامام في الصلح وكان عسبو فصيحاً ليلاً فقال للامام : هذا ولد البطريق اسلام دحر وأنا صهره جئناك على أن لا تخرب بلادنا ولا تحرق كنائسنا ونؤدى الجزية ونبقى على ديننا . فرضى الامام بهذا منهما فأظهرها ورغبتهما في الاسلام بعد ذلك فقال لهما الامام : قولوا نشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول

الله . فأما البطريق فقاها وحسن اسلامه . وأما ولد البطريق اسلام دحر فقال انا لأسلم حتى تحلف لى انك تتخذنى ولدا فضحك الامام من قوله وقال له : أسلم انا أفعل لك ما أردت كله . فقال لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انه كان معهما ثلاثون فارساً فأسلموا جميعاً . واما « تسفو » مقدم بلاد المايه فارس الى الامام قائلاً : لا تخرب بلادى فانى أسلمت على يد فرشحهم دين . فأمنه الامام وقدم عليه هو والفي راجل من الرماة فأكرمهم الامام وأقر تسفو على امارته . وجاء الوزير مجاهد مع أهل وج الذين أسلموا ووصل فرشحهم دين بعد الوزير مجاهد ومعه من أسلم على يده وهم أهل مته بلدان بفرسانها وبطارقتها وكانوا الوفا فسجد الامام لله شكراً ودعا لفرشحهم دين . وأما عبد الناصر فاقر الجزية على الذين فتح بلادهم وبعضهم تحصنوا بالجبال فسار الى « كنبات » وقتلهم وقتل منهم خلقاً كثيراً الى ان اقر الجزية ورجع الى « جيطو » من أطراف بلاد هديه فقاتلوه فقاتلهم الى ان اقر الجزية .

اما الامام فكان فى أرض وج صام فيها رمضان وأفطر فى « جراحى » وأرسل جيشاً فيه عدة امرأ تحت قيادة الأمير حسين الى دوار و فدخلوا أرض زرى ثم أرض وطمات . وكان هناك سافو ابن البطريق وسن سجد وغيره من البطارقة فانهزموا من وجه المسلمين . ودخل سافو أرض « جان زجرة » فتعقبوه اليها فانهزم الى عنقوت لاحقاً بالملك وأخبره بما فعل المسلمون فخرن جداً . أما الأمير أبو بكر فانه دخل جان زجرة وخربها وأحرق كنائسها ثم سار الى أرض « جراو رارى » وحط فوق نهر « بور » فدخل عليه بطريق جراو رارى والبطريق « ر و بيل » والبطريق « وسن جش » والبطريق « تيدروس » وأسلموا جميعاً وحسن اسلامهم . وكذلك أسلم الجراد هنو وتحصن خمسة من البطارقة فى الجبال فقاتلهم الأمير أبو بكر وأسرههم هم ونساءهم وأولادهم .

وأما الأمير حسين والوزير عدلى فدخلوا أرض جاتر فجاء أهل « ادل مبرق » اليهما وأسلموا جميعاً . وكذلك أهل « اواولده » و « وتن » و « أجيت » و « ارقوى » كل هذه من أرض دوار و فأسلموا جميعاً .

اما الامام فسار من جراحى مسيره يومين وحط فوق بحر زواى وهو بحر ماؤه عذب تسير فيه سنايقهم مسيرة ثلاثة أيام وفيه ثلاث جزائر كل جزيرة فيها ثلاث كنائس فأراد

الامام غزو هذه الجزر فقال له المسلمون دع البحر الآن وسر الى أرض هديه فجاء صاحب هديه وهو مسلم من الأصل وكان يؤدى جزية لملك الحبشة وكان يقدم كل سنة بنتا من أبكارهم جيلة لملك يأخذها وينصرها . فلما دخل صاحب هديه على الامام مع جنده قال أنا مسلم وأنتم مسامون فأكرمه الامام وخلع عليه وهو وأهل بلده أضافوا العسكر فسألهم الامام بصنعهم الذى كانوا يصنعونه وهو أن يصطفوا كل سنة بنتا لحسنها وجالها ويقدموها لملك النصارى . فقالوا له : انه حكم على آبائنا الأولين وحكم علينا أن لانبس عسدة الحرب ولا نمسك السيف ولا نركب الخيل بالسروج وحكم أن نعطي البنت فكنا نعطي مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا وكنا متى جاءنا الذى يريد أخذ البنت غسلناها وكفناها بثوب وحسبنا أنها ميتة وأعطيناه اياها فانا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك ففعلنا فالآن اتانا الله بكم وقد هزمت الذى يحكم علينا وقتلتم جيوشه فنحن نجاهد معكم . فسار الامام الى أرض « أى فرس » ومعه صاحب هديه وأرسل « أحمد جويتا » الى « شرخه » فأسلم أهلها وسار الامام الى جاتر فأسلم أهل جاتر . وأهل « جانجى » وهم خلق كثير . وأسلم عثمان بن تخلى وكان أبوه مسلماً فارتد في أيام السلطان محمد فعاد هذه المرة الى الاسلام هو وأخوه خالد ومعهما عدد عديد جدا من الفرسان والرجالة فولى الامام أرض جاتر شهابا وولى الأمير عمر أرض « استر جاتر » وفرق حسين أميراً على البلاد التى فتحها . وجلس الامام فى « عندوره » وأرسل عبدالناصر الى « جينه » وقال له : لا يسعك غيرها لأن معك جيوشاً كثيرة . وبينما الامام فى عندوره أرسل اليه البطريقان « سيمو » و « صبرو » انهما معه لامع أهلها ويطلبان منه جيوشا حتى يقاتلا فيها فأرسل الامام الى الوزير عدلى والأمير حسين بالمجى بجيوش كافية فخصرا اليه فبلغه ان الاحباش خربوا بلاد هديه وبلاد جنز فاعاد عبد الناصر الى جنز وجعل صهره فى هديه وأسلم البطريق صبرو على يد الامام وأرسل الامام وزيره عدلى الى بالى وولاه عليها فسار اليها ومعه من أبطال المساميين الوزير عباس ابن أخى الامام والجراد أحمد جويتا واورعى قاط عمر والجراد أحمد وش بن محفوظ وفرشحم سطوت وفرشحم على واورعى أحمد بن هرجاى محمد وحامد بن سوحة . ثم لما بلغ الامام أن صاحب بالى فى قوة عظيمة أرسل عبد الناصر صاحب الجنز والجراد صديق صاحب شرخه وصاحب هديه مدداً للوزير عدلى وكان دليلهم البطريق صبرو الذى أسلم وكان فارساً مشهوراً ووافاهم البطريق سيمو واسلم أيضاً .

فأرسلوا الى بطريق بالي ينصحونه أن يخضع لثلاثيندم ويخوفونه بكثرة جيوش الاسلام فاجاب
بانه لايسلم ولا يؤدي الجزية وانه حاضر للقتال وأمر صاحب بالي جوعه أن يخرجوا للحرب
ومعهم نساؤهم وأولادهم وتلاقى الجمعان في بلدة زلة وأما المسلمون فكان على ميمنتهم
الوزير عباس والجراد عثمان وعلى الميسرة عبيد الناصر وأصحابه وفي القلب الوزير عدلى
وأصحابه وفي المقدمة اسما نور وصبر الدين البطل المشهور . وأما صاحب بالي فصف التروس
قدام الخيول وركب فرسه وقام في وسط القلب كأنه برج من حديد وجعل نساءه وراءه
وعليهن زينتهن وفعل سائر البطاريق مثل فعله . ولما اختلط الجمعان جل فرشحم على على
بطريق بالي حتى اقتلعه من سرج فرسه وضرب به الارض وسقطا معا فنهض فرشحم على
واستل خنجره كان معه وقطع رأس البطريق فما رأى الحبشة زعيمهم قد قتل ولوا الادبار
وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من الحبشة عدة الوف وكانت نساء المسلمين جلن
أيضا وراء رجالهن وهن على بغالهن فكانت المرأة منهن تقول بعد الوقعة اسرت اربع
نسوة وتلك تقول خسا وتلك تقول ستا أو سبعا . وكان جملة البطارقة الذين قتلوا مائة
بطريق منهم البطريق اسحق قتله اسمانور . واييب بطريق حائر وكان شيطانا شجاعا قتله
البطريق سيمو الذي اسلم . و بطريق ليمو صاحب شرخة قتله الجراد احمدوش بن محفوظ .
والبطريق غفاني قتله حبشي أسلم . وقتل زمكر ابن بطريق بالي قتله تماش ابون .
والبطريق محن قتله البطريق صبرو الذي اسلم مع سيمو . واسر نحو مائتي بطريق منهم
« ازاج زخره » وكان من خواص الملك . ومنهم البطريق نقديّة وكان مسما مرتدّا .
ومنهم البطريق جرجيس ومنهم ابن دحرجويته . وقتل من الرجلة والفرسان ممن لم تعرف
اسماؤهم ثلاثة آلاف . ومملك الله المسلمين خيولهم ومتاعهم ونساءهم وأولادهم وما ملكوا
جميعا . وحط الوزير عدلى في بيت البطريق عدلو في زله وسأل هل بقي من البطارقة أحد
فقالوا نعم وعدوا له خمسة بطارقة . قال الآن اين يونون . قال البطريق سيمو : ما يقصدون
الا ارض « قاقمة » . عند البطريق ايدبس فارسل الوزير البطريق سيمو ومعه أربعون
فارسا فلقبهم مختلفين في الاشجار فأسروهم وأخذوا معهم حسين فارسا . وكان الوزير عدلى
لما سار الى بالي أرسل الامام الجراد « جوشو » ابا بشاره الى باب دارة وقال له الذي يخرج
من بالي لا يفلت منك لأنه لا طريق الا من هذا الباب فكان ما توقع وهو ان خمسة بطارقة

ومعهم ستون فارسا قصدوا العبور وهم منهزمون فاشعروا الا والمسلمون عند الباب فاسروهم وضربوا أعناقهم وقطع الجراد جوشو رأس البطريق « حجه » وأرسل به الى الامام لان الامام كان يتحرق عليه غضبا اذ كان ارسل الى الامام يقول له اريد أن أسلم فارس الى الامام رسولا فقتله ولحق بارض بالي فلما وقع هذه المرة في يد الجراد جوشو قتله وأرسل برأسه الى الامام ففرح به . ولم يكن وصل اليه خبر انتصار الوزير عدلى في بالي فلما رأى الامام الراس قال للرسول : من أين لقيتم صاحب هذا الراس . فقال الرسول : أما جاءكم الخبر من الوزير عدلى بما جرى . فقال الامام : وما ذا جرى . فآخبره الرسول بالنصر العظيم الذي من الله به . فصى الامام ركعتين شكرا وخلع على البشير خلعة تامة وجلس في القلاة وأمر بضرب النقارات والطبول . ثم وصل بشير الوزير عدلى بتفصيل خبر المعركة وهو يسأله كيف يفعل بالاسارى ونساء البطارقة وأولادهم فأجابته : أما البطارقة ونساؤهم وأولادهم والخيول التي عنتموها فأخرج خمسة وفرق الباقي على المجاهدين . وأما امرأة البطريق عدلو فخذها لك ومن أسلم من البطارقة يكون معك ومن لم يسلم فآقتله . وأما نقديه المرتد فاشنقه بباب البلد زله . وأما خارج وازاج زخره وجرجيس وابن دحر جويته فارسلهم الى . ثم ارسل الامام الى البطريق سيمو سيفا من الذهب الاخر فيه ٢٠ اوقية على مقبضه وذلك لما فعل من الجليل وكونه لم يغدر . فأنفذ الوزير أمر مولاه وفرق الاموال ونساء البطارقة واخذ امرأة البطريق عدلو لنفسه . وارسل الى الامام الاسارى الذين طلبهم فامر بضرب أعناقهم . وأما خارج المرتد فشنق به المسلمون وقالوا للامام : هذا قد تربى في بيتك وهو صغير وقد تاب . فعفا الامام عنه . أما أهل بالي فأسلموا باجمعهم بعد هذه الواقعة . وكانت واقعة بالي يوم الجمعة يوم الحج الاكبر سنة ٩٣٨ .

ثم ارسل الامام الوزير مجاهدا الى أرض وج فقاتله بطريقها « اسلام دحر » صهر الملك اسكندر ومعه ثلاثون بطريقا بجنودهم فهزمهم . وقتل اسلام دحر ومن معه من البطارقة واطاعت وج سبلها وجبلها وارسل الوزير مجاهد بنخبر الفتاح الى الامام وهو في جراجي . وكان ملك الحبشة أرسل بطريقا اسمه « أيكر » ومعه جيش الى بلاد جنز فقصدته عبد الناصر من أرض هديه وهزمه وأسر عسكره ولم يفلت الا البطريق وحده واسلم العسكر الذين وقعوا في يد عبد الناصر وحسن اسلامهم وشهدوا فيما بعد عامة الوقائع . وارسل

الامام قائدا اسمه يعقيم الى ارض ورب فاجتمع الحبشة تحت قيادة بطريق اسمه اكليل وقاتلوا يعقيم فهزمهم وقتل منهم الف رجل وكتب الى الامام بالفتح وسأله ماذا يفعل فاجابه بأن يأخذ من أهل ورب جزية سنوية مقدارها ١٥ الف حل من الحنطة والف اوقية ذهب والف كدوجة من العسل والسمن . فاطاعوا على ذلك وجلس يعقيم في بلادهم .

فبعد فتح الامام لبلاد دوارو وبالي وهدية وجنز ووج وورب وفطبحار وافات وما حولها لم يبق خارجا عن طاعته الا قدر ثلث الحبشة فارسل الامام الى بر سعد الدين بطلب امرأته وأمر المجاهدين بان يطلبوا نساءهم ويسكنوا ببلاد الحبشة ففعلوا وبعث الوزير عدلى الى بلاد الداموت ففتحها وهزم بطارقتها وفتح بلاد جافات وغنم غنائم لا تحصى . ثم جمع الامام الامراء في دبر برهان ، وقال لهم : قد انفتحت بلاد الحبشة ولم يبق الا بلاد التيجرى ومدر والقوجام فاما أن نسير اليها واما أن نجلس في هذه البلاد سنة حتى نقررها . فآشار بعضهم بالجلوس سنة واحدة حتى تتقرر الاحوال وقال الآخرون مثل الوزير عدلى وعبد الناصر والوزير مجاهد وزحربوى محمد لابل الاحزم أن نقصد ملك الحبشة من الآن لاننا في قوة ومنعة . فقبل الامام رأيهم وسار بجيوشه من عدة طرق وجرت معه وقعة بقرب بيت المحره أخذ فيها أربعة آلاف مع بطريقهم ابن دجلحان فعرض عليهم الاسلام فاسلموا ولبنوا مع الامام الا ان ابن دجلحان فر فيما بعد .

ثم سار الامام الى جبل العنبا الذى تقدم ذكره وهو الذى يحفظون فيه أولاد الملوك ولا يمكن الصعود اليه الا بالسلام وكان المسلمون عجزوا عنه أول مرة فخط الامام على هذا الجبل وأمر ملك الحبشة جميع جيوش التيجرى أن تقاتل الامام دون هذا الجبل فقاتلهم الامام نحو شهرين وما زال حتى فتح الحصن الأول والصخور والحجارة من فوق المسلمين مثل البرد تقع عليهم . وكان مع النصارى وأهل التيجرى مدافع وبنادق وكان يضرب لهم بالمدافع رجالان من المسلمين أحدهما عربى اسمه حسن البصرى والآخر عبد أصفر تركى كان عند الامام ثم تنصروا لحق بالحبشة . ولكن الامام كان أرسل الى زيلع فاشترى مدفعا كبيرا من نحاس ومدفعين صغيرين من حديد وجى بها على الجبال الى جندبله ثم حملتها الرجال الى محلة الامام لأن الجبال كانت لا تقدر على السير فى تلك الأوعار وكان مع المدافع مهتران من الهنود فضربا بالمدافع واشتد القتال وكان حسن البصرى يضرب بالمدافع على

المسلمين فلما رأى الامام أن لا سبيل الى أخذ الحصن الثانى أمر بالرحيل وقصد بلاد التيجرى ومر بكنيسة اسمها « لالبلا » وهى كلها منقورة فى الصخر وأعمدتها من الصخر وفيها صهير يج ماء منقور فى الصخر وليس فى هذه الكنيسة خشب سوى التماثيل والتوايت فأحرق الامام ما فيها من التماثيل . وسارت طلائع المسلمين مع مقدمها شمسو مع مسيرة يومين حتى بلغت نهر حرار وكان الأحباش عبروه وتركوا أثقالهم ومعها بنت أخت ملك الحبشة فوصل المسلمون وأخذوا الأثقال وبنت أخت الملك وعادوا بها الى الامام فتسرى الامام بنت أخت الملك وولدت له . ثم قدم الامام القائد شمسو فسار يومين فتلاقى مع الأحباش وهم فى عدة عظيمة ومن جلة ما معهم حبال كثيرة هياؤها لربط المسلمين فهزمهم شمسو وقتل منهم ثلاثة آلاف وربط كثيراً منهم بحبالهم . وزحف الامام الى الأمام واستشهد معه زحربوى محمد بحربة مسمومة فخرن عليه حزناً شديداً وهزم العدو وحط عند كنيسة مارية . وولدت له زوجته هناك واداً أسماه أحمد النجاشى وكان أول ولد فى التيجرى ثم سار خط فى « قرقاره » وهى كثيرة البر والعسل فأقام الامام بها وسرح جيوشه تغزو البلاد فتلاقى المسلمون مع العدو فى أرض التنبين فهزمهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وسار يريد مدينة أكسوم فخط فى أرض « ارعدة » ودخل عليه أناس من مسلمي بلاد التيجرى من قبيلة بلو وقالوا له : ان الأحباش اجتمعوا بجبل هناك فقسم جيشه قسمين وقصدهم وأفنى منهم أكثر من عشرة آلاف حتى امتلأ السهل والوعر بجيف القتلى ونهبوا من مواشيهم ما لا يقع تحت حصر . ووصل الخبر الى ملك الحبشة أن المسلمين دخلوا الى التيجرى وأخربوها فبكى وحزن حزناً شديداً وجع جميع بطارقه وجيوشه وسار الى أكسوم وأخرج الصنم الكبير من كنيسة أكسوم وهو حجر أبيض مرصع بالذهب ومن كبره لم يمكن اخراجه من الباب بل نقبوا من الكنيسة على قدره وأخرجوه وحمله أربعين رجلاً وذهبوا به الى حصن اسمه تابر . وسار الامام قاصداً أكسوم فرب ثلاثة حصون صالحه على الجزية أهل حصنين منها فخلاهم . وقاتله أهل الحصن الثالث فقهرهم وقتلهم عن آخرهم وفر ملك الحبشة الى « مزجة » وسلطانها مسلم اسمه مكتر . فأرسل هذا الى الامام يستصرخه قائلاً : أدركنى قبل أن يقتلوني فجد الامام فى السير حتى ينقذ مسلمي مزجة ومر بكنيسة اباسامثيل وكان فيها خمسمائة راهب فقتلهم جميعاً وصادف جمعاً من الحبشة مقبلين لنجدة

الملك فاستأصلهم . ووصل اليه من السلطان مكرت رسول يخبره بأن النصارى ضيقوا عليه وقتلوا كثيراً من رجاله وثلاثة من أولاد أخته وهو ينتظر وصول الامام فأرسل اليه الامام أنه قادم اليه ففرح فرحاً لا مزيد عليه وخرج وهو مريض وركب فرسه ولبس درعه وسار يلاقى الامام ومعه خمسة عشر ألف مقاتل من النوبة . فنزل الامام بجيشه عند السلطان مكرت فأضافهم عشرة أيام . وبلغ ملك الحبشة أن الامام صار الى هناك فانهزم بجيشه الى أرض قجرام وسار الامام وراءه فبعد مسيره بثلاثة أيام مات السلطان مكرت فأخفت أخته « جعوة » خبر موته عن العساكر وأرسلت تخبر الامام بموته فولى الامام ابنه نافع مكانه وهو صغير بكفالة عمته وكانت تدبر الأمور في حياة أخيها . ثم تقدم الامام الى أرض الدنية وسأل عن ملك الحبشة فقالوا له فانتك من ثمانية أيام . فسار الامام وحط عند كنيسة انقراز وأحرقها وقام يتبع الملك في الطريق أدركوا فارساً من النصارى فأسروه فاذا هو أبون أخو الوزير مجاهد وكان قد ارتد ولحق بملك الحبشة فسأله الامام عن الملك قائلاً : اما نلحقه اذا سرنا وراءه . فقال لا لأنه قطع بلداناً كثيرة . ثم أمر الامام بضرب أبون المرتد هذا وعفا عنه فلم يقتله . وبقى الامام مجدداً في السير فصادف خيام الملك ومطابحه قد رموها في أرضها ثم لقي صناديقهم مرمية قد تركوها حتى لا يتأخروا بسببها . وأدرك الامام ساقية جيش النصارى وفكك بهم ولم يدرك الملك وهذا نزل على نهر « ابوين » الذى يتصل ببيل مصر وكان الامام في طليعة جيشه اختلط بعسكر النصارى ولم يشعر الا وهو في وسطهم فكانوا يتكلمون بكلام النصارى حتى لا يعرفوهم . ولما لم يدرك الملك وقف حتى وصل اليه جيشه . وأسرى في تلك النوبة أحد صبياناه واسمه أنس كان ارتد ولحق بابن البطريق دجلحان فأمر الامام بقطع يديه وأسروا البطريق اقباسات الذى هو قاضى الحبشة وهو عندهم ثانى البطرك فقتله الأمير ابيمانور وأسروا أخت ملك الحبشة وكان اسمها « امتى دنقل » . ودخل الامام بلاد التيجرى وقد اشتد بها الغلاء والجوع فبلغ ثمن كل ثلاثة أصع مثقالين من الذهب وصارت الأحباش تسرق بغال المسلمين : وكانوا لما دخلوا أرض التيجرى كل واحد منهم معه خمسون بغلاً فما خرج منها الواحد الا ببغل أو بغلين . وكان الوزير عباس ذهب الى أرض السراوى ثم تبعه الوزير عدلى وأهلها مسلمون ومنهم نصارى فأسلموا . وقاتل البطريق « تسفولولو » فى مكان خرج مشتبك الأشجار وهناك طريق ضيقة لا يقدر أن يمر بها الفارس الا وحده يتبعه

الفارس . فأراد الوزير عدلى أن يتقدم الجميع في هذه الطريق فلما توسط الطريق رماه النصراني بالحرايب والمزاريق فأثخنوه بالجراحات فسقط فتقدم من المسلمين رجل اسمه بربرى فحمله على ظهره وبه حشاشة على أن يهرب به والسهم عليهما مثل المطر فقال الوزير عدلى لبربرى ارمني عن ظهرك فما بقيت بي روح . فتقدم فارس من صبيان الوزير عدلى يسمى كبير محمد فقتلوه فتقدم آخر اسمه الجراد هيجو من أهل بالى فاستشهد . فلما رأى المسلمون أن لا سبيل للرورجعوا الى الورا وحطوا في مكان فسيح وقطع النصراني رأس الوزير عدلى وأرسلوا به الى ملك الحبشة ولما وصل خبر موت الوزير الى الامام جمع الجيوش وكان أكثرهم من الذين أسلموا جديداً فأمر منادياً ينادى ان عبداً من عبيد الامام مات ويقوم واحد مكانه وهو الوزير عدلى حينئذ ارتجت المحطة بالبكاء والنحيب وحزن المسلمون حزناً شديداً . أما النصراني فلما وصل رأس الوزير عدلى الى الملك جلسوا ثمانية أيام يضربون طبولهم ونقيهم ويظهرون زينتهم ويشربون خمرهم .

وجعل الامام الوزير عباساً مكان الوزير عدلى وأرسله الى أرض السراوى فقصده البطريق « تسفولولو » وأسرع بالمسير آملاً الظفر وأمام جيشه راهب على حمار يقول للحبشة اليوم لكم النصر على الوزير عباس فتلاحم الفريقان وحمل رجل من المسلمين على البطريق تسفولولو فخنده صريعاً فلما رأى الأحباش بطريقهم قتيلاً ولوا الأدبار فتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم أحد وقتل الراهب وهو على حماره ، وقتل أولاد البطريق وأخذ الوزير عباس بشأر الوزير عدلى وأرسل برأس البطريق ورؤوس أولاده الى الامام ففرح بالنصر وأخذ النار .

وجلس المسلمون في بلاد تيغرى سنة واحدة حتى فرغ زادهم وأضر بهم الجاوس فأت منهم أناس كثيرون في أرض السراوى بالطاعون مات أورعى أبو بكر ومات أحمد النجاشي ولد الامام ومات طاوسى امرأة الوزير عدلى ومات الجراد عبد الناصر وامراته بلقيسة وارتد بعض المسلمين ومنهم أخو فرشحهم سلطان مع كثير ممن كانوا أسلموا وذلك من الجهد الذى جرى للمسلمين . ولم يبق لهم ظهر ولا حمار يحملون عليه فكان كثير منهم يحمل دبشه على ظهره . فلما رأى الامام ما حل بالمسلمين في أرض تيغرى سار بهم قاصداً أرض « بقى مدر » لكثرة خيراتها وولى ولاية من قبله على بلاد السراوى وبحر نجاش

والجاسين وعزل الشريف بورا عن ذخنو وولى مكانه السلطان أحمد بن اسماعيل الدهلكي وصر الإمام بارض مزجة التي أهلها مسامون وصام عندهم رمضان سنة ٩٤١ ثم سار الى بقى مدر فكمّن له الأحابيش في الطريق وكان عليهم بطريق بقى مدر ومعه ثلاثة بطاريق فهزمهم وأسّرهم . وفر منهم بطريق ساوّل الى بلاد سمين ، وهي جبال لا يوجد أعصى منها في جميع الحبشة وأهلها من يهود الحبشة ويقال لهم بلغتهم فلاشة يقرّون بوحدانية الله ولا يعرفون غير ذلك من الإيمان . وكان أهل « بحر عنبأ » استعبدوهم أربعين سنة يحرقون لهم ويستخدمونهم فلما انتصر الإمام على الحبشة جاءوا اليه من كهوف جبالهم وخدموه وصاروا حرائين للمسلمين ثم استفتح الإمام بقى مدر وصار أهلها فلاحين للمسلمين واستفتح « وقرة » وبنى فيها مساجد وولى عليها الجراد صبر الدين واستولى على بلاد « درجه » من بقى مدر وولى عليها فرشحم عليا وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأخذ بلاد الوفلة وكنفات الى أرض واق وجعل فيها الأمير أبا بكر قطين مع جيشه وبنى فيها المدن والمساجد ودخل بلاد الدينيه وهي كثيرة الخيرات و بندر الذهب فاتخذها مسكنا وأصلحها وبنى فيها المساجد وصار أهلها فلاحين للمسلمين . وأعطى بلاد « تاكه » وهي ثغر بلاد الهمج الى الوزير عباس واستراح المسامون وسار الإمام الى بلاد قجام فأخربها وتلاقى فيها مع الأمير شمعون وكان لم تركه الإمام في جدم قصده ملك الحبشة بمجموعه فهزمه شمعون وأخذ كل مامعه . وكان في الدينيه بحر عذب مسيرة أربعة أيام في وسطه ثلاثون جزيرة مملوءة فواكه ورياحين وكان كل من لم يقطع المسامين من الأحباش التجأ الى هذه الجزائر فغزاهم الإمام بالسناييق الى جزائرهم . انتهى

هذه خلاصة الجزء الأول من كتاب عرب فقيه ولم يعثر المستشرقون على الجزء الثاني وإنما مجمل الأخبار التي في هذا الكتاب مؤيد بكتب الحبشة وتواريخ الافرنج . وقد ظهر لنا أن بلاداً كثيرة مما عده صاحب مسالك الأبصار من ممالك المسامين في الحبشة ونقله عنه صاحب صبح الأعشى كانت في أيام الإمام أحمد بن ابراهيم من بعض ولايات الحبشة مثل أوفات ودوارو وهدييه وشرخه وبالي وان الإمام الغازي أحمد إنما فتح البلدان التي كان أصلها للمسلمين . وأغرب من هذا وذاك المبالغة التي حصلت في احصاء أجناد تلك الممالك الاسلامية وان هذه فرسانها أربعون ألفاً وهذه عشرون ألفاً الى غير ذلك مما لا يمكن أن

يكون بدليل أن جميع فرسان الامام الذي هو أكبر غاز في الحبشة عند ماعرض الجيش الوزير عدلى كانوا أحد عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل وهو الجيش الذي يمثل قوة مسلمي الحبشة بأجمعها ثم ان صاحب « هدية » الذي قال عنه انه أقوى اخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا وان عنده أربعين ألف فارس سوى الرجلة فانهم مثل الفرسان مرتين وأكثر هو هو الذي ذكر صاحب « فتوح الحبشة » انه كان يقدم كل سنة للمليك الحبشة بنتا مسامة يتسراها وينصرها وانه لما ونجهم الامام الغازي أحمد بن ابراهيم على قبول ذلك قالوا له : كان هذا الملك مستبداً بنا ضاربا علينا الذلة والمسكنة محظورا علينا مسك السيوف وركوب الخيل بالسروج فكنا نقدم له الطاعة والمال والبنت هذه فداء عن أنفسنا ومساجدنا . فكيف تخاط هذه القصة التي تاريخها في القرن العاشر للهجرة (٩٣٠) مع قصة الأربعين ألف فارس والثمانين ألف راجل التي يجب أن يكون تاريخها قبل ذلك بقرنين أو قرنين ونصف قرن ولا يظهر من حال هاتيك البلاد بحسب وصف عرب فقيه انها تحتمل هذه القوى الهائلة كلها لاسيما ما كان منها مثل مملكة هديه ضيق الرقعة قليل المادة . ولا شك ان عرب فقيه الذي كان في البلاد نفسها ادري من الشهابي بن فضل الله ومن القلقشندي ومن المقريزي الذين نقل بعضهم عن بعض .

لقد خصنا فتوحات الامام أحمد جران وفتكه بالحبشان النصارى وجملة اياهم على الاسلام وليس ذلك الا جزءا مما كان يفعل الحبشة النصارى بالحبشة المساميين والصومال والنوبة قبل ظهور السلطان سعد الدين والامام أحمد وبعدهما ومما كانوا لا يزالون يفعلونه الى عهد قريب وهاك ملخصا تعريب ماجاء في الانسيكلو ببيدية الاسلامية الفرنسية تحت اسم الحبشة ، فبعد أن ذكر فيها ان جغرافي العرب الأولين والمتوسطين مثل ابن خردادبه والمقدسي والمسعودي والادريسي وأبا الفدا والدمشقي وابن الوردي والحراني لم يذكروا شيئا طائلا عن الحبشة جاء فيها ان المؤلف الوحيد الذي تكلم بالتفصيل عن تاريخ الحبشة في الأعصر الأخيرة وأخبار ممالك الاسلام فيها هو المقريزي في رسالته « الاعلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » .

فالمقريزي يتكلم عن اقليم من الحبشة يسمى زيلع يشتمل على سبع امارات : أوفات ودوار وواراباني وشرخه وبالي وداره ومملكة هدية القوية . فكل من هذه الممالك

كان عليها أمير مستقل بها لكنهم جميعاً كانوا تحت سيادة الخطي سلطان أمحره وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر دخل مسلمون كثيرون في أرض شوا ووصلوا الى بقي مدر^(١) وأول من أساء معاملة المسلمين من ملوك الحبشة يقال انه الملك يقونوا ملك (١٢٧٠-١٢٨٥) فجر هذا الاضطهاد الى حروب ووقائع مستمرة اشتهرت كثيراً لاسيما في أيام الملك عمدسيون الذي انتصر على ملوك عدال صبر الدين وجمال الدين الخ (١٣١٤ - ١٣٤٤) واستمرت هذه الحروب في أيام خلفاء عمدسيون مثل نوايا كريستوس (١٣٤٤ - ١٣٧٢) ودافيت (١٣٨٢ - ١٤١١) ويسحق (١٤١٤ - ١٤٢٩) وزارا يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨) وييدامريم (١٤٦٨ - ١٤٧٨) واسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤) الخ وقد أخضع بيدامريم ملك الدنا قيل أيضاً وهم أمة مسالمة لاتزال ساكنة الاقليم بين جبال الحبشة والبحر الأحمر في أوائل القرن السادس عشر (أي منذ نيف وثلاثمائة) كان الاسلام في هاتيك الأصقاع في ذل عظيم.

وكانت تلك الحروب كلها مدة قرنين كاملين خارج الحبشة الأصلية ولكن سنة ١٥٢١ نقل سلطان « عدال » أبو بكر بن محمد كرسية الى هرر فازداد الاحتكاك بينه وبين شوا والحبشة ثم لم يلبث ان ظهر أحمد بن محمد جران القائد الصومالي^(٢) الذي عاونه الترك بالمدافع والجنود^(٣) فشن الغارات على الحبشة حتى بلغ أقصى شمالها ونهبها مراراً واحرق كنيسة اكسوم . وكتاب هذه الفتوحات الذي ألفه عرب فقيه (١٥٤٣) هو التأليف العربي الوحيد الذي يذكر كثيراً أقاليم الحبشة . وسنة ١٥٤٤ انتصر الملك غلاديوس على جران هذا وقتله ولكن نور الدين خلف جران أخذ بثأره فغلب غلاديوس وقتله سنة ١٥٥٩ وكان الأتراك قبل ذلك بستين احتلوا مصوع وبمساعدة أمير البلاد الساحلية احتلوا عدة مدن من جلته « دباروه » وثار هذا الأمير واسمه يسحق على الملك « سارسا دنقل » وظاهره الترك فانكسروا جميعاً في واقعة « عبا جريمه » سنة ١٥٨٩ هزم سارسا دنقل الباشا التركي « قداورت » بقرب اركيكو وقتله .

و بسبب هذه الطوائل وغيرها مما احرزه الملك سارسا دنقل على محمد الرابع سلطان

(١) نقدم ذكرها في فتوحات الامام

(٢) الذي نعرفه أنه أحمد بن ابراهيم

(٣) على كل حال في الوقائع التي لخصناها عن صاحب تاريخ فتوح الحبشة لا يوجد أثر للترك

عدال و بمساعدة البرتغاليين للحبشة ضعف المسامون في الجنوب والشمال ولم يبق منهم خطر. ثم فتح الملك سوسنيوس مملكة سنار (١٦٠٧ — ١٦٣٢) سنة ١٦٣٢ استنفر المسامون العصاة سلطانهم طلحة لمقاتلة الحبشة فجاوبهم بأن هذا لم يعد ممكناً. ثم ان البجة الذين كانوا أسسوا سنة ١٦٥٠ مملكة سنحار لم يقدروا على ملوك الحبشة مع اعتدائهم أحياناً على الحدود واضطر النائب موسى بسبب نهب أمتعة تخص الملك ياسو الأول أن يذهب الى اكسوم ويطلب العفو. سنة ١٦٩٧ تغلب الحبشان على أمير البجة وسنة ١٧٦٩ ثار البجة على ملك الحبشة فدوخ الراس ميكائيل بلادهم على أن غزوات الاسلام لا سيما فتوحات جران فتحت أبواب الحبشة للاسلام وقد فهمنا من كتاب عرب فقيه ان مغازى جران حلت كثيرين في نفس بلاد الحبشة مثل فاقو ودنييه الخ على الدخول في دين الاسلام وشيدت فيها مساجد مما يحمل على الاعتقاد بأن الدخول في الاسلام لم يقع على حدود الحبشة فقط. وفي سنة ١٦٤٨ وصلت رسل اسماعيل المتوكل امام صنعاء الى الحبشة فوجدوا بقرب غندار مدينة أهلها كلهم مسامون وشاهدوا في بلاد اندرته (سبق ذكرها) مسلمين شافعية، وكان في نفس غندار حارات للمسلمين. سنة ١٦٦٨ عقد الملك يوهانس مجمعا قرر منع المسلمين من السكنى مع النصارى ثم تجدد هذا الأمر سنة ١٦٧٨ مما يدل على كثرة المسلمين الذين كانوا بين النصارى.

وفي القرن الثامن عشر انتشر الاسلام في أمة الغاله الذين الى الجنوب الشرقي من الحبشة والى الشمال من شوا ويقال ان أمة الفولو هداهم الى الاسلام عربى اسمه دبلو. وقد حقق روبل Rüppel انه سنة ١٨٣٠ كان الاسلام ينمو في الحبشة بالفعل ظهر ان أئمة من النيجرى كانوا في أوائل القرن التاسع عشر نصارى هم اليوم جيعاً مسامون مثل الحباب والتاماريان والتنا كل الخ وان اما أسلم بعضهم مثل المنسا وغيرهم.

ولا يجوز أن تغفل أن التجارة قد أفادت الاسلام في الحبشة كثيراً فان التجار لأجل الوصول الى هناك كان عليهم أن يمرؤا ببلاد المسلمين فأنحصرت التجارة في أيدي هؤلاء وازداد عددهم ونفوذهم. وكان الراس على من الغاله الذى نفنت كلمته كثيراً من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٥ مع تظاهره بالنصرانية يساعد المسلمين كثيراً مما أوجب حصول رد فعل في أيام الملك تيودوروس عدو الاسلام الاكبر. وازدادت هذه

العداوة عند احتلال المصريين بعض أقاليم الشمال من الحبشة (١٨٣٠ — ١٨٤٠) فأرسل الخديوى جيشاً الى مصوع فاستأصله يوهانس (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) وسنة ١٨٨٠ أصدر هذا الملك أمراً بموجبه ينبغي فيه للمسلمين أن يتنصروا أو يهاجروا من الحبشة . فهاجر كثير منهم الى القلابات وملت غندار منهم تماماً . وأما مسامو سراك وهمازن وغيرها فنالوا الاذن بأن يسكنوا في بلدن خاصين بهم لكن هذه الاوامر لم يطل بها العمل . وكان المسلمون قبل تيودورس ويوهانس متفرقين بدون نسبة في العدد فكانوا قلائل في قوجان (تقدم ذكرها) وكانوا نصف أهالى الفولو وادجو والى اليوم تجد المسلمين كثيرين جداً في بلاد كوالا حال كون المسيحيين كثيرين في الدافا . أما في الشوا فمسلمون كثيرون جداً ولكنهم ليسوا كثيرين في دنبيه مثلاً . أما مستعمرة الاريتره الايطالية ففيها مائتا ألف مسلم أى ثلثا أهل المستعمرة ولهم أربعة قضاة في المدن الاربع مصوع وكرن واقوردا واسبارد وهناك امامة للحجاب متوارثة في بيت امارة من قبيلة الدركى

وما عدا أهل مصوع فمسامو الاريتره أربع فرق : الأولى السوحو وانباهم الى الجنوب الشرق من الاريتره وكان قسم منهم قد أسلم في القرن التاسع عشر . والثانية مسامو الساحل والانسا الأوسط واسلامهم حديث العهد ولكنهم شديداً التمسك به . الثالثة البجة والحشان الذين أسلموا من قديم ونشروا الدين المحمدى بين قبائل القيدن والباريا فهؤلاء منذ ٥٠ سنة فقط دخلوا في الاسلام . الرابعة مسامو البلاد التيجرية من الاريتره .

على ان اسلام الحبشة المنتشر بين الغاله والسحو والبجة ليس له من القوة والشدة ماله في البلاد الأخرى فليس ثمة مدارس دينية مربوطة بالمساجد وان وجد بعض افراد من مصوع يحبون أن يتفقهوا في الدين ذهبوا الى الأزهر بمصر وفى الغالب لا يرجعون الى أوطانهم كما أن الطرق الصوفية التى هى من أعظم أسباب قوة الاسلام في هذا العصر مجهولة في الحبشة . انتهى .

وذكرت الانسيكلوبيديا الاسلامية الفرنسية هرر فقالت ما محصله :

ان هرر مركز تجارى عظيم في شرق افريقية هى الآن داخله في ملك الحبشة وقاعدة ولاية اسمها ولاية هرر . موقعها بين ٤٢ و ٢٤ و ٣٦ من الطول الشرقى و ٩ و ٢٣

من العرض الشمالى وعدد سكانها ٥٠ ألفاً منهم الثلث فقط هرريون فى الأصل والباقيون صومال وغاله وجبشان وهنود وسوريون وأرمن وأروام وأوريون وأشهر مساجدها مسجد الشيخ أبى ذر ومسجد عمر الدين . ويقال ان الأول هو الذى أدخل الاسلام فى هرر ونشره فى تلك الأصقاع أما الثانى فكان سلطاناً على هرر فى أيام أحمد جران (١) وهرر هى مركز الدعاية الاسلامية فى شرق افريقية ومنها يذهب دعاة الاسلام الى بلاد الوثنيين من الغاله وعلاقاتها كثيرة ببلاد العرب ومصر . وقد سقطت هذه الأهمية وخفت هذه الحركة الدينية بعد استيلاء الحبشة النصارى عليها ولكن أهالى هرر لا يزالون متعصبين للدين . وألوان أهالى هرر شديدة السواد لكن ما مال منها الى الصومالى كان أميل الى الصفاء ولما كان الحبشان فى القديم استولوا على هرر فاللغة الامهرية معروفة فيها وان كان دخلها كثير من الصومالى والغالى ولا سيما من العربى . ولا يوجد وثائق تاريخية عن فتح الحبشة الأول لهرر والمظنون أنه كان فى القرن الحادى عشر والذى يليه ثم الذى يليه . أما فى القرن الرابع عشر فقد تدفق السيل الاسلامى الى الغرب حتى وصل الى الحبشة نفسها وطمى عليها فى القرن السادس عشر . وأول ما ذكرت هرر فى تاريخ الحبشة هو فى زمان الملك عمداسيون لأن أمراء هرر تألبوا عليه مع غيرهم فكانت يومئذ هرر قاعدة بلاد الزيلع وأول أمير عرف من أمراء هرر هو عمر ولا شما الذى يظن أنه تولاها سنة ١١٥٠ ثم ان الأمير أبا بكر جعل كرسية فيها سنة ١٥٢١ ولا شك أن السبب فى ذلك هو قدوم الترك فى زمان سليم الاول اذ استولوا على اليمن وجميع سواحل افريقية الشرقية الى رأس غواردافى فاشتبكوا فى الحرب مع البرتقال . ثم ظهر أحمد جران ومعنى جران الاعسر وكانت ولادته سنة ١٥٠٥ وخدم فارساً فى عسكر الامير ثم دبر مكيدة وعصى سيده وما زال حتى استقل واجبر الصومال أن ينضموا الى عسكره ولا يزال الى يومنا هذا اسمه عظيماً فى الحبشة ولم يتخذ لقب سلطان ولا أمير بل اتخذ لقب امام ومنذ عام ١٥٢٦ لم يزل يوالى الغارات على مملكة الحبشة حتى دوخها كلها وأحرق الكنائس والاديرة والكتب ونهبها وسبى النساء والاولاد واسترقهم فدخل كثيرون من النصارى فى الاسلام بحيث انهم فيما بعد التزموا فى الكنيسة الحبشية أن يوجدوا هيئة خاصة لاعادة الذين أسلموا الى النصرانية .

(١) تقدم ان جران جعله سلطاناً بعد قتل أخيه

وقتل جران سنة ١٥٤٣ في حربه مع الحبشان والبرتقال وقد كان الملك غلوديوس ممن
اشتهروا في قتال أمراء الاسلام ولكنه قتل هو في حرب مع الامير نور صاحب هرر. ثم
نزلت هرر عن مقامها الاول وبقيت تضعف الى سنة ١٨٧٥ اذ افتتحها القائد المصرى
رؤوف باشا بينما كان الامير حسن باشا ابن الخديوى اسماعيل يقاتل الحبشة من الشمال فاما
حملات حسن باشا فقد فشلت وأما رؤوف باشا فقد تمكن في هرر وزيلع وسنة ١٨٧٨ عزل
رؤوف باشا وتوالى على هرر عدة ولاة مصريين الى أن قرروا اخلاءها سنة ١٨٨٤ وسلموها
الى الأمير عبدالله فزحف اليها منليك الثانى من شوا واستولى عليها في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧
فخازها الحبشة النصارى بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ سنة من فتحهم الأول . انتهى .

أما بلاد الصومال فهي الممتدة من مرسى تاجورة الى راس غواردافى ومن راس
غواردافى على البحر الهندى الى نهر جوبا . وفيها سلسلة جبال تعلو الى نحو ٢٠٠٠ متر عند
بربرة وهواؤها حار والامطار فيها غزيرة لا سيما في السواحل وزراعتهم قليلة وأكثـر
اعمالهم انما هو على المواشى والخيـل والجمال . وعدد الصوماليين مليون نسمة أصلهم مختلط
من الغالة والسودان والعرب وكلهم مسلمون وهم أشداء البأس أعزة . وشمالى بلادهم داخل
في مستعمرة أو بوك الفرنسية وباقي هذا الساحل مع زيلع وبربرة يخص انكلترة وإدارته
في عدن وأما الساحل الشرقى من راس الخيل الى نهر جوبا مع مراسى اوبيا ومقدشو ومركا
فهو تحت الحماية الإيطالية

الاسلام في ماداغسكير

وجزائر القومور

لله شكيب

اشرنا في غير هذا المكان الى كون الغرض الذي توخيناه في هذه الشروح ، هو التعريف ببلاد الاسلام النائية ، ومطارحه القاصية ، والمواضيع التي تحتاج منه الى ايضاح ، دون البلدان المعروفة ، والمواضيع المطروقة . ولما كان من جهة هذه المواضيع مبحث الاسلام في ماداغسكير ، وجزائر القومور ، فقد لخصنا منه ما يأتى معتمدين في أكثره على كتاب « المسامون في ماداغسكير وجزائر القومور » للسيسيو غابريل فرّان الفرنسي Gabriel Ferrand أحد معتمدى الوزير المقيم من قبل فرنسا في ماداغسكير ومن أعضاء الجمعية الآسيوية بباريز .

قال في مقدمة كتابه هذا ما مؤداه :

ان تاريخ الاسلام ونموه في بلاد خط الاستواء الافريقية ، والجزر المجاورة لها ، لا يوجد لنا الا بكلمات قلائل على الأشخاص والاشياء في بحر الهند . فاداغسكير وجزائر القومور الأربع ، وسائر الجزر التي في الشمال الغربى من ماداغسكير ، لا تسكاد تذكر في جغرافيات العرب ولا رحلاتهم الا نادراً ^(١) وقد أثبتنا نقصان معلومات الشرقيين عن هذه الأماكن في نشر تذكاراتنا على الصومال ونحو اللغة الصومالية سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٦ . ولم يعرف ساحل افريقية الشرقى الا منذ سنين معدودات ، ومن عرف الشعوب التي تأهلها اليوم وقدر حالتهم الاجتماعية علم لماذا أسلافهم لم يلعبوا دوراً خطيراً في التاريخ السياسى والدينى

(١) قلت جاء في معجم البلدان لياقوت قوله : والقمر بالصم ثم السكون جمع أقر ، وهو الأبيض الشديد البياض ، ومنه سمي القمرى من الطير ؛ وقمر بلد بمصر الى أن قل : والقمر أيضاً جزيرة في وسط بحر الزنج لبس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها ، فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر ؛ ويوجد في سواحلها الغنر وورق القمارى الخ . وأكثر ما تذكر العرب هذه الجزائر في كلمات قصار كهذه .

فيما مضى من العصر، لأن أقواما تتقوت بحفنة من الارز ، وتكتفى من كل اللباس بقطعة من القماش ، وتتحلى بحلقة من النحاس في الاصبع ، لم تسكن لتشاطر غيرها المعارك الحيوية الكبرى ، فهدئا تجدها معزلة بقية الناس جاهلة غيرها بل جاهلة نفسها ، راغبة في أن تبقى مجهولة . وهذا هو أكثر السبب في سكوت مؤلفي العرب عن الكلام عليها أما عن ماداغسكار فإن معلوماتهم كانت عدما ، فإن أكبر شعب فيها وهو « الهوفا » لم يعرف الكتابة الا منذ زمن قصير وقد كانت قبيلة « الانتيمورونا » استعملت الخط العربي قبل الهوفا بكثير ، وصار عندهم بعد دخولهم في الاسلام شيء من الادب اللغوي ، فترجمة بعض كتبهم تهدينا الى معرفة أصول القبائل التي تسكن ماداغسكار ان لم يكن كلها .

وأما جزر القومور الثلاث « نجزيجة » و « انجوان » و « موحلى » فلمكتوب عنها نزر جدا . حرر « المسركوست » بعض مقالات عن لغة سكان هذه الجزر . ونقل الربان البحري « جوان » في كتابة حررها على القومور عن كتاب عربي مخطوط في مايوت ^(١) وذكر الميسو غفراى Gevrey في بحثه عن القومور ما معناه ان مهاجرة الساميين الى تلك الجزائر هي من عهد سليمان بن داود .

وفي « ماجوتقه » ^(٢) جالية قومورية عظيمة من الساميين السنيين وجميعهم يكتبون لغتهم بالاحرف العربية ، وبعضهم يتكلمون بالعربية جيدا وقد قضت علينا ضرورات الخدمة بان تكون لنا علاقات حسية مع مسامى ماجوتقه اثناء اقامتنا مدة سنتين بهذه البلدة ، فاتيح لنا أن ندرس أحوالهم وأخلاقهم وان نستفيد منهم حصة مما يتعلق بتاريخ هذه الجزر ، واطلعنا عندهم على كتاب مخطوط بلغة نجزيجه ، مع ترجمة عربية له ، يذكر شيئا على وجه الاختصار عن أهالى جزيرة القومور الكبرى قبل الاسلام . ولقد ذكر « فون در ديكن » : « ان لهجات القومور ان هي الالهجات سواحلية الاصل ، تغيرت عن أصلها باختلاف اللفظ ، وباختلاط القومور مع الماداغسكاريين . فان هؤلاء منذ احقاب متطاولة في صلة مستمرة مع القوموريين ، ومنهم من تقلد عندهم مناصب عالية ، فان

(١) مايوت هذه جزيرة من القومور في المفض الشمالى من قناة الموازى بين ١٢ و ٣٩ و ٥٩ من العرض الجنوبى و ٤٢ و ٤٦ و ٤٣ و ٢ من اطول الشرقى مساحتها ٣٦٦ كيلومترا مربعا وسكانها تسعة آلاف نسمة عرب وماداغسكاريون وسواحليون وهنود وفيها ٢٠٠ فرنسى

(٢) ثغر من ثغور جزيرة ماداغسكار

الامير سولى صار سلطانا على جزيرة مايوت ، وهو الذى نزل عنها لفرنسا . وعندنا ان درسا مدققا في نفس الجزر المذكورة يأتى بمعلومات ذات بال عن لغات القومورين وآدابهم . وقد اكدوا لنا ان من استقرى هذه الجزر ، وجد كتباً مخطوطة ، منها ما هو عربى ومنها ما هو قومورى ، يؤخذ منها تاريخ القومور السياسى والدينى . »

ثم قال فران « ان تأليفنا هذا ثلاثة أقسام أولها يتكلم عن مسامى ماداغسكير وجزائر القومور ، والثانى عن القبائل الاسلامية الساكنة في الساحل الشمالى الغربى من ماداغسكير وفي الجزر الاربع نجزيجة وموحلى وانجوان ومايوت الصغيرة . والقسم الثالث موضوعه نشر بعض مخطوطات قومورية وضبط كلمات من لغات القومور مع مقابلتها باصلها من السواحلى أو العربى ونضم الى ذلك متن لغة من كلام ماداغسكير الخاص بالمسلمين الذين فيها مع ذكر ما هو منها من أصل سواحلى أو عربى . »

ثم ذكر من القبائل لماداغسكيرية الكبيرة التانالا Tanala ، والاتانكارانا Antankarana والانتسيهانا Antsihanaka ، والسالكالا Sakalava والتسميزارا Betsimisaraka والهوفا والاتنامورونا Antaimorona وقال انها مع اختلاف اصولها متشابهة بعضها مع بعض تشابها شديدا تمثل امة واحدة من كل وجه تقريبا . ولا شك ان الذين دخلوا ماداغسكير من الطراء ، سواء كانوا ممن جاءوها جرد العصا ، مثل امة الهوفا أو ممن قدموا اليها زرافات ووحدا مثل العرب ، قد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم . ولكن لم يطل الامر حتى امتزجوا بالاهاالى الاصليين ولم يبق من عقائدهم ومنازعهم الا الشئ اليسير يحفظه الافراد لا الجماعات فالهوفا الفاتحون تلقوا ديانة الماداغسكيريين وعبدوا اصنامهم ، واقتدى الغالب بالمغلوب . وأما العرب فلم يظهر تأثيرهم الا في قبيلة الاتنامورونا ، التى اسلمت ولكن اسلاما ضعيفا . واناس منها رجعوا الى كثير من عقائدهم الاصلية التى لا تزال كثير من القبائل متمسكة بها ويجدد الانسان آثارها حتى بين المنتصرين من الاهاالى .

ثم تكلم المسيو فران على قبيلة الاتنامورونا الاسلامية ، فقال انها تسكن في الساحل الجنوبى الشرقى من ماداغسكير بين مصب نهر « المانانجراه » ومدينة « مازيندرانو » أى على طول ٢٢٥ كيلو متراً . ويسكن الى الشمال من هذه القبيلة قبيلة

البتسيميزاكا ، والى الشمالى الغربى قبيلة البتسيليو ، والى الجنوب الغربى قبيلة تانالا ، والى الجنوب أقوام متفرقة . وعاصمه الاتنامورونا هى مدينة ماتيتانانا على ضفة النهر المسمى باسمها . ويوجد فروع كثيرة من الاتنامورونا مستقلة بعضها عن بعض لكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة الاناكارا والاناكارا هؤلاء فيهم بيت الملك ولهم التقدم على الجميع ولا يتزوج بعضهم الا من بعض فكأنهم قريش الاتنامورونا ، ومنهم ملوك القبيلة كلها . وهم أمناء الديانة وفى أيديهم ادارة الجوامع التى يفرضون لاجل نفقاتها ضريبة غير زهيدة على أبناء ملتهم . ويزعم الاتنامورونا ان أصلهم من مكة ويحفظون كتباً خطية عربية متناهية فى القدم ، والوانهم نحاسية ، وأبصارهم حادة ، وشعورهم جعدة وهم أشد الماداغسكريين اعتقاداً بالخرافات ، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا سائر الماداغسكريين الى تعليم أولادهم ، كما قرر ذلك المسيو دسكامب والدليل على ذلك كثرة الكتابات التى عندهم والقانون الذى هم ملتزموه من ان كل انسان منهم يجب عليه أن يقرأ ويكتب العربى ليكون أهلاً لتقلد منصب أول للزواج . والى الزمن الذى أدخل فيه مبشرو الانكليز استعمال الحروف اللاتينية فى تاناناريت (عاصمة ماداغسكر) كانت جميع الكتابات الرسمية فى قصور ملوك الهوفا يكتبها امناء السر من الاتنامورونا باللغة العربية . والاتنامورونا مشهورون بالاعتناء بأولادهم ، وعندهم عادة أن يخلقوا شعور أولادهم ماداموا فى حجبور آبائهم ، فلا يؤذن للولد بإرسال شعره الا بعد الزواج .

وهم رجالاً ونساء لا يختلفون فى ازيائهم عن سائر أهالى ماداغسكر وبالرغم من دعواهم شدة التمسك بالاسلام يشربون المسكرات ، ويصنعون هم بانفسهم المسكر المسمى « الروم » من عصير قصب السكر مع اضافة قشر شجريسمى آمبولوا يعجل فى تخمير قصب السكر .

والخصومات والامور العامة يفصل فيها محتسب معين من قبل الملك . وعندهم مجموعة قواعد فى العقوبات أشبه بقانون جزاء . فالسرقة مثلاً يعاقب عليها بالحبس والتكسيل بالحديد من سنتين الى عشر سنوات بحسب درجة الجريمة . وأما سرقة المواشى فيعاقب عليها بالقتل لأن اقتناء المواشى ذات القرون هو عندهم فى غاية الاهمية . وأما القتل فيجزى بمثله ولا يتحرجون من التعذيب فى القتل . ولا ينفذ حكم القتل الا بإرادة الملك الذى

عنده أعوان يتولون أمر القتل ، وهؤلاء الجلادون يقومون بإيصال البرد الملوكية وهم عند ملوك الانتامورونا أشبه بطبقة يقال لها « تسياندو » لدى ملوك الهوفا . وإذا قتل الرجل ابنه وكان الولد في سن الخمس عشرة سنة فما فوق ، عوقب الوالد بالقتل . وإن كان الولد دون تلك السن حصروا الوالد في غلاف من قصب « البامبو » يمنعه من كل حركة ، وبقي محصورا هكذا الى أن يموت . ويقال ان مثل هذا العقاب معروف عند الحبنة وأمة الغاله الذين يظن بعض المؤرخين ان أصل الأمة الماداغسकरية منهم . وإذا أنكر المتهم الجرم امتحنوه بعدة أمور ليثبت براءته فيسقونه كأس ماء بارد وضعوا فيها قطعة ذهب ، وقرأوا على هذه القطعة نصيبا من العزائم ، فإن لم يصبه بعد شربها شيء عد بريئا . وقد يكلفونه أن يقطع نهر الماتيتانا سباحة ، فإن وصل الى الضفة الاخرى سالما من أذى التماسيح الكثيرة التي في ذلك النهر فهو برى أو يشيرون اليه باجتياز حقل من الارز ، فإن لم تتعرض في طريقه أفعى ، ولا طار فوق رأسه طائر ، ولا حصل حادث غير معتاد أثناء اجتيازها هنا ، كان أيضا بريئا .

وإذا أراد الانتاموروني الزواج ، تنكب قوسه وحل ترسه على ذراعه ، وذهب مساء الى من يكون خطب ابنته فيقول له: ادخل . فيدخل ، فيفاجئه بضربة حربة يجب عليه أن يتقيها بلباقة ، وبدون أن يحدث للضارب أذى ، فإذا وفق لذلك جلس بين العائلة وأخذ الفتاة ، والا فان أصيب أو لم يحسن انقاء الضربة خرج متعثرا باذيال الحياء . والانتامورونا بحسب قول الأب لافسيار La Vaissiere أصحاب أخلاق فاضلة وطهارة وآداب ، يبالغون في مراعاتها ، وهم يتزوجون بأكثر من واحدة ، وتسمى المرأة الأولى « فاديبي » ومعناه الزوجة الكبرى .

وكان الانتامورونا في جاهليتهم ، قبل أن دانوا بالاسلام في أدنى درجات الجهل . وكان عندهم كهنة يحفظون بعض مبادئ أصلية ، ويقدمون فرايين دينية ، ويحتجنون ذلك لأنفسهم دون أن يطلعوا عليه العامة ، ويسمون الخالق « زاناهاى » وليس في ماداغسकर تواريخ عن أصل الأهالى ، وما كانوا عليه في القدم تتجاوز القرن السادس عشر ، فتاريخ تلك الجزيرة مظلم جدا الا ما كان عند الانتامورونا بسبب وجود الكتابة العربية عندهم . والذي قدرنا أن نفهمه من هذه الكتابات ان القبيلة الماداغسकरية ، التي باختلاطها

بالعرب نشأ منها الاتنآمورونا ، كانت قبل دخولها في الاسلام تعتقد باله واحد ، أزلى ، أبدي ، خالق الكون كله بيده كل شيء ، لكن كانوا يتصورون لهذا الاله جسما وصورة على منتهى الجمال والكمال بحيث لا يمكن تشبيه تلك الصورة بصور الآدميين . وكانوا يقولون بوجود آلهة صغار حول ذلك الاله الأعظم ، هم الشفعاء لديه وكل منهم له وظيفة خاصة به ، واليههم يدجأ الناس في حاجاتهم ، لان الاله الأكبر هو أعلى من أن تصل اليه مطالب العباد ، فكان لابد ثمة من الوسطاء ^(١) فكان أصل تلك العقيدة توحيداً انقلب بسبب هؤلاء الشفعاء والوسطاء شركاً . واقبلت العامة على عبادة أولئك الآلهة الصغار وبالغوا في الأمر حتى انقسمت تلك الامة الى قسمين أحدهما الروساء والعامة والارقاء ، وهم حزب الوسطاء الذين جعلوهم لله أنداداً ، وانتهى الامر بأن رفضوا الاعتقاد بالاله الأعظم . والثاني الكهنة ، وأتباعهم الذين لبثوا على الاعتقاد بالاله الواحد ، ورفض اشراك غيره في القدرة والتصرف ف وقعت بين الحزبين منازعات تغلب فيها المشركون على الموحدين والترم هؤلاء أن يتظاهروا بعبادة الانداد الا أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد سراً .

وفي تلك الاثناء جاء العرب بتوحيدهم فالتصربهم حزب الكهنة الموحدين ، لأن العقيدة العربية جاءت مؤيدة لما بين أيديهم فلما أسلم الجميع عاد هؤلاء الى مقامهم الاول بل ازدادوا سناء ورفعة . أما الزمان الذي وقع فيه اهتداء الاتنآمورونا - ويقال الاتنآمورو والاتنآمور - الى الاسلام فغير معلوم ، وانما يرجح كون هذا التحول لم يصادف معارضة شديدة ، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الجديد بالفرح والنشاط ، ثم لم يطل الأمر حتى عادوا الى كثير من عقائدهم الاولى فصار اسلامهم مختلطاً بالوثنية (كذا) وهم مثل العرب يستعملون غالباً جلا عربية ، هي دائماً على شفاه المسامين مثل : ان شاء الله . مكتوب الله . ويبدأون جميع كتاباتهم بجملة : الحمد لله وحده . ويكتبون : بسم الله الرحمن الرحيم . لاله الا الله محمد رسول الله . ولا يبدأون بعمل الا بعد تلاوة هذه الجملة .

وهم يحافظون على الصلوات ، ويمتنعون عن أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم . ومن العادات الاسلامية عند الاناكارا الذين فيهم بيت الملك ، أنهم يقرأون أمام

(١) عبارة ما كان عليه العرب في جاهليتهم بعينها جعلوا لأنفسهم آلهة صغارا نحتوا لهم أصناما ، وقالوا

« مانعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى »

كل عمل صلاة تناسبه مثلاً اذا أرادوا ذبح حيوان قالوا اللهم اجعل لحمه صالحاً ، اللهم اجعل أجسادنا تنعم بهوما أشبه ذلك . واذا مات الانسان جعلوا على جبينه وبطنه وعنقه أوراقاً كتبوا عليها أدعية وقال أحدهم : هذه عادة قديمة جداً عندنا جاءتنا من مكة والمدينة . ويقولون للمدينة أحياناً « مدينازى » وأحياناً « مديناتى » ويقولون لمكة والمدينة « المدينتين » ويدعى الانكارا انهم من ذرية على .

وبالاختصار فالآتات مور اجتازوا عدة أدوار دينية . الأول في الجاهلية قبل الاسلام ، وهو قسبان : دور توحيد ، ودور شرك . والثاني بعد الاسلام ، وهو أيضاً قسبان : اسلام صرف واسلام مشوب بوثنية . فالآلهة الصغار الذين يعتقدون بهم بعد الاسلام هم ستة « جوبوريلينا » و « مينكالو » ، وسيرافيلو » ، و « زارزلو » ، و « يزيلو » ، و « شيراكيزيلو » وباللغات السامية يقال جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل . فجبرائيل هو المكلف بالوحى الى الأنبياء وميكائيل هو المكلف بالطبائع والغيم والمطر . وعزرائيل هو ملك الموت . واسرافيل هو الذى ينفخ بالصور فى آخر الزمان . فأما المسامون الماداغسكريون فيجمعون هؤلاء مقامات بائنة عن البارى تعالى ، وهى سبع طبقات منفصلة بعضها عن بعض بجدران غليظة بينها أبواب من حديد فالطبقة الاولى منها هى مكان الجزء الآلهى من الناس من تكون آثامه فظيعة فيخلد فى عذاب النار . ومنهم من تكون آثامه خفيفة ، فيعذب الى أجل مسمى ثم بعد ان يتطهر يدخل الى النعيم المعد للصالحين . وهذه عقيدة تشابه تماماً ما عند النصارى . والطبقة الثانية هى التى فيها « شيراكيزيلو » الموكل بالزرع والأشجار وهو الذى يلتمس منه تركية الزروع والطبقة الثالثة مقر « يزيلو » وهو الموكل بالمواشى . وفى شهر يناير يقدمون له القرابين من النعاج . ثم ان « زريلو » هو اله الأنهار والبحيرات ، و « سرافيلو » هو اله الحوادث السماوية والأرضية . ومينكالو هو اله الكواكب والشمس والقمر . وأكبرهم جوبوريلنا ، وهو ذو المقاوم الاول ، ولكنه دون الله ، وهو المبلغ ارادة البارى تعالى الى البشر سواء رؤسأو بواسطة سائر الآلهة (١)

(١) الذى نرجحه ان الذين ساهم المؤلف هنا آلهة ، وزعم أن مسلمى ماداغسकर اتخذوهم آلهة ، ان هم الاملاكة لكل منهم وظيفة كما هو فى سائر الأديان السامية ولكن قد تكون خيالات الماداغسكريين أوسعت هذه الوظائف وزادت عليها .

ويعتقد الالتامور بخلود النفس ، ولكن اعتقادا يخالف اعتقاد الهوفا . فإن الهوفا يقولون ان النفس يمكنها أن تترك الجسد مدة بدون أن تفنى بذلك شخصية الانسان أما الالتامور فيقولون انه بمجرد انقطاع نفس الانسان تصعد نفسه الى السماء ، وتمثل أمام جو بوريلينا الذى يعين لها مشوى بحسب استحقاتها . وان النفس عند تمثيلها فى الملكوت تتخذ غلافا شبيها بالجسد الذى تكون فارقة فى هذه الدنيا ، وهذا القلب يشاطر تلك النفس أقدارها كلها من لذة أو ألم فى الدار الآخرة ^(١) ولاشك ان الالتامور بسبب معرفتهم للخط العربى تفوقوا على سائر سكان جزيرة ماداغاسكر ، وهؤلاء بجهاهم اعتقدوا أن هذا النوع من من ترجمة الضمائر بالإشارات على الورق لا يمكن أن يكون الاسحراً ، وفشا عندهم الرأى بأن الالتامور بأيديهم أقفال الغيب وأنهم مطلعون على كل شئ .

وعندهم الممنوع أو النجس اسمه « فادى » وقبيلة السا كالاف تقول « فالى » لعله محرف عن الفال العربى كما ان المقدس يقال له « اودى » ومن اشتهر بالتقوى من المسلمين ولم يعهدوا عليه طول حياته سوءاً يصير بينهم موضوع تقديس حتى فى حال حياته ويذهبون الى تأثير شفاعته لدى البارئ تعالى ، ويستشيرونه فى العضلات ، ويأخذون رقاعاً مكتوبة بيده يتقون بها المصائب .

والكتاب المقدس عند الالتامور يسمى بلسانهم « سوراب » ومعناه الكتابة الكبرى روى البشر الانكليزى هوكت Hockett الذى كان قاطناً « فيانارانيسوا » قال : ضربنا الى الشمال على طول الساحل فزرننا مدن « نوسيكالى » و « اندرينامبي » و « أمبوهاب » و « أمبوهيننو » وصرنا بين قوم يقال لهم « تيمورو » أو « نيمورو » يظن أنهم جالية عربية . ومما لاشك فيه أن أسلاف هؤلاء الناس من جهة الذكور عرب ، قذف بهم البحر الى هذا الساحل وعندهم « السوراب » أى الكتابة المعظمة ، وهى نسخة من القرآن مع التفسير ، وتراهم مفتخرين بأصلهم متمسكين جداً بكتابهم . فى المصائب والأحزان والأمراض يرجعون الى هذا الكتاب ويأخذون منه ما هو فى الموضوع وينسخونه على ورقة من شجر « الرافنيالا » ثم ينقعون الورقة فى الماء ثم يشرب المصاب

(١) هذه النظرية تخلص من مشكل بعث الاجساد يوم الحساب بعد أن تكون بليت ودخلت أجزاؤها فى تراكيب أجسام أخرى

هذا الماء أما المسيو فران فيقول ان السوراب هو كتاب غير القرآن أناهم به أسلافهم العرب ، وليس بذى فصول ولا أبواب وقد زيد عليه بتداول أيدي المشايخ له . وفيه تاريخ القبيلة ووقائعها المهمة وتجد فيه آيات كريمة من القرآن وكلاماً على المغيبات ، وأحرفاً وطلاسم ، مما يستعمل في دفع النوائب ومعالجة الأوصاب الى غير ذلك .

وكان جغرافيو العرب من على ما يظهر يجعلون جزيرة ماداغسكير من جملة جزائر القمر ويرونها كبرى هذه الجزائر ، كما ان الأوربيين يسمون « نجزيجه » بجزيرة القمر الكبرى ، حال كون المسلمين الذين يأخذون ويعطون على الساحل الغربي من ماداغسكير لا يسمونها الانجزيجه وان الحكومة الفرنسية عند ماضرت النقود لحساب سلطان جزيرة القومور الكبرى، كتبت عليها هذه العبارة : « سيد علي بن سيد عمر سلطان نجزيجه حفظه الله تعالى » .

أما ماداغسكير عند أهل عمان العرب فتسمى جزيرة القمر ، كما كان الجغرافيون الأولون يظنون . وأما باللغة السواحلية فيقال له « بوكيني » وهي مركبة من « بوكي » التي معناها « غريب » و « ني » وهي حرف بمعنى « في » أي « في بلاد الغريب » .

ولقد ذكر الجغرافي العربي ابن سعيد تفاصيل كثيرة على جزيرة القمر تطابق حال ماداغسكير مثل كونها طويلة عريضة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة ٢٠ يوماً ومن مدنها مدينة ليران زارها ابن فاطمة . وقال انها هي وماغداشو تحت حكم المسلمين ولكن أهلها أوشاب من جميع الأجناس وهي مرسى يرفأ اليه ويقلع منه الخ . وقد ذكر شمس الدين أبو عبدالله محمد الدمشقي في فصل على بحر الزنج جزائر عديدة يظن أن منها ماداغسكير وهي جزيرة قنبلو التي فيها الأبنوس ومعادن الذهب والبحيرات . وجزيرة طايسان التي فيها جبال نار تقذف بالجم فلا يستطيع أحد أن يسكنها بسبب حرارة البراكين وجزيرة بربرة وجزيرة القطريرة فيها مدينتان للزنج . وجزيرة زنجه . وجزيرة المحترقة . وجزيرة العور .

وكان البرتغاليون يعرفون أيضاً ماداغسكير باسم جزيرة القمر ، وآخرون من البرتغاليين والاطليان كانوا يطلقون على ماداغسكير اسم جزيرة سان لورانت St. Laurent انظر الى مقاله السائح « اندريا كورسالة » الذي كان في خليج موازمبيق سنة ١٥١٤ :

« عند ما كنا في موازمبيق وجدنا سفينتين برتقاليتين قادمتين من جزيرة سان لورانت الواقعة في عرض البحر بازاء موازمبيق ، وهي من أعظم الجزائر التي اكتشفت في أيامنا هذه » و بعد أن وصف ما فيها من الحيوانات والحاصلات والمعادن قال : « ان أهلها لا يكادون يفقهون حديثا وانهم يتكلمون بلغة غير لغة الموازمبيق ، وانهم ليسوا بشديدي السواد ، ولكنهم في جعودة شعرهم كسائر أهل تلك السواحل ، وان المورو (أى المسلمين) هم الذين بأيديهم مراسى هذه الجزيرة يشترون محاصيل البلاد بما يأتون به من القطن ومتاجر الهند ».

وقال « ادوارد وباربوزا » في نحو سنة ١٥١٦ ما يأتى : « بازاء هذه الأرض على مسافة ٦٠ مرحلة من راس « كور يانت » توجد جزيرة عظيمة جدا اسمها سان لورانت ، يسكنها الوثنيون وفيها بعض مدن للمورو . وفيها ملوك كثيرون من الوثنيين والمورو معاً الخ » وسنة ١٥٢٩ كان اسم ماداغسسكر قد صار معروفا ، وقد أشار « بارمانتيه » Parmentier الى وجود مورو بيض في هذه الجزيرة . وذكر « جان دوس سانتوس » في تاريخ اتيوبية الشرقية : « ان مورو جزيرة سان لورانت ثاروا على البرتقال ، وان هذه الجزيرة قد اكتشفت في سنة ١٥٠٦ ، وصل اليها القبطان « تريستان دا كونيا » أثناء سفره الى الهند وسميت سان لورانت لكونهم وطئوا أرضها في عيد سان لورانت مع ان اسمها الأصلي ماداغسسكر » . الى أن قال : « وفي أيام ولاية « جورج دومنيس » في موازمبيق ثار المورو على البرتقاليين ، وحاولوا منعهم من دخول المراسى ، زاعمين انهم يعارضونهم في جمع الحبوب . والحقيقة انه كان تعاللا مقصدهم به اخراج المسيحيين الذين كانوا يضررون لهم أشد العداوة . فأرسل جورج دومنيس بارجة حربية معلنا الحرب على المورو فيما لو استمروا على المعارضة ، فلما وصلت البارجة مال المورو الى السلم وادعوا انهم لا ينوون شرا ، ولكن البرتقاليين لم يأمنوا شرهم ، ولم ينزلوا الى البر الاراهبا منهم اسمه الأب « دوسان توما » ورجعت البارجة الى موازمبيق بمن فيها . ولكن وردت اذ ذاك بارجة من مكة (كذا) فيها مورو ، فلما علموا بما وقع أرادوا الانتقام وسمموا الراهب المذكور ، فأتت فانتقم البرتقال عن ذلك في السنة التالية ، وخرّبوا البلاد ورجعوا الى موازمبيق وصادف أن مركباً آخر للمورو جاء من مكة فغرق ، فنهبوه وتم بذلك الفوز » .

ومن نكات الأوربيين في معلوماتهم عن المسلمين لا سيما في الأعصر الماضية ما ذكره رجل اسمه « جواو دوباروس » قال :

« أول من سكن زنجبار عصاب من بلاد العرب دخلت في الاسلام يقال لها « اموزيدى » بحسب تاريخ وجد عن مملكة « كيلاوا » كانوا نفوهم الى هناك لأنهم اتبعوا مذهب رجل مورو اسمه زيد هو ابن أخى الحسين بن على ، الذى هو ابن عم محمد ، وزوج ابنته عائشة ، فزيد هذا كانت له آراء مخالفة للقرآن . ومن تبعه يقال لهم « اموزيدى » . يريد أن يقول ان أول من سكن بلاد زنجبار هم أناس من الزيدية ، نفوا الى هناك بحسب اختلاف مذهبهم ، وانهم ينتسبون الى زيد بن على بن الحسين بن على ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء وليس في مذهب الزيدية شئ يخالف القرآن ولكن معلومات الأوربيين عن الاسلام لا سيما بذلك العصر كانت ملأى بمثل هذا الخلط والى هذا اليوم مع تغلب روح التدقيق عليهم لا تخلو من الخلط والخطب أيضاً .

اتفق المؤرخون على جعل مدينة « ماتاتان » أو « ماتيتانانا » هي البلدة الأولى التى نزلتها الجالية العربية . وهي التى صارت عاصمة للقبائل الماداغسكيرية التى اتبعت الاسلام ولا تزال الى هذه الساعة المركز السياسى والأدبى للمسلمين الماداغسكيريين فى الساحل الشرقى من الجزيرة ، وبها يقيم أشهر المتعالمين والمتأدين من الانتامور .

ومن أشار الى وجود الاسلام بماداغسكير ، السائح الشهير ماركو بولو الايطالى البندقى وفى أواسط القرن السابع عشر ذكر الانتامور المسلمين هؤلاء رجل فرنسى اسمه « فرانسواغوش » خلط فى أخباره عنهم على طريقة قومه فى ذلك الوقت ومما قال : « ان الديانة المحمدية التى يدين بها أهالى السواحل المقابلة لماداغسكير لا شك أنها وصلت الى أهالى ماداغسكير ، فانهم يختتمون ولا يشتغلون يوم الجمعة ^(١) ولا يأكلون لحم الخنزير وكذلك أهالى جزر القومور القريبة منهم ، أكثرهم عرب وفرس تابعون لدين محمد ﷺ ويكتبون بالعربية ، ولا يأكلون الحيوان الا اذا كان مذبحاً ، فلا يأكلون الخنزيرة ، ولا يجلسون الا متربعين على السجاد أو على الحصير على عادة الترك ، ولا يعملون شيئاً من الشعائر بدون أن يغتسلوا » انتهى .

(١) لا حرج فى الشغل يوم الجمعة الا وقت الصلاة

وفي نحو سنة ١٦٥٨ ذكر المؤرخ « فلاكور » Flacourt أن أهالي مقاطعة ماتيتانانا يستعملون الحروف العربية التي كانت معروفة عندهم منذ قرنين ، ولكن الماداغسكريين بدلوا بعض صور التلفظ فيجعلون الياء زايا والياء ناء .

وقال الكونت « دومانداف » De Mandave الذي عرف ماداغسكرك سنة ١٧٦٨ ان جالية عربية وصلت الى ماداغسكرك في أوائل القرن السادس . ومما قاله : ان الروهانديان حكام بلاد « آنوسي » هم غرباء مثلنا أصلهم عرب جاءوا الى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة ، وعندهم معرفة بالكتابة يستعملون الحروف العربية والورق يصنعونه في وادي امبول وبدلا من القلم يستعملون البامبو . على أن العربية غير منتشرة في الجزيرة ما عدا الشمال الغربي . ثم قال : معلوم ان العرب أسسوا ممالك عظيمة على ساحل افريقية المقابل لماداغسكرك ثم استولوا على جزائر القومور ويتجرون في مسقط وعدن وسواحل اليمن ، ولكن أكثر تردد مرا كبهم الى ماداغسكرك ثم ذكر دومانداف وجود كتب عربية ماداغسكرية ، وقال هو وغيره انه يرجى بواسطة المخطوطات العربية الاطلاع على تاريخ تلك الجزيرة .

ثم ذكر المسيو فران نفسه أنه حصل على بعض مخطوطات عربية بواسطة رجل اسمه رامازينورو (رمضان) هو ابن ملك الاناكارا وشرح مضمونها وتكلم عن الكتب العربية الماداغسكرية التي في المكتبة الوطنية في باريز وفي غيرها ثم ذكر عناية الماداغسكريين بعلم الفلك والنجوم والحروف ومعرفة المغيبات وأطال في ذلك وتكلم على لغة ماداغسكرك وامتزاجها بالعربية ثم قال :

« ان قبائل الاسلام في الجنوب الشرقي من ماداغسكرك تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسكرك من مكة » الى أن يقول « وهذه القصص التي نجدها عند كثير من الأمم التي دخلت في الاسلام مؤداها أن الاتمامورونا قد أسلموا في زمان النبي ﷺ نفسه . قال المسيورينيه باسه René Basset يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلي هرر في الحبشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن علي ^(١) مع أن عقيل ما وطىء تلك الأرض .

(١) الذي نعرفه أن عقيل هو أخو علي

وأن مساعى كانتون في الصين يزعمون أن الذى بنى مسجد كمتون هو وهب ابن أبى كبشة خال الرسول ﷺ ، مع أن مؤرخى سيرة الرسول مع احاطتهم بكل ما يخصه لم يذكروا شيئاً من هذا .

قال المسيو فران ان دعوى الانتساب الى آل البيت فاشية عند مساعى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسकर، ولكنه مما لا ينبغي أن يوثق به كثيراً . ثم ذكر باللغة الماداغسकरية وبالحروف العربية كتابات على سبيل المثال ، اخترنا منها القصة الآتية ننشرها بحروفها وحركاتها ونردفها بترجمتها : -

طَطَّرَ طَمِينِ اعْلَى مُحَمَّدُ

طَطَّرَ طَمِينِ اعْلَى مُحَمَّدُ . نِيَمِي رَكِّي امين اُنْكِرْنِي بُواَهْنِي . امَكَّ امْدِينَا امْدِينَاتِي نِيِي
دِي طَمِينِ اُفِي رَوْنِي رَوَاً اُعْلَى مُحَمَّدُ بُونِيَا طَتِّي بُو اَطُو لُوْرَ . اُنْكِرَ . اَطِي وَاَرِي
كِي وَاهُوْنِي . نِيِي اُرَكَّ طَمِينِ عِي اَلْاَهَاطِي ع مَكَّ امْدِينَا امْدِينَاتِي . طُوْدِي
يَطِي مَهْوَرُو امي اِيُونِي اَطَرَّ اَلْاَوْرِي اَنْفِير كِي طُو اُنْكِرَ نَادِي هَانِي عَ تِي مُوْطُو
امْطِيْطْنَا . طِي مَهَاتَر . نَاشِي طَا كِي عَ اَطِي تِي مِي طَبُو . طُوْفُو طِينِ طَاوُ اَلُوْهَا
اَطِي تِي امِيْطُو . نِي شِي طَا كِي . طِعَ بَطُو نَاشِي طَبَكِي . اَطِي اَنِي مِيْطَبُو اَكْ هِي
رَنِي يَوَاوْطُو مَشْنِ اُنْكِرَانِي اَبِي اِيَاهِي طَرَنَكِي اُعْلَى مُحَمَّدُ تِي طَبِي طَا اِنِينِي قَنْدَا
فِي اِعِي اَللَّهُ كَبْرُ اَللَّهُ كَبْرُ اَللَّهُ كَبْرُ .

الترجمة

تاريخ على ومحمد الى أن جاء الى الانا كارا . جاء من مكة والمدينة . وتقائلاهما
الاثنان مع فاراوني (فرعون) واجرا مع الاتتالوترا ، والانا كارا . والاتتا فاندريكي ،
شعوب كانت تصحبهما من مكة والمدينة . فوصلوا الى ماهوري ، وميازومبي . أما
الاتتالوترا فلبثوا هناك وأما الانا كارا فاوغلوا في الجنوب الى ماتيتانانا . ففي ماهاتزارا
طردهم الاتتاسيماتو . لأن هؤلاء كانوا أصحاب الارض قبلا فذهبوا الى آمباتو . فطردهم
الاتتاسيماتو ثانية . فأقاموا أخيراً بفاتو مازينا حيث هم الى الآن . فنحن ذرية على ومحمد
هذه ليست بلادنا انما جئنا من وراء البحر . الله أ كبر الله أ كبر الله أ كبر .

ثم ذكر المسيو فران في الجزء الثاني من تأليفه قبائل سبعا هن « الزافيندارامينا » و « الاتامباهواكا » و « الاونجاتسى » و « الآتايونى » و « الزافيكازيمامبو » و « الاتا قانديكا » و « الساهاتنى » وقال انهم يسكنون بين قرى « مانانجارى » و « فارافانغانا » بين ٢١ و ٢٣ من العرض الجنوبى . فهؤلاء عقائدهم وأطوارهم تشابه عقائد الاتامورونا وأطوارهم قال ويزعمون انهم يرجعون الى أصلين أحدهما : خنى رامينيا . وهم الزافيندارامينيا والاتامباهواكا والثانى : أبناء الذين هاجروا من مكة الى ماداغسكار وهم القبائل الخمس الباقية . وذكر المؤلف ما يحيط بهذه المهاجرة من الحكايات والخرافات التى فيها من الخلط ما تقدمت له أمثلة ، ولكن القوم معتقدون بها . ويظهر ان رامينيا محرف من رجن أو عبد الرجن ، ويقولون من جلة خرافاتهم ان هذا الرجل كان صهرا للرسول ﷺ وأنه هاجر مع امرأته الى ماداغسكار على أثر المظالم التى وقعت على آل البيت .

وقد اشتهر الاونجاتسى ، والايناكارا ، والزافيكازيمامبو ، والزافيتسيجاتو ، بالسحر والطلسمات واجراء الخوارق . ويقول بعضهم ان أجدادهم رافقوا رامينيا جد الاتامباهواكا فى هجرته من مكة وهؤلاء جلودهم مائلة الى الحرة وشعورهم سبطة وذكر الاب رشون أنهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب على أنه من نسبة عند قبيلة الاتامباهرا كما الى الاسلام سوى ما يدعونه من كونهم من ذرية رامينيا الذى قدم من مكة . فانهم تركوا حتى بقية العبادات الاسلامية التى لا تزال عند الاتامورونا ، وكذلك هم يجهلون الخط العربى ، وانما يحترمون التعاويذ والرقى .

وعلى بعض الروايات ، أصل الذين هاجروا من مكة خمسة أمراء « راماكازارو » و « راجوزوفا » و « آندريامار وهالا » و « راليغوازيرى » و « آندريانمبوازيريبه » جلوا من هناك بسبب ثورة أسقطت الأول منهم عن عرشه . وثلاثة من هذه الأسماء أصلها عربى ظاهر وهى راجوزوفا محرف عن يوسف . و راليغوازيرى يظن أنها محرفة عن على الوزير واندريانمبوازيريب يحللونها بأنهما من اندريانا وهى بالمداغسكارى الأمير ، ثم الوزير ، ثم البه ومعناه الكبير أى الأمير الصدر الأعظم .

وذكر المسيو فران رحلة لأحد البرتغاليين الى ماداغسكار سنة ١٦١٣ جاء فيها : « ان أهالى هذه الجزيرة يزعمون أن أصلهم من مانغالور ومن مكة ، جاءوا من جهة الهند ووطنوا

شاطئ الجزيرة الشمالى ثم انتشروا الى الجنوب ، وكانوا ينسبون قبائلهم الى أصلها ، منها ما عرفوا منها الى حد ١٧ بطنوا ومنها الى حد ١٤ بطناً ، وهم مورو اوسوليا^(١) عندهم القرآن مكتوب بالعربى ، ولهم مشايخ يعلمونهم القرءة والكتابة وهم يختنون ويصومون رمضان ولا يأكلون لحم الخنزير ، ومنهم من يتزوج بأكثر من واحدة ، وألوانهم كألوان مسلمى الهند والجاوى ومن أعجب العجب محافظتهم على أصل عقيدتهم ونسبتهم مع تقطع ما بينهم وبين المسامين فى سائر الأقطار اهـ

وذكر الأب روشون الانكليزى الذى ساح الى ماداغسकर سنة ١٧٩٢ أحوال أهالى هذه الجزيرة فقال « ان السود منهم أربع قبائل : « القوادزيرى » و « اللوها فوهتيز » و « الاونزوا » و « الاونديفا » وأعلاهم درجة القوادزيرى الذين يقال انهم سلاسل ملوك البلاد ، وعندهم كثير من العبيد والمواشى ، وللواحد منهم الحق بأن يملك أكثر من قرية واحدة ، أما اللوها فوهتيز ، فليسوا بدرجة أولئك ولا حق للواحد منهم بأن يملك أكثر من قرية ، ويجوز لهم الاستكثار من الماشية ، ومن العادات المعروفة انهم لا يقدر و ن على ذبح الحيوان الا بيد واحد من قبيلة الروهانديان ، أو الانا كانديان (المنسوبين الى العرب) أما القوادزيرى ، فيقدرون أن يذبحوا الحيوان بأيديهم الا اذا وجد واحد من هؤلاء ، فتكون الأولية له فى ذلك ، وبعد اللوها فوهتيز يأتى الأونزوا وليس لهم شئ من المسكنة . أما الاونديفا ، فهم عبيد منذ ولادتهم . وأما البيض ، فانهم يسكنون مقاطعة أنوسى ، ومقاطعة كاركانوسى ، ويزعمون انهم أنساب محمد ﷺ ويسمون « زافراهميني » وأما البيض الذين فى « فولبوانت » و « نوسى ابراهيم » وخليج آتونجيل ، فيقال ان أصل بعضهم قرصان ، وأن الآخرين من أصل يهودى لذلك لقبوهم زافى ابراهيم أى أولاد ابراهيم وهناك طبقة أخرى من البيض يروى أنهم أرسلوا من مكة لأجل هداية أهل ماداغسकर الى الاسلام . فاستولى هؤلاء على ماتانانا ويقال لهم زافى كازيمامبو ومهنتهم تعليم اللغة العربية ويعتقد الزافراهميني ان أجدادهم قدموا من مكة وهم ثلاثة أقسام : الروهانديان ، والانكادريان ، والاونزاسى . وأعلاهم درجة الروهانديان ولهم الحق فى ذبح الحيوان ، ومنهم ينتخب الملوك . وأما الانكادريان ، فاصلهم من الروهانديان من جهة الأب ،

(١) اليوم مسلمو الساحل الغربى من ماداغسकर يقال لهم سوليا ويظن انها محرقة من اسلام

ولكن أهمهم كانت أدلى نسباً فلذلك انحطت درجتهم عن الروهانديان . أما الانزاتسى ، فانهم عسكر لا مزية لهم سوى الحرب » اهـ

أما مسامو الساحل الغربى من ماداغسكرفانهم خمس فرق : الاتنانكارانا الذين يسكنون فى أعالى راس العنبر من شرقيه ومن غربييه . وقبائل الايوانا الذين عاصمتهم موجانغا أو ماجونغا . والسالكالا أصحاب بلاد الآبونغو الذين من أشهر رؤسائهم الملكة « باره رافونى » صاحبة خليج « مارامبيتسى » والمسكران « سافيتامو » و « سافيامبالا » صاحبنا « بالى » و « سوالالا » ثم السالكالا الذين فى « ميناب » الشمالية حول مدينة « ماتيرانو » وما عدا بعض فصائل من الاتنانكارانا والسالكالا الذين هم فى علاقات دائمة مع مؤسساتنا فى « ديفغو سوارس » و « نوسى به » وبعض فرق من سالكالا خليج « بوميتوك » الذين معاشرة الأوربيين هذبتهم شيئاً ، فالأهالى الذين يسكنون بين أعالى رأس العنبر ونهر موروندافا ، كلهم فى حالة الهمجية ، والملوك الذين عندهم سلطتهم اسمية تقريباً ، وإذا شربوا حرباً فلا بد لهم من استشارة رعاياهم فيها ، وأكثر السالكالا رحل يعيشون فى وسط الغابات ، والحضر منهم الذين فى السواحل على جون « ناريندى » و « ماهاجاما » وجنوبى موجانغا يزرعون الأرز والبطاطة ، وعندهم بعض المواشى ولكن أراضيهم المزروعة عالية دائماً عن البحر ، ولا يقطنون قراهم البحرية الا من شهر ديسمبر الى شهر مايو حينما تبدأ سفن الهند ، ومسقط ، وزنبار بالتردد على سواحلهم . ولم يكن الانز من هذه القبائل خاضعاً للملوك الانتيارينا الذين فى تانا ناريف ، حتى انه لما دخل الفرنسيين تانا ناريف ، وخضعت لهم الملكة رانافالونا ، الثالثة ، وأبلغ الفرنسيين الملكة باره رافونى انه لم يبق امامها الا الخضوع أجابت بكل اباء : « اننى أنا لم أكن خاضعة لهؤلاء » (١) « الأمبوالامبو » حتى بمجرد خضوعهم أخضع لكم ، وأن عساكرهم لم تدخل بلادى الا أسرى ، فانتصاركم عليهم لا يمسنى أنا ، فأنا باقية على استقلالى » وباره رافونى هذه ملكة مسامة كسائر رؤساء الساحل الممتد من رأس العنبر الى موروندافا .

ويقول المسيو فران : « ان الجغرافى العربى المسعودى أشار الى كون العرب فتحوا جزيرة قبلى ، التى يترجح أنها هى انجوان الحاضرة ، من أرخبيل القمر فى أواخر

(١) لفظة تحقير معناها الكلب الخنزير

أيام بنى أمية أى في نحو ٥٧٠ سنة للميلاد ، فلا يبعد أن يكون فاتحو القمر أو القومور قد وصلوا الى ماداغسकर لمصاقتها للقمر ، فيكون مضى على العرب أحد عشر قرنا وهم ينشرون عقيدتهم وتجارتهم في هذه الأرض . ومن هذا يفهم الانسان الموقع الرفيع الذى نالوه في جزيرة ماداغسकर لا سيما بين السا كالافا .

وهؤلاء نظير الانتا موروننا لم يتعلموا من الاسلام الا ما وافق عاداتهم وأذواقهم ، و تراهم يكتبون بحفظ الشهادتين : « لا إله الا الله محمد رسول الله » . و بجمل مثل بسم الله الرحمن الرحيم . وان شاء الله . وبعضهم يقرأ القرآن ، ولكنهم يجهلون العربية وبعضهم لا يأكل الخنزير ، لكنهم يحبون الأشرطة المتخمرة و يصنعونها بأيديهم .

ويوجد في مدينة موجونغا جوامع ومدارس اسلامية ، والأذان مسموع عندهم في الأوقات الخمسة ، وأبنية البلدة الحجرية التى على شاطئ البحر تخطر في البال المدن العربية التى على ساحل الأوقيانوس الهندى أو البحر الأحمر . ولكن المسلمين الهنود يصلون في مسجد الشيعة ، والمسلمين العمانيين والزنزياريين والقوموريين يصلون في مسجد أهل السنة . وأما الأولاد الذين يقرأون في المدارس ، فجميعهم أبناء المسلمين الغرباء أو أبناء الذين هم متزوجون بنات ماداغسकरيات . ولم يعهد أن أحداً من السا كالافا أرسل ابنه الى هذه المدارس ، وقد زرت بعض قرى هؤلاء مثل انداموتى ، وسوالالا ، وبالى ، وهى القرى التى يزورها العرب والبانو المسلمون فلم أشاهد فيها مسجداً ولا مدرسة ، ولا رأيتهم يقيمون الصلاة ، ومن الغريب انهم يحتفلون برمضان بدون أن يصوموه ، بل تراهم في هذا الشهر يقومون قبل طلوع الشمس ويجمعون في ساحات قراهم ويشربون ويرقصون وهم على شكل حلقات ، ويعملون بأيديهم وأرجلهم حركات موافقة لأغاني النساء اللاتي بجانبهم يغنين ويصفقن بالأيدى ، ويدور في وسط الحلقة السحرة يتولون ادارة الحلقة وتسمع الراقصين يهتفون معا بكلمة « الله أكبر » وإذا ختنوا أولادهم تضرعوا في وقت واحد الى الله والرسول محمد ﷺ ، والى زاناهارى اله الخير والى انغاترا اله الشر . والغالب على الأمة الماغسकरية انها ولو دخلت في دين جديد لا تترك عقائدها الأولى . ونجد أعظم رجالهم مثل « رانيلياريفونى » الصدر الأعظم الذى كان عند الملكة رانافالونا الثالثة ، يستشيرون العرافين ويستمعون لهم ، وفي ثورة ١٨٩٥ ثبت أن السحرة والعرافين ، هم الذين

دفعوا الشعب الى الرجوع الى عبادة «الصامي» أى الصنم والى قتل الأوربيين . وفى غربى مقاطعة آمبوديرانو ثاروا ونهبوا بيوت المنتصرين والمبشرين ، وقتلوا أسرة مبشر انكليزى ، فسأقت السلطة الفرنسية عليهم تابورا من الجند ، فقاوموه أشد مقاومة ، لأن السحرة كانوا وزعوا عليهم تعاويذ اعتقدوا أنها واقيتهم من النار ، فما زالوا يقاتلون حتى ماتوا عن آخرهم .

وقد وصف بعضهم قبائل الساحل الغربى بالتعصب الاسلامى وليس ذلك بصحيح ، وإنما الساكالا فاهم لم يزالوا فى الهمجية ، أما القبائل الاسلامية الأخرى مثل الانتامور الانتامبا هوا كا ، فقد تلطفت طباعهم كثيراً وصار الأبيض يسافر بين قراهم بدون وجل بل يكون له قبول حسن بخلاف القبائل الوثنية مثل « الانتازا كا » ^(١) وجاعة «مانامبون دور» وجاعة « آفيولا » وجاعة « مانانتينا » الخ ، فان الغريب بينهم لا يأمن على نفسه وهم لا يحبون الضيف . وكانت البعثة النورجية أرسلت الى ملك «الانديا باكارا» تلتمس منه رخصة فى فتح مدرسة لتعليم أولادهم ، فأجابها الملك : « ان اندريا باكارا لا حاجة لهم بمدرسة لتعليمهم زراعة الأرز والبطاطة واجتناء الكاوتشوك ونحن لا نحتاج الا الى هذه الأشياء الثلاثة » فبدلوا كل ما يمكن وقدموا له هدايا ليسمح لهم بتأسيس المدرسة ، فاصر على المنع وصرف المبشرين من بلاده ، وكذلك الساكالا فاهم المسلم منهم والوثني يكرهون الغريب وكل أبيض يصادفونه بينهم يظنونه جاسوسا لملكة تاناناريف ، التى تسكره استقلال قبائل الساحل الغربى ، وحصل اعتداء فى « ماتيرانو » عاصمة ميناب على بعض الأوربيين . فهذه البلدة هى من أهم المراكز الاسلامية وأهلها يرفضون قبول الأجانب ، وليس هذا الأمر بحديث العهد ، بل منذ القرن السابع عشر وقعت الحرب بين قبيلة الساكالا فاهم والبرتقاليين الذين كانوا يغزونهم من موزامبيق ، ولكن كانت الطائفة أكثر الأحيان للماداغسكريين الذين كان يقودهم العرب من القمر أو زنزيبار ، مما يدل على أن عدد العرب كان يومئذ كثيراً فى تلك الديار

وبالاجمال فان مسلمى الساحل الجنوبي الشرقى ائتلفوا مع الأوربيين وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف أهالى الساحل الغربى الذين منهم الساكالا فاهم ، والانتيبوانا المسلمون .

(١) كلمة انتا معناها جماعة فاذا قيل الانتازا كا فالعنى جماعة زاكالا

المستقلون ، والميناب والملازيكورو ، والمهافالي الوثنيون المستقلون فانهم يكرهون الأوربيين ولا يطيعون وجودهم بينهم . ومن هنا يقدر الانسان أن يقول ان دخول بعض هذه الأقوام في الاسلام لم يزددهم بغضا للأوربيين . قال المسيو فران : « ولا أريد هنا الدفاع عن الاسلام ، بل المسلمون خلقوا أعداء لكل من ليس بمسلم وما ليس من القرآن ، وان عدم تسامحهم لا حدة له . ولكن اسلام الوثنيين في افريقية كان مرحلة لهم في طريق المدنية . نعم هذه المرحلة يقفون عندها ولا يترقون عنها » . وأفاض المؤلف هنا في شرح هذه النظرية التي كثيرا ما نقرأها في كتب الأوربيين وهو كون الاسود يترقى بدون شك متى أسلم عما كان عليه وهو وثني . ولكن ترقيا محدودا بخلاف مالودان بدين الافرنج فان رقيه لا حدة له . والجواب على هذا ، ان ليس هناك رقى محدود ورقى غير محدود ، بل الرقى كله غير محدود وان كانوا يرون رقى الذين اساموا من الزنج محدودا ، فالسبب فيه ليس طبيعة الاسلام بل التأخر والجود اللذان يلي بهما الاسلام في الأزمنة المتأخرة مما ليس هنا محل شرحه ، والأشبه أن يكون السبب فيه قلة العمل بمبادئ الاسلام الحقيقية من أن يكون العمل بها .

ثم قال ما يأتي بحرفه : يكون مخالفا للسياسة أن نعصد الدعاية الاسلامية في مستعمرتنا الجديدة (ماداغسكير) أو أن نترك في ساحلها الغربي أقل نفوذ للبيي^(١) . نعم ان مسلمي الساحل الجنوبي الشرقي لا يحتاجون الى هذه المراقبة الشديدة ويمكن أن يتمتعوا بحقوق « البتسيميزاراكا » . ولكن الندابير الاستثنائية الشديدة لا بد منها في معاملة الجماعات الاسلامية في الساحل الغربي » اهـ

ثم قال : « أما المسلمون الغرباء في الساحل الغربي الذين أصلهم من زنزيبار والجزائر القمر الاربع نجزيجة ، ومحلى ، وانجوان ، ومايوت ، ومن عمان ، ومن صور (غربي مسقط) ، ومن المكلا وحضرموت ، فان عددهم قليل ، وهم يجيئون ويرجعون . وأكثر من يهاجر الى ماداغسكير القوم المسمون بالبانتو من زنزيبار والقومور ، فهؤلاء يظهرون بمظهر عظيم من الصلاح ويلتزمون المساجد ، ويحملون المسابح ، ويكحلون أعينهم ، ويخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ويلبسون الجلبب الواسعة ويطوفون في الأسواق ، ويحشون الناس

(١) البيي هو المسلم القومورى أو الزنزيبارى الذى يتزوج بملكة من الساكالافا

على العبادات ، ويذكرون بالثواب والعقاب ، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند الساكالافا الذين يأخذون منهم التعاويذ والتأيم ، وبسبب معرفتهم الكتابة يتفوقون بالبداهة على السحرة الماداغسكريين وقد يصلون الى أن يتزوجوا بنات زعماء البلاد وأحياناً بالملكات . فتصير لهم الكلمة النافذة ويأخذون من العوائد والمكوس ، وأحياناً يصيرون هم الوزراء عند ملوك الساكالافا ، وأهل الحل والعقد . »

ولكن مع كون الاسلام معروفاً منذ عشرة قرون من تلك الديار ولا يزال الفوموريون والزنزباريون ، يدعون اليه ويعلمون عقائده ، فلا يبرح في ماداغسكرك تأثيره سطحياً ، فان الساكالافا والاتنامور والاتنامباهاوا كما قد تقبلوا الاسلام بدون أن ينزكوا عقائدهم الاولى ، ولا تجد جوامع الا في موجانغا وماتيرانو ، والذين بنوها هم العرب والهنود .

والحقيقة ان الماداغسكري لا يقدر أن يغير عقيدته ، فالقبائل الماداغسكرية كلها ، التي هي الانتيمارين والتسيليوني وسط الجزيرة ، والتسيميزاراكا والسيهانكا في الشرق ، والاننامورونا والاتنامباهاوا في الجنوب الشرقي ، والانتيبوانا والساكالافا في الغرب والشمال الغربي ، والبارا في الجنوب ، والملازيكورو والمهافالي والابتاندروى والاتانوسى والانناراكا في الجنوب والجنوب الغربي والجنوب والشرقي ، كلهم غير قابلين للاهتداء .

فالمسلمون يعلمونهم الاسلام منذ قرون . ومن سنة ١٨٢٠ وصلت اليهم جماعات المبشرين من جمعية لندن ، ثم وصل الجزويت واخوان العقيدة المسيحية ، وراهبات مار يوسف وراهبات التبشير بالانجيل ، والمبشرون النورفيجيون والأميريكيون والعازريون الفرنسيون ، وأخيراً مبشرو البروتستانت الفرنسيين . وكل هذه الجماعات حصلت على اتباع ، ورؤساء الانتيمارين يهذبون أولادهم فيها ، وحركة التنصير ماشية بدون انقطاع منذ ثلاثة أرباع قرن وبحماسة فائقة . وقد تعلم كثير من الماداغسكريين القراءة والكتابة ، وتعلموا كثيراً من الحرف ، ومن اللغات كالانجليزى ، والفرنسوى ، ولكن الايمان لم يدخل في قلوبهم . واذا ذهبوا الى الكنائس وأبطلوا العمل يوم الأحد ، فذلك اطاعة لأوامر الحكومة وخوفاً من العقاب الصارم لأن المبشرين جلاوا الحكومة على سن قانون يجبرهم على الصلاة وغشيان الكنائس ، ومن لم يفعل يعاقب بشدة . وأما سريرة

الماداغسكاريين ، فهي الاعتقاد بزاناهاى وانغاترا ، والاستماع للعرافين والسحرة لا غير . والآداب المسيحية لم يحصل لهم نصيب منها بل هي عندهم كالاسلام مما لا يطيقون حمل تكاليفه . فانهم شعب عائش تحت قانون الطبيعة . وأما الفضائل الاخلاقية وتقاء العرض والطهارة ، فامور لا يعرفونها ، فالمرأة في ماداغسكار ، من الملكة الى الأمة ، لا تمتنع نفسها من شهوة ولا تجد النساء في ذلك سوى استعمال وظيفة طبيعية فالرجل والمرأة عندهم وجد كل منهما للآخر . ولذلك لا يقدر ان يتصوروا التبتل والرهبانية ، بل يجدونها مخالفتين للطهارة . وهم لا يجدون اثما كبيرا في الكذب والسرقه والسكر وسائر الرذائل ، وفي هذا لا يختلفون عن سائر الأمم المايزية والبولينيزية ، التي هم واياها من أصل واحد ، ويسمون الذهاب الى الكنائس « فانومبوانا » أى سخرة قهرية ، لأنهم يذهبون اليها بالرغم من أنوفهم . وهم يتساءلون . « أيتها هي الديانة الحقيقية من جميع هذه الديانات التي جاءتنا من وراء البحر ؟ هي الكاثوليكية أم البروتستانتية ؟ وأيتها من النحل البروتستانتية هي أصحهن قولا ؟ أترى هي الانغليكانية أم المتودية ، أم الكويكرس ، أم النورفيجية أم اللوثيرية الأميركية ، أم البرتستانتية الفرنسية ؟ أم الاسلام ؟

وكان واعظ كاثوليكي في كنيسة « فينارانيسوا » يتكلم يوم الأحد على جهاد سيمون دومونتفوره في أصحاب البدعة الالبيجية Albigois وكيف أن هذا المجاهد الكاثوليكي صدع بأمر البابا اينوشنسيوس الثالث واستأصل تلك الفئة الخارجة . وفي الأحد الذى يليه ، قام المبشر الانكليزى وتكلم في المسئلة نفسها وقال ، ان سيمون المذكور لم يكن الا سفاحاً ، قام يستأصل الالبيجيين لكونهم تمسكوا بالحق وتركوا الضلال . ففهم الماداغسكاريون من ذلك أن الفرنسي الكاثوليك كانوا قاتلوا الانكليز البروتستانت ، وان تذكر هذه المنازعات لا يزال حياً . وكذلك سمع الماداغسكاريون مبشرى الكاثوليك والبروتستانت يطعنون أحفش الطعن في المسلمين ، وهؤلاء يسمون اولئك كفارا . فتجد الماداغسكاريين يذهبون الى كهنتهم ويسألونهم عما يرون . فيجوابهم هؤلاء : « لا تصدقوا شيئا من خرافات هؤلاء الأجانب أترى الانسان قادرا أن ينزل الله في قطعة من الخبز أو قطرات من الخمر ! أليكون شخص واحد ثلاثة ! أليكون الابن مساويا لأبيه ! هذه أضحيك . والحقيقة ان زاناهاى (اله الخير) وانغاترا (اله الشر) هما المحركان لهذا

الكون قد عرفهما آباؤنا فاقتدوا بهم وباحترامهما تكونون احترمت آباءكم . »
نعم ان الأصنام الرسمية قد أحرقت سنة ١٨٦٨ عندما دخلت الملكة رانافالونا الثانية
في البروتستانتية ، ولكن العقيدة الأصلية لم تتغير .

وكذلك العمل بأوامر القرآن ونواهيها شاق عليهم ، لاسيما منع الخمر والميسر والانصاب
والسحر فهي امور يحبونها حباً جاً . وأما الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والعفة ،
فلا يعملون منها شيئاً ، ويجدون آلهة ماداغسكراً أقل تكاليف من اله النصرى واله
المسلمين . فالقبائل الاتانكارانا ، والانتبوانا ، والاتانبونغو ، والميناب يسمون أنفسهم
« سيلامو » أى مسلمين وليس فيهم من الاسلام سوى الاسم .

والخلاصة التى استخلصها المسيو فرّان من المباحث التى أجراها بنفسه ومن الكتب
والرحلات التى قرأها عن ماداغسكراً ، والكتابات العربية الماداغسكارية التى اطلع عليها ،
ان الاسلام دخل الى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية من ماداغسكراً بواسطة
العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية ، مما يستدل عليه من الكلمات العربية الكثيرة التى
يجدها الانسان فى لغة ماداغسكراً . فلا شك أن العرب الذين كانوا فى الساحل الشرقى من
افريقية منذ القرن السابع للميلاد ، نشروا دعوة الاسلام فى بحر الزنج منذ القرن الثامن .
فجزيرة قنبالو التى ذكر المسعودى ان العرب فتحوها سنة ٧٥٠ ليست الا على مسيرة ٦٠
ميلاً من مايوت و ٢٥٠ ميلاً من خليج بومباتوك فى ماداغسكراً ، وهى هى انجوان الحالية .
نم ان العرب نزلوا موجانقا ، ووصلوا إلى مايتانانا ، ومن هناك أحاط بقصص مجيئهم الى
هناك من الخرافات والخيالات ومن خلط قصة باخرى ماتقدم لك مثاله . انتهى .

ونحن نرى أن العرب نزلوا بتلك الجزيرة منذ القرن الثانى والثالث للهجرة ، وان
ذلك الحكايات التى يروونها دائماً من كون مسلمى ماداغسكراً أصلهم من مكة هى من جلة
الاقتحار بالاصل العربى ولم يفهم ان يكونوا عرباً حتى جعلوا أنفسهم قرشيين ، بل من
آل البيت - على انه لا يوجد مانع من أن يكون أناس من قریش ، أو من الطالبين وصلوا
الى هناك . فاما بقاء المسلمين فى ماداغسكراً على ما هم عليه من الجهل ، لا يمتازون عن
سائر أبناء وطنهم الا قليلاً فله سببان أحدهما ، شدة تمسك أهالى ماداغسكراً بعقائدهم
القديمة ، بحيث انه لا الاسلام ولا النصرانية أمكنهما قلع تلك العقائد من رؤوسهم تماماً ،

الثاني قصور المسلمين في ماداغسكير كما في سائر الأقطار من جهة التشكيلات اللازمة للدعاية ، ولو كانت لهم هناك مدارس ومكاتب وطرق منتشرة ، لكان الاسلام أرسخ وأنقى مما هو الآن في ماداغسكير بدون شبهة .

جزائر القومور أو القمر

العرب الأولون يسمون هذه الجزائر بالقمر بضم القاف وسكون الميم وقد تحرك الميم فتلفظ قمر بضمين ، ومنها قول الأفرنج « قومور » ، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب ان قنبالو أو انجوان فتحت سنة ٨٢٤ (بالحساب المسيحي) على أيدي الازد الاباضيين . وبحسب قول كارتى Carthy في كتابه « جزر افريقية في بحر الهند والجزر العربية » المطبوع في باريس سنة ١٨٨٥ ليس تاريخ هذا الفتح معلوما ، وإنما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالبسالة والاقدام جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمر الكبرى ولكن بسلطة محدودة . ولا شك ان أعقاب هذا الرجل ، هم الذين اشتبكوا في الحرب مع البرتغاليين عندما طرأوا على هاتيك البحار . ثم انه بعد ذلك طرأت جالية عديدة من شيراز العجم ، فنزلت بساحل الزنج . وكان لهم زعيم اسمه محمد بن عيسى ، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتي هنجوان ومحلى ، وجعل فيهما ابنتيه ملكتين ، ثم جاء فزار جزيرة مايوت فأحسنوا استقباله ، فاستحبها على هنجوان ، وتزوج بنت سلطان مايوت .

ثم نقل المسيو كارتى عبارة حررها كاتب عربي ، اسمه الشيخ يوسف ابن المعلم موسى ، لسائح فرنسوى ، اسمه فيكتور نويل وهى هذه :

« ان جزيرة مايوت كانت تابعة لامراء جزيرة انجوان بحسب قول هؤلاء ، ولكن المايوتيين لم يكونوا يذكرون اسم أمير أنجوان في خطبة الجمعة الا في بعض فترات . ولما آل الأمر في انجوان الى السلطان أحمد الذى ملك من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٨٥ ، جرت حوادث من غارات السالكالا ومن الفتن الأهلية زعزعت ملك الانجوانيين ، فاضطرب حبل الامن فيها ، وكانت أسرة عربية أصلها من عمان أقامت ببلدة « تشينغونى » حاضرة خزيرة انجوان القديمة ، وكانت ذات ثروة طائلة من تجارتها ، وقد أحسنت استعمال المال في وجوه الخير والبر ، وتزوج واحد من هذه العائلة واسمه صالح بن محمد بن بشير بن المنظارى

العماني ، وكان شاباً ماضياً في الأمور عظيم الجاه بآبنة سلطان مايوت . سنة ١٧٩٠ مات سلطان مايوت ، خلفه صهره صالح بن محمد بن بشير وتحول عن مذهب الاباضية الذي عليه أهل عمان ، الى مذهب الشافعية أهل السنة والجماعة الذي عليه أهل جزائر القمر الخ » وقال المسيو غافراي : Gevrey ان أصل سكان القومور يهود أو ايدوميون ، جاءوا من البحر الأحمر بعد عهد سليمان ، وجاء اليها في الوقت نفسه زنوج من زنجبار ، وكانت تختلف اليها كثيراً سفن العرب ، ولكن هؤلاء لم يتوطنوا فيها الا في القرن الخامس للهجرة . ثم في القرن السادس عشر للميلاد جاء البرتغاليون وفتحوها ، ولكنهم مروا عليها كعابري سبيل ، و بعد انصرفهم من هناك جاءت طارئة من الشيرازيين ، فنزلت بها تحت قيادة محمد بن عيسى أما تاريخ جزيرة « محلي » فلا يعلم عنه شيء كثير ، وغاية ما يعلم أن أول من سكنها زنوج جاءوا من افريقية ، ثم جاءها العرب والماداغسكريون ، وفي سنة ١٥٠٦ جاءها طائفة من الشيرازيين تحت قيادة أحد أولاد محمد بن عيسى . وأما جزيرة انجوان أو انزوان فقد عمرت نظير ما عمرت محلي ، وفي العهد نفسه فقد جاءها أولا الزنج ثم العرب ثم الماداغسكريون ولما وصل محمد بن عيسى الى جزيرة القمر الكبرى أرسل ابنه حسن بن محمد ، فاحتل انجوان بشرذمة من الشيرازيين .

نجزيحة أو جزيرة القمر الكبرى

نأخذ زبدة معلوماتنا عنها من رسالة للدكتور نيقولا دو بلانتيه Du Plantier رئيس الاطباء في جيش المستعمرات الفرنسي ، مطبوعة بباريس سنة ١٩٠٤ اسمها « القومور الكبرى » La Grande Comore

قال : « ان ارخبيل القومور مؤلف من أربع جزائر : مايوت وانجوان ومحلي والجزيرة الكبرى ، كلها واقعة في مضيق مواز مبيق طولها نحو ٢٤٥ كيلو مترا ، مع انحراف من الجنوب الشرق الى الشمال الغربي . فالقومور الكبرى هي بين ٤٠ ر ٥٥ و ٤١ ر ١٢ من الطول الشرق و ١١ ر ١٣ من العرض الجنوبي ، وبينها وبين شاطئ افريقية ١٦٠ ميلا ، ومنها الى محلي ٢٨ ميلا ، والى انجوان ٥٠ ميلا ، والى مايوت ١٦٩ . وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو مترا في عرض ٢٤ ، وأكبر مراسيها « مروني » في الغرب ، و « ميتساميولي » في

الشمال الغربي ، « وشيندينى » فى الجنوب الشرقى ، و « ساليانى » فى الجنوب الغربى . وهى جزيره مرتفعة فيها جبل يقال له « الكاراتالا » علوه ٢٥٠٠ متر وفى رأسه حطمة نار . وتكثر فى هذه الجزير الحراج ، ويتبدى القيط فيها بشهر مايو وينتهى باكتوبر . وتكثر فى الشتاء العواصف والزوابع ، ويعزر المطر ، ومع هذا فليس فى هذه الجزيرة مياه جارية كما فى اخواتها الجزر الأخرى . وكل ما فيها من العيون عينان نساختان احدهما ، فى مقاطعة بادغينى والأخرى فى مقاطعة ميتساميولى . واعتماد الناس انما هو على الحياض التى تجتمع فيها مياه المطر ، وأهل سيف البحر يحفرون على الشاطئ ، فيستنبطون ما يشربون . وبالرغم من قلة المياه فأراضى الجزيرة خصبة جدا ، ومناخها من أجود ما يكون يناسب الغرب ، والحيات المalarية غير معروفة فيها ، والصحة العمومية فيها جيدة جدا . ومن قصد الفرار من الحريجى فى الأماكن المرتفعة غير البعيدة عن الشاطئ ما يرضيه ، وأجسام أهالى هذه الجزيرة فى غاية القوة والنشاط وهم يحبون النظافة كثيرا .

وعدد أهالى القومور الكبرى خمسون ألف نسمة ، لكن النساء أكثر جدا من الرجال حتى انهم حسبوا بازاء كل رجل ثلاث نسوة . وسبب نقصان عدد الرجال عن النساء ، هو الحروب التى كانت قد وقعت فيها بين سلاطينها ، مع كثرة المهاجرة الى زنجبار . اذ انتقل منهم سنة ١٨٩٩ ، نحو ١٥ ألف رجل الى تلك الجزيرة . ويقال ان العرب نزلوا فى القرن العاشر بهذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها ، ومعهم عبيد كثيرون . ووجدوا فيها زنجبا من أمة « الكافر » لم يعلم عهد مجيئهم . فباختلاط هذه الأجناس من السلالة السامية الخالصة الى المادغسكارية ، الى الباتو ، تكون الجنس القومورى الحالى وكذلك جاء فيما بعد هنود وعرب . والقومورى طويل القامة ، غليظ الشفتين بدون برطمة ، على الجبهة ، أقنى الانف ، أسود العينين ، قليل شعر اللحية . أما المرأة القومورية فهى صغيرة ، حسنة التقاطيع ، طويلة الذوائب ، لكن اذا تزوجت حلفت شعرها . وكبار القوم يخضبون أظافرهم بالحناء والنساء يستعملن الوشم والرجال الأعشياء يلبسون القميص الطويل من الجوخ الأسود أو الحرير المزركش وعلى رؤسهم الكوفية المطرزة بالقصب ، ويحملون فى أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة . أما النساء فيلبسن الحرير ضافيا ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلا من الحرير ، ويرخين أحيانا نقابا مزركشا

مفتوحا عند العينين ، ويتحلين بانواع الخلى من عقود اللؤلؤ ، والاساور والخلخيل ، المذهب منها والفضة ، ويتطين بانواع الطيوب ، وفي النهار تجلس المرأة من هؤلاء في منزلها محاطة بجوارىها ، أو تنزه على سطح البيت ، فاذا غابت الشمس كان لها ان تخرج من منزلها وتنزه في الشوارع متنقبة جيدا . فالما الفقيرات ، فيظهرن في الاسواق ويستغلن ويلبسن ثوبا واحدا من القطن ويتطقن عليه .

أما المساكن فبنية بالحجر والجير ، وأكثرها ذات طبقة واحدة وسطوحها مستوية ، وسقفها ودورها بالخشب ، والابواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المحرم . وعندهم مقاعد من خشب ذوات أرجل أربع مغطاة بالطنافس والمساند . ويشربون بالنارجيلة ، ويحبون الراحة ، ويقضون جانباً من أوقاتهم إما في الجوامع أو في ساحات البلدة مستأنسين للاحاديث ، وكل واحد سبخته في يده . وهم قوم متوكلون ، لكنهم كسالى لا ينشطون للعمل الا قليلا ، ويميلون الى اللذة والرقص والغناء ، والى الاسراف في النفقة ، فقد وجد منهم من يرهن عقاراته بمبلغ من المال ويشتري عدة رؤوس من البقر ويتصدق بلحمها على فقراء بلده أو يشتري ثياباً مزركشه بالذهب ، أو يتزوج امرأة جديدة . وللزواج عندهم أفراح طويلة عريضة تستمر أياما ، وقد يكون ذلك شهرا ، وتقدم الهدايا النفيسة الى العروس ، وتذبح الذبائح العديدة ، وتولم الولائم طول مدة الفرح لجميع الاهالى بين الزفن والغناء والطبل والزمر .

والطلاق معروف في القومور ، ولكن الولد في هذه الحالة يبقى عند أمه ويتبع حالتها ، فهو أمير اذا كانت أميرة وفقير اذا كانت فقيرة ، وللرأة حق التصرف المطلق بأملأها .

ويحتفلون أيضا بالختان ، فاذا ختن أحد الاكابر ولده ، عمل عيدا اشتركت فيه جميع أهالى المدينة . والمآتم عندهم لها شأن كبير أيضا .

وجميع القوموريين ، أهل الطبقة العالية ، شديدو النمسك بدينهم الاسلامي ، وأهل الطبقات الدنيا يميلون الى الخرافات . والجوامع كثيرة في المدن والقرى ففي « مروني » مقر المقيم الفرنسي ١٢ مسجد ، مع أن أهل هذه البلدة لا يزيدون على ٢٥٠٠ نسمة والمشايخ يعلمون الاولاد القراءة والكتابة ، والجميع يراعون الشريعة أتم المراجعة ويوجد مدارس في كل المدن

والقرى ، أما لغتهم ، فهي نوع من اللغة السواحلية الزنزيبارية وتكتب بالأحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان ، فهي العربية الفصحى .

ولما جاءت فرنسا وبسطت يد حمايتها على القومور الكبرى كان فيها ١٢ مقاطعة ، لكل منها سلطان وأكبرهم اسمه « سلطان تيبه » يخضع له جميعهم . وقد كان السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر صاحب هذا المقام ، وأبوه السيد عمر كان سلطانا على جزيرة انجوان ، وقد قام بخدمات جزيلة لفرنسا ، وذهب على في صغره الى مايوت وتعلم الفرنسية ، وكان السلطان تيبه في القومور الكبرى عمه السلطان أحمد ، فقبلما توفي أوصى بأن يكون هو خلفه ، فلما مات أحمد وجاء على يتسلم الملك ، اعترض بقية السلاطين وقالوا انه غريب ، واعصوا صبوا حول الامير موسى فومو ، سلطان مقاطعة ايتساندرا ، الذي طمع أن يكون السلطان تيبه . فوقع الحرب ودارت الدائرة على الامير موسى بسبب معاونة سلاطين انجوان ومحلى ، وسكان مقاطعة بادغيني الكبيرة للسلطان على . وبعد ذلك جاء مركب من قبل سلطان زنزيبار ، عليه قنصل انكلترة يعرض على السلطان على حامية الانكليز ، فرفض على حامية انكلترة ، وأرسل الى قائد مايوت يعرض دخوله تحت حامية فرنسا ^(١) فلم يحصل يومئذ على جواب ، لكن بعد ذلك بثلاثة أشهر ، جاء المسيو همبلو Humblot العالم الطبائى الفرنسوى بمهمة عامية الى القومور الكبرى ، فأعظم السلطان على موصله ، وشاهد المسيو همبلو خصب الاراضى ، فحول مأموريته من عامية الى سياسية . وكان الأمير موسى فومو قد رضى بحماية انكلترة ، وأرسل له الانكليز ذخيرة وأسلحة ، فتهافت السلطان على على طلب حامية فرنسا ثانية ، فرجع المسيو همبلو الى فرنسا وأدى الرسالة . وفي ٦ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ ، عقدت فرنسا مع سلطان القومور الكبرى معاهدة تتضمن أن يكون لفرنسا الموقع الأول دون سائر الأجانب في جزيرة القومور الكبرى ، وان السلطان لا ينزل عن شئ من الاراضى لدولة أجنبية ، ولا يعقد مع دولة من الدول معاهدة الابرضى فرنسا . ورضى السلطان بابقاء خمس مقاطعات وهي ، بامباو وايتساندرا ، وميتساميولى ، وبونى ، وبادغيني ، كل مقاطعة منها يليها سلطان تابع للسلطان على الذى يلى مقاطعة بامباو رأسا ، جاعلا مركزها بلدة مرونى . وان السلطان

(١) هذه رواية المؤلف الفرنسوى

لا يعزل أحداً من أولئك السلاطين ، ولا يعلن حرباً لابرزى الحكومة الفرنسية . وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق في تعيين الخلف ، أو تعيين شكل ادارة البلاد . وقد تعهد السلطان على باقرار الاعطيات التي أعطاها الفرنسي من أراضي الجزيرة ، وبتسهيل اعطاء غيرها لهم . وفي السنة المذكورة جاء المسيو ويير معتمداً من قبل الدولة الفرنسية مقيماً بالجزيرة .

فأثارت هذه المعاهدة تأثر القوموريين الذين اتهموا السلطان علياً بأنه ، أتى لهم بالفرنسيس الى الجزيرة وباعها من المسيو همبلو ، وخرّب ديارهم وصيرهم عبيداً . وكانت الثورة بدأت سنة ١٨٨٩ في مقاطعة بادغيني ، وتولاها أمير اسمه آشيمون ، فأرسلت فرنسا قوة وأخذت نارها ، وقتل آشيمون في أثناءها ، ولكن أهالي الجزيرة بأجمعهم بقوا ناكبين^(١) بحيث اضطر السيد على أن يفر لايلا الى محلي (٢٣ فبراير ١٨٩١) فجاؤ القائد الفرنسي من مايوت الى محلي ، وأخذ السيد علياً معه على ظهر بارجة حرية الى القومور الكبرى ، وحاول اقناع الأهالي بكون السيد على لا يزال سلطاناً وان فرنسا لا تزال معترفة بسلطنة القومور ، فلم يقبلوا كلامه فاعاده معه الى مايوت وازدادت الثورة ، فأرسلت فرنسا قوة ضئيلة قعت الثورة . وفي ٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، عقدت مع السيد على اتفاقاً الغت بموجبه السلطنات الخمس وقسمت الجزيرة الى ١٢ مقاطعة ، وجعلت الحكم في كل مقاطعة لقاض وعلى رأس كل قرية شيخاً ، وصارت السيادة التي كانت للسلطان الى مجلس القضاة الذي ينعقد بحضور معتمد فرنسا المقيم ، وفرض على كل مكلف من الأهالي من سن ١٢ الى سن ٦٠ سنة دفع روبيتين ونصف روبية سنوياً .

ولكن بعد ذلك جرى اعتداء على بعض الفرنسيين ، وقصد أناس من الأهالي اغتيال المسيو همبلو ، فجرح وجرح صهره المسيو لوغرو ، فاتهم السلطان على انه هو مدبر هذه المؤامرات ، فنفي الى دياغو سوارس ثم الى بوربون ، وخلعته فرنسا^(٢) وصار الأمر الى المعتمد المقيم وهو المسيو همبلو ، فبقى الى سنة ١٨٩٦ ، ثم خلفه المسيو دوكاز De Cazes ثم المسيو بوبيغوين Pobequin ، ثم خلفه المسيو بلانتيه (الذي تنقل عنه هذا التاريخ)

(١) ولانراهم مخطئين

(٢) كما خلعت عبدالحفيظ سلطان الغرب مع انه هو الذي أدخلها الى مملكته وكل منهما لقي جزاءه

وتوالى من بعده المقيمون الى اليوم .

وليس لجزائر القومور حق في ارسال مبعوثين في البرلمان الفرنساوى (كما ليس لجزائر الغرب) ، وانما يوجد لها ممثل خاص في مجلس المستعمرات الأعلى ، ويكون فرنسا من أصحاب الأملاك المستعمرين في تلك الجزائر .

وأما الادارة الوطنية في الجزيرة ، فهي في أيدي ثمانية قضاة ، و ١٤١ شيخ قرية . فالقاضي يفصل الدعاوى وينفذها ويصدق العقود ، وفي حال استئناف الدعاوى يوجد مجلس مركب من كل القضاة . وأما شيخ القرية فيجبي الأموال ، ويقوم بالضبط والربط في القرية وله أعوان في مهمته . واذا وقعت دعاوى مدنية بين الأهالي والفرنسيين ، فالقاضي فيها المعتمد المقيم . أما في الدعاوى الجزائية فالمرجع هو محكمة مختلطة يرأسها المقيم ، ويكون فيها اثنان من القضاة الوطنيين واثنان من الفرنسيين . وفي قصبة مرونى مدرسة فرنسوية يتعلم فيها الاحداث ، ويحضر دروسها كثير من الرجال البالغين ، وفي القومورى ذكاء مفرط واستعداد عظيم للتعلم والتمدن .

وميزانية الجزيرة المالية هي ١٥٠ ألف فرنك ، يؤدي منها سنويا خمسة آلاف الى السيد على في منفاه ، و ٤٥ ألفا الى شركة المسيو همبلو عن فائض الدين الذي كان لها عند السيد المشار اليه ، فلا يبقى لادارة الجزيرة كلها سوى مائة ألف فرنك .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هي أيضا من أرخبيل القومور ، وكان لها سلطان مستقل بها نلخص أخبارها من كتاب اسمه « سلطنة انجوان » تأليف المسيو جول ر بليكه Repliquet من كبار مأموري المستعمرات الفرنسية قال : « انها بين ٤١ ، ٥٢ ، ٤٢ ، ١١ ، ١٥ من الطول الشرقى و ١٢ ، ٣ ، ٣٥ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٣٠ من العرض الجنوبى على ٢٠ مرحلة شمالي مايوت الى الغرب و ٩ مراحل عن محلى الى الشرق ، و ١٥ مرحلة عن القومور الكبرى . ومساحة انجوان ٣٧٨ كيلو مترا مربعا ، وأعلى قمة فيها ارتفاعها ١٥٧٨ مترا . وهي جزيرة بديعة كثيرة الأشجار ، غنية بالنباتات ، لاسيما المقاطعة المسماة منها بومونى : والقسم الفاصل منها هو القسم الغربى ، والى الشمال الغربى منها جزيرة صغيرة مغطاة

بالشجر ، اسمها جزيرة السرج . وفي أكثر جزيرة انجوان تجد مياهها جارية تفيض من بين الأودية ، وتسقى الأراضي الى الساحل سائلة من شلال الى شلال ، وكان الأهالي لجهلهم يسرفون في قطع الأشجار ، فأصدر السلطان عبد الله برأى المعتمد الفرنسي المقيم الميسو أورميير أمراً يمنع فيه استئصال الشجر .

ومن جداول انجوان التي تسيل صيفاً وشتاءً كيباني ، وبوزيني ، وشيكوني ، والباجي الذي له مصب في جون ترفاً اليه السفن ، وموروياجيني ، وباتسي عواني ، وهذه الجداول تجدها من الغرب الى الشرق . وأما في الشرق فجدول يقال له النانغا مجرورة مياهه الى مزارع القصب والجيجي . ثم الى الجنوب جوماني . وأنهار وسواق أخرى أقل بالا من تلك تدلك كلها على غزارة المياه الجارية في هذه الجزيرة الصغيرة البديعة . وفي جهتها الشرقية ، بحيرة صغيرة مساحتها عشرة آلاف متر متناهية في العمق وصفاء الماء وبرودته يظن أنها خزان الجداول الشرقية .

وفي انجوان مراس جيلة للسفن مثل فرضة انجوان ، ومرسى فومباني ، ومرفاً بوزيني وباجي وباتسي ، وهي في الشمال . ومراسي آجو ، وبومباو ، وغيرها في الشرق . وبمبيني وسيامسانغاني في الغرب . ومرفاً بوموني في الغرب ، يصلح لايواء البوارج الكبار .

وهواء انجوان معتدل الحرارة ، ففي الصيف متوسط درجة ميزان الحرارة هو ٢٣ في الظل ، والمناخ في الجزيرة جيد ، والحيات قليلة مع وفرة المياه والاصطياف في أعالي الجزيرة يفيد الصحة جداً .

وتنقسم الجزيرة الى نواح ، فمنها في الشمال الشرق موتسامودو ، وعواني ، وبانداني وفي الغرب شيزيواني . وفي الشرق دوموني . وفي الجنوب بوموني ونيوما كيلى . وفي الوسط يوجد بامباو متوني وكوني . والعاصمة هي موتسامودو ، تنسب الى رجل زنجي كان اسمه موسى مودو أي موسى الاسود ، كان يرعى مواشيه حول جون انجوان ثم استقر هناك ، وكان أول من بنى هناك بيتاً ، ثم جاء الآخرون وبنوا بجانبه . وكانت لمدينة موتسامود أيام سعيدة لعهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية وحصنوها بقلعة . أما الآن فشكل

هذه الأسوار متداع الى الخراب . وفي الحارة المسماة « آمومبو » ^(١) التي هي محلة الاشراف تجدد قصر سمو السلطان ، والمحكمة المختلطة ، ودار الخزانة القديمة ، وبعض الدور القديمة الباقية على جبالها . وبالقرب من هناك « موكيره جيموى » أى الجامع الأعظم بمنارته السوداء ذات المصابيح وفي الخارج من السور على طول نهر موروجاجيني الضواحي المسماة بانداماجي ، فيها أكواخ الفقراء

أما القلعة ، فهي شاهقة مبنية على صخرة سينيجو ، لها برجان عاليان مربعان و برج آخر يرتفع عليه العلم السلطاني الأبيض والأحمر في الأعياد ، ومن القلعة الى المدينة سلم عدة درجه ٢٨٠ ولكن هذه القلعة تنهار يوماً فيوماً بانهدام السلطنة العربية التي كانت شيدتها . وقد كان آخر عهداها بالقوة سنة ١٨٩١ يوم اطلقت مدافعها النار على البوارج الفرنسية . والى اليوم في هذه القلعة ١٠ مدافع قديمة بالية .

وعلى مسافة أربعة كيلو مترات من موتسامودو ، تظهر بلدة عوانى بمنارتها وسورها ومنازلها . وهناك عاصمة ثانية للجزيرة ، اسمها دومونى واقعة في شبه جزيرة . وهي نظير أختها موتسامودو متداعية الى الخراب . وكانت قبلاً كرسى السلاطين . ونظراً لمنعة موقعها ، كان أهلها اذا هاجهم الماداغسكيون من البحر قرعوا طبول الحرب ، فهرع الأهالى من الجوار ودخل رعاة المواشى وآووا الى جدرانها بقطعانهم . فلم يبق اليوم من سابق عظمة دومونى سوى بعض جوامع ، وبعض منازل للأشراف . وفي أحد هذه الجوامع صومعة منحوتة في الحجر ، داخلها مزخرف بالنقوش العربية . وهو أثر معمارى يستحق الذكر . والى جنوبى الجزيرة فى نيوما كيلي مدينة صغيرة اسمها « مويما » وفى الجزيرة كلها ٨٠ قرية أكثر أهلها من جنس الماكوا الزوج . وأما مباني الادارة الفرنسية فهي على ارتفاع ٢٠٠ متر بمحل يقال له « هومبو » يشرف على موتسامودو وقلعتها . وتجدد جميع الدوائر الرسمية والمستشفى والسجن مخفية تحت أشجار المانغا وغيرها من الأدواح الكبيرة وتحت اكمة هومبو مقبرة الجنود الفرنسيين ، الذين قتلوا فى حوادث سنة

(١) ان العرب من عادتهم أن لا يلفظوا الباء بعد الميم أبداً بل لا يسبق الميم عندهم الا النون مثل تمبكتو مثلاً ، ولكن الافرنج يجعلون أبداً محل هذه النون ميا فيقولون تمبكتوا Tomboucto ولما كنا ننقل عن كتب الافرنج حافظنا فى الأسماء على كيفية نطقهم بها مع علمنا بأن الاصطلاح العربى هو لفظ مثل هذه الكلمات بنون بعدها باء كما حقق ذلك العلامة اللغوي ، الأب أنستاس الكرملى

١٨٩١ (يوم استولوا على الجزيرة) .

وجميع سكان هذه الجزيرة ١٥ ألف نسمة ، يرجعون الى ثلاثة أجناس ، من العرب والبوزمن والماكوا . ويقال ان أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن ، ثم جاء العرب ومعهم الماكوا . والبوزمن هم من أصل مالى بولينيزى كاهل ماداغسکر . وهم أقوياء شجعان يحبون الحرية أسلموا فى القرن السادس عشر ، ولكنهم لم يقبلوا الرق وذهبوا من وجه العرب الى الجبال أما من جهة التمسك بالاسلام ، فانهم فى الدرجة القصوى يعملون بالأوامر والنواهي القرآنية بحرفها ، ولا يؤولونها بحسب أهوائهم مثل العرب (كذا) .

أما العرب ، فأصلهم من سواحل خليج فارس أو سواحل البحر الأحمر ، وعليهم سحنة أهل اليمن ، وفى نسائهم جال بدقة التقاطيع ، وتدوير الوجه ، وملاسة الشعر ، وسواد العينين ونفوذ اللحظ . وأكثر العرب كسالى أهل مكر ودعوى (كذا) وكلهم تقريبا يدعون الشرف وكونهم من ذرية الرسول ﷺ وأكثر أوقاتهم يقضونها مضطجعين فى داخل بيوتهم بين نسائهم ، حتى اذا أظف الغروب ذهبوا الى الجامع للصلاة ، ومن هناك يفيضون بالأحاديث التى فيها يكثر لعن الكافر الأبيض^(١) وهم شديدو البغضاء لنا لاننا نصارى ، ولأننا نحب الشغل وبحركتنا ونشاطنا صار لنا التفوق عليهم . وقد فهموا أنهم كانوا هم المغلوبين ، لكنهم لا يريدون أن يجعلوا كسلهم هو المسؤول عن ذلك وهم مهمما تقربوا إلينا يكذبون ولا يوثق بظاهر محبتهم (كذا) . أما الماكوا فاصلهم عبيد من الموزامبيق ومن سواحل شرقى افريقية ، أتى بهم العرب ليعملوا فى أراضيهم فساكنواهم الحرائين لهم وصاروا الآن الحرائين فى أراضي المستعمرين الأوربيين ، وهم أهل مودة ومعرفة للجميل . ولا تخلو انجوان من الهنود البانيان ومن الماداغسكريين . أما لغات انجوان مع صغر حجمها فهى أربع العربية ، ثم السواحلية ، ثم الانجوانية ، ثم الماكوية فالعربية « لاتينية الشرق » هى لغة الديوان والدين ، وبها تصدر الأوامر السلطانية ومضابط القضاة الى هذا اليوم . وأما السواحلية فهى لغة التجارة ، وكثيرا ما تكتب بها أوراق رسمية . وأما الانجوانية فهى خليط ، من العربى والسواحلى والماكوى والبرتقالى

(١) الذى لا يقدر أن يحبوه لأنه استولى على الجزيرة وسلبهم ملكهم

(٢) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البكور

والفرنساوى والانكليزى ويتكلمون بها فى كل الجزيرة . وأما الماكوية فهى لغة الزنوج ، وهى تتلاشى أمام اللغات الأخرى

وذكر المؤلف عن ملابس أهل انجوان ما يقرب مما تقدم عن ملابس القومور الكبرى وهى فى الحقيقة ملابس العرب الضافية مع الكوفية على الرأس ، والخنجر فى الوسط ، وذكر أن الشبان يحملون بأيديهم عصيا يسمى واحدها « البانكوره » من الخشب الصلب ^(١) ، وقال ان العرب رجالا ونساء يتطيّبون ، ويرشون على ثيابهم ماء الورد والمسك ، ويكحلون عيونهم ، ويخضبون أظافرهم بالحناء .

والانجوانيون يتبعون الشريعة الاسلامية بجميع أوامرها ونواهيها ، ولكن عندهم عادات غلبت عليهم ولولم توافق الشرع ، مثلا ، المرأة هى دائما صاحبة البيت الذى تسكن فيه مع بعلاها فاذا وقع الطلاق ، وجب على الرجل أن يفارق البيت .

وكذلك الانجوانيون لا يعتبرون رقبة الملك للسلطان ، بل يرون أن تملكهم للأراضى هو من الله تعالى . وحكم القضاة هو بمذهب الامام الشافعى ، والكتب التى يعتمدون عليها من المذهب هى منهاج الطالبين ، والفتح القريب . ولم يبق فى الجزيرة سوى قاض واحد فى موتسامودو . وكان السلطان فى الماضى يبلغ الحكم بمجلس مشهود من الأعيان والقضاة ، أما الآن فلم يبق للسلطان الا اعطاء بعض النصائح لا غير .

ثم تكلم المؤلف عن العادات المألوفة فى انجوان ، فى الولادة والختان والزواج والجنائز مما لا يخرج عما تقدم فى الكلام على القومور الكبرى ، ومما هو معهود فى البلاد العربية مع بعض الزيادات . ولكنه قال ان الخاطب اذا خطب البنت من أهلها وارتضاء والداها ، زواجه بدون معرفة الفتاة ، اذ الشريعة المحمدية لا تشترط رضى المخطوبة فى الزواج وهذا خطأ فظيع هو من جملة خلط الأوربيين ، الذين يلقفون كل ما يسمعون وأحيانا ما لا يسمعون ، بل ما يتصورون بمجرد خيالهم ، فيقررونه وقائع ثابتة . فانه مما لا ينكر كون الوالدين فى كثير من الأحيان يستبدان بالبنت ، ويعقدان عليها بدون استشارتها وهى تطيعهما حرمة وتأدبا معهما . ولكن القول أن هذا هو من الشريعة الاسلامية خطأ فاحش ، فان البنت البالغ لابد من رضاها فى الزواج ، واذا عقد العقد قبل البلوغ وبلغت المعقود عليها ، كان لها الحق أن تفسخه .

(١) يقال له فى جبل لبنان الباكور أو البكور

ثم ذكر ما عند الانجوانيين من حب الرقص والغناء ، والضرب بالمعازف وآلات الطرب وما عندهم من سرعة الخاطر في ارتجال الأزجال العامية الرقيقة ، التي يطرب لها كل من يسمعها . وقال انهم يضربون بالطمطام (نوع من الدربكة) ، والقابوسى (نوع من العود) وقال انهم مغرمون أيضاً بلعب الورق والشطرنج ، ويحبون المصارعة ولعب السيف والترس وغير ذلك مما هو من أوضاع العرب

وفي السادسة من العمر يرسلون أولادهم الى الكتاب ذكورا واناثا ولا يفصلون بعضهم عن بعض الا في سن البلوغ ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم والعقائد ، ويكتب لهم على ألواح بيضاء بقلم من قصب السكامو ، وجبر يقال له نيونغو^(١) آيات من القرآن لا بد للأولاد أن يحفظوها . ويواظب أهالى انجوان على الصلوات الخمس ويوم الجمعة يخرج السلطان الى صلاة الجمعة وامامه اثنان يحملان العلم السلطاني والمظلة السلطانية ذات العذبات الخضراء ، ومن العادات القديمة أن أهالى قرية ميرويسى يؤلفون موكب السلطان في ذهابه الى صلاه الجمعة . وجميع الأهالى يصومون رمضان ، حتى الذين ليسوا مسلمين من الزنوج يصومون . وتقل في انجوان الأوقاف لكن يوجد منها ما هو مربوط بالجوامع ، ومنها ما يقفه الانسان على جهة بر^٢ ويجعل نظارته في ذريته حفظا لثروة البيت بعدم امكان بيع الوقف . وأما حجاب النساء فهو شديد في انجوان حتى الذين ليسوا معروفين بشدة العقيدة ، ومن يشرب الخمر سراً ، لا يتساحون في أمر الحجاب . وتسود الخرافات عند البوزمن والزنوج في انجوان حتى ان العرب قلدوهم فيها ، فانهم يمتحنون السارق ، مثلاً ، بأن يجبروه على مضغ حفنة من الأرز غير المسالوق وهم يقرأون عليه سورة يس ، فمن لم يمكنه أكلها ثبت أنه سارق^(٢) أما الصناعات في انجوان فهي قليلة ، يعملون الفخار البسيط ، وينسجون الحصر والزنايل ، وعندهم مطاحن على الهواء ، ويستخرجون عصير السكر ، وكان السلطان عبد الله قد أسس معمل سكر في بامباو ، وغيره من الأهالى صنعوا السكر ونجحوا فيه . وأما الزراعة فهي في حال التأخر ، والفضل

(١) مركب من البخار المتبلد محولا بالماء

(٢) الغالب على الأوربيين انهم اذا اطلعوا على حادثة أو حادثتين جعلوا ذلك قاعدة فلذلك تقل الثقة في مروياتهم

في المحاصيل انما هو لخصب الاراضى . وللعرب في الاودية مزارع لطيفة من قصب السكر والكوكو ، وكان عندهم كثير من شجر البن . أما التجارة فلهم فيها نفاذ عظيم ، فقد ولدوا من بطون أمهاتهم نواتيه وتجارا . ومنذ القرن السابع عشر ، كان الانجوانيون ينقلون بضائع ماداغسكير وساحل شرقى افريقية الى خليج فارس ومسقط ، أما تجارة الرقيق فقد بطلت منذ سنة ١٨٤١ ، عند ما استولت فرنسا على جزيرة مايوت ، وبعد الغاء هذه التجارة سقطت تجارة انجوان عن درجتها الاولى ، أما سفنهم فهى قوارب ذات قلع واحد وهم في غاية المهارة في البحر سواء في ادارة السفن الشراعية أو ذات المظادف

أما تاريخ انجوان فهو تابع لتاريخ سائر القومور ، وكان استولى البرتغاليون مدة على هاتيك الجزر ، ثم نار الاهالى بهم فاخلوها ، وجاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ونشر فيها الاسلام واستقر ابنه حسن بن محمد فى أنجوان ، فتلقاه الاهالى برأ وترحيباً ، وبنى جوامع فى جميع القرى ، وأسس هو سلطنة انجوان اذ كان زعيم بلدة موتسامودو المسمى فانى على قيد أعطاه ابنته ، فتزوجها وتلقب بالسلطان ثم خلفه ابنه محمد فتزوج بأمنية ابنة ماسيلا ، رئيس جزيرة مايوت ، فألحق بهذه الواسطة مايوت بانجوان ، ثم استضاف محلى واطاعته ملوك القومور الكبرى ، ولكن هذه الطاعة لم تطل كثيراً حتى انقلبت الى طاعة اسمية فى أيام عيسى ابن محمد ، ثم مات عيسى وعهد بالامارة الى امرأته موللانه ، فانتقض أهالى مايوت عليها ولولا حزم « موانيه فانى » زعيم موتسامودو لكانت نجحت ثورتهم ، الا أن موانيه فانى هذا استأثر بالامر وفرت الملكة موللانه الى مدينة دومونى ، وهناك زارها ربان البارجة الهولندية « ناسو » وتسكلم أحد ضباطها فان دن بروك فى رحلة كتبها عن اكرام هذه الملكة لهم ، ثم مات موانيه فانى وخلقت امرأته فاتنة فى الملك فصارت ملكة فى دمونى وملكة فى موتسامودو . وبقيت الاحوال مختلفة الى زمان « عالة » التى بنت الجامع الكبير فى موتسامودو (١٦٧٠) وبعد ذلك شن الماداغسكيرون الغارة على انجوان واكتسحوها ، وأحرقوا قراها واستباحوا حرماها ، وأسرروا رجالها ، وقتلوا اسراها فقام فى وجوههم أجدى حفيد عالة ودفع غارات الماداغسكيين ثم خلفه الشيخ سليم وملك الى سنة ١٧٩٧ ، مات وبويع ابنه أجد وهو دون البلوغ ، فقام عمه علوى وأحدث ثورة ليستأثر هو بالملك ، ففشل أول مرة والتجأ الى زنيبار ، ثم

عاد بعد سنتين وخلع أحد وتولى مكانه ، وبقى في الملك الى سنة ١٨٢٠ وبعد موته خلفه عبد الله الاول ، وقضى معظم ملكه في قتال الزعيم المداغسكري « رماناتيكا » وهذا الرجل كان ابن عم « راداما » ملك الهوفا ، فبعد موت الملك نفى مع جماعته من ماداغسكار فالتجأ الى أنجوان لما كان اشتهر به عبد الله من حسن الوفادة ونجدة الملهوف فتلقاهم عبد الله بالاحرام وأنزلهم أحسن منزل . ولكن رماناتيكا كان كنودا للنعمة كسائر الهوفا ، فلم يلبث أن أخذ يحرك الثورة على مضيفه ، وأخيراً عالته الحرب ، فدارت الدوائر على الباغي ، وفر هذا من أنجوان الى محلى واستولى عليها . فأخذ عبد الله يجهز قوة لاسترداد محلى . وكان في هذه الجزيرة أمير من السالكافا ، اسمه سولى ، أبى أن ينقاد الى رماناتيكا ، ولم يلبث عبد الله أن هاجم الضيف الخائن في مايوت . وطرده منها ، فنصب سولى السكالافى أميراً كما كان وجاء يطارد العدو فى محلى (١٨٣٦) فصادفه اعصار شديد فرق مراكبه وقذف بالسفينة التى كان فيها الى الشاطئ ، فوقع فى يد رماناتيكا ، فقتل جماعته صبراً وأمر بوضعه فى السجن ، ومنع عنه الطعام الى أن مات . فجمع الأمير سولى فل الجند الذى كان لعبد الله وجاء بهم الى أنجوان وبايعوا علوى بن عبد الله مكان أبيه بالرغم من دسائس عمه سالم الذى طمع فى الامارة . ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه ، فزحف سالم برجاله ، وحصر علوى فى موتسامودو ، فكان سولى أمير مايوت ينجد علوى برجاله ، فثبت هذا فى وجه عمه نحو أربع سنوات . ولكن سالما أثار ثورة فى نفس مايوت حالت دون ارسال النجادات الى علوى ، ثم تعاهد مع رماناتيكا الذى كان متولياً أمر محلى وهاجت جنودهما موتسامودو ، فتسلقوا جدران قلعتها ليلاً وانسل علوى خفية الى البلدة وركب قارباً أخذه الى القومور الكبرى ومنها ذهب الى موزامبيق ، ثم أخذه الانكليز الى كلكتا ، ثم جعلوا اقامته بجزيرة موريس حيث مات سنة ١٨٤٢ فانفرد سالم بالامارة . ودفعه الانكليز لمقاومة احتلال فرنسا لمايوت باعتبار أنها تابعة لسلطنة أنجوان ، فلما نزل الأمير سولى عن مايوت لفرنسا احتج على ذلك بشدة ، فلم تبال وزارة غيزو باحتجاجه واستضافت فرنسا هذه الجزيرة الى مستعمراتها .

وبعد موت سالم خلفه ابنه عبد الله الملقب فى بلده بالكبير . وكان صديقاً للانكليز وقد امضى معهم معاهدة رضى فيها بابطال الرق ، وكان يحب تنظيم ادارة بلاده على الطريقة

العصرية الاوربية واتخذ لنفسه مستشاراً طبيياً اميركيا اسمه ويلسون . وفي سنة ١٨٥٤ حاول علوى حسيني اغتياله ليملك مكانه ، فدخل عليه في القصر فجأة بشرذمة من رجاله ، ولكن جماعة عبدالله استماتوا من دونه وقبضوا على المعتدى وصلب . وسنة ١٨٨٢ عندما امضى عبد الله معاهدة ابطال الرق ، ثار عليه أخوه الأمير محمد واعصوب حوله جماعة وهاجم أخاه مرتين ، فهزمه السلطان في كل منهما ، وعفا عنه فيما بعد . ولكن تلك الحرب الأهلية مع علوسن عبد الله أوهنت قواه وفتت في عضده ، فطلب حاية فرنسا . وفي ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٧ أصدر أمراً بقبول نظام الحماية ، وأرسل الفرنسيين معتمداً مقياً عنده اسمه الميسو ترويل . فكانت منذ ذلك الوقت سياسة المقيمين في أنجوان اقامة النفوذ الفرنسي على مكان النفوذ العربي باستقاط سلطة السلطان تدريجاً . ولكن لم تكن هذه الطريقة لتتم بدون صعوبة اذ قدم المقيم للسلطان مرة صورة أمر طلب منه امضاءه ، وهو يقضى بأن تكون الادارة الداخلية في يد معتمد فرنسا ، فأبى السلطان امضاءه ، وثار العرب وهجموا على مقام المقيم ، وأهانوا العلم الفرنسي وأنزلوه فانسل المقيم الميسو اورمير الى مايوت ليأتى بسفينة حربية وفي هذه الأثناء مات السلطان عبد الله قتل مسموما وقيل مخنوقا . فبايع المالكويون (الزنج) السيد عثمان أخا عبد الله ، وبايع أهل موتسامودو السيد سالما بن عبد الله ، فهجم الزنج على البلدة واضطروا سالما والعرب الذين معه أن ينهزموا الى دوموني فسار عثمان خلفهم الى دوموني ونهبها ، وقتل كثيراً من أعيانها ، وقبض على سالم ورهطه وجاء بهم الى موتسامودو . وكان الفرنسيين في تلك الأثناء أتوا باسطولهم وأنزلوا عساكرهم الى البر ، وسلم سالم الأمر اليهم ، أما عثمان فبقى يقاومهم نحو شهرين الى أن فرغ كل ماعنده فاستسلم اليهم أيضا . فبنى عثمان ونفى سالم معا الى كليدونية الجديدة^(١) وأخذت الأسلحة من أيدي الأهالي وجرى بالسيد عمر ، وهو أمير من امراء انجوان خدم سياسة فرنسا كثيرا في القومور ، وجعل سلطانا في يوم مشهود سنة ١٨٩١ ، واتحد العلم المثلث الألوان مع علم الهلال والنجمة الانجواني ، وسنة ١٨٩٢ امضى قبول الحماية تأكيداً لما كان سبق من السلطان عبد الله ، ومات في تلك السنة وخلفه ابنه السيد محمد ، وفي مدته جعل لسلطنة (!) انجوان وسام اسمه « نجمة أنجوان » وجعلت طوابع بريدية خاصة بانجوان . اهـ .

(١) جزيرة في البحر المحيط من الجزر البولينية تنفي اليها فرنسا المجرمين السياسيين

وأما جزيرة محلى فهي مع انجوان أخصب القومور ، وأما مايوت فأرضها بركانية وقد سبق الكلام عليها .

وربما يقال لماذا أطلنا البحث عن جزر صغيرة كهذه ، سكان أكبرها ٥٠ ألفا ، وسكان الأخرى ١٥ ألفا . وما هي الفائدة من ذلك ؟ والجواب ، ان الذى حدانا الى اطلالة البحث عنها انما هو صغرهما مع الأدوار التى مرت بها والحكومات التى تأسست فيها ، والسلطين الذين لم يمنع ضيق بلادهم وقلة عدد رعاياهم من أن يكونوا مستقلين ذوى شأن وأن تكون لهم جنود وقلاع ومدافع ، مما يدل على ما تبلغه هذه الأمة العربية ، من النفاذ والمضاء ومعالي الهمم فى الصغير من البلدان فضلا عن كبيرها . هذا اذا سلمت من الشقاق والنفاق اللذين هما آفة عزها وسلطانها .

تصحيح وتوضيح

بقلم عالم حضرمى

نحن عندما نقلنا ما نقلناه عن ماداغسکر وجزائر القمر انما اعتمدنا على كتب الاوربيين . وهؤلاء كما لا يخفى يخطون كثيراً عندما يخوضون فى المباحث المتعلقة بالشرقيين ولا يأمن الانسان العثار فى النقل عنهم غير انه مما لامرية فيه ان للاوربيين مزية طرق المواضع الشرقية التى يستجلب طرقها النظر فاذا جاء الموضوع ناقصاً تداولته الناس الواحد بعد الآخر الى أن يسم . وهذا ما لاثراه عند الشرقيين الذين يهملون الاماندر ذكر ما يعاملون عن أحوال بلادهم

غير ان من الشرقيين من يشذ عن قاعدة الاهمال هذه . فانه لما انتشر كتابنا حاضر العالم الاسلامى ووصل الى بلاد الجاوى اطلع عليه العلامة المؤرخ المدقق السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب العلوى الحضرمى فى بتاوى فوجد فيما أثرناه عن الافرنج بشأن ماداغسکر وجزائر القمر ما يقتضى التصحيح أو التوضيح ونشر فى جريدة « حضرموت » الصادرة فى سورابايا سلسلة مقالات فى غاية الافادة والاجادة اشتملت على معلومات نفيسة عن تلك الجزائر ومن استعمرها من العرب وعن مآثر السادة العلوية الحضارم وراء تلك الأبحر الحضارم وخاض فى تقاسيم فروع تلك الشجرة الزكية وسلسل أنسابها على الوجه الذى يشفى الغليل والذى يدل على سعة اطلاع لا يضطلع بها الا القليل فهو كاتب نقاد مدقق مالك لموضوعه

يمتاز بدقة النقل مع سداد المنطق ورجاحة العقل قد سرنا جداً استدراكه على هذا المقام بما استدرك به ووعدنا القراء باضافة مقالاته هذه الى الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي وهانحن أولاء منجزون للوعد قال :

طالعت كتاب حاضر العالم الاسلامي وما عليه من التعاليق للامير الكبير والبحاث النقاد الشهير ، والبالغ المصقع التحرير شكيب أرسلان . فرأيت فيه فوائد عزيزة . وابحاثا نفيسة ، فنقدم لذلك الأمير وفير الشكر وعاطر الثناء . ولا ننسى فضل مترجم الكتاب عجاج الناهض ، فقد قدم لأهل الشرق آراء أهل الغرب فيهم وذلك أمرتهم معرفته ، وقد رأيت في مواضع من تعاليق الأمير حفظه الله أموراً جديرة بالناية والتنبيه فأحييت نشرها في جريدة حزموت الغراء فأرجو أن تسارع الى نشرها فلعل أن يطلع على ما أكتبه الأمير شكيب فيجد فيه فائدة يحسن السكوت عليها .

من هم الفاتحون لجزيرة مدغسكار وجزائر القمر

جاءت أسماء هذه الجزائر عند الأمير شكيب هكذا (انجزيجه ، انجوان ، او انزوان . مهلي) وهي في شجرات الانساب عندنا وعلى ألسنة العرب بافريقية الشرقية هكذا (جزائر القمر وهنزوان ، وانقيزجه ومولاى) وقد نقل الأمير عافاه الله في تاريخ هذه الجزائر كلاماً طويلاً عن مؤرخي الافرنج من صفحة ٣٦٦ الى صفحة ٣٩٩ من الجزء الأول بالحرف الصغير وتكرر فيما نقله عنهم ذكر الأشراف وأسماء بعض سلاطينها ، وأصل تلك العائلة التي فتحها ونشرت الاسلام فيها ، فرة يقولون انه محمد بن عيسى من شيراز ، ومرة يقولون انه أحد أولاد محمد بن عيسى وانه بعد استيلائه على جزيرة القمر الكبرى أرسل ولده حسن بن محمد فاحتل بشرذمة من الشيرازيين مواضع أخرى ، وجاء في كلامهم ذكر السلطان السيد على ابن السلطان السيد عمر ، وأبوه السيد عمر ، كان سلطاناً على زنجبار والسلطان محمد بن حسن والشيخ سالم واجد بن سالم وعمه علوى وعبد الله الأول ، وعلوى بن عبد الله وعبد الله بن سالم الملقب بالكبير ، وعلوى حسيني الى غير ذلك مع خبط وظنون لا يتحصل المطالع منها على حقيقة ، مما يدل على أن أولئك المؤرخين قد أخذوا ما كتبوه عن مجهول انساب أولئك السلاطين وأصولهم كل الجهل .

وقد يدهش المطلع منا اذا رأى ذلك وهو يعلم أن أولئك السلاطين الفاتحين انما كانوا

من السادة العلويين الحسينيين الحضرميين المعروفة انسابهم وأسابؤهم وأخبارهم وأنباؤهم والمتضمنة شجرات أنساب السادة العلويين لأسمائهم فرداً فرداً . ويعجب كيف يستحيل التاريخ وتنطمس الحقائق اذا أهملها أهلها وأغفلها وعانها ودراتها وشوها نقلتها ورواتها . أما الأمير شكيب فهو مشكور ومعذور والأفباى وسيلة يتأنى له الحصول على الحقيقة من أخبار تلك الأطراف النائية والأقطار الشاسعة وليس لها تواريخ منشورة ، ولا آثار مأثورة ، ومن أين يمكنه الاطلاع على تواريخ السادة العلويين الحضرميين وتنقلاتهم وهم من أقصى حجر باليمن بالبلاد الحضرمية التي يرحل منها ولا يرحل اليها ، والتي عرف أهلها باضاعة أخبار اوليهم ومناقب أهليهم وتعفية آثارهم ونسيان ديارهم ، وكيف لا نعذره على عدم اطلاعه على أخبار أهل هذا القطر البعيد وقد شكى انقطاع أخبار أهله أبو الفرج الاصبهاني على شدة تنقيبه عن أخبار العلويين وميله اليهم . فانه قال في كتابه مقاتل الطالبين « على أنا لا تنفى أن يكون الشئ من أخبار المتأخرين منهم فانتنا ولم يقع علينا لتفرقهم في أقصى المشرق والمغرب ، وحلوهم في نأى الأطراف وشاسع المحال ، التي يتعذر استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها سيما مع قصور زماننا وأهله وخلوه وإياهم من مدون خبر أو ناقل لأثر ، كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون » وقال في آخر كتابه أيضاً « على أن بنواحي اليمن في هذا الوقت وبنواحي طبرستان جاعة من آل أبي طالب (ع) قد ملكوها وغلبوا عليها الا أن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها إلينا بل لعدمهم وفقدانهم وما تنفى من أن يكون لهم أخبار قد فانتنا ولم نقدر على علمها » اه فهذا قول أبي الفرج في زمانه فكيف بزماننا وكيف لا يعذر الأمير شكيب أرسلان وعذره أوضح وأوضح .

ذكر البطون العلوية المستوطنة بإفريقية

الشرقية والجزائر القمرية

أقدم قبل بسط القول في ذلك تعديد البطون العلوية الحسينية الحضرمية الساكنة بتلك الديار ومنها كان سلاطين القمر مع الإشارة الى مراجع أنسابها فأقول : يوجد بتلك الجهات منهم ثلاثة عشر بطناً وان شئت قلت نخداً .

الفخذ الأول يرجع نسبه الى أبي بكر بن احمد بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوى الحسينى بأفريقية الشرقية .

الفخذ الثانى يرجع نسبه الى محمد بن سالم المهاجر بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بيته من جزائر القمر .

الفخذ الثالث يرجع نسبه الى صالح بن احمد بن الحسين الخ ما تقدم بهنزوان و بته .
الفخذ الرابع يرجع نسبه الى محمد المجنوب ابن الشيخ على بن أبي بكر السكران العلوى الحسينى بيته وسيوى وزنجبار ، وسلاطين سيع من أرض الملايو أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن عمر بن حسن ابن الشيخ على المذكور .

الفخذ الخامس يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن ابراهيم ابن الامام عبد الرحمن السقاف العلوى الحسينى بالقمر بهنزوان .

الفخذ السادس يرجع نسبه الى شيخان بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوى الحسينى بأفريقية الشرقية

الفخذ السابع يرجع نسبه الى محمد بن علوى بن عبد الله بن على بن عبد الله باعلوى الحسينى وهم الفخذ المعروفون بأل المسيلة بأفريقية الشرقية بيته ومولاي (مهلى) .
الفخذ الثامن يرجع نسبه الى عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله ابن الشيخ محمد الشهير بجمل الليل باحسن العلوى الحسينى المتوفى سنة ٨٤٥ . بأفريقية الشرقية وبالغمر وفى (آشى) أبناء عمهم يرجع نسبهم الى حسن بن احمد بن عبد الله بن الشيخ محمد المذكور

الفخذ التاسع يرجع نسبه الى أحمد بن عبد الله باحسن بن محمد بن سالم بن احمد ابن عبد الرحمن بن على بن محمد جل الليل بأفريقية الشرقية وبملاكة (ملقا) من أرض الملايو ، أبناء عمهم المعروفون بأل القدرى ذرية محمد القدرى ابن سالم بن عبد الله باحسن المذكور .

الفخذ العاشر يرجع نسبه الى محمد جد آل باحسن الحديلى بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الرحمن بن علوى عم الفقيه بالقمر .

الفخذ الحادى عشر يرجع نسبه الى حسين بن عبد الله الأعين النساخ بأفقيه بن محمد عبيد بن على صاحب الحوطة بن محمد بن عبد الله بن احمد المذكور بالقمر ، بمولاي

(مهلى) . — الفخذ الثاني عشر يرجع نسبه الى عبد الله بن علي بن محمد عبيد بن علي صاحب الخوطة الخ ما تقدم في نسب الفخذ الذي قبله بافريقية الشرقية .

الفخذ الثالث عشر يرجع نسبه الى محمد سميط بن علي الشنيزي بن عبد الرحمن بن احمد بن علوي عم الفقيه بن نجبار .

فهذه ثلاثة عشر بطناً يرجع نسب أربعة بطون منها الى عم الفقيه وبقيتها الى الفقيه محمد بن علي . وهما أعني الفقيه وعمه مرجعا جميع أنفاد السادة العلويين وقد بلغ عددها مائة وتسعة وتسعين نفداً فساكن البادية منهم الذين يعانون حمل السلاح يبلغون ثمانية عشر نفداً أو يزيدون ، والباقيون متحضرون ، ويجمع نسب الكل على سيدنا محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن المهاجر الى الله احمد^(١) ابن عيسى بن محمد النقيب بن علي العريض بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي الوصي المرتضى أحور رسول الله وابن عمه صلوات الله عليهم أجمعين .

عتاب موجع

لاباس أن يقف قلبي برهة قبل انجاز الكلام على سلاطين جزائر القمر لعتاب اخواننا العلويين اذ يقول القائل لماذا لم تنشر مناقب أولئك الأبطال الذين فتحوا تلك الجزائر البعيدة ونشروا فيها الاسلام وشادوا فيها المساجد وبنوا المعامل وبسطوا لأهلها بسط العدل ؟

فنقول له ولماذا لم تنشر آثار بقية أنفادهم التي انتشرت في الشرق فان نفائذ السادة العلويين كما سبق قد بلغت في وقت ما مائة وتسعة وتسعين نفداً وقد أحصى عددهم منذ نحو خمسمائة سنة فكان عشرة آلاف نفس ، وقد أضع اخلافهم آثار اسلافهم . فان أنكرت قولي هذا أيها القاري واستكبرته وعددته شينا وعيبا . فارني أي شيء نشر من أخبار وآثار من نزل منهم الديار الهندية في سالف الدهر كالذين نزلوا

(١) أول من هاجر من البصرة الى حضرموت

أحمد آباد ، وسورت ، وبروج ، حيدرآباد الدكن ، وبيجافور ، وكنور وقزرات ودلى وبرودة ومان كيسر وكاليكوت وبلقام وبنقرا باد ومليبار وبنقاله ، ألم تعلم ان أول داخل منهم الى البلاد الهندية دخلها سنة ٩١٧ . فلما ذل لم تنشر أخبارهم مع ملوك الهند العظام ووزرائها الكبار ، وما كان لهم من الجاه والمنزلة عندهم وما لهم من الآثار والنفع العام ، ومن أصهر اليهم من السلاطين كالسلطان شاه جهان والسلطان ابراهيم عادل شاه وابنه السلطان محمود بن السلطان ابراهيم عادل شاه والسلطان حبش خان والسلطان فتح خان ، والسلطان برهان نظام شاه ، وكيف جلوا السلطان ابراهيم عادل شاه على أن يلبس لباس العرب . ومن اتصلوا به من الوزراء كالوزير عنبر قبل أن يصير ملكا وبعد تملكه ، ووزير أحمد آباد الأعظم عماد الملك وغيرهما .

ولما ذل لم تنشر أخبار أول من دخل آشى منهم في خلال القرن التاسع اعنى منذ أربعة قرون تقريبا فاكرمه سلطنة آشى في ذلك الحين وزوجه بعض وزرائها ابنته فاقام هناك واعقب بها . وهو السيد أحمد بن محمد بن أبى بكر الشلى ، بل لعلمهم دخلوها قبل ذلك ، وكالسيد أبى بكر بن حسين المتوفى بها سنة الالف وكالسيد محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن علوى الشاطرى الذى أزال ما انتشر بآشى على عهده من القول بالتشبيه دخلها في أوائل القرن الحادى عشر ، وفي ذلك التاريخ دخل جاوى السيد على بن عمر بن على باعمر فنشر بها الدعوة الدينية والعلم الاسلامى ، ولو نشر مثل هذا لما كنا نرى تحبط المتخبطين من مؤرخى الأفرنج في أول من دخل البلاد الجاوية واسلم أهلها على يديه .

فهل تحسب ان السيد ابراهيم المقبور بقرسى والذى أسلم على يديه أهل جاوى كان من غير العلويين ؟ كلا .

لو نشرت لنا الاصول الأولى من شجرات انساب العلويين لا ستد لنا منها على شئ كثير ، ولكن مما يؤسف له انهم اكتفوا في الشجرات المتداولة بالنقول عن تلك الاصول ولم يعبأوا بذكر من لم تتصل بهم أخباره من النائين في الأقطار البعيدة ، فإن اصل شجرة النسب التى الفها أبو الحسن على بن أبى بكر بن الشيخ السقاف المسماة بالجواهر السنية في نسبة العترة الحسينية والتى جمعها ونقحها من بعده السيد على بن أحمد بن على بن حسن

أبو جبهات والتي جمعها وحررها وهذبها تاج العارفين زين العابدين العيدروس ، نعم ان الشجرة التي حررها من قبلهما سيدنا شيخ بن عبد الله العيدروس كان يظن انها مفقودة . ولندن قد ظفر الشهم الغيور السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف منها بنسخة ثمينة وجدها في خزائن السادة العيدروسيين العلويين بالهند ، وفيها ذكر لكثير ممن انتقل عن الجهة الحضرمية من السادة وتدير غيرها من البلدان .

ألم تعلم أن بطناً عظيماً منهم قد انتشر في البلاد الهندية منذ سبعة قرون فلم تحتو الشجرات المتعددة على تفصيل أنفادهم وتسلسل ذريتهم لقدم رحلتهم عن البلاد الحضرمية . وانقطاع أخبارهم وهم بنو عبد الملك بن علوي بن عم الفقيه المتوفى سنة ٦١٣ وغاية ما حفظته لنا الشجرات عن ذرية عبد الملك هذا قولها ان لها عقباً منتشراً بالهند يعرفون بأل عظمت خان معروفين بالشجاعة ، ميالين الى التجند والعسكرية فلم لا يكون السيد ابراهيم منهم

ان أسلافنا قد تفننوا في ضبط أنسابهم حتى جعلوا للألقاب شجرة خاصة ، وللأمهات شجرة خاصة ، وهكذا ولكنهم ما كانوا يميلون الى التنويه بما لهم من الأعمال في البلاد التي يرحلون اليها وينشرون الدعوة الاسلامية بها ، ميلا منهم الى التواضع وكسر النفس وعدم الرضا عنها ولكننا قد احتجنا اليوم الى ذكرها ونشرها لما يعلم المنصف الخير ، ولو ترك القطا ليلا لنام .

فن المطالب والمخاطب بنشر ما بقي بأيدينا من المناقب والأعمال العظيمة ونسخ ما غفلت عنه أيدي الضياع من تواريخهم وطبقاتهم وتحريره وطبعه ونشره ؟
المطالب بذلك أغنياؤنا ولكن أين هم ؟! ان الإهمال والاضاعة قد بلغ عندنا مبلغا يفوق حد التصديق فان للسيد أحمد بن عبد الله الشهير بشنبل تاريخاً مفيداً في باب ألفه في حدود التسعمائة فهل تحس منه من خبر أو تسمع له ركزاً .

وللسيد عمر بن محمد باشيبان تاريخ لعل أكثر خزائن اخواننا خلية منه ولكنه موجود بخزانة لندن قد نقلته أيدي الإهمال والضياع الى تلك البقاع .

وللوجيه الشيخ عبد الرحمن بن علي بن حسان ثلاثة تواريخ أكبر وأوسط وأصغر فاسأل عنها ان أردت أن تتحقق أين بلغت السنة والنوم من اخواننا .

وأين تاريخ باعيسى وتاريخ باز رعه وتاريخ أبي شكيل المسعودي . وتاريخ الطيب بافقيه وتاريخ الطيب باخرمه الى آخر ما يطول عده منها الخاص بالعلويين الحضرميين ، ومنها العام وفيه من ذكرهم الكثير الطيب فهل اعتنى بها أحد منا أو استنسخها أو خصها كلا .

انما يفتخر أغنياؤنا اليوم باوتومبيل يقتنيها أحدهم ويبدل الألوف فيها . قد أفنى فيها عمره وجعلها خيره ، أو يبيت يشيده أو ملهى يشهده ، أو امرأة يتزوجها وهم يفتخرون بالمنع والبخل كما يفتخر الكرام بالعطاء والبدل .

فان قل قائل ان هذه التواريخ النافعة كانت موجودة ولكن جاءت الكارثة العظمى وهو دخول الوهابيين الى تريم سنة ١٢٢٢ فقد جاءوا الى خزائنها المشحونة بنفائس كتب التفسير والسنة والفقه والتاريخ فطمعوا بها الآبار جفاءً وغلظة وبدادة وغباوة . ولقد أتلفوا من بيت واحد اثنتى عشرة خزانة ومن آخر ست خزائن الى غير ذلك مما يطول عده كما فعلوا ذلك باليمن حينما دخلوها ، قلنا هذا صحيح ولكن هل تداركنا ما فتننا واستنسخنا ما فقد منها من أيدينا وهو لا يزال في أقطار أخرى كخزائن العيدروسين بسورة وبيجافور وغيرها وكل موجود باليمن وعدن ؟ كلا .

لقد أراد بعض اخواننا استنساخ تاريخ القاضي أبي شكيل المسعودي فوجده بصنعاء فاستنسخه من هناك فما رأيك في تاريخ حضرمي لا يوجد بحضرموت .

دع هذا وارجع بي الى العلويين الموجودين اليوم في الاقطار المتباعدة ألا يحسن أن يكون بينهم نوع ارتباط وتعاون ومساعدة ، فهل فكر وسعى في ذلك أحد من علمائنا أو وجهائنا وأغنيائنا ، وما هي المعلومات التي بأيدينا عن اخواننا المتفرقين في قطر اليمن وهو أقرب الأقطار اليها كالموجودين منهم بحوطة الفقيه على ، ويبعث ، وحبان ، ويشم وأحور ، وعياذ وانصاب ومرخة ، وحورة ، وردمان ، والسوادية وبلاد الرصاص ، والبيضاء ويافع وبيحان ورداع وابين والجرا وتعز والمكلا^(١) والحديدة وبيت الفقيه وبلاد الدريهمي وزبيد والحجرية ونخلة وأبي عريش وحيس والليث والقنفذة ورباط اليمن ورباط الصفا وخنفرا بين ودثينة وغير ذلك مما لا يتسع له هذا المحل .

(١) من أرض اليمن وهي غير المكلا المشهورة

سبحان الله ! لماذا نذهب الى اليمن وهنا أمر أقرب من ذلك ، هؤلاء اخواننا أهل البادية جمال السلاح والمعروفون بالشجاعة والجاسة والذين لن نستغنى عنهم يوماً . فهل أرسلنا اليهم علماً أو مذكراً أو واعظاً وهل عقدنا بينهم عقداً أو جددنا عهداً أو أسسنا ودّاً ، وهل واسيناهم ولو مرة واحدة بشيء من الاموال التي تذهب جزافاً فيما يرضى النساء والسفهاء . ويغضب جبار السماء وماذا نعرف من حال اخذهم ورجلهم واعدادهم ؟

منهم بيت سهل وبيت حمودة وبيت مشايخ وبيت فرموص وبيت الكهالي وبيت عقيل وبيت الخشش وبيت محسن وبيت الاخسف وبيت كدحوم وآل البحري وبيت مسامة وآل الحكم ، وبيت رزينة وبيت هبارين وبيت الدج وبيت الهادي .

وماذا نعرف من اخواننا بحول ، وعياذ ، وخورة ، ومرخة ، وهم الشجعان الذين فاقوا أسود خفا وعثر وزادوا على من يليهم شجاعة وفتوة وانوف حية .

ذكر الامير شكيب عافاه الله في صفحة ٣٤٢ من الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامي فصلاً طويلاً عن مسمى الحبشة والجهاد الذي قم به الامام المجاهد الغازي أحمد بن ابراهيم مما تقرُّ به العيون ، جاء فيه انه منقول عن تاريخ عرب فقيه^(٢) وتورد فيه ذكر الاشراف والمهرة من الغزاة وهم من العلويين لا محالة ، فأين الذي بيدنا من أخبارهم وماذا نعرف عن اخواننا القاطنين بالحبشة وسواحلها كزبلع وغيرها ومن بهرر وكيلاذ وقلب وبوش .

ذكر عافاه الله في صفحة ٣٤٣ ج ١ دخول الأشراف في الصلح بين السلطان أبي بكر ابن محمد من آل سعد الدين الغزاة المجاهدين وبين الغازي المجاهد الامام أحمد بن ابراهيم جران ، وذكر في صفحة ٣٥٣ منه ان الامام أحمد الغازي جمع الأشراف والعرب والمغاربة ، وذكر في صفحة ٣٥٤ جلوسه لمرض الشريف أحمد القديمي وفي صفحة ٣٦١ منه انه عزل الشريف نور عن دخنو الخ كما انه ذكر الشريف أبا بكر العيدير وس في صفحة ٣٤٣ منه . فهذا كله يدل على مشاركة السادة العلويين وبنو عمهم من بني قديم في ذلك الجهاد . وعلى انتشارهم في تلك النواحي في ذلك العهد وقد أضيعت أعمالهم وأهل ذكرها كما أضع

(٢) لعلاء بافقيه السيد الطيب أو غيره

غيرها وان كان يوجد في شجرات أنسابهم ذكر عدد ليس بالقليل ممن كانوا بها أو استشهدوا هناك ، وهالك من ذلك ما تيسر ، ذكروا منهم السيد أبا بكر بن علوى خرد توفى بالحبشة سنة ٨٩٥ والسيد على بن عبد الرحمن المنفر وكان سيدا جليلا سريا ناسكا صالحا توفى بدوار من أرض الحبشة سنة ٩١٥ وقبر بجانب المجاهد محمد مرزوق وقبره بها مشهور ، والسيد عمر بن أحمد بن علوى من آل عبد الله بن علوى قتل شهيدا ببر سر سعد الدين ، وأحمد بابريك العلوى توفى بزيلع في الطاعون ، وابنه أحمد وعمه عبد الرحمن بن على ، وممن كان بهرر في ذلك العصر نور بن عقيل بن علوى بن على من آل عبد الله باعلوى وقالوا في جده على انه كان وليا صالحا فاضلا له الجاه الواسع ، والصيت الشاسع . وانه توفى بهرر سنة ١٠٢٣ والسيد أبا بكر بن عقيل من آل الشلى قتل شهيدا بأوسه وأخاه اسماعيل أيضا وأخاهما عبد الله ببر سعد الدين ، وعمهما توفى به أيضا ، وذكروا أيضا السيدين عبد الرحمن وعمر ابني حسن بروم العلوى توفيا بالطاعون الكبير في الحبشة الذى مات فيه عشرة آلاف ومن السادة عشرون رجلا ، وكان ذلك سنة ٩١٧ وهو غير الطاعون الصغير الكائن في حدود سنة ٩٤٠ .

وهذا ذكره الأمير شكيب في صفحة ٣٦١ من الجزء الأول ، وقد ترجم للسيد عبد الرحمن المذكور في السنا الباهر تاريخ أهل القرن العاشر ، والسيد محمد بن عمر الشاطرى العلوى توفى بزيلع سنة ٩٧٤ وممن كان من آل الشاطرى بها على عهده أبو بكر بن محمد الشاطرى وأخوه على العلويان والسيد المجاهد محمد بن أحمد بن أبى بكر بن عبد الله السقاف العلوى ووالده أحمد توفى بالحبشة سنة ٩١٦ واعقب بها وحفيده المجاهد أبو بكر بن علوى ابن أحمد المذكور توفى بعده سنة ٩٥٥ وأخواه عمر وعثمان بالحبشة ، ومن هذه العائلة أيضا ممن كان بالحبشة في ذلك الوقت السيد عبد الوهاب بن عبد الله السقاف وبنوه عبد الله ومحمد ونور واعقب منهم محمد بها ، والسيد عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين توفى بقلب بالحبشة سنة ٩٤٠ وله عقب هناك ، والسيد محمد بن عبد الله بن حسن بن عبد الله السقاف العلوى وبنوه عبد الرحمن وعامر وحسن وعبد الله وقد توفى أخوهم الخامس على بن محمد بتريم سنة ٩٧٦ ، ومنهم عم السيد محمد المذكور السيد محمد بن حسن وبنوه عمر وعبد الرحمن وعبد الله وأخوه السيد عقيل بن حسن توفى بقلب بالحبشة وعقبه بها وكان من الأسخياء والسيد

عبدالرحمن الفاري وأخوه أحمد أبناء إبراهيم بن عبدالله السقاف العلوي والأول منهما توفي ببالى بالحبشة سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن عبد الله المثنى بن عبد الله بن السقاف العلوي السادة محمد وشيخ وخلف بنوعلى بن شيخ بن عبدالله المثنى وجدهم شيخ المذكور ومن عائلة آل عبدالله بن محمد بن مولى الدويلة العلوي السيد سالم بن علي بن عبد الله توفي بهرر سنة ٩٧٩ ، وعائلة آل حسن الورع بن محمد مولى الدويلة العلوي عبدالله بن محمد بن عبدالله وجدته السيد عبدالله بن عمر الهندوان توفي بمرسعد الدين بقلب سنة ٩١٦ ، ومن عائلة آل باعبود مولى الدويلة العلوي أبو بكر ومحمد وشيخ وأبوهم عبد الرحمن توفي شهيدا بالطاعون بها سنة ٩١٧ والسيد علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن باعبود العلوي توفي بمرسعد الدين سنة ٩٤٢ ، ومن عائلة آل شيخ بن اسمعيل بن إبراهيم بن السقاف العلوي عدة منهم أبو بكر بن إبراهيم بن أبي بكر البيتي كانت وفاة جده أبي بكر سنة ٩٠٥ ، ومن عائلة آل حسين بن السقاف السادة حسين وعلوي ابني أحمد بن حسين بن السقاف وعمر بن حسين بن محمد توفي سنة ٩١٥ وحسن بن عمر قتل بها سنة ٩١٥ وعبد الله بن سليمان و بنوه حسن وسليمان وعلي ونور وحفدته وهم عدة ، ومن عائلة آل محمد بن السقاف العلوي عبدالرحمن ابن علي وأبوه علي بن عبدالرحمن وبالجملة فغير هؤلاء كثيرون يضيق بهم نطاق التعديد.

فهل حفظ أحد منا تاريخ هؤلاء الأبطال ؟ دع ذا وقل لي هل حفظناهم في أعقابهم فعرفناهم بنا وبأنفسهم وحفظنا أنسابهم كلا وحاشا ، انما يقوم بذلك أهل الغيرة والحمية وقد فقد أهلها اليوم ، ولورحل أحد من هؤلاء المتفرقين في الأفطار البعيدة وساعدته الفرص فوصل الى (تريم) هل تظن أنه يقدر على اثبات نسبه ؟ لا . لأن الحفظة على الشجرات لا يقبلون كلامه حتى يأتي بجملة من أهل بلده يشهدون له ويأثني بقرائن تثبت مدعاه ، ومتى يتيسر ذلك له فلا هو يقدر على ما يطالبونه به ولا هم يحيدون عن القواعد التي هم ملتزموها ، وانى يتيسر ذلك لأهل القمر وهنزوان تلك الجزائر النازحة فلا غرو أن تدرس أنسابهم وتضع أعقابهم .

وماظنك بهذه الجنود المجندة المتفرقين في جزائر الشرق في سيليس وبرنيو وسومترا وجاوى وملقا (ملاكه) وآشئ وقد دخل بعضهم منذ أربعة قرون ، ومنهم من لم يكتب اسمه ولا اسم أبيه ولا جده في الشجرات الى اليوم .

وانى لأعرف قبيلة مشهورة فيها بيت ذو ثروة عظيمة وهم لا يزالون متصلين ببلادهم الحضرية لم تكتب أسماؤهم ولا اسم أبيهم في الشجرات الى اليوم . ولو علموا ذلك لانزعجوا ولكنهم لا يعلمون بل يوجد كثير ممن بالبادان الحضرية التي تبعد عن تريم بثلاثة أيام أو أربعة لم يكتبوا واذا دام الحال لا يبعد أن يتعذر تقييد أنسابهم فيما بعد فلا بد من المبادرة مادام العهد قريباً والشواهد بينة .

والعبرة ظاهرة فيما وقع منذ ٣٥ سنة أو نحوها في مسئلة آل ابن ناصر وابن شيخان والضوضاء التي قامت حول ميراث بعض المنقرضين منهم بمكة .

ولا حيلة لضبط ذلك الا انتداب جماعة من أذكىء السادة للرحلة والطواف في سائر البلاد الجاوية والهندية وافريقية واليمن وغيرها لهذا الأمر المهم ولتلافيه قبل فوات وقته . وبهذه المناسبة أقول ان من أعظم الناس منة على السادة العلويين الحضريين سلطان المغرب الأقصى الادريسي اذ أرسل في أواخر القرن الحادى عشر مائة ألف ريال لتقسم بينهم بالسوية والحق بها الشريف سرور أمير مكة ستين ألفاً فتدب السيد الغيور الهمام الرحالة على بن شيخ بن شهاب الدين خباب الأقطار واحتمل الاخطار ليقيد أسماؤهم ويحفظ أنسابهم ففعل جزاء الله خير الجزاء فكانت هذه الصلة المادية سبباً لتلك الفائدة الأدبية الكبرى .

فهل تظن أن الأغنياء من اخواننا العلويين التي تعد ثروتهم بالملايين ومئات الألوف يتدبون فيفعلوا كما فعل سلطان المغرب ؟ لك أن تظن بهم أيها القارئ ما شئت أما أنا فلا أظن وهم أضعف أخلاقاً وأقل توفيقاً من أن يحظوا بهذه المكرمة الجليلة .

العود الى الكلام على سلاطين القمر وهنزوان

نقدم اشارة لطيفة الى الحالة العامة في ذلك القرن الذى كان فيه رحيل تلك العائلة العلوية الحضرية الى تلك الأقطار والقرن الذى قبله .

الحضري حلف أسفار وركاب اخطار وأبعد الناس منتوى وأقصاهم رحلة وقد كان ذلك شأن الحضارة من قبل التاريخ حتى لقد ظن كثير من المؤرخين كالمؤرخ (جس هنرى بريستيد) ان سكان مصر القدماء ومؤسسى الحضارة فيها و بعض أهل افريقية الشمالية انما جاءوا من تلك البلاد وما جاورها ، ومن نظر في الفتوحات الاسلامية رأى انهم كانوا

في مقدمة النازحين الى الفتوحات البعيدة عن بلادهم فكان سدس الجيش الذي فتح الاسكندرية من المهرة وفيه كثير من التجييين والصدفيين كما انه قد دخل الأندلس كثير منهم بلمة من تدير العراق والشام ، فهم أشهر من أن يشار اليهم ، فما نزل السادة العلويون بنو أحمد بن عيسى المهاجر بين ضهرانيهم أخذوا إخذهم بل اناروا لهم السبل في غرباتهم ووطأوا لهم المسالك الوعرة وسبقوهم في ذلك سبقاً بينا وقد ساعدتهم على ذلك أمور منها ما يحصل لهم في كل بلاد وضوؤها من الجاه والاجلال لمكان أهلهم وسلفهم الطاهر ومنها كثرة العمام منهم بالعلوم الاسلامية خيماً وقعوا نفعوا ، ومنها تفوقهم في سبيل الدعوة الى الله والى دينه ومنها لطف اخلاقهم وغلبة آداب التصوف عليهم فهم الذين أخلاقاً واسمى تربية ، واذا نظرت الى قديمهم رأيت ان قريشاً عامة كانوا ذوى رحلة وأسفار وقد قص الله ذلك علينا وامتن به في القرآن العزيز ، وكان هاشم بن عبد مناف هو الذي أخذ الايلاف أى العهد والأمان لقريش وكان رجلاً كثير الأسفار ، قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما والله لقد عامت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لها العبرات لهاشم والله ما شددت قريش رحالا ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً خضر الا بهاشم ، والله ان أول من سقى بمكة ماء عنبا وجعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطلب ، فاجتمع لهؤلاء السادة ما ورثوه من آبائهم وما أخذوه من جيرانهم وقد مضى لهم اليوم منذ سكنوا البلاد الحضرمية ما يزيد على أحد عشر قرناً ولا نعلم أحداً من القبائل الموجودة اليوم بحضرموت أقدم سكنى بها منهم الا نحو أربع أو خمس قبائل ، وانك لتجد من بعض ذوى الطيش والنزق من الحضارمة من يظن أنه أقدم اسنيطانا بها منهم ويبنى على ذلك ما لا يحب ذكره ، ولو حقق تاريخه لرأى انه هو الطارئ الدخيل ولا يحب أن نمثل لذلك في جريدة سيارة ولكن التاريخ لا ينسى .

وقد كان أكثر الحضارمة في أول ما قدم سيدنا المهاجر الى الله أحمد بن عيسى منعزلين عن العالم الاسلامي لمكان مذهبهم الشاذ الا قليلاً منهم ، والحضرمي لا بد له من رحلة وسفر فكان أهل الجماعة منهم يرحلون الى اليمن والعراق والشام ومصر ومنهم آل التنعى الذين اوعبوا كلهم الى البصرة وكان الآخرون يرحلون الى جهات افريقية الشمالية والى برقة وقابس وبودان منهم جمع غفير وكانت لهم قرية تسمى بوصى ، فلما اتحد المذهب الحضرمي وذهب الخلاف عادوا يرحلون الى العالم الاسلامي الى الهند وافريقية الشرقية

والجزائر الملايوية والجاوية وكان السادة الحضارة في مقدمتهم .

وقد كان في أوائل القرن العاشر زمن حرب وسلب وأمور كثيرة تقتضى نزوح الحضرمي عن بلاده متلبساً لباس المكافئة والمناضلة . وكانت الروح الجربية شائعة فيهم اذ ذاك وكانت البلاد الحضرمية منقسمة قسمين يتنازع السلطان فيها قبيلان مشهوران وكانت المهاجات بينهما مستمرة وكان أحد القبيلين يتلقى المدد من الأمير التركي بتهامة ، والثاني منهما يتلقاه من امام اليمن ، وانقسمت قبائل حضرموت الى فرقتين فرقة تشايح هذا وفرقة تشايح ذاك ودامت الحال كذلك نحو مائة وعشرين سنة وانتهت بخروج جيش امام اليمن سنة ١٠٦٩ فاصلح بين ذينك القبيلين وحداً لهما حدوداً وأبقى كلا منهما على ملكه . وكان البرتغال قد أخذوا يهاجون السواحل الحضرمية في أوائل القرن العاشر وكانت أساطيلهم تمخر البحر من سواحل الهند الى سواحل افريقية الى ساحل حضرموت . وهذا البحر هو مضطرب الحضرمي فكانت سفن الحضارة والمهرة كثيراً ما تصادفها سفن البرتغال ويقوم بينهم القتال الشديد فتمرن الحضارة على قتال البحر واذا اندرأهل الشحر (ساحل حضرموت) بأساطيل البرتغال أرسلوا الصريح الى داخلية البلاد فكان أهل الفقه والعلم يتسابقون للقيام بفريضة الجهاد وتتبعهم العامة فتجتمع منهم الجوع هناك ترابط حتى تنصرف أساطيل العدو .

وفي شجرات أنساب العلويين ذكر عدد منهم ممن أسرههم الافرنج أو قتلوهم في البحر فآزوا مرتبه الشهادة العلية .

وقد زاد في حجة الحضارة القتال القائم بين سعد الدين والحبشة وفيه كثير منهم ، وكانت أخباره ترد تباعاً الى حضرموت حتى كان السيد محمد بن الطيب بافقيه العلوي الشحري يأتي بها مشروحة يوماً فيوماً في تاريخه .

وقد زاد في ضيق خناقهم القحط الواقع في سنة ٩٤٥ حتى أكلوا الجلود . والسيول العظيمة التي وقعت سنة ٩٣٩ فانها اتلفت نخيلهم وأرضهم حتى لم يبق منها الا القليل واضرت بالجهات الجنوبية الغربية من حضرموت ضرراً بليغاً .

فزادت هذه الحوادث الحضرمي اذ ذاك محبة في الرحلة والضرب في البلاد وبغضا في البرتغال الذين يقطعون عليه طريقه فعزم على مناوأتهم ومطاردتهم فكان لا يسمع بمناوءة لهم

الا وانضم اليه ولا يحل ببلاد الا وشحنها بغضا لهم ، وقد كان للعمانيين في ذاك القدح المعلى ولكن كان عملهم في افريقية الشرقية متأخرا عن عمل الحضارمة بنحو ثمانين سنة فلما ابتدأوا في العمل كان من جمة جنودهم كثير من أهل حضرموت .

وكان عدد العرب بافريقية لذلك العهد كثيراً وكانوا تجاراً قلما يتعرضون للامور السياسية حتى أهاجهم البرتغاليون بعسفهم وظلمهم ، وكان العرب على اتصال ببلادهم وأخبارها ترد اليهم في سفنهم الأنباء بأفعال البرتغال في بحر العرب فكان ذلك مما يزيد في نقيمتهم عليهم وتسبب عن ذلك قيام أهالي زنجبار عليهم سنة ١١١٠ فطردوهم منها وهاجت عليهم افريقية الشرقية وجزائر القمر واتصت بينهم حروب زعزعوا بها مركزهم فلم يستقروا الا بسفالة وما والاها . وكان العرب هناك في مقدمة التأثيرين بل كانوا كثيراً ما يتولون قيادتهم .

أما العمانيون فقد تولوا زنجبار سنة ١١٩٩

مما فاتني التنبيه عليه امتياز العائلة المعروفة بآل ابن حسن من السادة العلويين ببعد الهمة ونفاذ العزيمة ، والاستشراف الى تنفيذ الشرع الاسلامي وجع الناس عليه ، والتوسل اليه بايجاد القوة المنفذة وأعني بهم المنتسبين الى سيدنا حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر فان بنى محمد المجذوب بن حسن هم أكثر الانفاذ الموجودة بجزائر القمر بيته وسيوى وبزنجبار أيضاً ، وقد ذكرناهم وبنى أعمامهم بنى عمر بن حسن هم الذين قد دخلت سومطره سيطرتهم وهم سلاطين سيك وهم المعروفون الآن بآل شهاب الدين (سيع) الى اليوم وان منهم دويلة صغيرة في (فرليس) في حاية سيام ، وان ملوك فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى العلويين يعود نسبهم الى سيدنا محمد جل الدين بن حسن المعلم بن أسد الله وقد ذكرنا اخوانهم بافريقية ، ومنهم نخذ باشى وآخر بمقدشوه ، ومن سلاطين فنتيانق (فنتيانه) من آل القدرى السيد عبد الرحمن (المتوفى سنة ١٢٣١) بن حسين بن احمد بن حسين بن محمد القدرى المتوفى بتريم سنة ١١٧٩ وقد تقدم بقية نسبهم ، وأما ابنه أبو بكر فتوفى بفنتيانق سنة ١٢٧٧ وفي تلك السنة أيضاً توفى أخوه عثمان بن عبد الرحمن ولهما عقب وقد بلغ عدد آل القدرى بفنتيانق آلافاً وانقطعت الآن صلاتهم أو كادت ببلادهم

واخوانهم ، وأكثرهم يجهل حقيقة نسبه وتبعة ذلك واقعة على كواهل أغنيائنا وسرواتنا ،
أما سلطان سولوك سندكان فلفاين فهو من آل العيدروس .

ومما ينبغي الإشارة اليه ان العائلة التي ظننا انها أول عائلة من العلويين دخلت الى القمر
هي العائلة التي اشتهر كثير من أفرادها بالبطولة والشجاعة في حرب المسلمين مع الحبشة
فان السيد احمد خطيب بته بجزائر القمر بن علوى بن محمد بن احمد مرزق بن عبد الله
وطب المتقدم ذكره قد اشتهر جده السيد محمد بن احمد بالجهاد كما تقدم ، وأخو جده عبدالله
ابن احمد فلا يبعد أن يكون السيد علوى ابن السيد المجاهد محمد بن احمد قد كان مع
والده بالحبشة ثم نزع الى القمر مجاهداً وناشراً للإسلام ، وهذه العائلة وعائلة آل ابن حسن
آل سيوى و بته هم أول من دخل القمر يقتضيه السبر بخلاف الانخاذ المنسبة الى الشيخ
أبى بكر بن سالم فانما جاءوا بعدهم ولعل أول رحيلهم اليها كان بعد جهاد الشحر والنفير العام
الذى نودى به فى حضرموت سنة ١٠٩٧ فقد نفر له كثير من المجاهدين من السادة
العلويين وغيرهم من الحضارمة وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتقال بعد أن احتل الشحر
سنة و بضعة أشهر ، وقد استشهد بتلك المعارك عدة من السادة العلويين منهم السيد عبدالله
ابن محمد بن احمد الفقيه على بن المعلم عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٨٧٣ ابن على (المتوفى
سنة ٨٤٠) بن سيدنا عبد الرحمن السقاف العلوى الحسينى ، وكانت حضرموت لاتزال لذلك
العهد حية معمورة .

قالوا وقد خرج من نواحي هيتين فقط ستائة فارس فذهبوا مع النفير العام وربما
يستغرب بعض اخواننا هذا ويقول كيف تتسع هيتين لهذا القدر ومن أين يجدون لها
الحشيش والعلف وهذا كلام من يجهل التاريخ ويجهل كيف كانت حضرموت وما كانت
عليه من العمارة ، وليس لأهلها فى تلك الاوقات من الاتصال بجهات المعمور وانتشار
التجارة والغنى فيهم عشر ما لهم اليوم ولكنهم كانوا ذوى محبة لاطوانهم واقتصاد فى
شؤونهم وكان همهم موجه الى عمارة بلادهم ولم يكونوا كخلفهم اليوم لاهم لهم الا تدمير
بلادهم ولا هم لأغنيائهم الا جمع المال جمعاً قارونياً أو بذله لاثارة الفتن وقطع السبل أو
لترهات والعوائد والموائد والقصف والترف ، وقد كانت ظفار مثاباتهم ومتردد تجارهم ومرعى
خيولهم ، وكان لهم ضراوة باقتناء الخيل حتى لقد كان لسيدنا الحسين ابن أبى بكر بن سالم

وحده سبعون رأساً من الخيل ، وقد زار نبي الله هود عليه السلام مرة فزار معه من أبنائه وأحفاده أربعون فارساً (وكان معمرًا) .

ويكفيك شاهداً على ما ذكرناه انه لما أسر السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر أبو طريوق محمد بن علي بن فارس في سنة ٩٣٨ غضب له نهد فاما أوسع السلطان يريد دوعن اعترضه من السور (١) مائة وستون فارساً من نهد غضبا لصاحبهم ولكن تم الأمر بينهم على اطلاقه وكانوا يستعملون الآلات الحربية القوية في حروبهم فان ثابت بن علي فارس النهدى استولى على القرين (٢) سنة ٩٤٠ باستعمال الرمي بحجر العرادة (٣) ولوجئت اليوم الى بلاد نهد كلها لم تجد فيها فرسا واحداً وأكبر داهية حلت بحضرموت حتى خرب خراباً لا يتصوره العقل هي الداهية التي حلت به سنة ١١١٧ فانها داهية هلكت بها العباد والبلاد وبقيت الى حدود سنة ١٢٧٠ ، وجاء في أثناء ذلك الوهاية سنة ١٢٢٢ الى سنة ١٢٢٦ تقريباً فكان مجيئهم ضغناً على ابائهم وأعنى بتلك الداهية المتغلبين من يافع على السلطان عمر بن جعفر بن علي وكان الذي جلبهم هو السلطان بدر ابن محمد بن عمر بن بدر أبو طويق خرج بهم من هناك سنة ١١١٦ وتم استيلاؤه على حضرموت بهم سنة ١١١٧ وقد غلوا يد ولده السلطان محمد بن بدر ثم استقلوا بالأمر وجرت أمور يطول شرحها .

ومن عجائب ما يراه الناظر في تاريخ حضرموت ان الأباضية قد جلبوا على حضرموت من المصائب والبلايا والحروب والقتل ما يطول شرحه ولكن لم يؤثر ذلك في خراب حضرموت خراباً يماثل ما وقع في الزمن الأخير فانهم باحتلالهم حضرموت واستغواهم أهلها ورميهم بهم في تلك النحلة قد جعلوا العالم الاسلامي البأ عليهم فصارت حضرموت ميداناً لهجمات جنود الاسلام اذ ذاك وأعظم واقعة مشهورة كانت سنة ١٤٠ فان معن بن زائدة الشيباني الجواد المشهور وكان أميراً على اليمن للنصور العباسي غزا حضرموت بجيش جرار فقتل رئيس الأباضية عبد الله بن يحيى وقتل معه من الخوارج خمسة عشر ألفاً حتى رجز بذلك الرجاز وأشاد بذكره الشعراء فقال الاعرابي :

(١) بلد من بلدان نهد قد خرب (٢) بلد بدوعن

(٣) العرادة آلة أصغر من المنجنيق يرمى بها الحصون والأسوار

يامعن من شبان أنت اتتا علمت أهل حضرموت الموت
وقال شاعره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدحه بها أولها :
أرى القلب أمسى بالأوانس مولعاً وإن كان من عهد الصبا قد تودعا
الى أن قال :

لقد أصبحت في كل شرق ومغرب بسيفك أعناق المريين خضعا
وطئت خدود الحضرميين وطأة لها هد ركن منهم فتضعضعا
فاقعوا على الأذنان اقعاء معشر يرون لزوم السلم أبقى وأودعا
فلو مدت الأيدي الى الحرب كلها لكفوا ومامدوا الى الحرب أصبعا

ثم توالى الأمراء على اليمن وحضرموت من ناحية العباسيين فبلغوا الى سنة ٢٦٣ زهاء نيف وخسين عاملا أعنى الى ولاية المعتمد بن أحمد المتوكل وكان العامل على عهده محمد بن جعفر فامتنع عليه أهل حضرموت فغزاهم وأخضعهم ، ومعن بن زائدة هو أول من ألزم أهل حضرموت واليمن لبس السواد شعار العباسيين فصارز ينتهم الى اليوم ، ولما جاء سادتنا العلويون لبسوا البياض واقتدى بهم وذلك شعارهم وهذا هو السر في انكار جمهور العلويين على من لبس السواد من اخوانهم والتزامهم لبسه الى اليوم .

ومما وقع فيه مؤرخو الأفرنج من الخطب والخلط ما نقله الأمير شكيب عن المسيو فزان والمسيو رينيه باسه في الجزء الأول من كتاب حاضر العالم الاسلامي في الصفحة ٣٧٤ فننقل ما يتعلق به الغرض مما قالاه ثم نتعقبه ، قال عن المسيو فزان : ان قبائل الاسلام في الجنوب الشرقي من ماداغسکر تزعم أنها سلائل أناس هاجروا الى ماداغسکر من مكة - الى أن قال - قال المسيو رينيه باسه : يجب الحذر من تصديق هذه الأقاويل فن هذا القبيل أن أسرة مالكة كانت تلى هرر في الحبشة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فكانت تزعم أن أول من قدم هرر هو عقيل بن علي (١) مع أن عقيل ما وطى* تلك الأرض - الى أن قال - عن المسيو فزان : ان دعوى الانتساب الى أهل البيت فاشية عند مسلمي السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من ماداغسکر ولكنه مما لا ينبغي أن يوثق به كثيراً اه ونقول

(١) الذي نعرفه أن عقيل هو أخو علي

ان الميسور ينيه قد استعجل أمراً كان له فيه أناة ، وقد كان الواجب عليه أن يعرف المسمى عقيل بن علي وأن يتفطن لكون عقيل بن علي لا بد أن يكون غير عقيل بن أبي طالب أخي علي عليهما السلام ، وكثيراً ما يؤتى المؤرخ من العجلة وترك البحث كما يؤتى من الغرض وسوء القصد . وذلك أن هناك عقيلاً آخر غير من ظنه وهو عقيل ابن علوي بن علي بن محمد بن حمدون بن علوي المتوفى سنة ٩١٤ ترجمه في المشرع والسنا الباهر ابن محمد المترجم في المشرع أيضاً ابن علي الملقب بجحدب بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٨١٦ بن محمد المترجم في الجوهر والمشرع والمتوفى سنة ٧٤٣ بن سيدنا عبد الله باعلوي المترجم في الجوهر والغرر والمشرع والترياق وشرح العينية المتوفى سنة ٧٣١ وهو ابن علوي ابن الفقيه المقدم محمد بن علي الى آخر النسب المتقدم في المقالات السابقة ، وقد كان السيد علي بن محمد جد عقيل المذكور قد قطن هرر من بلاد الحبشة وكان فاضلاً وصار له بها جاه واسع وصيت عظيم ونفوذ مذكور مشهور ، وقد توفي ضحوة يوم الثلاثاء سنة ١٠٢٣ وأعقب هناك والعقب منه في ابنه علوي ، وأعقب علوي من عقيل المشار اليه وعثمان وحيدون وكلهم لهم عقب هناك والعدد في ذرية عقيل أكثر من أخويه . ولسنا بصدد التفصيل فأنما المراد التنبيه والاشارة . وقد سبق أن السادة العالويين قد ترددوا الى الحبشة ودمثوها بخطاهم للتجارة والدعوة وكان دخول أول داخل منهم اليها سنة ٨٣٧ - أي منذ ٥٦٧ سنة وكانت تجارتها من بندر زيلع فكان للسادة العالويين بها مقام سام مالى وأدبي . ومن هذا القبيل تخطيط مؤرخي الافرنج في الدعاة الذين أسلم على يدهم الجاويون فتارة يقولون انهم كجراتيون^(١) وتارة يقولون انهم فارسيون ولهم في هذا الباب جولات لا تخلو عن تجاهل .

وقد يعتذر عنهم بأنهم رأوا هؤلاء الدعاة يأتون من ناحية تلك البلاد ولا يعرفون حقيقتهم وقد كان العرب الحضارمة وفي مقدمتهم السادة العالويون لهم ترددات الى مليبار وكجرات وكاليكوت وغيرها من البلاد الهندية ولهم بها مرا كز تجارية ودينية ، وقد كان لكثير من العالويين رباطات مفتوحة لطالبي العلم وكانت السفن تذهب من ساحل حضرموت قاصدة الى مليبار ثم تأخذ شرقاً على السواحل الهندية ومنها الى سومطرا وبلاد آشي منها

(١) أي من كجرات من الهند

وفليمباغ (فولو امباغ) جأوى ، وقد ترجم في المشرع لبعض علماء السادة العلويين الذين دخلوا جأوى قبل وصول الهولنديين إليها بمدة طويلة الى آشى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ولا يزال اسم السيد هاشم يدور على ألسنة سكان آشى الى اليوم لأنه كان العامل الأكبر في الحرب المعروفة بحرب البوقيس قبل أن يطأ بلاد جأوى هولندي ولا غيره ، وآل هاشم هم من السادة العلويين آل عم الفقيه وهم ذوو عدد بينجر (رنيو) و بسلان يرجع سبهم الى السيد هاشم بن أحمد بن علوى بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوى المشهور بعم الفقيه الخ النسب المتقدم ، وهناك من هو أقدم منهم دخولا الى آشى وهو السيد هاشم ابن محمد المتوفى سنة ٩٧٨ بن عبد الله بن مبارك بن عبد الله المتوفى سنة ٨٨٤ وهو المعروف بوطب ، وهو بن محمد بن سيدنا عبد الله باعلوى فان السيد هاشم قد دخل آشى ومكث بها حتى توفى وفي آشى مقابر محتوية على كثير من السادة العلويين وقد تولى منهم عدة سلاطين في تلك الجزيرة وهو أمر معروف عند الأهالي وان تعامى عنه المتعمون ولا يزال أهل آشى يطلقون على كل عربي لفظة حبيب وهذه الكلمة هي اللقب الذي يدعى به كل سيد علوى ولم نرفيا قرأناه مما كتبه الافرنج انصافا الا في مقالة نشرتها مجلة فانجى فستاكا التي تصدر من ويلتفريدن في عددها الخامس عشر الصادر في ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ فانها ذكرت تعاهد الحبيب حسين القدرى جد سلاطين فنتيانق (فنتيانه) هو وثلاثة من اخوانه من العلويين وهم السيد أبو بكر العيدروس والسيد عثمان باحسين السقاف ^(١) والسيد أحمد الكوريس ^(٢) واتفق هؤلاء الاربعة بعد الحصول على الاذن لهم من شيخهم بلمبار ^(٣) على التوجه الى الشرق للدعوة الى دين الاسلام فاقام السيد أبو بكر العيدروس بآشى وأما باحسين ^(٤) فاقام في سيك (سيع) واقام السيد محمد في ترنقانو ^(٥) ثم ساقط المجلة ترجمة الحبيب حسين القدرى وتولى ولده عبد الرحمن بن حسين

(١) الصواب عثمان بن عبد الرحمن بنحسن وهو أول سلطان بسك (سيع) بسومطرا من هذه العائلة

(٢) لعل الصواب الكريشة تصغير كرش فيكون هو السيد احمد بن علوى بن بركات بن محمد كريشة العلوي ، وقد توفى بالهند وله عقب بجزائر القمر بهزوان

(٣) كذا قلت ولعله سيدنا شيخ بن علوى الجفرى مؤلف كنز البراهين وغيره المتوفى سنة ١١٧٢

(٤) الصواب بنحسن ويعرفون الآن في سيع بآل شهاب

(٥) هكذا قالت ولم يتقدم لمحمد ذكر وقد اشتهر بترنقانو آل محمد وزين ابى حسين بن مصطفى العيدروس المترجم في مراة الشمس فان لهم بترنقانو ذرية مباركة فيهم علماء نفعا كثيرا ، وكان السيد محمد بن زين ابن حسين اماما كاملا وعالما عاملا له صيت كبير يخضر درسه نحو ألف نفر فلحرق

سلطنة فنتياتق الخ ما فيها فليراجعه من اراده ، وقد كان بجزيرة سمبه (سومبه) من جزائر التيمور سلطان من آل القسدرى الى زمن دخول هولندة اليها وله ذرية هناك معروفون ، والمقصود انه من المحتمل أن يكون من تكلم في هذا الموضوع من الافرنج انما جاءه الوهم من جهة أن اولئك الدعاة انما جاءوا من طريق الهند وهذا صحيح فانه ما كان أحد يلج من حضرموت الى جاوى بل كانوا يسيرون اليها من الهند كما تقدم وكانت الهند مثابتهم بل قد تأسست بها دول كان من العوامل في تأسيسها بعض السادة العلويين كمملكة الملك عنبر فقد كان من العوامل الكبرى في تأسيسها ارشادات الحبيب على بن علوى بن محمد الحداد العلوى ، ولذلك قصة غريبة ذكرها في عقد الجواهر والدرر ونقلها عنه صاحب خلاصة الاثر فلترجع ، وما كان الامير جوهر سحرتى الا تاهيئد الشيخ الامام شيخ بن عبد الله العيدروس العلوى ولذلك لما توفى اعتنى به السادة وجهزوه وكان له مشهد عظيم ودفنوه في مقبرة السادة والعرب تحت مدينة بيجافور ، ترجمه في عقد الجواهر والدرر ونقله عنه صاحب خلاصة الاثر ، ولا يحتمل المقام بسط حالهم هناك وتعيد من دخل من اخاذهم الى الهند ، ومن دواعي الوهم لاولئك المؤرخين الذى يستعمله العلويون فانه اشبه شئ بزي علماء فارس وفي كلامهم توهمات وظنون لا تنحى على التأمل .

ولا يزال اناس ممن دخل جاوى منذ قرون ينتسبون الى آل باشيبان أحد أنفاد السادة العلويين ويصلون أنسابهم بالدعاة المغاربة^(١) أعنى الموجودة قبورهم بموجو أقونغ ودونك مثالا واحدا من الانساب التى بأيديهم فمنهم الآن كياهى (أى العالم) منصور بن طه بن محمد باقر بن مجاهد بن على اصغر بن على اكبر بن سليمان المقبور فى بلد موجو أقونغ بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الشيبانى العلوى وآل باشيبان منهم عدد كثير بشربون وفكالونقان (باكلنقان) وغيرهما وعبد الرحمن الذى ارجعوا انسابهم اليه توفى سنة ٩٧٣ وابنه عبد الله توفى بأشئ وله عقب بالهند ببلقام والد كن وله ابن يسمى شهاب الدين قد خفي حاله ولم يذكر فى الشجرات أعقب أم لا ، ولم يذكر فى سليمان هذا فلا بد من بحث وتنقيب فان المواصلات كانت قليلة بين حضرموت وجاوى ولا سيما فى القرن العاشر بسبب حروب البرتقال وغيرها فينبغى أن يبحث عن تاريخ عبد الرحمن هذا والبلاد

(١) لعلمهم أطلقوا عليهم المغاربة لأنهم جاءوا من غرب جاوى وكل جزيرة العرب غرب بالنسبة الى جاوى

التي رحل اليها وتزوج بها ولنا عودة الى هذا الموضوع ان شاء الله ، أما عدد الآباء في نسبهم الى أمير المؤمنين على عليه السلام فيبلغون على ما حكيناه عنهم اثنين وثلاثين أباً على أن عدد الآباء في نسب الطبقة الحاضرة من العلويين يتراوح بين ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ أباً ، أما السيد عبد الرحمن صاحب المقام بشر بون وقا تح بلاد السوندا جميعها وناسر الاسلام فيها وما حى آثار الشرك بها وابنه بصرى^(١) المتملك بشر بون وابنه حسن المتملك بباتن من بلاد السوندا بجاوى فقد أقر مؤرخو الافرنج بأنهم لا يعلمون أصله من أى قوم وكانت وفاة السيد أبى بكر باشيبان جد آل باشيبان بعد الثمانمائة ووفاته ولده أحمد سنة ٨٧٠ ، وقد كان السيد عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن باشيبان العلوى المتوفى سنة ١٠٩٦ ببلقام من بلاد الهند ممن تصدر للنفع والقيام بنفقة الطلبة وكان الملك عادل شاه قد سوغ له خراج جرام موضع قرب بلقام وكان ذلك بعد أن أقام مدة بجوار الملك عنبر ملك الدكن وقد قلنا ان أباه عبد الله توفى بأشئ فهل يكون السيد عبد الرحمن فاتح السوندا من أحد انسابه ينبغي اتمام البحث في هذا الموضوع ولنا اليه عودة ان شاء الله تعالى .

أما الكلام في بقية أنفاذ السادة العلويين المنتشرة في سومطرا و برنيو وجاوى وملاكا (ملقا) وجزائر التيمور فيطول ولا تزال غالب انسابهم محفوظة وان كنا نخاف الآن ضياع أنسابهم وآدابهم وعوائدهم وسائر مميزاتهم اذا طال نومهم ولا سيما وقد سرت العجمة الى أكثرهم ودب داء التفرنج العضال الى كثير منهم ولا قوة الا بالله .

وقد أهدت الى جريدة حضرموت الغراء ماجاد به اخوانا العلامة عمر بن أحمد ابن سميطة العلوى قاضى زنجبار الآن عن بيان نسب السادة المعروفين بأل بته قال حفظه الله : من أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو ومباسه وزنجبار ويدعون بأل بته ، من الموجودين الآن منهم بلامو سالم بن عبد الرحمن بن أبى بكر وهذا هو الملقب بته لكونه ولد بها وهو ابن أحمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أحمد بن أبى بكر وهذا هو أول من طلع من حضرموت وهو ابن عبد الله بن شيخان .

ومن أولاد شيخان بن حسين بن الشيخ أبى بكر بن سالم عدد بلامو وزنجبار

(١) يعرفه الجاويون فيقولون بصريان

لا ينسبون الى أبي بكر بته ، من الموجودين منهم الآن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن يجتمع مع أبي بكر بته في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن شيخان بن حسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم .

وأما أولاد علي بن أبي بكر السكران فمنهم عدد بلامو وسيوى ويدعون هناك بال السقف ، ومن الموجودين منهم الآن بلامو عمر بن محمد بن عمر يقتهى نسبه الى عبد الله ابن عيدروس بن عبد الله بن عيدروس بن حسين بن محمد بن عمر بن حسين بن الشيخ علي بن أبي بكر السكران ، ومما تقرر يعلم ان آل بته هم من ذرية شيخان بن حسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم لا من ذرية علي بن أبي بكر السكران كما تبادر الى الذهن ، وبته هي من البلدان الجنوبية (بافريقية الشرقية) الواقعة في عرض ٢ ر ٢ وطول ٤٠ ر ٦٣ كانت في الزمن الغابر معمورة بالعلوم والعلماء وأما اليوم فليس بها أحد ممن يشار اليه اه فنقدم شكرنا لأخيها السيد عمر ونرجوه أن يمن علينا بشئ من وقته الثمين ويطلع ما جاء في الجزء الاول من حاضر العالم الاسلامي صفحات ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٨٤ و ٣٩٠ وما بعدها من أسماء سلاطين هنزوان وانتيزيه وترتيبهم وسلسلة أنسابهم فانه أقدر الناس على حفظ ذلك والبحث عنه أبقاه الله ذخيرة للمسلمين والاسلام .

وقد آن لنا أن نذكر معلومات مهمة عن شاهد عيان خير تردد الى مداغسكر وجزائر القمر منذ خمسين سنة وهو الشيخ محمد الكلالي الشهير فقد أبلغني بعض اخواني انه لقي الشيخ محمد المذكور ليلة في بتاوى في احدى ليالى شعبان سنة ١٣٤٤ مع جماعة من الاخوان وتحادث معه في المقالات التي نشرتها جريدة حضرموت الغراء فافضى اليه بالمعلومات الآتية وقد كتبها عنه ذلك الاخ واستأذنه في نشرها فاذن له قال : (مداغسكر) جزيرة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات والغلال يسكنها شعبان عظيمان من شعوب البشر أحدهما يعرف بالسكلافا (بفتح السين والكاف) وهم على سواحل الجزيرة وأطرافها وسحنتهم أشبه شئ بسحنة العرب وكانوا قبل احتلال فرنسا لمداغسكر يكتبون بالحروف العربية واللغة العربية ويزعمون أنهم عرب ، ولكنهم ليسوا بمسلمين ، ثانيهما البلامبو ويقال لهم أيضا الهوته (بضم الهاء) وهم أشبه الناس بالملايو ولغتهم محرفة عن لغة الملايو وأعدادهم مركبة من أعداد الجاوى والسوندا والملايو وهي ريكي . ديوا . تياو . ايفت .

ديمي شيتو . فيتو . والو . سيوي . فولو . ويسمون الشراع لاي . والصدر . دا . والتمساح
يوي ، فهذا كله محرف عن شبهه من لغة الجاويين والسونداويين والملايو وهو سيجي .
دوا . تلو . اوفت . ليمو . فيتو (صحيحة غير محرفة) أولو . سغو ^(١) سفوله دادا . لايا .
بوايا وكانوا رجال حرب شجعانا وتتجند نساؤهم للحرب ويقاثلن بشجاعة وبسالة نادرتين
قال وقد رأيت جنداً من نسائهم يقاثلن الفرنسيين متوشحات و متمنطقات بمناطق رصاص
البنادق قال : ولقد كنا مرة في مرسى مجنقا (بكسر أوله وفتح ثانيه) في سفننا وقد كومت
غلال الارز والذرة على الساحل كأنها الجبال أعدوها لمحجى التجار وقيام السوق فلم نشعر
الا بمركب حربى فرنساوى قد وصل الى المرسى وأمرنا بالخروج منه فخرجت السفن كلها
فدنا من البلدة وضربها بالمدافع فأحرقها وأحرق غلالها حتى اذا تركها جحيا تسعر عاد
ادراجها والنار تأكلهم وتأكل بيوتهم وغلالهم . أما الجزر الاربع فهذا ترتيبها من الشمال
الى الجنوب . انقيزجه موالى (بضم الميم وفتح الواو بعدها ألف ولام مكسورة)
هنزوان . ميوتا (بيم مكسورة فياء مشددة مفتوحة فتحا غير محقق فتاء بعدها ألف)
أما انقيزجه فقد أدرك بها سلطانا من آل الشيخ أبى بكر بن سالم العلوى خرجته
فرنسا بعد ان وقع في حبائلها بعد سنة ١٢٩٩ تقريبا فسار منها الى ميوتا وأقام بها حيناً
فلم تطب له فانتقل الى مداغسكر الى بلديقال له سلالا (بفتح السين) فلم تطب له أيضا فسار
عنها الى زنجبار ومنها الى المكلا ساحل حضرموت . ثم خرج الى سيوون من وادى
حضرموت ونزل عند الحبيب العارف بالله على بن محمد الحبشى العلوى وقرأ عليه مدة في العلوم
النافعة ثم بعد مدة احتاجت اليه فرنسا فارسلت مركبا حريا الى المكلا وطلبت منه هناك
وأعادته الى انقيزجه ملكا كما كان . ومن كبار ذوى النفوذ سيد من آل الشيخ أبى بكر
العلوى فى شيله (بفتح أوله وثالثه وسكون الياء) وكان يسمى مكه بريكى ، قال وهؤلاء هم
الذين يعرفون بأل بته لأنهم نزلوا أول دخولهم الى افريقية الشرقية ببلد بته وهى بساحلها
الجنوبى وهم يدعونه (بانا مكه بريكى) ومعنى بانا سيدى .

(١) الغين على هذه الصورة تلفظ في لغة الملايو والسوندا غينا مشوبة بغنة واضحة وتنطق بثلاث نقط بدلا
من نقطة واحدة وهكذا ما تقدم من أسماء البلدان الملايوية والجاوية مثل فكلوغن فحقيقة رسمها
فكلوونغن فليقس على ما ذكرناه ما لم نذكره

وأما موالى فسلطينها السادة آل القدرى ^(١) فنتيانق ^(٢)

قال : وأما هنزوان فاردك بها سلطانا من العلويين يسمى السيد عبد الله وكان أعمى وكان عنده عدد من فبريكات السكر ودخلت فرنسا هنزوان على عهده وقد احتلتها في حدود سنة ١٣٠٠ ثم تولى بعد السيد عبد الله الأعمى صاحب هنزوان السيد علوى ويسمونه منيو علاوى ^(٣)

وأما ميوتا فهى من أغرب الجزائر وذلك أن الله قد أحاطها بسورها بحجرى خلق يفصله عن الجزيرة خليج مستدير بها فكأنها قد تسورت بسوارين من فضة وزبرجد أو كأنها دارت بها دائرتان من ماء فحجر ثم وراء ذلك البحر وليس لهذا السور الطبيعى الخلق الا منفذان متقابلان ويوجد فيها قصب السكر مثل هنزوان ، وقد أدرك بها السيد عمر من آل الشيخ أبى بكر وكان عالما فاضلا قال دخلت عليه فوجدته محاطا بكتبه العلمية من كل ناحية وهو فى قسم الجزيرة المسمى مسفيرا (بكسر الميم وفتح السين والفاء المشددة) والقسمان الآخران فسانزى (بفتح فالف فنون سا كنة) وميمو (بميمين مفتوحين وياء مشددة مضمومة) ويوجد بانقيزجه كثير من بنى يعرب وبنى نبهان أهل عمان قد سكنوها وهم من ذوى الثراء بها ، وكان لبنى نبهان بها بلد تسمى مويرا (بضم ففتح فسكون) وكانت ولادة السيد العلامة المحقق الشاعر الناثر قاضى زنجبار أحمد بن أبى بكر بن سميط العلوى المتوفى أوائل العام الماضى بانقيزجه .

وقد ذكر الشيخ محمد السكالى من أحكام فرنسا الجبروتية ما يعرفه كل أحد وان تجاهله المستأجرون الذين يصفونها بناصره الأمم الضعيفة والام الحنون ! اه فنشكر الشيخ محمد على ما أفادنا به من ذلك وقد ضبط موالى كما تقدم وهى فى كتب الانساب عندنا مولاي وكذلك ذكرها فى نهاية الارب للنويرى فانه ذكر جزيرة القمر قال وتسمى

(١) قد علم القارى أنهم أبناء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد الشهير بجمل الليل وآل القدرى سلاطين

(٢) فنتيانه هكذا ينطق بها العرب وهو الصواب فان قاعدة الملايو أن يكتبوا الماء والهمزة المتطرفة فى لغتهم قافاً وينطقوا بها همزة فلما عانى لغتهم الأوربيون قرأوها قافا فوق من أجل ذلك خبط فى الأسماء واللغة الملايوية طويل الذيل ، تقدم ذكرهم ثم أبناء عمهم يجتمعون معهم فى محمد جل الليل

(٣) منيو بلغتهم هو السيد وعلاوى محرف عن علوى

جزيرة ملاي وذكر من بلدانها كيدانه وملاي وغيرها راجع الجزء الاول صفحة ٢٤٢ منه
فلعل اسمها تحرف على طول الزمان .

وقد استدرك علينا الشيخ الكلالي اهمالنا آل النضير من انفاذ السادة العلويين
بمقدشوه وقد صدق في ذلك وظهر لنا اننا أغفلنا غيرهم أيضاً كآل بافرج وآل على لالا
وآل الحداد وآل البار وغيرهم .

فأما آل النضير فهم من آل عم الفقيه ومنهم بمقدشوه عديد ليس بالقليل وعدد
بسورت من بلاد الهند وهم بنو محمد النضير بن عبدالله بن عمر المعروف بابن الصنهاجية^(١)
وهذا هو الملقب أحر العيون أيضاً ابن عبدالرحمن المعروف بصاحب مسجد بابطينة^(٢) ابن
أحمد بن علوي بن أحمد المتوفى سنة ٧٢٠ بن عبدالرحمن بن علوي المتوفى سنة ٦١٣ وهو عم
الفقيه المقدم ويكنى به فيقال عم الفقيه بن محمد صاحب مرباط الخ^(٣) النسب المعروف
ويجتمعون هم وبنو عمهم آل هاشم في أحمد بن علوي المذكور وآل باهاشم منهم عدد
بينجر (برنيو) وسيلان وقد دخلت العجمة في بعض أسماء آل النضير بمقدشوه فانك تجد
في أسمائهم عدداً من أسماء اعتاد البربر (الصومال) التسمية بها مثل حرمين . نور . سعاد
دونى . موجود . منيا . مبانى . مقالو . ودخول العجمة في الأسماء آخر حلقة تنقطع بها
صلتهم بماضيهم ويتم معها اندغامهم في غيرهم واحياء رسومهم ، وأما آل الحداد فمنهم بمقدشوه
آل عبدالله بن عمر بن محمد بن علوي بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن علوي
ابن أحمد الحداد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوي
عم الفقيه .

وأما آل على لالا فهم من آل عم الفقيه أيضاً ومنهم هناك آل أبي بكر بن علوش
ابن نور بن أحمد بن على بن لالا ومنهم آل خلف بن نور بن أحمد بن على لالا وهو ابن
أحمد بن حسن الطويل بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه ،
وأما آل بافرج فيرجع نسبهم الى فرج المتوفى سنة ٨٧٢ بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن

(١) أمه من الصنهاجة قبيلة من حمير بمحرموت كانت لهم قارة الصنهاجة المعروفة هناك وكان يضرب بها
المثل في العظم فيقال أعظم من صنهاجة

(٢) اسم مسجد مشهور بتريم هو الذى بناه

أحمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه ومنهم هناك نور ومحمد وأحمد بنو عثمان بن محمد ابن أبي بكر بن نور صادق بن أحمد بن صادق بن أحمد بن نور بن سعد الدين بن محمد بن شيخ بن محمد بن عثمان بن أحمد بن شيخ بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن علوي عم الفقيه ومنهم أناس بقلب وهذله ومقدشوه وبها أناس من آل البار وغيرهم فلا نطيل بذكرهم .

ومما ذكرناه يظهر ان آل النضير وآل بافرج من أقدم من رحل الى افريقية من العلويين الذين تديروها فان لهم هناك ماينيف على ثلاثة قرون ، أما من تردد اليها ولم يتديرها فنذ مايناهز سبعة قرون ، وأما سلطان انقيزجه الذي ذكر الشيخ محمد الكلالي خروجه الى حضر موت فقد ذكرناه سابقا وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ذكره في كتاب شمس الظهيرة وفي شرح الصدور .

ثم ان لنا الى ذكر حاضر العلويين ومستقبلهم لعودة بعد عودة كلما سنحت الفرصة ان شاء الله تعالى .

واني لأشكر من صميم فؤادي جناب الأمير الشهير والعلم الساطع المنير على ما أظهره من العناية بمقالاتي الملققة وأسأل الله له عمرا مديداً وخيراً مزيداً وتأيداً على ماوقف نفسه عليه من النفع العام للمسلمين والاسلام والتمس منه أن لا يرضى على إخوانه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بأمثال تلك البينات الواضحة والهدايات الصريحة وان يزيدنا من ذلك ما وجد الى الزيارة سبيلا فلقد بين لنا من تاريخ حاضر الاسلام وحال أهله في مختلف الأقاليم ما كشف به عن أبصارنا الغشاوة وأزاح به عن عقولنا حجب الجهالة فجاءه الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

ثم اني أحث اخواني المسلمين على اقتناء ذلك الكتاب أعني كتاب حاضر العالم الاسلامي والاطلاع على ما فيه مما لا يستغنى عن معرفته من يهيمه مستقبل المسلمين والله الموفق والمعين .

محمد بن عبد الرحمن

بتاوى :

الامير محمد بن عبد الكريم

زعيم الريف

الشيخ

لا نبالغ اذا قلنا ان الأمير محمد بن عبد الكريم ، متولى كبر الثورة على الأسبانيول في شمالى سلطنة المغرب ، هو في التوة الحاضرة ، بطل الاسلام ، وأسده الضرغام ، والعلم المفرد الذى سار به كره القاصى والدانى والخاص والعام ، لا بل اذا نظر الناس بعين الانصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم .

وذلك أن العبقرية لا يجب أن تحدد على نسبة الأعمال التى يقوم بها الانسان من حيث الأهمية بل على نسبة الأعمال من حيث الوسائل التى يملكها عند العمل . فإذا نظرنا الى رجل عظيم قام فى دولة عظيمة ، وبسط يده الى ما حوله ، فامتلاّت بالوسائل والأسباب الكافلة بحصول المرام ، الواقعة على طرف الثام ، ففاز بالغلبة على العدو ، أو بآتمام مقصد من المقاصد العالية ، فليس فى ذلك من دواعى الاعجاب ، ما فى عمل رجل عظيم ، اذا بسط يده وجدها خلاء من كل شئ ، سوى بعض المواهب الفطرية ، واذا نظر فيما حوله ، لم يجد من جميع أسباب القوة سوى قوة الارادة . لهذا لا نجد فى شخصية « المارشال فوش » قائد جيوش دول الحلفاء ، الذى حاز الغلبة القاطعة فى أعظم حرب عرفها التساريخ ، ولا فى شخصية « المارشال هندنبورغ » ، الذى وقف فى وجه قوى تفوق قواه عدة مرات مدة تزيد على أربع سنوات ، ولا فى شخصية الغازى مصطفى كمال ، الذى أحيا الدولة التركية بعد أن أرادت انكلترة أن تطويها طى السجل للكتاب ، ولا فى شخصية لنين ، الذى ثلّ عرش أعظم قيصرية فى العالم وحل محلها بحكومة صعاليك مفاليس لم يسبق لها مثيل على وجه الكرة ، ما نجده من حقيقة الرجولية ، والبطولة ، وجد الفضل ، واخصل ، التى فى شخصية محمد بن عبد الكريم الريفى الذى تغلب على دولة اسبانية وأجبرها على الجلاء عن الريف .

فان « فوش » عندما انتصر على جيوش الألمان ، كانت تحت قيادته نحو خمسة عشر مليون جندي تامة العدد والاعتاد ، وراءها سبعة وعشرون دولة هنّ أ كثر سكان المعمور وأوفرهم ثروة . وان هندنبورغ عندما توافق مع هذه السبع والعشرين دولة مجتمعة . ظهرة واحدة على دول أربع لا يساوين ربعها ولا خمسها ، انما كان على رأس الجيش الألماني الشهير أحسن جيوش العالم دربة ونظاماً واتقان عدة . وان مصطفى كمال نهض بأمة قديمة العهد بالاستقلال ، حديثة العهد باتساع السلطنة والبسطة ، مفطورة على حب الغزو والقتال ، مالكة لكثير من أسباب الدفاع ، قد أراد لويد جورج أن يحرمها كيائها السياسي دفعة واحدة ، وأن ينزلها من السنام الأجد الى الحضيض الأوهده ، ورمها بدولة صغيرة كاللدولة اليونانية ليست بكفاء للترك في قوة ولا منعة ولا عدد ولا نخوة ، فتمكن مصطفى كمال ورفاقه بحسن قيادتهم واستبسال أمتهم التي عرض عليها الموت صلحاً ، فأثرت الموت حرباً وبتراخي ميادين القتال على جيش نظير الجيش اليوناني مدة سنوات متوالية أنقضت ظهره وأوهت صبره ، فقهر مصطفى كمال العدو وأخرجه من الأناضول ، وأخذته أخذاً عزيزاً ، وأعاد لتركية وجودها السياسي الذي لم يكن من السهل نزعها منها . وان لنين كان يمثل ألوفاً ومئات ألوف من الصعاليك الذين كانت لهم جعيات واشجة العروق في جميع البلاد ، على حين قد ضرت الروسية الحرب الكبرى تضريراً أتي فيها على الحرث والنسل ، وانشب فيها أنياب الجوع ، فتهيأت فيها الفرصة لثل أعظم عرش بنيت قوائمه على الظلم والغشم ، وامتهان الشورى ، وتقديس ارادة الفرد ، والعمل باهواء اللذات والمودات ، والعبث بحقوق الشعب ، فكان أعظم عامل للانقلاب الهائل هو رد الفعل ، وأقوى نصير للنين على تأسيس الحكومة الشيوعية هو ما ينشأ من تجاوز الحد من تحول الأمر الى الضد ، سنة الله في الخلق وما لسنة الله من مرد .

أما محمد بن عبد الكريم ، فانه قد تغلب على اسبانية ، وهزم جيوشها عن الريف ، وهو بالقياس الى اسبانية بمثابة واحد الى أربعين في العدد ، وأقل من ذلك في الاعتاد . وهذا تقدير قد يكون فيه نقص أو زيادة ، ولكنه على كل حال لا يخرج منطقة الريف بحملتها عن هذه النسبة . فقد قيل ان عدد سكان الريف الذي تدعى اسبانية « حمايته » هو نصف مليون نسمة ، وقيل انه ستمائة ألف ، وقيل انه سبعمائة ألف وقيل بل هو لا يزيد

على أربعمائة ألف . وليس للريف احصاء محرز ، ولا لسلطنة المغرب كلها احصاء وثيق ،
وانما الذى نسمعه أن الريف هو سبع السلطنة المغربية ، فاذا كان المغرب سبعة ملايين فيكون
الريف مليوناً ، اللهم الا إذا قيل ان رقعة الريف أقل سكاناً من سائر المغرب بالنسبة الى
المساحة . فلهذا لم يكن في الريف مليون نسمة . أما من جهة الثروة فلا ثروة في هذه المنطقة
وفي الحقيقة لا ريف في الريف^(١) وسفوح جبال الريف لا تجري فيها الأنهار كما في سفوح
الجبال الأخرى كالأطلس مثلاً . وأعظم مدن الريف هي سبتة ، ومليلا ، وهما من المدن
الاسبانية من القديم ، ومنها تطاون ، والعرائش ، وكلها لأهمية لها في جانب مدن المغرب .
فلهذه الأحوال والظروف كان بدعا لا ينظر في التاريخ ، وسراً تحيرت فيه العقول ، ان
يتمكن ابن عبد الكريم من طرد الاسبانيول بعد حرب ضروس استمرت عدة سنوات ،
وان يخرج من هذه الهيجا ضافرا ، في عصر لم تتعود فيه أوربا أن تجد أمة اسلامية غالبية
على أمة مسيحية ، ولا ان ترى أمة متبدية أو غير متمدنة ظاهرة على أمة متمدنة راقية .
لا سيما وهوة الفرق بينهما عميقة جداً في العدد والعدد . فان مملكة اسبانية عدد سكانها ٢٢
مليوناً ، وهي مجهزة بجميع أدوات الحضارة العصرية ، وجيشها معدود من الجيوش المنظمة
التي لا تقل عن سائر الجيوش الأوربية دربة ونظاماً ، وجودة سلاح ، وتفنن ضباط . وقد
سأقت اسبانية الى ميدان حرب الريف فيالق جرارة . كانت تبلغ مائة ألف جندي أحيانا
و ١٥٠ ألفا الى ٢٠٠ ألف . وقرأت ساعة تحرير هذه السطور في جريدة « الجورنال »
الباريزية ، رسالة لمكاتب هذه الجريدة في الريف ، يصف بها « الخزاي » مركز الأمير
محمد بن عبد الكريم ، ويذكر فيها ملاقاته معه . وقد ورد فيها في موضع الدهشة من أمر
هذا الرجل « انه هو الذى قهر جيشا عسريا عدده مائة وخمسة وسبعون ألف جندي
اسبانيولى » . فكيف كانت الحال بحرب الريف هذه ، وظهور الريفين فيها ، هما من
بواهر الآيات وخوارق العادات ، ومحمد بن عبد الكريم رجل أخذ مكانه من التاريخ وأخجل
جميع عظماء الرجال ، بعظمة عمله ، وصغرهم في أعين أنفسهم ، حتى اذا ما أخذت أحدهم
هزة بأووعجب ، فتذكر عظمة عمل ابن عبد الكريم ، مع فقدان جميع الوسائل التي لا يتأتى

(١) الريف في اللغة هو ما قارب الماء من الأرض ولذلك يطلق أحيانا على الساحل وعلى المكان الذى فيه

المياه والخضرة . والريف هو أيضاً الخشب والسعة

الظفر بدونها ، رأى نفسه غير عظيم بجانب ذلك العبقري الكبير . ولا جرم أن حرب الريف ومقاومة السنوسيين في طرابلس ، قد رفعت من شأن الاسلام ، وحدث أوروبا على أن تحسب له حساباً ، ولا تسترسل في الاغترار الى قوتها ، والاحتقار للأمم الاسلامية التي كانت تحسبها بتجردها من السلاح الحديث ، اما قد انطوى بساطها . فأوروبا اليوم . ولا سيما دول الحلفاء « انكلترة وفرنسا وايطالية » صارفة جد اهتمامها الى منع السلاح عن الأمم الاسلامية بجميع الطرق ، ومراقبة سواحل افريقية ، وآسية وامضاء المعاهدات والمواثيق الدولية بعدم بيع الأسلحة الى الأمم التي « مدنيتهما من الدرجة الثانية » تريد أن تعبر بذلك عن الأمم الاسلامية ولم يذهب قلق هذه الدول بمجرد منع الآلات والاعتداد الحربية عن هذه الأمم ، حتى قام رجال سياستها يتشاورون ويدوكون في عمل ما يسمونه « جبهة » بازاء الاسلام ، على أثر تسحب الجيش الاسبانيولى مدحوراً عن الريف ، وثبوت استقلال الحكومة الريفية تحت امارة ابن عبد الكريم . ففرنسا قامت وقعت وتم تكتم جرائدها كونها لا تطيق استقلالاً اسلامياً بجانب المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وعلى ساحل البحر المتوسط . وانكلترة ، خستيب مغبة ظفر الريف في استئساد الاسلام شرفاً وغرباً ، وصيرورة قصة الريف مثلاً يحتذى عليه ، فتهيج له الخواطر في مصر ، وبلاد العرب ، الى الهند . وايطالية ، واقعة مع طرابلس في حيص بيص ، فلا تزيد أخبار الريف عزائم الطرابلسيين الا ثباتاً .

وقال الكاتبين سبنسر برايز على أثر عودته من زيارة الأمير ابن عبد الكريم في حديث له مع مكاتب جريدة منشستر غارديان :

« ذهبنا برأ من طنجة متنكرين بملابس عربية فاجتزنا المناطق الجبلية وأول ما أدركناه هو أن بلاد الريف وعرة المسالك ، كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة ، وهي شقة من الارض يبلغ طولها نحو ثلاثمائة ميل ، وعرضها نحو سبعين ميلاً الى الشرق من طنجة ، وهي أوعر الأقطار التي رأيتها في حياتي . وليس في داخليتها طريق معبدة ما ، اللهم الا طريقان ينشئهما اسرى الاسبانيين الآن قرب اجدير ، وقدأ شأ الاسبانيون طريقاً عسكرياً من تطوان الى ششوان ولكن لا يمتد من هذه الطريق فروع الى أماكن أخرى .

« أما نحن فانتا ذهبنا الى أجدير على ظهور البغال ، وكان يرافقنا خمسون خيالا من العرب وقضينا عشرة أيام في السير من طنجة الى اجدير . وعند عودتنا ، ساءت المسالك في سبيلنا لأن الأمطار هطلت والأودية فاضت بالأنهر ، فصرنا نتربص في السير ريثما يهدأ ثوران الطبيعة .

« وما لحظناه ، أنه على الرغم من الخلاف الذي كان متأصلا بين القبائل ، تمكن عبد الكريم من توحيد نزعاتها ، وجعل شتاتها ، وضم أطرافها ، فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بأمره وتحارب الاسبانيين الى جانبه .

« وقد ذهبنا الى سنادة ، حيث مركز الاسرة الشريفة ، فاستقبلنا سيدى هنيديو الوزاني رئيس هذه الاسرة ، وأدبت لنا المآدب الشائقة حسب عادات القوم ، حتى ضقنا ذرعا بكرم الوفاة ، وحسن الضيافة . وزرنا أما كن لم يزرها أوربي بعد ، مع أنها لا تبعد عن جبل طارق سوى ٣٠٠ ميل .

« أما ما قيل عن ان الريفيين يسيئون معاملة اسرى الحرب ، فقد عرفنا بالاختبار أنه كذب صراح . فالاسرى يعاملون معاملة حسنة ، ويستخدمون في انشاء الطرق . ولا صحة أيضاً لما يقال عن ان الاسبانيين يكثرون من استعمال الغاز الخناق ، فهم رجال قتال مملوءون شهامة . ولا شك أنهم لا يجدون بداً من القاء القذائف والقنابل على القرى ، لأنه لا يمكن التفريق بين جنود الجيش الريفي وأفراد الأهالي ، ويذهب كل فرد من الأهالي الى الانضمام للجيش والمقاتلة تحت لوائه عند مايتيه الدور .

« وأما ما يقال عن المركز العسكري ، فان الاسبانيين قد عملوا بانسحابهم عملاً باهراً ، كان معرضاً لكثير من المصاعب والمشقات . فقد انسحبوا من عدد من المراكز المتفرقة انسحاباً منظماً ، وعسكروا على خط تطوان — فندق الحصين . فاذا أراد الريفيون مواصلة القتال فانهم سيصطدمون بهذا المركز المنيع ، وهم غير مسلحين بغير البنادق والمدافع التي أخذوها من الجيش الاسباني ، ومعظمها من بنادق موزر ومدافع شنيدر التي تجرها البغال .

« والريفيون في حاجة عظيمة الى المساعدة الطبية . نعم انهم لم يصابوا بخسائر جسيمة ، وليس فيما بينهم أمراض وافدة عمومية ، ولكن جميع رجالهم يذهبون الى الحرب

بالدور ، حتى ان البلاد كلها تحارب . وليس في الريف كله طبيب ما ، ولا عقاير صحية ما عدا القليل الذي أخذناه نحن معنا ، مرسلنا من جمعية الهلال الأحمر البريطانية ، فالحاجة عظيمة جداً الى المساعدة الطبية .

« والريفيون شعب من الزراع والرعاة ، وهم يعيشون في قرى تبني منازلها باغصان الأشجار وبالطين .

« ويعزى معظم نجاح عبد الكريم الى مقدرته على بسط سلطته على جميع القبائل . فاستطاع بذلك أن يزيل من بينها الضغائن والخصومات . والريفيون يجيدون الرماية والخطط التي يسلكونها في مقاتلة الاسبانيين هي مهاجمة المراكز المنفردة ، حتى يتعذر على الاسبانيين أن يحتفظوا بها . أما الآن فقد تبدل الموقف أمامهم بعد انسحاب الاسبانيين التام من تلك المراكز ومرا بطتهم على خط واحد . » اه .

والحاصل ان المستعمرات هي سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ، فلا تجد قطرات تحت استعمار أمة أوربية قامت فيه ثورة ، الا وضعت جميع الدول الاستعمارية أيديها على قلوبها الواجفة ، ترجو أن ينتهي الخطب بظفر الدولة المستعمرة ، حتى لا تدب الثورة الى المستعمرات الأخرى ويتبع بعضها اثر بعض . والاسلام في نظر أهل أوربا أمة واحدة ، مهما تفككت اجزائه ، وتباعدت أقطاره ، وقد شبهه المارشال ليوتي معتمد فرنسا في المغرب « بصندوق رنآن » أي اذا ضربت عليه برأسه رن الى كعبه . فسياسة الدول المستعمرة هي سياسة من يعلم شدة ارتباط الاسلام بعضه ببعض ، ومن يأخذ أخذه لمنع هذا الارتباط بقدر الامكان ، فان لم يتأت منع هذا الارتباط تماماً — وكيف يتأتى وهو مع الضغط الأوربي والعسف الاستعماري لايزداد الا شدة — فعلى الأقل العمل على أن لا تظهر له نتائج فعلية . ولقد أصيب المسمون في هذه السلسلة الاستعمارية بأشد مما أصيبوا به في كل المواقف ، فانك اذا طالبت باستقلال وطن متمدن راق مستحق للاستقلال ، مثل مصر ، لم تلبث أن تسمع أن الدول التي ليس لها شيء بمصر ، والتي تدعى محبة أهل مصر ، لا ترتاح الى قيام دولة مصرية عزيزة ، خشية عدوى الاستقلال المصري لسائر المستعمرات . ومثل ذلك سورية ، ومثل ذلك تونس ، ومثل ذلك العراق . ومن شواهد أن (الوفد السوري) الذي محرر هذه السطور من أعضائه كان يراجع البعثة الاسبانيولية في جمعية الأمم بمدينة جنيف ، في أمر

استقلال سورية، فكان جواب المندوب الاسبانيولى لزملائي الذين لم أكن معهم في ذلك اليوم: «ان اسبانية لاتقدر أن تروج هذا المبدأ لأنه مخالف لمصالحاتها، وعندها من داهية الريف ما يكفيها». فانت ترى ان الشام والريف حلقتان من سلسلة. لابل مصر، وفلسطين، والعراق، والهند، وزنجبار، والسودان، والجزائر، وتونس، وطرابلس الخ كلها. حلقات من نفس السلسلة. وما اجتهدت دول الحلفاء أن تقضى على الدولة العثمانية التي كانت تحمل الخلافة الاسلامية، الا على خوف انها قد تكون السبب في فك هذه السلسلة. فاولت الدول المذكورة أن تجعلها من جملة تلك الحلقات، وتضمها للسلسلة، توثيقا لسلوكها، حتى كان ذلك هو السبب الأعظم في الغاء الأتراك اسم الدولة العثمانية، والاكتفاء باسم «تركيا» وابطال الخلافة الاسلامية من عندهم، فراراً من الوقوع في هذه السلسلة. ولقد بلغ التضامن الاوربي الاستعماري بازاء الاسلام، ان صارت حكوماتهم تخاضب بعضها بعضا في المسائل الاستعمارية كأنها أمور مشتركة بينها. ومنذ أيام جعني القدر بأحد رجال الحكومة الاسبانيولية، فتجاذبنا أهداب القضية الريفية، ولما كنت أنصح لهم بالصلح مع زعيم الريف على قاعدة استقلال هذه المنطقة، أقسم لي أن اسبانية تود من أعماق قلبها مصالحة هذه الأمة والاعتراف باستقلال الريف رسمياً. ولكن فرنسا وانكثرة تمنعنا من هذا الاعتراف، وتستظهران عليها بالمعاهدات المشتركة. فترى اسبانية من هذه الجهة متحيرة في أمرها. فهي قد أخلت الريف الى الساحل، ولكنها كما لاتقدر على امضاء صلح رسمي مع عبد الكريم لاتقدر أن تستمر على محاربه. وبما لامشاحة فيه، أنه لولا خشية فرنسا مغبة حرب الريف بأنها تفتح عليها باب ثورة في المغرب يتعذر عليها سده، وتبتلع من النفقات الباهظة ما لا قبل لها به مع ماهي عليه من الارتباك في أحوالها المالية، لكانت في هذه الحزة الحرب مشتعلة بينها وبين الريف، وكانت طيارات الجيش الفرنسي الآن تمطر قرى الريف وابلا من الكرات المحشوة بالمواد السامة — لأن الدول تعاهدت على منع استعمال المواد السامة، والغاز المنخق في الحروب الاوربية، واستثنين من هذا القيد المستعمرات التي تجيز فيها اوربا «المتمدنة» طرق الحرب الوحشية. كما أن الاسبانيول رموا قرى الريف بالغازات السامة، وقتلوا بها كثيراً من الأطفال والنساء والضعفاء — ولكن فرنسا اجتزأت عن اجتياح الريف كله بانتقاص بعض أطرافه، وتحصين المراكز

التي على الحدود بين المنطقتين ، والتر بص بعدد الكريم الدوائر ، عاملة على إثارة الريفيين بعضهم على بعض ، وفصم عروة وحدتهم ، مما هو أحد وأمضى أسلحة الاستعمار الاوربي في قتال الأمم الاسلامية .

فقضية الريف حين تحرير هذه الاسطر هي بالمركز الآتي لك تحديده : -

أما فرنسا ، فانها تحصن الحدود التي بين المنطقتين ، وتبنى المساح والمعاقل ، حيطة وراء الحرب التي تنوى اصلاها الريفيين في أول فرصة ، وهي مع ذلك لاتهمل شيئاً من الوسائل السياسية لاسقاط سلطة عبد الكريم ، ومنع تأسيس استقلال اسلامي في الريف ، يكون بحسب زعمها « بؤرة » للجامعة الاسلامية في افريقية .

وأما انكسار ، فهي في حيرة عظيمة من أمر الريف ، لأنها من جهة ترى اسبانية عاجزة عن المضي في مصارعة أهل الريف ، فلا مندوحة لها من الانكماش في جوار مليلا وسبتة في منطقة ضيقة . ومن جهة أخرى تخشى أن فرنسا تفتح الريف في يوم من الأيام فتصير بازاء جبل طارق ، وفي ذلك من الخطر ما فيه ، فتود لو استعصى الريف على فرنسا . ولكنها توجس في فوز الريف خيفة نشاط ينبعث في العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وذلك عندها هو الهلاك الأكبر . وقد عولت أخيراً على منع اسبانية من عقد صلح رسمي مع الريف الى أن تكون ازدادت الحوادث جلاء .

وأما اسبانية ، فانها محطت الريف من أنفها ورفعت من ذهنها ، بعد تجارب استمرت سنوات عديدة ، فلم تعد عليها الا بالخسارة . وقصارى ماتنويه هو الاحتفاظ بمنطقة ضيقة حول مليلا وسبتة ، ومنع الريفيين عن الاتصال بالبحر ، أملاً بأن ينقادوا للحكومة الاسبانية تحت تضيق الحصر ، وأن تلعب بينهم أيدي الشقاق ، فتتال اسبانية بحوادث الدهر ، مالم تنله بوسائل القهر . ولذلك تعلن أن منطقة ابن عبد الكريم لم تبرح تحت « حاجتها » (١) .

(١) نشرت (مجلة المجلات) الانكليزية بعدها الصادر في يناير - فبراير ١٩٢٥ ، ترجمة نداء بليغ لأحد أعظم الكتاب الاسبان ، السذور ايبانيز ، أذاعه هذا في بني قومه في نوفمبر ١٩٢٤ ، بين لهم فيه فضائح الملك الفونس الثالث عشر والحاكم بأمره الجنرال بريمودي ريفيرا ، في سياسة الدولة وفي حرب الريف ، ويدعو هذا الكاتب امته لاسقاط الملكية واستبدال الجمهورية بها . ومما جاء في هذا النداء المقيم المعقد الذي كانت طيارتان مستأجرتان تجوبان آفاق اسبانية وترميان الناس به كراديس ، انه لما قام

وأما ايطالية، فتزعم انه لا حق لفرنسا فيما لو أخلى الاسبانيول الريف أن تجرد زحوفها عليه، وتبت أمره بدون مشورة الدول. ومرادها بذلك ليس أن تأخذ حصة من الريف الذي لو عرضت جرتة على ايطاليا لاعتذرت عن مديدها اليها، وانما هي مساومة تقصد بها الحصول على التعويض في مكان آخر.

وأما العالم الاسلامي، فقد تخلى بأجعه عن الريف، ولم يفكر في معاضدته بشيء وذلك للأسباب الآتية : —

الأول : انصراف كل من الأقطار الاسلامية الى هم نفسه، والاشتغال بقضيته الوطنية الداخلية. فما كان منها مستقلاً تمام الاستقلال مثل تركيا، وفارس، والحجاز، ونجد، واليمن، وافغانستان، تجده مشغولاً بلم شعث نفسه، عن اغاثة الريف ولو بما يبيل الصدى. وما كان استقلاله لما يتم، مثل مصر والشام، والعراق أو كان باقياً رهناً الاستعمار مثل الهند تجده مشغولاً عن النظر الى الريف بمسألة استكمال استقلاله أو الحصول على الاستقلال الداخلي.

الثاني : الازمة الاقتصادية التي ولدتها الحرب العامة، ولا تزال تفعل مفعولها شرقاً وغرباً

الثالث : فشوا الاعتقاد في تركيا، ومصر، وقسم من بلاد العرب، بأن سياسة الاتحاد الاسلامي شيء مضر بالمسلمين، حافز لأوربا على التآلب عليهم، ومنعها استقلال ما يرجي استقلاله منهم، حال كون الشعوب الاسلامية لو قامت بصائحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين، لما وجدت أوربا بأساً من اعطائها استقلالها. فلما شعور أوربا بكون الاسلام في وجهها متماسكاً بعضه مع بعض، فانه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق

ملك أسبانية والجنرال بريمودي ريفيرا، منذ عدة أشهر، بزيارة البابا في الواتيكان، ألقى الملك الاسباني خطاباً لدى البابا، ملؤه الغيرة الشديدة على الكشكة خاصة النصرانية عامة. ومما جاء في هذا الخطاب، قول الملك : —

« ان اسبانية أيضاً قد تجندت لحرب المسلمين في افريقية حرباً لا تنفك عنها حتى تفوز بفارس الصليب في ديار المسلمين، وجعلت اتباع محمد يمتنعون له قهراً » وهذا الخطاب لم يرتجله الملك ارتجالاً، بل سبق له فأعده في مدريد قبل أن آتى رومية، وكان الأب توريس الجزويقي الشهير بمديريد هو الذي أنشأ وأعد هذا الخطاب للملك.

« العرب »

فرج في وجه أبنائه . وقد زاد هذه العقيدة رواجاً في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها ان الأتراك ينبغي أن يكونوا تركاً في الأول ثم مسلمين في التالى ، بل يذهب الغلاة من التورانية الى محاربة الاسلام بكل الوسائل ، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك . كما زاد ذلك رواجاً بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء ان ادماجهم الحقيقى فى الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفوذ اليد من الجامعة الاسلامية فكانت خطة هؤلاء الزعماء مؤثرة فى سياسة الشعب ، لا سيما مع غلو الشعب المصرى فى متابعة ذوى الزعامة فيه . ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضاً ، لا سيما بين الحزب الذى انتفض على الأتراك أيام الحرب العامة ، والذى تحالف مع الانكليز وتمنى فوزهم فى الحرب ، بحجة ان الذى ينبغي أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الاسلامية ، وان هذه الجامعة توجب نفور انكلترا التى كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب . . . بخلاف ما لو كانت النزعة عريضة قومية ، فان انكلترا ترحب بها ترحيباً (١) ولقد خاب ظن هذا الحزب ، وتناقص عدده جداً ، ولكنه ما زال يفر من الجامعة الاسلامية مراعاة لانكلترا ، أما فى الماضى فتقنة واعتقاداً ، وأما فى الحاضر فخوفاً ورناء . ولقد كان لهذا الحزب العربى المناوى للجامعة الاسلامية ، اليد الطولى فى جل الأتراك على نبذها ، لأن التورانيين احتجوا بأنه ان كان العرب الذين ظهر الاسلام بهم وظهروا به ، بدأوا بمعاكسة أوامره ونواهيه ، وأخذوا بالسياسة القومية ، ومالوا الانكليز على الترك ، فالترك الذين لم يكن الاسلام الا دخيلاً فيهم ، أولى بترك ما تركه العرب من جهته والخلاصة أن شيوع هذه المبادئ فى الآونة الحاضرة كان مما صرف الانظار عن مساعدة الريف .

الرابع : ان الاعتقاد بكون نجاح الريفيين موقئاً ، وانه لا بد من أن تكون الطائفة الاخيرة لاسبانية . لان المسلمين ، لا سيما المفكرين أو الذين يقال انهم مفكرون منهم ، قد عمهم التشاؤم وفقدوا كل ثقة فى الاسلام ، وصاروا ينظرون الى كل مقاومة اسلامية لسلطة أوربية من قبيل حركة المذبح تحت السكين . ويقولون ان أوربا نائلة منهم كل مرادها لا محالة ، الى غير ذلك من العقائد السياسية التى زادت الاسلام وهناً على وهن ، والتى كان هؤلاء المفكرون يتبارون فيها اظهاراً لدرجة تعقلهم . وبعد أفكارهم عن الخيالات الا ان مصطفى كمال وعبد الكريم كذبا هذه المبادئ التى كانت سائدة

بينهم وان انهزام الاسبانيول عن الريف غير متعمدين الكرة عليه آخر مرة ، قد انعش
آمال المسامين ، وأثبت لهم عدم استحالة المقاومة الاسلامية للسلطة الأوربية ، بعد ان
كان القول بها عنوان التعقل ودليل بعد النظر . وان ظفر عبد الكريم القاطع ، فتّ في
عضد التشاؤم ، وجذب بضبع التفاؤل ، وصاروا يفكرون بمقتضى قول شاعر الجاسة :

قاتلى القوم يا خزاع ولا يلحقكم من قتلهم وهل
القوم أمثالكم لهم شعر في الحرب لا ينشرون ان قتلوا

نعم انهم لا يزالون خائفين على عبد الكريم من فرنسا ولكنهم أيقنوا بأنه يتأتى
للمسلم اذا ترجل وقام بالواجب عليه ، أن يصارع الأوربي ويصرعه . فلهجت الألسن
لاسيما في بلاد العرب والهند ، بذكر محمد بن عبد الكريم وأجمع الناس على أنه أحق انسان
بلقب « بطل الاسلام » ونشرت أخباره الجرائد الشرقية بالاعجاب ، والجرائد الأوربية
بالعجب العجيب ، والجرائد الفرنسية خاصة بالتشاؤم والارتياب . وظهرت عند الحزب
التوراني من الترك غيرة ونفاسة من عظمة عمل محمد بن عبد الكريم مع قبة وسائله ، فتسلوا
على ذلك بزعمهم أنه بربرى غير عربى ، وان أهل الريف هم من جنس البربر . ولكن
لحظنا أن الأمير محمد بن عبد الكريم يقال له الخطابى وهذا دليل على نسبه العربية ،
وسنشرع الآن في ترجمة حاله اذ أن كتابا في حاضر العالم الاسلامى ، لا يجوز أن يخلو من
ترجمة الامير محمد بن عبد الكريم فنقول : -

لا شك أنه ستشرف فيما بعد سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الريفى وتؤلف كتب
على وقائعه ، ومنشأه ، وأصله وفصله ، ويستفيض خبره عند الخاص والعام ، ولا يبقى شئ
من أمره مجهولا . أما الآن فانتا لا نعرف من خبر نسبه شيئا ثبتا ، وبلغنى أنه قد أخرج
أحد الفلسطينيين في ترجمة الأمير المشار اليه كتابا اطلعت على وصفه في جريدة « الشورى »
التي ظهرت حديثا بمصر ، ولكنى لم أقرأ فيما قرأته نقلا عن هذا الكتاب في « الشورى »
الا نعتة « بالخطابى » ولم أعلم ماوجه فيجوز أن يكون شريفا فاطميا ، ويجوز أن يكون
قرشيا ، ولكن لا بد للتحقق من الاطلاع . فاما ما عندى من المعلومات عنه ، فهو خلاصة
أخذتها من فم رجل شريف ادريسى ، يقال له السيد أحمد بن محمد الثمشان من أشرف
فاس وله علاقة ببلاد الريف ، وقد وجدت رواية عن وقائع الحرب تطابق أخبار الجرائد

الأوربية والجوائب الطارئة علينا من تلك البلاد.

قال لي ان السيد محمد بن عبد الكريم الذي هو أمير الريف اليوم هو من بني ورياغل من تاجدرت. و بنو ورياغل هؤلاء هم من القبائل الريفية العاتية على الاسبانيول، ومعهم بنو ثمانن، و بنو ولسك، و بنو تافر كسيث، و بنو توزين، و بنو سعيد،^(١) و يضم اليهم قسم من بني الطف، و بني بقيوه، و بني زرقط، و هؤلاء هم القائمون بجهاد الريف، و أكثرهم بربر و منهم عرب، و يوجد بجانبهم قبائل مثل قلعية، و المطالسة، و العبابدة، و كبذانة^(٢)، قال: وعدد الجيش الدائم الذي يقاتل الاسبانيول هو ٣٠ ألفاً، و إنما المقاتلة فيه تحضر بالمنوبة، كل ثلاثة أيام النوبة على قسم. و كثيراً ما قرأت في الجرائد الأوربية أن الجيش اليفي لا يتجاوز ٣٠ ألفاً، مع أنه يناوئ من ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف جندي منظم من الاسبانيول. و الأمير هو في نحو الثالثة و الاربعين من العمر، كان قاضياً عند الاسبانيول في مليلا، و كان تحصيله للعلم بما دريد، و كان الاسبانيول يحبونه جداً، و لكن وقعت له واقعة في مليلا تحمل عليه بها الاسبانيول، فخاصمهم، فلقوا به في السجن، ففر منه بان رمى بنفسه من النافذة، فأنكسرت فخذه و احتمله الاسبانيول الى المستشفى حيث بقي الى أن انجبر كسره، فلاطفه الاسبانيول و جلوه على البقاء في منصبه، و لكنه كان في نفسه قد آلى أن يفارقهم و يلحق بقومه. و بما هو متواتر أن سبب خصامه مع الاسبانيول، بعد أن تربى و نشأ و تولى القضاء عندهم، هو ما كان يراه من عسفهم بآبناء قومه، و احتقارهم للمسلمين، و معاملتهم اياهم بما يعامل به السيد عبده أو بما يعامل به سائر المستعمرين الأوربيين أهالي مستعمراتهم. و قد اطلعت في جريدة «الأومانيته» الاشتراكية الفرنسية، على فصل لكاتب اشترأكي اسبانيولي، بعثت به الى جريدة «السياسة» بمصر فعربته و نشرته، فان صح جزء من الأخبار الواردة فيه من طغيان الاسبانيول و تعديهم على حقوق المسلمين، و خبطهم اياهم بعصا القهر الى تجاوزهم على أعراض النساء، كان كافياً لأشغال هذه الثورة عند شعب مثل هذا الشعب الباسل،

قال لي الشريف الذي روى لي خبر محمد بن عبد الكريم: و كان الاسبانيول يومئذ

(١) و سلف هؤلاء من الاندلس

(٢) هؤلاء كانوا في البداية مذبحيين

في حرب مع أهالي الريف ، على حسب العادة باستمرار الحروب بين الفريقين . وكان لا يقدر مغربي على الخروج من مليلا الا باجازة من الحكومة الاسبانية . وكانت هذه الحكومة قد عهدت باعطاء الاجازات ووضع الاشارات على التذاكر الى ابن عبد الكريم نفسه . فاستأذنهم في الخروج من مليلا ، فلم يأذنوا له ، ففر من مليلا خفية الى تاجدرت من طريق البحر . والمسافة بينهما في البحر أربع ساعات . وقبل فراره كان عنده في البنك ١٧ ألف ريال فسحبها منه ، وقطع علاقته مع مليلا ، ووطن نفسه على قتال الاسبان .

وكان هؤلاء قد بنوا ٤٦٠ معقلا وثكنة للاجناد ، وشحنوها بالمقاتلة والعتاد ، وكانت كل قبيلة تقاثل في أرضها منفردة بدون نظام يجمع بينها . ولا علم يوحد حركاتها . فبمجرد وصول ابن عبد الكريم أبرم بينها اتفاقا أكيدا على الحركة الباطنة في وقت واحد فحصرت القبائل جميع هذه الثكنان وهذه الحصون ، وقطعوا عنها الماء فكاد يهلك الجنود الذين فيها عطشا فصارت اسبانيا تبعت اليهم بالجد والتلج بالطيارات لتبيل من ظمأهم . ولكن لم يطل الأمر حتى اضطروا الى التسليم بعد ستة أيام من وقوع الحصار . وكان في كل ثكنة مئات من العساكر ، فاخذهم المغاربة وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستحيوا الضباط وكانوا ٥٧٠ ضابطا فارسل الاسبان الى ابن عبد الكريم يلتمسون منه ارسال الضباط ، ويقولون له ان أرسلت الضباط نخل لك مليلا . فاجابهم . لا تريدان تخلوا مليلا ، ولكن ارسلاوا بمؤونة الضباط والاماتوا جوعا . فارسلوا اليه بملء باخرة ارزاقا ، ومعها مبلغ عظيم من المال . وقد هدم الريفيون جميع هاتيك الثكنان والنقاط العسكرية ، وأخذ كل ما فيها من سلاح وكراع ومتاع ، فكانت جلة الغنائم ١٦٠ مدفعاً ، و ١٥٠ رشاشا ، وبنادق لا تحصى ، وأمتعة لا يقع عليها حصر . وضيق المغاربة على مليلا ، وأحرقوا قطر السكة الحديدية والمحاط ، وفر كثير من الاسبانيول في البحر الى بلادهم . قال لي الراوي : ورشى الاسبانيول قبيلة « قلعية » و « بويحي » بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال ، فانحازوا الى الاسبانيول ، ولولا خيانة غمارة وبويحي وقلعية والعبادة لم يبق من الاسبانيول أحد في تلك الديار . قال : وبعد أن فاز الريفيون هذا الفوز اجتمعوا في محل يقال له « انوال » وانتخبت كل قبيلة قوداها ، ورتبوا ما يلزم للحرب ، وبدأوا بحفر

الخنادر ، وجعلوا جزاء على كل من يتخلف في النوبة عن الرباط ، وجزاء على كل من يترك الصلاة ، واتفقوا على قتل القاتل ، ورجم الزاني ، وقطع السارق . وهذه الحادثة وقعت من نحو ثلاث سنوات . اهـ

وسالت الشريف المذكور عن الرسول وما شأنه ، وما هي نسبته ، وما هي خطته في الريف فقال لي : ان الرسول هو من ذرية سيدنا عبد السلام بن مشيش الولي الكبير الحسني الادريسي شيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما . وله مقام بجبل العلم (محرقة) على مسيرة ستة أيام من فاس وثلاثة أيام من الريف . ومسكن الرسول في الريف هو بجوار غمارة ، والنجاس ، ووادرس ، وهي قبائل كثيرة يسكنها الرسول بأموال يأخذها من الاسبانيول . اهـ .

والظاهر ان الشريف الذي روى لي هذه الأخبار يشير بما تقدم الى الواقعة التي جرت سنة ١٩٢١ في شهر يوليو واستأصل الريفيون فيها ٢٥ ألف مقاتل ، وقيل بل أكثر من ذلك جداً ، وغنموا ١٧٠ مدفعاً على رواية الجرائد الأوربية ، و ١٠ طائرات و ٧٠ ألف بندقية ، ومقداراً لا يقع عليه الاحصاء من القرطاس المحشو ، وارزاقاً في غاية السعة ، وفي الحقيقة أن الريفيين يحاربون اليوم بأسلحة الاسبانيول وعددهم وعتادهم . وقد هجع الاسبان بعد هذه الواقعة نحو سنة ، ثم جهزوا بعوناً جديدة نحو مائة وستين ألف مقاتل ، فصادمها الريفيون بقلوب من حديد ، وردوها على أعقابها بنحسائر فادحة . ثم لما آل الأمر الى الجنرال دوريفيرا ، الحاكم بأمره اليوم في اسبانية ، وكان مذهبه ترك الريف ، أراد أن يطبق برنامجه هذا من التسحب الى ساحل البحر ، فثارت عليه الضباط والقواد ، ورأوا في التقهقر الى وراء امام قبائل بربرية وقوة غير منظمة ، ذلة ومهانة لا تليقان بدولة أوربية ، فالتزم مجاراة رجال العسكرية ، وذهب بنفسه الى مليلا ، وتولى القيادة ، وظن أنه آخذ قريباً بناصية عبد الكريم ، وصرح بذلك على الملأ . فلما بدأ القتال ، صلى من نار الريف بنار لم يقو على أوارها ، وبعد وقائع متوالية ذهب فيها من الاسبانيول أكثر من ٢٠ ألف مقاتل عاد الجنرال المذكور الى رأيه الأول ، وأخرست عظمة الخسائر الاسبانيولية بالمال والرجال أفواه أولئك الذين كانوا يرددون ويرقون ، بل صاروا راضين من الغنيمة بالاياب . فسحب الجنرال الجيوش الى وراء ، واختط خطاً في جوار سبتة

ومليلا ، يدور على منطقة صغيرة لا نعلم مقدار سكانها ، لكن يرجح أنه لا يكون أكثر من ٨٠ أو ٩٠ ألف نسمة . وقد كان الاسبانيول أثناء اخلائهم المراكز الريفية ، ونكوصهم على الأعقاب ، عرضة لمهاجمات الريفيين الذين كانوا لا يمهأونهم فواقا ، فلما دخل الأسبانيول المنطقة التي اختطوها لأنفسهم ، عدوا ذلك فوزاً عظيماً ، أى حسبوا ظفراً كونهم لم يهلكوا جميعاً . وعاد الجنرال ريفيرا الى مادريد ، بعد أن باء بالفشل وأصيبت جيوشه بالزايالوجية ، ولكنه قوبل في عاصمة الاسبان بمقابلة فاتح آب من الحرب بفتوحات عنراء وتلقى الأسبانيول خبر الانكماش الى سيف البحر والا كتفاء بمنطقة ضيقة جداً ، كبشري فرحوا وتهللوا بها . هذا بعد أن كانوا ينزلون صواعق النقم بمن تحدته نفسه بترك شبر أرض من الريف أو صلح مع عبد الكريم .

والنفس راغبة إذارغبتها وإذا ترد الى قليل تقنع

وصدق من قال : السيف وجهه أبيض . ولى في هذا المعنى من قصيدة :

فداً لجانا كل من يمنع الحى ومن ليس يرضى حوضه متهدماً
فما العيش الا أن نموت أعزة وما الموت الا أن نعيش ونسأماً
تأملت في صرف الزمان فلم أجد سوى الصارم البتار للسلم سألماً
ولم أر أنأى عن سلام من الذى تأخر يعتد السلامة مغناً
يقولون وجه السيف أبيض دائماً وما ابيض الا وهو أحر بالدماً
فان كان دفع الشر بالرأى حازماً فما زال دفع الشر بالشر أحزماً
تجاهل أهل الغرب كل قضية اذا لم يحى فيها الحسام مترجماً
وكابر قوم ينظرون بأعين ألامه الانسان أعشى من العمى

وقضية الريف هذه هى أيضاً من القضايا التي تجاهلتها أوربا ، ولم تفهم فيها أدنى نغية ، حتى جاء فيها الحسام ترجاناً فصيحا فأصغى اليه الجميع . وأتذكر اننا لما كنا في لندرة في يوليو سنة ١٩٢٢ لأجل الاحتجاج على مجلس عصبة الأمم عند ما قرر مايسمونه « بالانتداب » الفرنسى على سورية و « الانتداب » البريطانى على فلسطين ، تلاقينا في عاصمة انكلترة باثنين من جماعة الأمير محمد بن عبد الكريم ، أحدهما السيد عبد الكريم ابن الحاج على ، والثانى السيد محمد بن محمدى صهر الأمير ، وكانا موفدين من قبله الى الدولة

الانكليزية لأجل طلب وساطتها في الصلح ، فدارت بيني وبينهما أحاديث طويلة ، وكانا لم يحصلوا على جواب شاف من انكلترة على ما التمسنا ، فقلت لهما : « لا أظن أن انكلترة تقبل هذه الوساطة وهذا محافظة منها على رضى دولة اسبانية أولا^(١) ، ولما تعتقده من كون الاسبانيول لابد من أن تكون الغلبة الأخيرة لهم ثانيا . والذي أشير عليكم به هو أن تطلبوا الوساطة ، لكن بدون تهافت يشعر بالضعف ، لأن انكلترة لا تحب ضعيفاً . واتى على يقين بأن الانكليز إذا رأوكم قد ثبتتم في مواقفكم الى الآخر يعودون فيستمعون لكم » وهكذا حصل فبعد أن كانت الجرائد الانكليزية مثل التيمس ونحوها تعرض عن الريف والريفين ، وتصد عن كل كلمة صلح بينهم وبين الاسبان ، صارت تشير على هؤلاء بحسم هذه المادة ، وتتكلم في عقم هذه الحرب وضررها باسبانية ، وحسبك ان من جملة من ذهبوا الى وجوب مصالحة الاسبان للريفين ، أى الوقوف عن التجريدات والحملات ، هو لويد جورج ، في مقالة حررها بهذه السنة ولم يكن السبب في ذلك سوى مشاهدته الانكليز من ثبات الريفين مع النجاح .

وهذا لا يمنع من كون انكلترة تهوى هذا الصلح بشرط أن لا تتأسس في الريف دولة اسلامية مستقلة ، يكون شأنها مثالا لغيرها ، وتمتد شرارتها الى سائر المستعمرات ، لأن البلاد الاسلامية مهما تناءت بعضها عن بعض سريعة التأثير بعامل واحد . على أن الجرائد الانكليزية تشبه سياسة النكوص الاسباني عن الريف بحركة الانكليز في الهند الشمالية الغربية^(٢) اذ عول الانكليز هناك على التخلية بعد الدخول ، وقد ردت عليها بعض الجرائد الاسبانية بأن الفرق عظيم بين المكانين ، لأن بلدان الهند الشمالية الغربية خارجة عن

(١) وهذا هو تصريح مستر تشمبرلين وزير الخارجية يؤكده هذا الرضى والعطف . فقد نشرت جريدة « الاهرام » في ١٧ فبراير ١٩٣٥ ، برقية لمراسلها الخاص في لندن تحت عنوان (موقف انكلترا تجاه حرب الريف) مايلي : —

تكلم مستر تشمبرلين في مجلس النواب البريطاني اليوم . ومما قاله عن حرب الريف ما يأتي :
« يسرني أن أغتنم هذه الفرصة لأذكر صراحة جميع الأنباء التي ذاعت في طنجة عن حصول الريفين على عطف الحكومة البريطانية ومساعدتها في حملتهم على اسبانيا . فالحكومة البريطانية تعطف على الحكومة الاسبانية في المصاعب التي أمامها في مرا كش وقد رفضت في كل حين وما زالت ترفض اظهار أي رضى عن علاقات أو مخاطبات بين بعض الرعايا البريطانيين وعبد الكريم » . (العرب)

(٢) أفغانستان وما جاورها

الطرق العامة العالمية ، بخلاف الريف و « الجباله » الواقعة على مضيق جبل طارق ، وقد حثت هذه الصحف الاسبانية على اتحاد الدول الأوربية في وجه الاسلام واعتبرت تقهقر الاسبان الحالي أمراً مؤقتاً .

وقد اطلعنا على بعض مقالات واردة في الصحف الأوربية لمشاهدي عيان ذهبوا بأنفسهم الى الريف وتحادثوا مع الأمير ، وسبروا غور الأمور الريفية ، فمنها رسالة للكاتبين سبنسر برايز والكاتبين غوردون كاتنج ظهر تعريفها في جريدة الاهرام بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٤ نقلا عن جريدة « مانشستر غارديان » وهي التي تقدمت في هذا الكتاب وفيها فوائد شافية .

وجاء في جريدة الجورنال الفرنسيّة رسالة لمكاتبها المسيو جاك مارسيلياك ظهرت في الجورنال بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٢٥ أي منذ خمسة أيام ، يصف فيها الكاتب قرية اجدير مقر ابن عبد الكريم ، ثم يصف الأمير ، ويروي مادار بينهما من الحديث بحضور من يقول ان اسمه « ازرخان » وهو ناظر الأمور الخارجية في دولة الريف ، وسيدى عبد السلام ناظر المالية فيقول ان عاصمة امارة الريف المستقلة عبارة عن قرية صيادي سمك فيها مساكن عبد الكريم وأعوانه ، وكلها أبنية بسيطة ، ليس فيها شيء من صنعة البناء ولا تطاول البنيان . وذكر منها المقعد الذي استقبله فيه الأمير ، وليس فيه شيء سوى حيطان مجيرة بالكس البسيط بدون زخرف ولا نقش ، وبعض كراسي من المتاع المأخوذ من الاسبانيول . وذكر ان عبد الكريم هو في نحو الأربعين من العمر ، وفقاً لما تقدم من كلام الشريف أحمد بن محمد الثمان . وكذلك يقول مارسيلياك انه يعرج من احدى رجليه ، وهذا أيضاً مطابق لما سبق من رواية الشريف ، وانه متوسط القامة ، أسود العينين ، حاد النظر ، أفلج الأسنان ، ذو لحية سوداء خفيفة ، بسيط الملبس كل ما عليه جلابة من تحتها ثوب من القطن وهو محتد بابو جأصفر ، وليس في أصبعه خاتم ولا عليه شيء من الشارات المعتادة للامارة ، وعليه ملامح رجل ساكن ، رابط الجأش ، راجح العقل ، موفق الطالع وكثيراً ما يتبسم قال المكاتب : « صافني الامير ، ودخلنا في الحديث تارة بالاسبانيولي الذي يجيد الكلام فيه ، وطورا بالعربي الذي يختار المكالمة فيه بواسطة الترجمان ، لأجل أن يطلع أصحابه على معنى المحاوره

ولم يطل على الديباجة بل سألتني فوراً عن غرضي من هذه الزيارة فقلت له : لما كنت قد عقلت حركات الجيش الاسباني كنت شديد التوق الى معرفة ذلك الذي تمكن من تلك الطوائف الحربية عليه . ونحن نبغي أن نعرف في فرنسا ما هي غايتك من هذه الحرب ؟ أهى نشر لواء القتال لطرد الأجانب أيا كان ، أم هي مجالدة لأجل الريف فتى استقلال الريف كفى الله المؤمنين القتال ؟

فأصغى عبد الكريم الى الآخر ، شأنه في جميع مفاوضاته ، ثم قال : عرفت ماذا تريد أن تسأل عنه . ان الجنرال دو ريفيرا وأصحابه أرادوا أن يحدثوا شبهة ، بأن يذيعوا كون مرادنا حرباً دينية لا حرباً وطنية ، وأن مرمانا هو ن نطرد من المغرب جميع الافرنج ، فهذا كذب : نحن نريد الريف ولا نريد غير الريف .

فقلت له : ان بعض الناس ممن لهم خلطة بك يزعمون أن مرادك الوثوب على المراكز الفرنسية في « ورغا » ، واذا خرقتها زحفت الى فاس حيث يبايعك القوم سلطانا على المغرب في جامع سيدى ادريس .

فقال : هذه كلمات مسلوب من العقل ، وأنا والحمد لله أظن نفسي عاقلاً .

فقلت : مع ذلك وجد بين المقاتلة التي صدت جنودنا على الحدود التي لم تتجاوز فيها على الريف رجال من ربعك . فأنت تكون في مقاومتك للسلطان قد هاجت فرنسا .

قال : صحيح انه كان بعض رجال من جاعتي بين الذين قاوموكم في زحفكم هذه . وذلك أنني كنت راجعتكم بعدة كتب ، أسألكم فيها ماذا تبتغون من هذا التقدم ، وما هي المراكز التي هي هدفكم ، فأبتم الجواب . ومن جهة أخرى كان رؤساء الناحية يستصرخونني ويتذمرون من عدم اعتنائى بهم ، وعليه فأتم تدرون المركز الذي وجدت فيه حينئذ . فانا لست عدوا لفرنسا بل أنا باغى الاتفاق معها . وفي أثناء أزمات شديدة كنتم تعانونها كان كثير من الزعماء يحرضوننى على القيام والزحف عليكم ، فكنت أرفض اقتراحهم لا بل أشير عليهم بمصالحكم وطالما كتبت لكم عن ذلك ولكن ولا مرة حظيت منكم بجواب ، ولا لمجرد المجاملة .

فقلت له : وأنت أيضاً ينبغي لك أن تعرف مركزنا في مسألة الريف ، فانا نحن مقيدون بعهود نعترف بها لاسبانية بأنها هي وحدها صاحبة الريف .

فقال الأمير : الريف هولى ولأصحابي أهل البلاد ^(١)
 فقلت : لماذا لم ترفعوا احتجاجاتكم في وقتها ؟ ولماذا لم تؤيدوا حقوقكم يوم
 انفصلت قضية المغرب في مؤتمر الجزيرة ؟
 فقال : ان عهد الجزيرة كان ضامناً لنا جميع حرياتنا الاقتصادية ، والتجارة ، والدينية
 فنذا ابتدأت اسبانيا بغصب حقوقنا ، رفعنا احتجاجنا . وطالما نهبنا أنا الحكومة الاسبانية
 الى المظالم والمغارم التي كان رجالها يرتكبونها ، وبينت لها الطريق المضلة التي تسير عليها
 فلم يشأ الاسبان أن يلتفتوا الى كلامي . ^(٢)
 فقلت له : أ كدوا لي في تطاون انك تنوى محاربة فرنسا ، وان نيتك هذه قديمة
 منذ سنة ١٩١٤ اذ أردت اثاره القبائل علينا وهربت اليهم السلاح .

فثار دم عبد الكريم عند هذا السؤال الخشن وقال بحدة : لما كنتم في نضال مع
 عبد المالك كانت سيرتي معكم معروفة . وأما تهريب السلاح فقد كنت عاملاً عند الاسبانيول
 لما حصل وكانت قوافل السلاح تخرج من مليلا تخفرها ضباط الاسبانيول وهي لتجار
 المان . ولقد أثبت بعد مصير الريف الى رياستي انني أود الاتفاق مع فرنسا . ولقد جاءتني
 كتب من المغرب ومن جميع بلاد الاسلام تحثني على قيادة الحركة لطرد كل رومي من
 المغرب ^(٣) فأيت ذلك حباً لسلام معكم . أما أتم فكنتم دائماً تقابلون تقربي اليكم
 بالانقباض ، ومنعتم أن تمر في منطقتكم الى أقل الاشياء ، فلم تسمحوا بمرور حتى أدوات
 الحرث ، والمجارف ، والمعاول ، والجير ، والزيت اللازم للاوتوموبيلات .

فقلت له : أظن اننا اذا تكلمنا بحرية نجد الفرنسيين في هذا غير مخطئين . اذ متى
 اعتقدنا أنك ستهاجنا في أحد الأيام ، فلماذا نسمح لك بمرور المعاول والمجارف ؟ أفلاجل
 أن تحفر بها خنادق للقتال ؟ أو نسمح لك بالكس لأجل أن تشيد به موانئ للرشاشات ،
 وبمادة لتسير السيارات الكهربائية لأجل سرعة حركة أركان حربك . فهذه المواد ان لم

(١) على قاعدة مصر للمصريين وسورية للسوريين والريف للريفيين

(٢) سيرة الاستعمار واحدة في جميع البلدان

(٣) هذه رواية مارسيلياك الفرنسي عن عبد الكريم ، ولا ينبغي أن تتلقى جميع ما يرويه آية منزلة ،
 لأن الصحفيين الأوربيين لا يرون الا ما في اذاعته مصلحة لدولهم . واذا لم يجدوا بدا من النقل زادوا
 وتقصوا ، بحسب مقتضى مصلحة قومهم

نمنعها نحن رعاية للعهود مع الاسبانيول ، منعناها من أجل الشبهات التي عندنا من جهتك أفترى الحرب الدينية مستحيلة الى هذه الدرجة ؟ على أن فرنسا لم تزل تحترم دين البلاد التي تحتلها كما هو في المغرب وسائر مستعمراتها .

فقال : قلت لك انني أعتبر فرنسا نوعا من ملكة للاسلام ، ولا أقول انها تضطهد المسلمين وأنا ممن يرى اطلاق الحرية الدينية للمسيحيين أيضا في بلادنا . فهذه الاديان كلها صالحة ، ديانتم صالحة لكم ودياننا صالحة لنا . ويكفي للاتفاق في هذه النقطة وغيرها صدق النية وحسن الارادة من الجانبين

قلت له : اذا ان صرت أميراً للريف غير مدافع ترضى بدخول الأجانب الى مملكتك فاجاب : هذا بدون شك . أفلا ترى كيف نعامل من يقدم علينا من الفرنسيين ، وكيف قوبلت أنت . اننا لذوو رغبة أكيدة في الاخذ والعطاء معكم لتتجروا عندنا ونستفيد من أساليبكم .

قلت له : وفي ورعاً ! أفلا ترى لنا حقاً أن نصل الى حيث وصلنا ، أم أنت تبغى مهاجمتنا هناك ؟

قال : هذا الحد هناك لا أعرفه جيداً ولا أضن ان قد جرى هناك تخطيط حدود بين المنطقتين . مع هذا أنا مستعد للمناقشة في هذه المسئلة مع الميل الاكيد للتسوية . انني لست برجل سياسى وأرى الاولى الحرية والصراحة في القول ، فانا أرجو منك أن تقول علنا انني أود الاتفاق مع فرنسا وانني أبذل كل ما في طاقتي في هذه السبيل .

قلت له : اسمح لى أن أراجعك أيضا في مفاوضة اسبانية معك في الصلح واشترطت عدا أداء الغرامة تسليم معدات حربية ، لاسيما من المدافع ذات العيار الكبير ، فالى من توجه هذه المدافع ؟ بديهي ليست موجهة نحو الاسبانيول لأنك ستصالحهم . اذاً مرادك بأخذها حرب فرنسا .

فتبسم عبد الكريم ساعتهئذ . وقال : ان المفاوضة المذكورة لم يكن هو الذي تولاهها ثم قال : هذه مساومات فعلى فرض اننا لم نحصل على الذي طلبناه كله فلا ينبغي من ذلك تعطيل كل شيء .

وصلت عند ذلك الى مركزه بازاء سلطان مرا كش وهي أدق المسائل . وكنت أعلم

ان الكثيرين رغبوه في اعلان الخروج على السلطان وأن يتخذ هو لقب سلطان لنفسه . ولكن عبد الكريم ظهر بمظهر رجل حكيم موزون العقل ، لم تسكره فتوحاته المدهشة ، ولا أضع في ظفره الحزم والروية ، فانه أقنع أصحابه بالاكتفاء بلقب « أمير » ولذلك مغزى كبير اذ لورضى أن يحمل لقب « سلطان » لصعب عليه فيما بعد أن يطيع سلطان مراكش . ولقد تلطفت كثيراً معه في المدخل بهذه المسئلة ، وتحوط كثيراً بحيث للأسوءه عند ذكر السلطان مولاي يوسف الذى يسميه أعداؤه « بسلطان الفرنسيين » . فأجابني : كتبت اليه مراراً بأن يضع حداً لتعدى الاسبانيول بما له من صفة سلطنة المغرب ، فلم يجاوبني ولا مرة .^(١)

فقلت : وهل تابى أن تعترف به الآن سلطاناً للمملكة الشريفة كما قد يطلب منك الفرنسيين ؟

ففكر قليلاً ثم قال : ولماذا لا ؟ وان الفرنسيين ماهرون في ايجاد الصيغ . فليجربوا العمل فقد يجدون صيغة يمكن أن أرضاها » انتهى .

من تأمل في هذا الحديث مع كونه من الممكن أن يكون الراوى الفرنسيوى اختزل بعض مالا يوافق منه ، يحكم بدهاء محمد بن عبد الكريم في السياسة ، وبعد غوره في المفاوضات الدولية ، وتحاشيه مالا يفيد من الكلام ، ويقول انه أهل لما صار له ، وانه أصبح الخوف عليه قليلاً ، الا ان طراً ما ليس في الحساب .

أما فرنسا ، وهل تقنعها تأكيدات ابن عبد الكريم المكررة بحبه لها وخطبته لولائها ! لانتقد ذلك أبداً . انما نعتقد انها مادامت أحوالها المالية غير مساعدة لها فلا تعلن عليه حرباً ، وتكتفى بمصانعة ، كما يريد هوان يصانعها . وما تجده يكرر من خطبته ولاءها الا لما يعلم من ثقل ظفره على كل أوربا ، ولا سيما على فرنسا ، وما لا يخفى عليه من تحفزها لصدده وتوجسها خيفة مجده . فهو يحاول أن يسكن روعها بالتودد ، ويخدر أعصابها بالقول اللين ، وكل هذا يدل على عبقريته في ادارة السلم ، كعبقريته في ادارة الحرب .

فدحت في أهل الريف الرزايا ، وعظم نقصهم في الأنفس والثمرات ، وفشت فيهم الجراحات والعاهات ، وعضتهم المسغبة بأنيابها ، مما هو كله بديهي بالنظر الى فقرهم ،

(١) لانه مادام الفرنسيين لا يجاوبون فولاي يوسف لا يقدر أن يجاوب

وضيق أراضيهم ، ووعورة مسالكهم ، وتأخر المدنية في بلادهم ، مع تفوق عدوهم عليهم في كل الوسائل . ولقد مضت على الريف بضع سنين وهم في أشد بلاء ، وأعظم كرب ، وتولوا كبر هذه الحرب ، ولم تمتد اليهم يد مسعف ولا منجد من جميع العالم الاسلامي برغيف خبز ، ولا ضمادة جرح ، ولا زجاجة حامض فينيكي . وقد كان الأمير محمد بن عبد الكريم خايط العالم الاسلامي بمنشور بعث به منذ ثلاث سنوات مختصا به مسلمي الهند ، والصين ، والافغان ، والجاوى ، فلم يعج بالترك ، ولا بالعرب ، ولا بالمصريين ، ولا بالمغاربة لعلمه ان الترك هم في شغل عنه وعن غيره . وان العرب يكفيهم ما هم فيه من التخاذل والتواكل ، فيما هو أدنى اليهم من الريف فاظنك بالريف ، ولا بالمصريين لما هم فيه من الانصراف الى مسألة مصر دون غيرها ، حتى في الأمور التي ليست من السياسة . ولا بالمغاربة لثقل الضغط الواقع عليهم الحائل دون أدنى مساعدة للريف من جانبهم . وكذلك لم يكتب في منشوره الى أولئك كلمة يستمدهم فيها الاعانة بالمال أو القوات ، وانما عرفهم انه مع العدو المعتدى في جهاد .

وكننت فيما أظن ، أول من نبه في الصحف السيارة الى وجوب اغاثة الريف بمعالجة الجرحى ، ومسك ارماق الأطفال والعيال الذين برحت بهم هذه الحرب الضروس . وحررت في ذلك النداء تلو النداء ، فلم أحس أدنى نجدة . ثم تصدى لهذا الموضوع الأستاذ الفاضل الشيخ فراج المنيأوى رئيس جمعية تضامن السادة العلماء بمصر بعد خطاب ورده من معتمد امارة الريف بطنجة ، فنشر نداء في الجرائد المصرية لم يكن فيه الا كالنافخ في رماد . ولكن وردت الأخبار الأخيرة بأنه جدت حركة في الهند لارسال بعثة طبية الى الريف لمعالجة الجرحى والمرضى . وقد بدأ بعض الناس بمصريتهم ببناء شىء ، فربما تهتاج الحياة ، وتأخذ القلوب الرأفة ، فيزداد التبرع ولا ينحصر في مصر والهند . وقد اطلعنا على رسالة واردة الى الاهرام بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥ بمضاء « محمد سعد الدين الجباوى » الذى يقول انه كان هناك فن الاطلاع عليها غنى عن التعريف بالحال الحاضرة في الريف وهي هذه :

« عدت من الريف منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن مكثت به مدة من الزمن ، وقد تحملت مشاق ومخاطر في سبيل الوصول الى تلك الديار يعجز قلبي عن سردها . وأهم تلك الموانع كان اجتياز الحدود الفرنسية الريفية تارة ، واختراق المناطق العسكرية الاسبانيولية ليلا تارة أخرى ، بين الجبال ، وذلك في منطقة الرسولى التي يطلق عليها اسم « الجبالا » وقد حيل

يبنى وبين الوصول الى حدود المنطقة المذكورة من قبل الرسولى ، حتى أرغمت على العودة بعد اجتيازى مائة وخمسين كيلو مترا فى مرتفعات صخرية صعبة المسالك ، الى أن تمكنت من الدخول عن طريق « وجدة » و بلاد « المطلسة » رغما من المراقبة الفرنسية ، وذلك بواسطة مندوب الأمير ورجاله ، الذين يدخلون ويخرجون الى المنطقة المذكورة بقصد شراء مواد اقتصادية .

«وقد كنت ضيفاً مدة وجودة كلها بالريف، فى منزل دارجهورية الريف ومع وزير الداخلية القائد يزيد ، الى أن اقتضى الحال عودتى الى هذه الديار السعيدة لطلب النجدة والمعونة من هذه الأمة النبيلة ، وهذا الشعب الكريم ، ولاشك انهم ملبون الدعوة لتكوين هيئة صحية ، باقرب مايستطاع ، وارسالها باسم الهلال الاحمر لاسعاف المجاهدين عن أوطانهم والمدافعين عنها بكل ماأوتوا من قوة .

«وبهذه المناسبة تنق على صفحات جريدتكم الغراء صحة الاشاعات التى أشيعت على لسان الجرائد الأجنبية ، وبالأخص منها الفرنسية من أن بالريف ضباطا من الترك والالمان ، وان هناك أجانب يبيعونهم أسلحة ، وكذلك تنق ماأشيع منذ مدة من أن الهلال الاحمر العثمانى أرسل بعثة صحية .

«ويعلن الريف الى العالم انه ليس للمجاهدين بالريف كبيرهم وصغيرهم ماآرب الاستقلال التام ، وهم يدافعون عن أنفسهم غير مأجورين من رئيس جمهوريتهم الأمير عبدالكريم، ولا مرغمين من حكومتهم على ذلك. وهم وحدهم بشجاعتهم وقوتهم المعنوية وأساليبهم الحربية ، وذكائهم الفطرى ، حصلوا على كميات وافرة جداً من أعدائهم الاسبانيين من مدافع ميدان مختلفة العيارات ومدافع مترليوزات تعد بالمئات ، عدا بضع طيارات ، وكذلك لديهم جميع ما يحتاج اليه هذا العدد الوافر من الذخائر الحربية المتنوعة.

«وقد كان لبعض الجنود الريفيين الذين كانوا يخدمون فى الجيش الاسبانى قبل هذه

الحرب نشاط عظيم فى تعليم أبنائهم استعمال هذه الأدوات الحربية بطريقة فنية ، حتى أصبحوا اليوم كما يعلم العالم ، قادرين ان شاء الله على مقاومة أكبر عدو يريد الاعتداء على استقلال بلادهم .

وهم يعلنون للعالم أنهم لا يريدون من هذه الحرب الاستقلال بلادهم ، وهم يحترمون

المناطق المجاورة لهم إذا احترمت مناطق حدودهم ، والريف يفضل الاتفاق مع أقرب جارة من الدول اليه للاشتراك في استخراج معادنها ، اذ تكون المنفعة متبادلة بين الحليفين ، اذ لا يمكن لأمة على الأرض أن تعيش وحدها منقطعة عند العالم .

«والشعب الريفي يرجو تذليل صعوبة الطريق ، ويرجو ذلك من الأمة الفرنسية وحكومتها في داخل منطقتها للهيئة الصحية المنتظرة اذ يكون هذا التسهيل اعلانا للرغبة في توثيق عرى المحبة والوداد بين الريف وبين فرنسا .»

محمد سعد الدين الجباوى

ولانظن الا أن العالم الاسلامي يعطف أخيراً على الريف ، ويلبي استغاثة أهله ، لاسيما وقد جاء منهم هذا البطل العظيم أحسن الله عاقبته .

التعصب الاوربي أم التعصب الاسلامي؟

الاول هو الأشد بشهادات شهود من أهله

ومائة مشروع لتقسيم تركيا

للمشركين

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصبا^(١) ولا جفاء وان تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورهم في الدماء ومن استئصلهم شأفة المسلمين من الاندلس، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية، مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول، فقد عني الأوربيون كل أثر للإسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد، حال كون الترك الذين يقال أنهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدررون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب. وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية. وقالوا ان السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية، وأحب اخراجهم، وقيل بل السلطان سليم، وبان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول: ليس لنا عليهم الا الجزية. والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذي هذب الأتراك وحالينهم وبين طرد المسيحيين من

(١) راجع صفحة ١٥ من الجزء الاول

ديارهم ، فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس واساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جلوهم بأجمعهم عن ذلك القطر الذى أوطنه العرب زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجوز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هذا مبلغ وداعتها وتساعها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحريماً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الاوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم محبوبين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بمرب الأندلس قالوا ذاك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سلمنا بكونها جرت في القرون الوسطى فماذا يقولون في الموبقات والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الأوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بافريقية الوسطى وشمالى افريقية والكونغو والسودان المصرى وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الأوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلىء الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والممجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملى واستباحوا حرمهم أو الأروام مسلمي غربي

الأناضول ، لم تجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قليل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتدالات سبقتها ويجهتد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه ولما نجد عليه جواباً سديداً ، ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يتعمد تعمية الحقائق

قد ذكرنا هنا البراهين الساطعة على كون تعصب الأوربيين على المسلمين يفوق مررات تعصب المسلمين على الأوربيين . وأوردنا على هذه القضية الشواهد المحسوسة التي لا تقبل المكابرة . وما أتدكره أن أحد وزراء الدولة العثمانية - رجعها الله وجزاها عن الاسلام خيراً - كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال دول أوربة فيما يتعلق بهذا الموضوع . فقال لهم الوزير العثماني : « اننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرنس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا الى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم . ولقد مررت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على أن لا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للاسلام . فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخطر أصلاً وكان اذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويحاجه مثل زنبيلي على افندي شيخ الاسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك أن ترعجهم عن أوطانهم . فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف . فبقى بين أظهرنا حتى في أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . أما أتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه اذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر . ولقد كان في اسبانية ملايين وملايين من المسلمين وكان في جنوبى فرنسة وفي شمالي ايطالية وفي جنوبىها مئات ألوف منهم ولبشوا في هاتيك الأوطان أعصرأً مديدة وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالاسلام . ولقد طفت في بلاد اسبانية كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم » فاما سمعوا هذه المقارنة بهتوا ولم يحيروا جواباً . وبعد ايراد هذه الرواية

لأحد كبار الاسلام يجمل بنا أن نورد شواهد من كلام رجال النصرانية أنفسهم حتى يصح لنا أن تتمثل بالآية الكريمة من سورة يوسف : « وشهد شاهد من أهلها » أو بالآية الكريمة من سورة الأنعام : « وشهدوا على أنفسهم » فنقول :

قد ألفت « هنرى دو كاسترى » Henry De Castries كتابا اسمه « الاسلام » ذكر فيه الأوهام المتراكمة في أوربة بحق الاسلام فن شاء فليرجع الى هذا الكتاب وقد كتب قولتير نفسه في كتابه « بحث في عادات الأمم وأرواحها » وفي كتابه الآخر « القاموس الفلسفى » كتابة مؤثرة عن هذه القضية وأشار الى الأغاليط والضلالات التى ارتكبها كتّاب القرون الوسطى بحق المسلمين وأورد حقائق فى هذا الباب لا يزال الأوربيون يجهلونها الى هذه الساعة

وقد نقل اسماعيل حامد مؤلف Les Mosulmans Français Du Nord De L'Afrique فى فصل من كتابه عنوانه « التسامح الاسلامى » عن الأب « برولى » L'Abé De Broglie ما يفيد أن الأب المذكور — وهو قسيس شهير — قد أطرى ما كان عليه أبو بكر وعمر من الصدق والاستقامة وشدة الذكاء وقال انهما كانا أعلى كثيراً من القياصرة والملوك المسيحيين الذين كانوا يقانلونهما

ونقل اسماعيل حامد — وهو من الجزائريين المتفرنسين — عن الأب ميشون مجلة استشهد بها أيضاً « دو كاسترى » والدكتور « غستاف لوبون » وهى هذه : « ان من المحزن للامم المسيحية أن يكون التسامح الدينى الذى هو أعظم ناموس للمحبة بين شعب وشعب هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين »

ونقل دوزى المستشرق الهولاندى عن « بوركارد Burckhard »^(١) الذى يعده دوزى أعرف سائح بأحوال العرب أنه قال عنهم انهم أشد الأمم الأسىوية تسامحا

وقال الدكتور « برون » Perron فى كتابه L'Islamisme : « ان من احسن فضائل المسلم انه متسامح مع من يخالفه فى الدين تسامحا عمليا »

وقال الكاتب الاسبانيولى « رافائيل كونتره راس » Contreras : « ان كثيرين

(١) سائح سويسرى ولد فى لوزان كان أول أوربى دخل الى مكة والمدينة وقد كانت وفاته سنة ١٨١٨

من المسيحيين الذين يعدهم الاسبانيول شهداء لم يكونوا ليقتلهم المسلمون لو اكتفوا بان يعتقدوا بالمسيحية ويسكنوا ولم يذهبوا حتى ابواب الجوامع يقدفون بعقيدة المسلمين في وجوههم »

ثم ذكر اسماعيل حامد الادوار التي مرت بها النصرانية في بلدان المغرب بعد ان علت فيها كلمة الاسلام وقال انه بعد ان اسلم اهل المغرب بقرون بقيت فيه كنائس واسقفيات أتباعها من اهالى البلاد ولم تزل لهذه الاسقفيات بقايا حتى الى ما بعد زحفة بنى هلال على المغرب . وكان في قلعة بنى حماد مركز اسقفية وقد كان النصارى هناك يعاملون بمزيد الرعاية . ثم انه كانت اسقفيات في قرطاجنة وغومي والقلعة في المغرب الشرقى فدرست في ايام البابا اينوشاينوس الرابع ولكن بقي نصارى متفرقون في البلاد وصارت امورهم الدينية راجعة الى اسقفية فاس في المغرب الاقصى . وقد ذكر البكرى انه في القرن الثانى عشر للمسيح كان في تامسان كنيسة وطائفة من المسيحيين وقد نقل « ماسنترى » عن ليون الافريقى انه كان في سنة ١٥٥٠ قبل مجئ الاتراك الى تونس طائفة من المسيحيين في هذه البلدة وكان المسلمون يعاملونهم بكل رعاية . فانقراض النصرانية من شمال افريقية لم يكن بسبب اضطهاد واقع من المسلمين على المسيحيين بل كان المسيحيون يعادى بعضهم بعضا كانت أساقفتهم تتزاحم على الرياسات . ثم اخذت علاقات الاساقفة مع روما ترتخي بمرور الايام حتى انتهى الأمر بأن المسيحيين الباقين دخلوا من انفسهم في الاسلام . واما في اسبانية فكانت حرية المسيحيين في ايام العرب اكثر منها في ايام القوط انفسهم كما يعترف بذلك المؤرخ دوزى الشهير ولم تقتصر الحرية الدينية على المسيحيين بل بلغ منها ان المجوس عبدة النار كانوا يقيمون شعائرهم علنا في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وكان الأمير حَبُّوس البربرى صاحب غرناطة مستوزراً رجلا يهوديا بلغ مقاما عظيماً ولم تشعر اسبانية بشئ من التعصب الاسلامي الا في عهد المرابطين الذين كانوا أحامس في الدين . ولكن المرابطين كانوا من البربر وكانت فيهم شدة فطرية ومع هذا فان ابن خلدون يروى انه كان عند المرابطين جيش من المسيحيين كان له قائد يدعى « زُوْبُور تايَار » وقد كانت العادة ليست عند المرابطين فقط بل عند جميع الدول التي تعاقبت على

مراكش وتلمسان وتونس واسبانية ان تستخدم جنداً من النصارى وكان هؤلاء يتمتعون بجميع حريتهم الدينية وقيمون شعائرهم واذا ذهبوا الى الحرب يكونون جيشاً مستقلاً بنفسه بين جيوش المسلمين وكانت الحكومات المسيحية تأذن لهم في الخدمة في بلاد الاسلام . ومن امتاز برعاية المسيحيين عبد المؤمن بن علي رأس دولة الموحدين فقد عقد معاهدات مع الجنوية واهل يزا وغيرهم واطلق لهم الحرية أن يتجروا في بلاده وأذن للربان الفر نسيكانيين والد ومينيكانيين في دخول بلاده واقامة شعائر الدين المسيحي بين الاوربيين الطارئين اليها للتجارة . وروى ماسلترى Maslatrie ان الاوربيين الذين كانوا في المغرب تكاثر عددهم سنة ١٢٢٣ مسيحية الى ان استأذن البابا هونوريوس الثالث من سلطان المغرب لذلك العهد ان يجعل على رأسهم اسقفاً فأذن له .

ولما جاء القديس لويس ملك فرنسة يحاصر تونس كان في جيش المستنصر الحفصي أمراء من المسيحيين الأروبيين مثل « فريديريك القشتالي » « وفريديريك لانزا » وكذلك كان « الفونس غوزمان » قائداً في جيش أبي يوسف بالمغرب وكان جميع هؤلاء النصارى يعيشون بين المسلمين مع عائلاتهم كأنهم في بلادهم وطالما كان النصارى والمسلمون في ذلك العهد في اسبانية يزوج بعضهم بعضاً ، وكثيراً ماتزوج أمراء المسلمين بمسيحيات ويهوديات . وحسبك أن عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح الأندلس تزوج بارملة لوزريق ملك الأندلس الذي غلبه العرب . وتزوج الأمير عثمان بن أبي نسعة بالأميرة لامبيجيا ابنة دوق اكيثانيا . وقد كانت فلورا المسيحية التي ماتت شهيدة بحسب قول المسيحيين سنة ٨٥١ مسيحية في قرطبة مولدة من أب مسلم ووالدة مسيحية وكان اخوتها مسلمين . وكان نبلاء الرومانيين في اشبيلية قد أسلموا وتزوجوا من المسلمين . مثل « بنى أنجلينو » و « بنى ساباريكو » كما ان بنى حجاج من البطون العربية الشهيرة في اشبيلية كانوا من جهة الأم سلالة غيطشة ملك اسبانية قبل لوزريق . وكان الأمير بكر من أمراء « شانتَمَريَّة » الغرب ، حفيداً من جهة الأم لرجل مسيحي ، وكانت جدة الحاجب الشهير المنصور بن أبي عامر مسيحية أيضاً . وكانت زوجة الخليفة الحكم صبيحة المشهورة من أمة الباشكُونس . وفي أواسط القرن الحادى عشر للمسيح أسلمت أسرة مالكة في أرغون اسمها بنو قِصَى أصلهم

من القوط . ويقال أيضا ان عائلة بنى خطاب من مُرْسِيَّة أصلهم كذلك من القوط ويظنون انهم من سلالة تدمير صاحب أَرْيُولِه . ومن المعلوم ان ولد المنصور بن أبي عامر الذى ذهب الملك من يده كان اسمه شَا نَجُول لان أمه كانت بنت شانجو ملك ناغار وقيل ان على بن حزم وزير عبد الرحمن الناصر كان من سلالة عائلة مسيحية من « نبله »

وفى سنة ١٢٣٠ مسيحية كان المأمون سلطانا فى مرا كش وكانت عنده حلائل مسيحيات وكانت احداهن حبيب أم ولده الرشيد مسيحية وكان عند المأمون جيش من النصارى نحو من اثني عشر ألف مقاتل . وظالماتلب الباباوات من ملوك المغرب أن يعطوا هؤلاء القواد من المسيحيين بعض القلاع البحرية ولكن الملوك كانوا أحذر من أن يرضخوا لهم بذلك خوفاً من مغبة هذا الأمر

وقد ورد فى الاستقصا للناصرى السلاوى عن جيش النصارى الذى كان عند المأمون المتقدم الذكر ماملخصه : ان الموحدىن بمراكش خنقوا الملك العادل وبايعوا أخاه المأمون وكان فى اشبيلية ثم بعد انفصال البريد ندم الأهالى وبايعوا ابن أخى المأمون يحيى بن الناصر ولكن المأمون نشر بيعته على منابر الأندلس وأعمل فى الحركة الى مراكش ولما وصل الى الجزيرة الخضراء بلغه انتفاض الناس عليه فكتب الى ملك قشتاله يستنصره على الموحدىن ويسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدو لقتال يحيى ومن معه ، فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلى بلاده يختارها هو وان يبنى بمراكش اذا دخلها كنيسة لجيش النصارى الذين يكونون معه وأن يضر بوا فيها نواقيسهم وان من أسلم منهم لا يقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك فأسعفه المأمون فى جميع ماطلب منه . قال : ودخل المأمون الى العدو ومعه اثنا عشر ألفا من جنود النصارى وقال انه هو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب . وروى أنه لما مات كان فيمن أخذ البيعة لولده الرشيد فرنسيل قائد جيش الفرنج وذكر الناصرى اسم زوجة المأمون أم الرشيد وقال ان اسمها حباب وكانت فرنجية الأصل وكانت من دهاة النساء

وفى مقابلة هذه الشواهد من أخبار تسامح المسلمين وصفاء سرائرهم نذكر الآن مايقابلها من حقد الأوربيين وشدة شنائهم للمسلمين ويكفى من القلادة مأحاط بالجديد لان

الاستقصاء متعذر ومما يضيق عنه هذا الكتاب فنأتي أولاً على ذكر الحروب الصليبية التي أشار بها الباباوات رؤساء الكنيسة الذين هم خلفاء عيسى رسول السلام الناهي عن كل مقاومة والامر بان من ضرب على خذه الأيمن يدير لضار به الخد الأيسر فنقول: —

جاء في تاريخ الباباوات تأليف المسيو فرناند هايوارد Fernand Hayward وهو مؤرخ كاثوليكي المشرب أن البابا سيلقستر الذي عاش في أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول من نادى المسيحيين في أوروبا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم وكان البابا المذكور افرنسيا وكان من العلماء في اللاهوت والطبيعيات والطب والفلسفة وهو الذي كان يدعى جربرت Gerbert تلقى العلوم في اسبانية أيام العرب عندما كان راهباً وهو الذي أدخل الأرقام العربية الى أوربة وكانت معارفه في ذلك الوقت مما يجهد الأوربيون . أما دعوته المسيحيين للزحف الى الشرق واستنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين فلم تصادف في ذلك الوقت الحاسة اللازمة لها . لأن أوربا لم تكن مستعدة لحرب كهذه . وفي سنة ١٠٧٤ استنجد ميخائيل الثاني قيصر بيزانطية البابا غريغور يوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية . ففي ذلك الوقت فكر البابا غريغور يوس في اصلاء الاسلام حرباً صليبية يهاجم بها الترك في الشرق والعرب في الغرب لان العرب كانوا في صيقلية وأطراف ايطالية . ويقول المؤرخ المذكور ان غريغور يوس السابع هو أول بابا فكر في مناشبة المسلمين حرباً صليبية ولكن لم تدخل هذه الفكرة في حيز الاجراء الا في زمان البابا اربانوس الثاني .

قال انه كان قد مضى قراب مئة سنة وأوربا تحدث نفسها بالزحف صفاً واحداً لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة الا انه لما توالى من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بأن ينصر مسيحي الشرق على المسلمين توجه البابا اربانوس الى فرنسا وطاف في كثير من مدنها وعقد مجمعاً في كليرمون Clermont في سنة ١٠٩٥ في ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومثتان وخمسون مطرانا وأربعمئة قسيساً ممن يقال لهم أنصاف مطارين وبعد أن تذاكروا في مسائل كنسية خرج البابا الى ساحة فسيحة تسع الجمهور وخطب الشعب قائلاً : ان شعبا ملعوناً قد اجتاحت بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وعذب المسيحيين وهتك الأعراض فمن ينتقم لهذه الاهانات سواكم أتم

معشر الفرنسيين الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب في الشجاعة فتذكروا ما ساء آباءكم وأعيدوا ذكرى شارلمان وابنه لويس وملوككم الآخرين الذين قاتلوا ملوك الاسلام وان أهم مايجب أن يحرك شعوركم هو استخلاص قبر الخالص والاستيلاء على الأماكن المقدسة التي استولى عليها شعب غير طاهر فيما أيها الشجعان سلالة أولئك القوم الذين لم يغلبهم أحد قط شقوا طريقاً الى القبر المقدس وانتزعوا الأرض المقدسة من يد ذلك الشعب الملعون.

فعند ما ألقى البابا رانوس هذا الخطاب قابله الشعب الفرنسي بحماسة زائدة وعلا الصراخ هكذا يريد الله . ووضعوا علامات الصليب على أثوابهم وطاف بطرس الناسك في البلدان يستنفر الأهالي للزحف وقاتل المسلمين في الشرق ولسنا الآن في مقام تاريخ الحرب الصليبية وإنما نحن في ذكر كيفية تولدها . ولقد زحف الصليبيون واستولوا فعلاً على بيت المقدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وكان منهم ما كان من الفظائع التي يعترف مؤرخوهم بها في جميع الأماكن التي اجتازوها من بلاد الاسلام ولما سقطت القدس في أيديهم بعد قتال شديد استمر زيادة على أربعين يوماً ارتكبوا في ظل القبر المقدس الذي زعموا أنهم زاحفون لتطهيره من أيدي أمة غير طاهرة من القتل العام والتفني في القسوة ما يندر وجود مثله في تاريخ البشرية من أول ما عرف التاريخ . قال أبو الفداء : ولبت الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس أسبوعاً وقتل من المسلمين في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في ذلك الموضع الشريف وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء ووصل المستنقرون الى بغداد في رمضان فاجتمع أهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى انهم أفطروا من عظم ماجرى عليهم انتهى . وكان أبو الفداء قد ذكر فظائع ماعمله الفرنج عند استيلائهم على انطاكية والبلدان التي مروا بها وقال انهم ساروا الى المعرة وقتلوا فيها أكثر من مئة ألف انسان . وفي فاجعة القدس هذه عند ما وصل الصريح الى بغداد قال المظفر الأيوبردي :

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يُفِيضُهُ اذا الحرب شُبَّت نَارُهَا بالصوارم
فأيها بني الاسلام ان وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء حفونها على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام صرعى مقلهم
يسومهم الروم الهوان وأتم
وكم من دماء قد أبيضت ومن دمي
وبين اختلاس الطعن والضرب وقعة
وتلك حروب من يغيب عن غمارها
سلن بأيدي المشركين قواضا
يكاد هن المستكن بطيبة
أرى أمتي لا يشرعون الى العدا
وتجنبون النار خوفاً من الردى
أترضى صناديد الأعراب بالأذى
فليتهم اذ لم يذودوا حية
وان زهدوا في الأجر اذ حى الوغى
ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
توارى حياء حسنها بالمعاصم
يظل لها الولدان شيب القوادم
ليسلم يقرع بعدها سن نادم
ستعمل منا في الطلي والجاجم
ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
رماحهم والدين واهى الدعائم
ولا تحسبون العار ضربة لازم
وترضى على ذل كمة الأعاجم
على الدين ضنوا غيرة للمحارم
فهلأ أتوه رغبة في المغنم

هذا وفي زمان البابا أوجانوس الثالث عادت الحرب الصليبية الى الشدة وذلك ان
الأتراك كانوا قد استولوا على الرها سنة ١١٤٤ وعادوا الى مهاجمة الصليبيين وفي سنة ١١٨٧
دعا البابا غريغوريوس الثامن الى حرب صليبية جديدة عند ما بلغه أن صلاح الدين الأيوبي
استرجع بيت المقدس .

وقد جاء في تاريخ الباباوات هذا مواقف أخرى لهم في اثاره الحروب على الاسلام
بينهم رسل السلام على وجه الأرض منها موقف البابا كاليكستوس الثالث فقد ارتقى
كرسى البابوية وهو في سن الثمانين وبرغم شيخوخته هذه لم يكن عنده مهم أكثر من
اثارة المسيحيين على المسلمين . وفي سنة ١٤٥٦ بنى هذا البابا أسطولاً بحرياً خساً وعشرين
سفينة حربية ودعا ملوك النصارى ليلتحقوا به ويشنوا الغارات على بلاد الاسلام وتطوع
لذلك أناس كثير من في انكلترا وفرنسة والمانيّة وبلاد المجر . وفي سنة ١٤٥٨ جمع البابا
بيوس الثاني مجمعاً عاماً دعا اليه ملوك المسيحيين الى حرب عامة يصالونها الأتراك وفي سنة
١٤٦٠ قرروا أن تستمر هذه الحرب ثلاث سنوات بالأقل الا ان الملوك لم يتفقوا وخطر
ببال البابا بيوس الثاني أن يتولى هو بنفسه قيادة غزوة صليبية برغم مرض النقرس ومرض

الحصبي الذين كانوا معه الا انه مات سنة ١٤٦٤ قبل أن أتم عمله . سنة ١٤٧٠ استولى محمد الفاتح على بلان اليونان وسرّح أسطولاً أربعمائة سفينة تجوس في سواحل بحر الأديانتيك وكان البابا يومئذ بولس الثاني فدعا ملوك المسيحيين الى صليبية جديدة فلم تتفق كلمتهم . وفي سنة ١٤٨٩ اختلف الأمير جم بن محمد الفاتح مع أخيه بايزيد فالتجأ الى رومة وكان البابا يومئذ اينوشانسيوس الثامن فتلقيده بالترحيب أملاً بالاستفادة من خلافه مع أخيه . وفي زمن البابا اسكندر السابع اشتد العمل لمحاربة المسلمين وقدم البابا نفسه أسطولاً لهذه الحرب المقدسة واجتهد البابا اكليمنصوس التاسع في توحيد كلمة فرنسة واسبانية وحملهما على محاربة الاتراك الذين كانوا استولوا على جزيرة اقريطش (كريت)

هذه النماذج مما حرض به رؤساء الكنيسة ابناء ملتهم على حرب المسلمين نقلناها من تاريخ الباباوات لمؤلف كاثوليكي ولما أخذ النماذج اخرى من كتاب مئة مشروع تقسيم لتركيا Cent Projets de Partage de la Turquie تأليف دجوفارا Djuvara من افضل وزراء رومانيا قال الوزير دجوفارا ان اصل العداوة المزمنة التي يشعر بها الاوربيون للاتراك ويميلون ابداً من اجلها الى حصرهم في آسية هي راجعة الى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والاسلام ونقل عن « غودفروا كورت » Godefroid Kurth كلاماً كتبه هذا في سنة ١٨٨٩ في كتاب عنوانه « الصليب والهلل » قال فيه : ان الاسلام قد عمل ما لم يقدر ان يعمل بل ما لم يجرؤ ان يعمل دين آخر وذلك بأن الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الاسلام أحياناً فتغلب عليه . وكان الصليبيون يقولون في قتال الاسلام . هكذا يريد الله ، ونحن يمكننا ان نعيد اليوم العبارة نفسها وان نحارب العدو الذي حارب أبائنا . وقال المسيو دوفاريك De Varrick من علماء الحقوق : انه من الواجب القيام . بحرب دينية يستخلص بها القبر المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحي وحماية مجموع الدول العظام . ثم قال دجوفارا : ان المسلمين كانوا أربعوا اوربة وخنعت لهم اسبانية مع عظمتها وفي أواخر القرن الثاني عشر امتد سلطان العرب من الهند الى الاطلانتيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وارقى من حضارة إكس لاشابل وباريس وكان الفرنج Franes تحت قيادة شارل مارتل هم الذين كسروا المسلمين في « بواتيه » وانفذوا النصرانية فن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون اوربة الا تحت اسم بلاد الفرنج . وكان اول من دعا

الاوربيين الى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثاني وذلك سنة الف واثنتين ولم يتوفق الى تحقيق ما اراده ثم جاء البابا غريغوريوس السابع فاستنفر جميع ملوك اوربا لحرب دينية يصلونها الاسلام وذلك سنة ١٠٧٥ الا انها هذه المرة أيضا لم تتحقق هذه الامنية وتأخرت نحو عشرين سنة عن ذلك التاريخ . ثم بدأت الحروب الصليبية فأخبرت فتح الاتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ مسيحية الى سنة ١٢٩١ بسقوط عكا وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه من بلاد الاسلام مملكتين مسيحيتين قبرص وارمينية . ثم ان الاتراك دخلوا الى اوربة سنة ١٣٥٦ بعبورهم مضيق البرد نيل وافتتحوا ادرنة في سنة ١٣٦٠ وفي جميع هذه الازمنة ومن قبل ان يدخل الترك الى اوربة كان كتاب النصارى والمفسكرون منهم لا يريدون ان يتغزوا عن اخفاق الحروب الصليبية ولا يفتأون يهيجون خواطر الشعوب الاوربية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الاسلام ولا سيما عن فلسطين واشتهر من بين هؤلاء المحرضين يردو بوا Pierre Du Bois ومارينو Marino وسانو تو Sanuto وهايتون Hayton وريموندلول Raymond Lulle وغلجوم دونو غارى Guillaume De Nogaret وكذلك الشعراء مثل بترارك Pétrarque كانوا في مقدمة المحرضين على قتال المسلمين

قال: ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتابا تاريخه ٢٣ اغسطس سنة ١٢٩١ الى فيليب لو بيل ملك فرنسا يظهر له به ألمه ويستنجد به ليجمع كلمة ملوك النصارى وينتقم من الاسلام ولكن البابا مات قبل تحقيق امله . وكان قد تلقى برنامجي حرب احدهما من ملك صقلية كارلوس الثاني والثاني من راهب يقال له «فيدانس دؤ بادو» وكان برنامج كارلوس الثاني العدو عن قتال المسلمين بالسيف الى مقاتلتهم بالتجارة قال لانهم اذا زحف الاوربيون الى بلادهم تركوهم يطؤون السواحل ويعمل فيهم تأثير الاقليم فيضعفوا فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم واعداد اساطيل لهذا المقصد وتوحيد القيادة ويسمى هذا المشروع في حرب الاسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلية. اما مشروع فيدانس دؤ بادو فلم يكن مقتصرأ على حرب تجارية بل كان يشير بتجريد جيش يطاء البر ويكون وراءه أسطول من ثلاثين الى خمسين بارجة حربية وان تنزل الجنود في سواحل انطاكية ثم يجعل الصليبيون انطاكية معصماً لهم وقاعدة لغزواتهم . وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا

باستحالته وفي سنة ١٣٠١ جدّ برنامج آخر صاحبه «كارلوس دوفالوا» أخو فيليب لو بيل ملك فرنسا وكان هذا الأمير قد تزوج بكاترينة ابنة « فيليب دو كوتنيه » Philippe آخر ملوك اللاتين في القسطنطينية — لأنه كما لا يخفى فإن اللاتين غلبوا الروم على القسطنطينية وملكوها مدة خمسين سنة — فتعلق أمل كارلوس المذكور بالاستيلاء على مملكة حيه وظاهره على ذلك البابا بونيفاس الثامن وبعض ملوك النصرانية ووعده جمهورية البندقية بقوة بحرية الا ان هذا المشروع أصيب أيضاً بالفشل وكانت معدّاته ضئيلة بالنسبة الى خطره . وأكثر من حرص عليه فيليب لو بيل ملك فرنسا الذي كثيراً ما فكر بفتح فلسطين . ثم ان البابا كليمانضوس الخامس تقدم الى رئيس نظام الفرسان الهيكلين بترتيب برنامج لمحاربة المسلمين وذلك سنة ١٣٠٧ وكان الرئيس المذكور يدعى «جاك دوموليه» Jacque de Molay فإشار هذا بجمع كلمة النصرانية على قتال المسلمين وانه لا يجب أن يقل الجيش عن خمسة وستين ألف مقاتل وأن يكون معززا بأسطول يرسو في مياه قبرص تحت قيادة الاميرال « روجر دولوزيا » الأرغوني . ثم جد مشروع رابع صاحبه «بيردوبوا» وهو رجل من مدينة « كوتنيس » ولد بين سنة ١٢٥٠ و ١٢٦٠ واشتهر سنة ١٣٠٠ وقدم برنامجاً الى البابا كليمانضوس الخامس لاجل استرداد الاراضي المقدسة وقدم برنامجاً آخر الى فيليب لو بيل ملك فرنسا في الموضوع نفسه وحرّضه على أن يؤسس مملكة في الشرق يضع على رأسها ثاني أولاده . وكان من جملة وصاياه أن تتوحد كلمة الملوك الكاثوليكين وان يحملوا الروم الاورثوذكسيين في الشرق على الخضوع للكنيسة الرومانية وأن يكون الجميع يداً واحدة في وجه الاسلام وقال انه يجب تجهيز أربعة جيوش ثلاثة منها تذهب بحراً الى فلسطين والرابع يزحف برّاً وكان من رأيه أنه بعد استتباب الفتح يصير كارلوس دوفالوا ملكاً على جميع المملكة البيزنطية مضمومة اليها بلاد المجر والفلاخ والبودان وهكذا لو تم ما أراده لكانت مملكة رومانيا الحالية من جملة ملحقات فرنسا . وكان من جملة ما أشار به أن يكون البابا هو المصلح بين الامراء المسيحيين وان يجعل مجمعاً عاماً وخزانة خاصة بالارض المقدسة يكون لها شعبة في كل كنيسة مسيحية . وقال المؤرخ الشهير « البير سوريل » Albert Sorel انه كان في برنامج « بييردوبوا » هذا كثير من الخيال ولكن هذا الخيال كان في ذلك الوقت يحوم على خواطر الجميع . ونقل

تجوفارا في أثناء كلامه على مشروع دوبروا ان البابا غريغوريوس الحادى عشر أنذر امبراطور بيزنطيه بأنه لا يساعده على المسلمين ان لم يرجع الى الكنيسة الرومانية. ونقل أيضا ان البابا سيلفيوس كتب الى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣ يدعو أن يتنصر ويقول له « بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصير نصرانيا خادماً للانجيل . فان فعلت هذا لا يكون على وجه الارض ملك يمكنه أن يفوقك في المجد والاقتدار »

ثم مشروع ريموند لول Raymond Lulle سنة ١٣٠٦ وهو فيلسوف مسيحي صاحب طريقة خاصة به ولد في پالما من جزيرة ميورقة وقتله العرب في تونس سنة ١٣١٥ وله مؤلفات كثيرة في اللاتينية وقد كان من الدعاة الى الحرب الصليبية وله في ذلك تأليف موجودة نسخه الاصلية بخط المؤلف في المكتبة الوطنية في باريز تحت نمرة ٣٣٢٣ وقد استحسن المجمع العام المنعقد في « فيان » سنة ١٣١١ هذا الكتاب وأوجب العمل به وقرر القيام بصليبية جديدة واجتباء العشر من الحاصلات لاجل هذه الغزاة الصليبية وذلك على مدة ست سنوات ولم يقل ريموند لول شيئاً مما يتعلق بكيفية تقسيم بلاد الاسلام بين الفاتحين الكاثوليكين ولكنه ذهب الى وجوب تعلم اللغات الشرقية لاسيما اللغة العربية لتسهيل هذه الفتوحات ونشر الدين الكاثوليكي بالوعظ والارشاد . وقال سان مارك جيراردان Saint-Marc Girardin ان ريموند لول كان يرى الاولى هداية غير المؤمنين وهداية المسيحيين المنشقين الى الدين الكاثوليكي بدلا من قهرهم بالسيف وقال جيراردان أيضاً انه اعترض نجاح الصليبيات في المدة الاخيرة ثلاثة أسباب الاول خود جنوة الحاسية الصليبية القديمة والثاني تنازع الامراء اللاتينيين في الشرق مع مقاومة الروم لهم والثالث الشقاق بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية . هذا وكان ريموند لول يقترح تجريدتين صليبيتين احدهما تزحف الى مرا كش فتونس فطرابلس والثانية تزحف الى القسطنطينية ومنها الى سوية . وقد اختلفت برامج هؤلاء الخياليين في قضية الزحف على بلاد الاسلام فكان غليوم دادان الدومنيكاني يرى السير من طريق القسطنطينية وقد ألف بين سنة ١٣١٠ وسنة ١٣١٤ كتاباً سماه « كيفية استئصال المسلمين » وأشار فيه بايجاد أسطول مسيحي في خليج فارس وأما بروكارد فأشار بالزحف من ايطاليا الى بلاد الصرب ومنها الى الشرق وأما سانوتو فكان يرى وجوب الجل على بلاد الاسلام من البحر ويدخل في

برنامج ريموند لول الزحف على بلاد الاندلس براً وبحراً وبعد الاستيلاء عليها احتلال مدينة سبتة في افريقية ثم مدينة تونس وذلك لاجل تسهيل الاستيلاء على مصر والبلاد المقدسة وبينما يكون جانب من القوة الصليبية محاصراً مصر يكون الجانب الآخر زاحفاً من القسطنطينية الى سورية ومنها الى جزيرة العرب

فهذه مشروعات خمسة لخصناها تلخيصاً من كتاب مئة مشروع لتقسيم تركيا. وأما المشروع السادس فهو مشروع مارينو سانوتو Marino Sanuto وهو رجل ينتسب الى احدى الأسر النبيلة في البندقية ولد سنة ١٢٦٠ وطاف في بلاد الشرق مثل المورة وقبرص وأرمينية ورودوس واسكندرية وقد بدأ كتابه في الحث على محاربة المسلمين سنة ١٣٠٦ ولكنه لم يقدمه الى البابا يوحنا الثاني والعشرين الا سنة ١٣٢١ وقد ذهب في كتابه لأجل نجاح المشروع الى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وفي ذلك يقول الفيلسوف ارنست رنه نان : « ان سانوتو كان يجهل درجة الخلاف بين الكنيستين ولا يعلم ان الروم لم يكن يصعب عليهم الخضوع للعمامة كما يصعب عليهم الخضوع للتاج البابوي . ولم يكن سانوتو يشير باستيلاء اللاتين على القسطنطينية بل كان يرى بقاء بيزانطية للروم . وكان من رأيه أن تكون سلطنة البقاع المقدسة لفرنسة وكان يبحث كثيراً على حصر الديار المصرية ويعتقد انها اذا حوصرت مدة ثلاث سنوات فلا بد من الاستيلاء عليها وانه اذا استولى المسيحيون على مصر فلا بد من أن يستولوا على بيت المقدس . وكان أكثر مقصد سانوتو تأمين الطرق الاقتصادية امام بلدة البندقية وتمكينها من الاستيلاء الاقتصادي على الشرق » . قال دجوفارا : « ان انكثرة بعد سبعة قرون من زمان سانوتو قد حققت لنفسها الأمل الذي كان يحلم به سانوتو »

ثم المشروع السابع المنسوب الى هايتون Hayton او هيتوم Hétoum سنة ١٣٠٧ وكان هيتوم أميراً ارمنياً من « كرشى » وهي ثغر بحري بازاء جزيرة قبرص وكان عمه ملكاً على أرمينية فاستولى المسلمون على بلاده ولجأ هيتوم الى البابا اكليمنضوس الخامس وأقام بمدينة پواتيه حيث مات سنة ١٣٠٨ وكتب كتاباً باللاتينية ثم ترجم هذا الكتاب سنة ١٣٥١ إلى الافرنسية وأشار في كتابه الى وجوب فتح بيت المقدس وبين الطرق التي بزعمه يتيسر بها هذا الفتح ولكن الوقت الذي كتب فيه كتابه هذا لم يكن الوقت الذي تقبل

فيه الناس رأياً كهذا الرأي فقد كانوا في فرنسا تحت تأثير فاجعة القديس لويس ملك فرنسا الذي كان قد أسر في دمياط ثم عاد فقتل في تونس وكان برنامج هيتوم تجريد جيش على شمالى افريقية وجيش آخر يزحف الى سورية من طريق القسطنطينية وجيش آخر يزحف بحراً وأكثراً كان بهم هيتوم هو فتح بلاده أرمينية وكان يرى ان المغول يمالئون الصليبيين على المسامين وانه اذا زحفوا الى حلب يضطر سلطان مصر الى نجدة حلب فيخرج من بلاده ويخلو الجو للأفرنج فيمكنهم احتلال طرابلس الغرب . وكان يشير بعقد محالفة بين المسيحيين والمغول لكن على شرط أن لا يتلاقى الجيشان من الفريقين لئلا يحدث بينهما قتال بل يزحف المغول الى دمشق يزحف الصليبيون من طريق الساحل الى القدس وبعد الاستيلاء على بيت المقدس يزحفون الى مصر ولم يكن نجاح مشروع هيتوم أعظم حظاً من مشروعات الآخرين .

ثم المشروع الثامن وهو المنسوب الى «غليوم دونوغارى» Guillaume De Nogaret وتاريخه سنة ١٣١٠ وكان نوغارى من رجال فيليب لوبل ملك فرنسا وكان هذا الملك شديد الاعتماد عليه ولذلك كان يشير بتولية فيليب لوبل قيادة الحملة الصليبية وان تجبى الأموال اللازمة لتلك الحرب وتوضع بين يديه ولذلك أساء بعضهم الظن في فيليب لوبل واعتقدوا أنه انما أراد بهذه الصليبية جمع الأموال لاعلاء كلمة الصليب . وكان مما أشار به نوغارى محالفة سلاطين المغول ومحالفة امبراطور الروم في بيزانطية .

ثم المشروع التاسع المنسوب الى غليوم دادام Guillaume D'Adam وتاريخه سنة ١٣١١ وكان المذكور راهباً دومينيكياً قضى معظم حياته يعظ بالانجيل في بلاد الشرق وذهب الى الحبشة والهند وكانت آراؤه في الموضوع غريبة فكان يشير بأن الصليبيين يأخذون القسطنطينية في طريقهم ويحولونها مملكة لاتينية وكان يشير أيضاً بعمارة أسطول في بحر فارس لمنع تجارة الهند مع مصر . وجل حملة شديدة على المسيحيين الذين كانوا يتجرون مع المسلمين لاسيما الجنوبية الذين كانوا يبيعون الرقيق من أهل مصر فكان في ذلك القطر جيش من الممالك نحو أربعين ألفاً أكثرهم بلغار ويونان ومجر وغيرهم وقال انه يجب على البابا اصدار حرم بحق كل المسيحيين الذين لهم علاقة تجارية مع المسلمين وقال بوجود عقد محالفة مع الكرج ومع ملوك العجم وأن يعهد بالسيطرة في بحر اليونان

المسمى ببحر الأرخبيل الى أولاد ذكرى الجنويين الذين كانوا يملكون جزيرة شيو. وألح غليوم هذا كثيرا بفتح القسطنطينية قائلا: «إنها مفتاح كل المشرق» وقال ان الروم لم يكونوا أقل عدااء لللاتين من المسلمين فيجب خضد شوكتهم. وقد اهتم صاحب هذا المشروع كثيراً بالمسألة الاقتصادية نظير سانتوتو وقال انه يجب قطع تجارة مصر مع الشرق الأقصى بوضع قوة صليبية في بحر الهند وفي عدن. وقد كان هذا الأمر في ذلك الوقت ضرباً من المحال.

ثم المشروع العاشر وهو مشروع «هانري الثاني دولوزيانيان» De Lusignan ملك قبرص وتاريخه سنة ١٣١١ وقد تقدم هذا المشروع الى مجمع «فيان» مع مشروع نوغاري المتقدم المذكور وكان هذا الملك يشير بتجهيز طليعة مسيحية قوامها ١٥ أو عشرون سفينة حربية تواصل غاراتها البحرية على مصر الى أن تتمكن من تخريبها وبعد ذلك يقدم الجيش الكبير فيطأ أرض مصر ويستولى عليها واذا استولى الصليبيون على مصر هان عليهم فتح سورية وقد أشار الملك المذكور بأن يبدأ الصليبيون باحتلال قبرص وان يتجنبوا احتلال - أرمينية يريد بأرمينية بلاد كيليكية واسكندرونة وذلك بقوله ان مناخ تلك البلاد شاق على الأوربيين وان الزحف منها الى سورية في غاية الصعوبة - وقد كان لتقرير ملك قبرص هذا تأثير عظيم في مجمع «فيان» فأعلن هذا المجمع الحرب الصليبية في ١٩ ديسمبر سنة ١٣١٢ وبينما هم يجهزون الجيوش إذ مات فيليب لوبل ملك فرنسا والبابا اكليمانوس فتوقف العمل ثم قام الأساقفة يحرضون شارل لوبل على اتمام المشروع فعارض في ذلك دوق بورغونيه وبقى الأخذ والرد في هذه المسألة الى سنة ١٣٣٣.

ثم المشروع الحادي عشر المنسوب الى بروكارد وتاريخه سنة ١٣٣٢ وكان بروكارد هذا راهباً ألمانياً من الرهبان الدومينيكيين فقدم تقريراً الى ملك فرنسا يشير به بحرب صليبية ويبين الطرق الموافقة لها ولم يكن يرى أن تكون الحملة بحرية ولا كان أيضاً يستحسن الزحف من جبل طارق وشمال أفريقيا الى مصر وكان يرى هذه الطريق طويلة شاقة وانما كان يجد الطريق الحسن من خليج «اوطرانطو» الى كورفو الى البلقان ويرى أحسن من ذلك الطريق التي اتبعها بطرس الناسك وهي طريق ألمانيا الى بلاد المجر الى البلقان الى القسطنطينية. ولم يكن بروكارد يرضى بمهادنة ملك الصرب

وأمبراطور الروم في يزانطيه بل كان يقول انه لايجوز الثقة بهما لأن نصارى تلك البلاد منشقون على الكنيسة ويجب فتح بلادهم كما يجب فتح بلاد المسلمين . وكان يقول ان الترك يدور بينهم كلام من قبيل الجفر على انه لابد أن يفتح بلادهم ملك افرنجي وان هذا مما يسهل نجاح هذه الغزاة . ولم يكن في مشروع بروكارد شيء من الملاحظات الاقتصادية بل كانت جميع الأغراض التي بنى كلامه عليها حرية وسياسية ولذلك كان لتقريره وقع عظيم على المجلس الملوكي في فرنسة وبعد أن قتلوا المسألة بحثاً رجحوا طريق البحر على الطريق التي اختارها بروكارد بحجة ان هذه طريق خطيرة . ثم عرضت جمهورية البندقية عقد عصبة ضد الاتراك ودخل في هذا التحالف امبراطور القسطنطينية وفرسان رودوس وانهقد الحلف بين فرنسة والبندقية بحضور البابا يوحنا الثاني والعشرين في آفينيون وأعلن البابا فيليب السادس المسمى دوفالوا « De Valois » قائداً للزحفه الصليبية واكتب للذهاب ثلاثمائة ألف مقاتل . وكانت السفن التي في المراسي قد تهيأت لنقل ستين ألف مقاتل دفعة واحدة . وبينما هم على قدم الزحف اذ نشبت الحرب بين انكلترة وفرنسة فتوقف كل شيء ثم جاءت الأخبار بتهاافت سلطنة يزانطيه من كل جهة وتداعيتها الى السقوط فخارت الغزائم وفي سنة ١٣٨٠ وسنة ١٣٩٠ عقدت البندقية وجنوة وغيرهما من الجمهوريات البحرية معاهدات تجارية مع الترك وفي سنة ١٣٨٩ أحرز الترك ذلك النصر العظيم في قوصوه ثم في سنة ١٣٩٦ انتصر الترك انتصاراً باهراً في نيقوبوليس على الجيوش المجرية والافرنسية وأخذ كثير من أمراء الفرنسيس وفرسانهم أسرى ولم يبق في القرن الرابع عشر محل لحملات صليبية . واستمر امبراطور القسطنطينية يرسل بالصريح الى أوربة فأرسل الى كارلوس الرابع ملك فرنسة يستعديه على الاتراك وأعلن البابا غريغوريوس الثاني عشر الحرب الصليبية على المسلمين في ٩ نوفمبر سنة ١٤٠٧ الا أن الترك استولوا على القسطنطينية وقبرص وازدادت الآمال خيبة وآل الأمر الى أن توما باليولوغ باع من ملك فرنسة كارلوس السابع لقب امبراطور المشرق ولكن لم ينفع هذا شيئاً ولما نشبت الحرب بين ملك فرنسة المذكور وبين البابا اسكندر السادس اضطر البابا الى عقد معاهدة مع السلطان بايزيد العثماني ضد ملك فرنسة الذي كان ينوى فتح الأراضي المقدسة .

ثم المشروع الثاني عشر وهو منسوب الى «برتراندون دولابروكيار» Bertrandon de la Broquière وتاريخه سنة ١٤٣٢

وكان هذا الرجل من أخصاء «فيليب لوبون» دوق بورغونيا أرسله الدوق الى الشرق رائداً لما كان في نفسه من القيام بحرب صليبية . فذهب الى القدس سنة ١٤٣٢ وعاد الى فرنسا من طريق البر فبردمشق وانطاكية وبرسا وغاليبولي والقسطنطينية وأدرنه وفيلبه وصوفيا وبلغراد وقينا ووصل الى بلاط سيده دوق بورغونيا في سنة ١٤٣٣ وهو باللباس الشرقى وعلى جواد كان اشتراه في دمشق . وقد كتب رحلته هذه بلسان ذلك الوقت ونقحها باللسان الافرنسي الحديث المسيو «لوگران دوسى» Legrand d'aussy ونشرت سنة ١٨٩٢ ونسختها الاصلية هي في المكتبة الوطنية بباريز ومن رأى «دولابروكيار» ان الملك المسيحي الذي سيحارب المسلمين لا ينبغي له أن يفكر بمجد ولا بحسن أحدوته وانما ينبغي أن يكون عمله مجرداً لله وانه لا يوافق أن تكون أرزاق الجيش الصليبي من النهب والغصب وانما يؤدون ثمن الاقوات كلها الى من يبيعهم اياهم الى أن يدخلوا بلاد الاتراك ومن رأيه أن البابا يقدر أن يقوم بنفقات الحملة الصليبية . وقد تكلم دولابروكيار عن الروم فطعن فيهم وطعن في المجر أكثر مما طعن في الاروam وقال انه يأمن الى تركي أكثر مما يأمن الى مجرى . ولما وصل الى غلطة في القسطنطينية تلاقى مع «فورايانو» معتمد دوق ميلانو في الشرق وذهبا معاً الى السلطان مراد الثاني في أدرنه لأجل تبليغه رسالة من قبل دوق ميلانو معناها أنه يأمل من السلطان أن يتخلى للإمبراطور سيجيسموند عن بلاد المجر والبغدان والبلغار وبوسنه وألبانيا . فأجابهما السلطان قائلاً : «ساما على أخى دوق ميلانو وقولا له ان طلبه هذا غير معقول لا سيما انه ما وجد الامبراطور أمامى في معركة الا انهزم أو لاذ بالفرار» .

ثم المشروع الثالث عشر وهو المنسوب الى «فيليب لوبون» دوق بورغونيا وتاريخه سنة ١٤٥٧

وهذا الدوق كان ينوى دائماً تجريد حملة صليبية على السلطنة العثمانية قبل فتحها للقسطنطينية وبعده . وكان الامبراطور يوحنا باليولوغ صاحب هذه البلدة استصرخه سنة ١٤٤٢ فجهز أسطولا عاث ونهب وعمل أعمالا قرصانية الا انه لم يقدر على شئ يذكر . ولما

سقطت القسطنطينية في أيدي الاتراك نذر الدوق أن يزحف بنفسه لحرب الترك وكان مراده أن يقصد القسطنطينية رأساً زاعماً أنه يجب قطع جذع الشجرة قبل أغصانها . وكان يبنى آماله على الأمم المسيحية التي في البلقان . وبعد أن رسموا له خطة السير وعين هو القواد وبدأ بالتجهيز ووعد لويس الحادي عشر ملك فرنسا بعشرة آلاف مقاتل لهذه الصليبية جذت عوائق منعت من إتمام عمله ومات البابا بيوس الثاني الذي كان ظهيراً له في هذه النية وفي هذه المدة كان الاتراك يسرون من فتح إلى فتح في شبه جزيرة البلقان حتى استصفوها كلها وبقيت في أيديهم بعد ذلك أربعمائة وستين سنة

ولهذا لانجد في القرن الخامس عشر مشروعات صليبية الا قليلا . وما استؤنفت هذه المشروعات الا في أواخر القرن السادس عشر بعد واقعة ليبانت البحرية الشهيرة التي انكسرت فيها شوكة الاتراك . وكان من أواخر الدعاة الى الصليبية الراهب « كاسبيستبرانو » Caspistrano الذي حضر حرب بلغراد سنة ١٤٥٦ وطاف في اسبانية وفرنسة والمانيّة وبولونية وبلاد المجر داعياً الى الحرب المقدسة ومعه صليب وراية أعطاه اياهما البابا مع صورة القديس برناردينو . ومات هذا الراهب الصليبي سنة ١٤٥٦ بعد واقعة بلغراد بثلاثة أشهر

ثم المشروع الرابع عشر المنسوب الى كارلس الثامن ملك فرنسة وتاريخه سنة ١٤٩٥ وقد كان هذا الملك يفكر في استخلاص بلاد اليونان من أيدي الترك ثم الزحف الى القسطنطينية ومنها الى الارض المقدسة . وكانت غارته على ايطالية انما هي على نية اتخاذ مدينة نابولي قاعدة بحرية يشحن منها الأساطيل الى الشرق . وأصل هذه الفكرة عند كارلس الثامن هو ان والده لويس الحادي عشر كان قد قال في سنة ١٤٧٨ لوفد ايطالي : « اني ابتهل الى مريم العذراء المجيدة أن تمنح ولدي العزيز شرفاً عظيماً ذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه الى الشرق ومعه نبلاء فرنسة وفرسانها لقتال التركي المكروه وغيره من الجاحدين » ولما أرسل « لودفيك سنورزا » رسلاً من ميلانو الى كارلس الثامن سنة ١٤٧٨ يستحنه على القدوم الى ايطالية بعث يقول له : ان السلطان العثماني في القسطنطينية لا يخشى أحداً خشيتَه من الأمة الافرنسية . قال « دوفونسمان » : De Foncemagne انه كان من السهل اقناع كارلس الثامن بأن فتح نابولي انما هو مقدمة لفتح القسطنطينية وان لقبه « الملك المسيحي كثيراً » يستدعي ذلك

فزحف كارلس الثامن الى ايطالية في شهر يوليو سنة ١٤٩٤ وفي شهر ديسمبر من تلك السنة كتب الى بعض أساقفة فرنسة قائلاً : ليست نيتنا منحصرة في فتح نابولي وإنما هي ترمى الى تأييد الكنيسة والاستيلاء على الارض المقدسة

ونشر كارلس من فلورنسة منشوراً قائلاً فيه : « اننا اقتداءً بآبائنا ملوك فرنسة المسيحيين كثيراً نريد أن نمنع بما أوتينا من قوة هذه الموبات الكثيرة التي يرتكبها الأتراك بحق الديانة المسيحية وقد أخذنا على أنفسنا أن لانضن بنفسنا ولا بشيء من وسائلنا في دفع هؤلاء الطواغيت الأتراك والاستيلاء على الارض المقدسة وغيرها من الممالك التي انتزعوها من أيدي المسيحيين »

وذكر انه انما يريد بفتح مملكة نابولي العبور منها الى المشرق . ونظم له « غيلوش دو بوردو » أحد شعراء الوقت قصيدة يقول فيها « انه سيتوج ملكاً على الروم ويدخل الى اورشليم ويصعد الى جبل الزيتون »

وكان « اندري باليولوغ » قد أمضى صكاً مؤرخاً في ٦ سبتمبر سنة ١٤٩٤ ينزل فيه عن حقوقه في تاج القسطنطينية لملك فرنسة . وكان دخول كارلس الثامن الى رومة في ٣١ ديسمبر سنة ١٤٩٤ وكان استيلائه على نابولي ودخوله اليها بالثياب القيصريّة في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ وطلب من البابا اسكندر السادس (بورجيا الشهير) أن يسامه الأمير جم أخا السلطان بايزيد الذي كان ملتحجاً الى رومة ثم كتب الى رئيس فرسان رودس يكشفه بما نواه من « نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة واسترداد الأراضي المقدسة المغصوبة »

فأجابه رئيس نظام فرسان رودس متفائلاً متيمناً مؤملاً هذه المرة « استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد . . . » ^(١)

وكان الأروام منتظرين قدوم ملك فرنسة . ونقل « كلود دو سسل » Claude De Saissel ان الأتراك ارتاعوا لخبر زحف كارلس الثامن وكان منهم حامية في

(١) هنا ألفاظ أبيتنا نقلها وهذه المکتوبات هي في صفحة ٤٩ من كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا »

تأليف المسيو دجوفارا الروماني

بلاد المورة فأخذوا يشترى قبعات من الأروام ليلبسوها ويتزوا بزى الافرنج أملاً بتسكين
حدهم^(١)

ورفع كثير من الأرناؤوط الراية الفرنسية . وبلغ السلطان خبر عزيمة ملك فرنسا
فجهز مائة وعشرين سفينة حربية وحشد ٤٠ ألف مقاتل . وقيل ان كثيرين من رعايا
السلطان المسيحيين كانوا متحفزين للثورة . الا أنه حصل ما فت في عضد ملك فرنسا
فالأمير جم أخو بايزيد مات في ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٦ قيل ان السلطان بايزيد رشا البابا
اسكندر بورجيا حتى سمّه . وانضم أعداء كارلس الثامن الى السلطان منهم الفونس الأراغوني
ومنهم البابا نفسه . وانعقد الحلف المسمى بعصبة البندقية وحاربت هذه العصبة ملك فرنسا
وظهر عليها الا أنه اضطر أن يرجع الى فرنسا

غير أن الهيجان على الأتراك في أوربة بقي يشتد في أوائل القرن السادس عشر .
وكتب البابا يوليوس الثاني في ٢٧ مارس سنة ١٥٠٨ الى فلاديسلاس ملك المجر وبوهيميا
بأن الامبراطور مكسيميليان ولويس ملك فرنسا والبنادقة تألبوا يداً واحدة على الأتراك
ولم يتم شيء الى زمن البابا لاون العاشر فهو أشهر من اشتهر باغراء النصرانية بقتال
الأتراك . وعمله يسمى بالمشروع الخامس عشر وتاريخه من سنة ١٥١٥ الى سنة ١٥١٧
ومذ أعلن مجمع الكرادلة انتخاب البابا المذكور وأبلغه ملوك المسيحيين استجلب أنظارهم
نحو قضية الاتحاد لأجل محاربة الأتراك . ثم كتب البابا نفسه الى الامبراطور مكسيميليان
وملك انكلترا وملك بولونية والدوق بازيل المسكوبي . ثم انه كرر هذا الاستنفار سنة ١٥١٥
في الجلسة التاسعة من مجمع لاتران . ثم وعد فلاديسلاس ملك المجر بخمسين ألف دوكا^(٢)
ثم أنفذ الكردينال « سادوله » Sadolet من قبله الى لويس الثاني عشر ملك فرنسا
يقتدبه ليقود حملة صليبية جديدة كما قاد « غودفروا دوبويون » الصليبية الاولى . ولما آل
ملك فرنسا الى فرانسوا الأول تلاقى معه في مدينة « بولونية » Bologne وحرضه على قتال

(١) يظهر أن فكرة لبس القبعة عند الترك والتزي بزى الافرنج أملاً باكتساب عطفهم لم تكن جديدة
فقد تولدت منذ سنة ١٤٩٥ ولكنها لم تتحقق بالفعل الا سنة ١٩٢٥ وما كذب ابن خلدون الذي قال
ان المغلوب مولم بالاقتداء بالغالب

(٢) سكة في ذلك العهد كانت قيمتها من ١٠ فرنكات الى ١٢ فرنكا فرنسياً

الأتراك . وكتب أيضاً الى ملك البرتغال يدعوه لهذه الحرب مع سائر ملوك المسيحيين ثم عاد الى مطالبة فرنسوا الأول بانجاز وعده . ولما افتتح السلطان سليم الأول الشام ومصرأً وازدادت بسطة السلطنة العثمانية كتب البابا الى فرنسوا الأول يقول له : أما هذا الليل من آخر؟ وبعد ذلك اجتهد البابا أن يؤلف بين الامبراطور وملك فرانسة وملك قشتالة ويوحد حركتهم لحرب الأتراك . وقد انتدب لجنة خاصة رسمت خطة حربية لقتال الدولة العثمانية كان من جملة ما فيها مداخلة بعض ملوك الاسلام من أعداء هذه الدولة واستعداؤهم عليها . وسنة ١٥١٧ في ٥ مارس أعلن البابا هدنة خمس سنوات بين ملوك النصرى .

وحينئذٍ لجي نفيره ملك فرانسة فرنسوا الأول وملك اسبانية كارلس وملك انكلترة هنرى الثامن وملك البرتغال عمانوئيل وملك المجر لويس وملك بولونيا سيجيسموند وملك الدانمرك كريستيان وملك ا كوسيا جاك وانعقد بينهم اتفاق بتصديق البابا . ثم في سنة ١٥١٨ انفذ البابا أربعة كرادلة يستحث هؤلاء الملوك في تجهيز الجيوش وأقام حفلة طواف في شوارع رومه سار هو فيها والكرادلة حفاة . الا أن جميع هذه النداءير قضى الله يومئذ باحباطها ومات الامبراطور مكسيمليان الأول سنة ١٥١٩ وتوقف مشروع هذه الصليبية . ثم ان الترك استولوا على بودابست واستصفوا كل بلاد المجر التي بقيت في يدهم مائة وسبعاً وأربعين سنة وحاصروا فينا فاضطر شرلكان امبراطور ألمانيا الى طلب محالفة ملك فرانسة خوفاً من الترك

الا أنه لم يلبث الترك أن عقدوا الصلح مع اوستريا سنة ١٥٣٣ فاضطر فرنسوا الأول من جهته أن يتودد اليهم وأرسل « لافوره » Laforest في السفارة الى تركيا وعقد معها معاهدة ولاء . ومن ذلك الوقت بقي فرنسوا الأول يستنصر السلطان سليمان في حروبه مع شرلكان وسنة ١٥٤١ سرح السلطان أسطوله تحت قيادة خير الدين بربروس الى بحر مرسيلية لانجاء الاسطول الافرنسي . ولما جلس هنرى الثانى على عرش فرنسة بقي محافظاً على الولاء لتركيا ولم تنصرم العهود بين الدولتين الا في أيام أولاد هنرى الثانى

وما تحالف فرنسوا الأول مع السلطان الا اضطراراً وخوفاً من خصمه شرلكان . قال روسو صاحب تاريخ « العلاقات السياسية بين فرنسة وتركيا » ان نتيجة تلك المحالفة بين تركيا وفرنسة قد كانت انقاذ فرنسا من مطامع شرلكان . ونقل عن أحد أمراء فرنسة

« ان فرنسا لا ينبغي لها أن تهمل أمرين مهما كان من الموانع دونهما : الاتفاق مع الشعب السويسرى والتحالف مع تركيا »

وهناك المشرع المنسوب للامبراطور ماكسيميليان وهو المشروع السابع عشر وتاريخه سنة ١٥١٨

وكان البابا لاون العاشر قد أقنع الامبراطور بلزوم محاربة الترك . وفى معاهدة الامبراطور مع لويس الثانى عشر سنة ١٥١٣ جرى ذكر هذه القضية وكذلك خاطب الامبراطور نواب الامة عند اجتماعهم فى « مالين » قائلاً لهم : « اتنا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر فى حملتنا المحمودة المقدسة على الترك » ولما سأله البابا عن الطريقة العملية التى يراها لأجل اشغال هذه الحرب على الأتراك اجابه بتقرير مفصل ذكر فيه لزوم الاتفاق بين ملوك المسيحيين ودخول ملك فرنسا فى هذه الحرب وأن تستمر الحملة مدة ثلاث سنوات متواليات وأشار بتحريك العجم من جهة وتحريك سلطنة مرا كش من جهة أخرى لمشاغبة آل عثمان . ثم ذكر ملوك النصارى الذين يجب أن يدخلوا فى هذه الحرب المقدسة فقال انهم الامبراطور وملك البرتغال وملك فرنسا وبولونيا والمجر وان ملك فرنسا يجب أن يسير من طريق ايطاليا فيعبر البحر الى دالماسيا وينضم اليه البولونيون والفلاحيون والبغدانىون ويهاجون جميعاً ادرنة هذا فى السنة الأولى ، وأما فى السنة التالية فيكون ملك البرتغال استولى على شمالى افريقية والاسكندرية ويأتى فيتلاقى مع ملك فرنسا وملك بولونيا فى بلاد اليونان ويحملون جميعاً على القسطنطينية وبعد فتحها يسهل فتح آسية الصغرى والأرض المقدسة . ثم يصير توزيع الممالك المفتوحة على ملوك المسيحيين بمعرفة البابا ومجمع الكرادلة

وقد تم عقد هذا الاتفاق وتقرر العمل به ووعد ملك اسبانية بتجهيز ٢٣ الف مقاتل لهذه الحرب وبينما هم فى التأهب اذ مات الامبراطور ماكسيميليان فى ١١ يناير سنة ١٥١٩ فتوقف كل شئ الى ما بعد انتخاب قيصر جديد

ثم مشروع « ايرازم » Erasme وهو الثامن عشر وتاريخه سنة ١٥٣٠ وكان ايرازم هذا من مشاهير رجال الأدب ولد فى روتردام سنة ١٤٦٧ ومات فى بازل سنة ١٥٣٦ وقد كانت دعوته لحرب الترك من آثار دعوة البابا لاون العاشر ومن آثار فتح الترك لبلاد

المجر . وكان ينادى ان الترك لم يتقدموا في اوروبا الا بسبب انقسام المسيحيين وكان يغضب لقول بعضهم ان الدين يمنع الحرب ويقول : ان المسيحي لا يمكنه أن يعيش ان لم يصرع الترك . وكان يقول للاوربيين : لا تهولتكم عظمة السلطنة العثمانية فان السلطنة الرومانية والفتوحات الاسكندرية كانت أيضاً بمنتهى العظمة وقد جاء وقت انقرضت فيه . ولم ينظم ايرازم برنامجاً للعمل وانما كان يثير الأفكار ويحرك الهمم

ومثل مشروع ايرازم هذا مشروع « نانيوس » Nannius وهو التاسع عشر وتاريخه سنة ١٥٣٦ وكان نانيوس هذا راهباً هولاندياً عالماً ولد في « الكمار » Atkmar سنة ١٥٠٠ ومات في « لوفان » Louvain سنة ١٥٥٧ وكانت دعوته بعد دعوة « ايرازم » بثلاث سنوات . وهي تتضمن الجواب على دعوى أن الديانة المسيحية انتشرت بدون سفك دماء فيقول نانيوس : ان المسيحيين الأولين كان عندهم صبر وجلد وكان استشهاده مؤمناً واحداً في سبيل الدين سبباً لاهتداء الف نفس . وأما فيما بعد فقد تغيرت الحال وهذه سبعة قرون مضت والأمة الجاحدة تهين المسيحيين ولا يهتدى بهذه الاهانات أحد الى المسيحية . وكلما انتصر الأتراك وتقدموا ازدادوا استمساكاً بعروة دياتهم . ثم ان الاسلام قد غزا آسية وافريقية واوروبا ولذلك أصبحت محاربة المسلمين ضرورة من الضرورات لا مناص منها . والتركي ان لم تحارب به انت كان هو الذي جاء يحاربك فلا بد اذاً من محاربتهم ولو اتفق المسيحيون لآبادوا الأتراك ولكن هؤلاء انتهزوا فرص الاختلاف بين المسيحيين وقد أدخل الاروام الترك في بلادهم هم بأيديهم كما يتجرع الانسان السم بيده وما فتوحات الترك الا انتهاز فرص . ومتى قاومهم المسيحيون حق المقاومة هزمهم أفلم ينهزم سليمان عن فينا

ومن قبيل مشروع نانيوس هذا مشروع « كوسبينيانوس » Cuspinianus الطبيب الالماني من فرانكفونيا كانت ولادته سنة ١٤٧٣ ومات سنة ١٥٥٩ وكان من مستشاري الامبراطور مكسيميليان ومشروعه هو العشرون وتاريخه سنة ١٥٤١ وقد ذكر في أول كتابه أصل الأتراك وكيف دخلوا شبه جزيرة البلقان وكيف حاولوا فتح فينا . ثم أخذ يتسدهن بسقوطهم ويورد العلامات التي تؤذن باسترداد المسيحيين للقسطنطينية قال : ان راهباً تكهن قبل فتح الترك للقسطنطينية بان المسيحيين سيعودون اليها بعد ثمانين

سنة . وقد مضى من المدة تسع وسبعون سنة ولم يبق الا سنة واحدة . واورد كلام متنبئ آخر فلكي من نابولي اسمه « منياتنيس » نظم نبوته شعراً وهي في هذا المعنى . ثم اشار الى ملحمة لاتينية قديمة مضى عليها مائة سنة موجودة في ماغد بورغ ماآها ان رجلاً من اعقاب شارلمان يكون اسمه كارلس هو الذي يعيد السلطنة الشرقية .

ثم ذكر كوسبينيانوس تاريخ آل عثمان الى السلطان سليم عاشر سلطان منهم . ثم أشار الى الطرق التي يمكن المسيحيين أن يدخلوا منها الى شبه جزيرة البلقان ويطردوا الترك من أوربة وقال انه يجب اتخاذ خطة الهجوم اقتداءً بانيبال وقيصر . وذكر مواقف جان هونياد الشهيرة وقال لو اتفق الالمان والمجر بدلاً من أن يتقاتلوا لطردوا الترك الى آسية . ونهاية كلامه حث الامبراطور شرلكان على قتال الترك

ثم المشروع الواحد والعشرون لمحاربة الترك وهو المنسوب الى « جيور جفيتز » Georgevits تاريخه سنة ١٥٤٢ وكان جيور جفيتز هذا رجلاً مجرياً نشأ عند الأتراك وقيل بقي أسيراً عندهم مدة ثلاث عشرة سنة وانتهت حياته في رومة سنة ١٥٦٠ وكتب تاريخ وقوعه في الأسر وما عاناه فيه وطعن في الترك وذكر في كتابه ملاحم تشير الى انقراض السلطنة العثمانية . وكان يرجو أن يهتدى الترك الى الدين المسيحي . وقد كان نداؤه لمحاربة الترك حرباً صليبية موجها الى الارشيدوق ماكسيميليان النمساوي . وقال : ان السلام الآن بين ملوك المسيحيين كاد يكون عاماً فلا يجوز التوقف عن حرب الترك فألمانيا تقدر ان تجند لقتالهم بدون عناء . ٥٠ ألف راجل و ٢٠ ألف فارس ومثل ذلك ملوك ايطاليا ويرجي من فرنسة واسبانية ان تجهزاً أكثر من هذا العدد ويمكن هولانده ان تجهز ١٠ آلاف فارس و ٢٠ ألف راجل وفي استطاعة المجر ومورافيا وسيليزيا وبوهيميا وبلاد الدانوب تقديم ٦٠ ألف مقاتل . قال المؤرخ دجقارا : انه لو كان احتشد وقتئذ ٢٢٠ ألف راجل و ٩٠ ألف فارس لكان جيشاً عرمرماً وكان يرجي منه العمل . ولكن جيور جفيتز يقع في التناقض مع نفسه عندما يقول : « إن الجندي المسيحي لا يفكر الا في الأجرة التي يأخذها وان الجندي المسلم يترك كل رذيلة اذا صار الى ميدان الحرب »

وفي سنة ١٥٤٢ ظهر في مدينة « انقرس » (بلجيكا) نشرة فيها نداء للنصرانية ان تتحد وتزحف نحو الأتراك وتقهر هذه الأمة الجاحدة . . .

وفي السنة نفسها ظهر مشروع حرب صليبية للبرنس يواكيم الثاني من أمراء براندنبورغ

Yoachim II de Brandebourg

ثم المشرع الثاني والعشرون وهو المنسوب الى « غيليوم دو غرانترى دوغرانشان »

Guillaume De Grantrye De Grandchamps وتاريخه سنة ١٥٦٦ الى ١٥٦٧

وكان هذا الرجل أقام ثلاث عشرة سنة في القسطنطينية وعاد منها الى فرنسا مع

السفير دارامون D'Aramon سنة ١٥٥١ ثم في سنة ١٥٦٦ عينته فرنسا سفيراً في

تركيا نظراً لخبرته بأحوال تركيا . ولكن « غرانشان » لم يوفق كثيراً في سفارته هذه

الى حدان الملك كارلس التاسع كتب الى الصدر الاعظم محمد الصوقيلى يقول له : « ان

غرانشان الذى عهدنا اليه بجميع أشغالنا في الشرق هو منتظر أن نرسل شخصاً بدلاً عنه

لانه لا يعجبكم » سنة ١٥٧٠ رجع الى فرنسا ويده كتاب من السلطان سليم الثاني الى

ملك فرنسا وقد عين هذا مكانه سفيراً « فرانسوا دونواي » Francois De Noailles

وكان غرانشان يحلم أن يتزوج بالاميرة « كيانه » الفلاخية الرومانية ابنة الويغود

بترو الثالث أمير رومانيا ثم يرث بعد ذلك اماره رومانيا ولكن حله هذا لم يصح فاقترح

على الباب العالي أن ينصبه أميراً على الفلاخ والبغدان وانه هو في مقابلة ذلك يسعى في

تقريب الفرنسيين البروتستانت من الأتراك بحجة ان بين عقيدتي الفريقين تشابهاً وان

ينقل البروتستانت الفرنسيين Huguanots الى بلاد الفلاخ والبغدان . وكان يقوى أمله

في ذلك « سيجيسموند زابوليا » Zapolya أمير ترانسيلفانيا الذى كان يرجو مساعدة

غرانشان له في الحصول على وعد ملك فرنسا بتزويجه من الأميرة مرغريت أخته . وقد

أرسل الصدر الأعظم ترجمانه محمود بك يلتمس من ملك فرنسا تزويج أخته من الأمير

سيجيسموند المذكور ليكون فيما بعد ملكاً على بولونيا

الا ان أمراء الممالك المسيحية تزاحوا على الأميرة مرغريت هذه فالامبراطور

مكسيميليان أرادها لابنه رودولف وملك البرتغال « سباستيان » الذى لم يكن تجاوز

السابعة عشرة من العمر أرادها لنفسه وأسعفه في ذلك البابا بيوس الخامس ففارت حاسة

هذا الملك الشاب بما حركه من العشق وكتب الى البابا يشكره كثيراً ويقول : « انى ما أريد

بمباهرة جلالة ملك فرنسا الا أن أئين له مقدار تقديرى لشرف الاصهار له وان أثبت لأوربة ما عندى من الوجد لانقاذ الكنيسة من ظلم الاتراك «
 لكن كارلس التاسع ملك فرنسا أبى الا تزويج أخته من « هنرى دوبربون »
 أمير نافار الذى صار فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسا .

وقد كانت ايزابلا والدة الامبر « زابوليا » الترانسلفانى أرسلت الى هنرى الثانى ملك فرنسا ترجوه أن يتفق مع السلطان سليمان لعل هذا يرد الى ترانسلفانيا بلاد المجر السفلى ثم ان الامبر زابوليا تزوج بآنبة أختى الامبراطور شرلكان . وكان زابوليا قد كتب الى السلطان فى ٤ ابريل سنة ١٥٦٤ يستأذنه فى الزواج وظهر من تقرير مقدم الى الامبراطور ان السلطان سليمان كان يعامل الامبر زابوليا كأحد أولاده ولذلك كان سليم الثانى يعدّه كأخ له وكان زابوليا لا يتزوج الا من يرتضيها له السلطان والا يبقى عزباً . وكان مراد الترك أن يجعلوا أمير ترانسلفانيا ملكا على بولونيا ليقف فى وجه الامبراطورية الالمانية وان يزوجه بأخت ملك فرنسا لاجل هذا الغرض . وقيل انهم كانوا يطمعون أن يجلسوه على عرش الامبراطورية نفسه وعلى فرض لم يصح حلم الامبراطورية له فيجمعون من بولونيا وترانسلفانيا والفلاخ والبغدان قوة تقف فى وجه الامبراطورية الجرمانية . وكانت تركيا تساعد حركة البروتستانت فى أوربة وكان من جملة ما فكرت به الملكة « مارى دومديسيس » ابعاد « الهوغنوت » هؤلاء من فرنسا لاعادة السلام الى البلاد فكانت تفكر تارة فى ايطانهم ترانسلفانيا وبلاد الفلاخ والبغدان وطوراً فى ايطانهم جزيرة قبرص وأحياناً فى الجزائر الخ وكان « غرانشان » يعرف مقاصد الملكة ويحتهد فى تحويل هجرة الهوغنوت الى رومانيا ويعد ملك فرنسا بأنة ان أزواج أخته بأمر ترانسلفانيا وكان هواى غرانشان تولى على الفلاخ والبغدان فانه ينزل عنهما لصهر ملك فرنسا . وروى المؤرخ هامر Hammar (١) ان الامبر الرومانى بطرس الاعرج وأمه « كيائنه » كشفوا للباب العالى دسائس غرانشان وبذلا فى القسطنطينية ٢٠ ألف دوكا لأجل احباط مساعيه ولكنهما لم يقدر على استرجاع الامارة لأنفسهما وانما عين السلطان سليم الثانى اسكندر أخا بطرس أميراً على الفلاخ وأرسل بطرس وأمه الى قونية وأجرى عليهما

(١) أشهر مؤرخ أوربي لتركيا

الارزاق اللازمة

ثم ان البابا ييوس الخامس هياً مشروع الصليبية الثالث والعشرين وتاريخه سنة ١٥٧٠ ويقول المسيو فلامان Flament انه هو التدير الوحيد الذي وقف تقدم الاسلام . وكانوا في زمان البابا يوليوس الثالث قد استنفروا الناس أيضاً لقتال الترك ولكن القول لم يقترن بالعمل الا في عهد ييوس الخامس

وكان الامبراطور ماكسيميليان قد جمع أمراء ألمانيا والنمسا في اوغسبورغ للتذاكر في قضية الاتراك وأرسل البابا ييوس الخامس لشهود هذا المجمع من قبله الكردينال « كوماندون » ومعه « كانيزيوس » اليسوعي . فأجمع الأمراء الكاثولائيكيون على الوعد بالسير لقتال الترك واستنكف عن ذلك أمراء البروتستانت . وقدم البابا للامبراطور لأجل تجهيز الجلة على الترك ٥٠ ألف دوكا وتعاهد عمانوئيل دوق سافواي و « الفونس رستي » دوق فرارى و « كوم مديسيس » و « غليوم غونزاغا » دوق ماتسو وجمهورية « لوك » Lucques وجمهورية جنوة على قتال الترك اجابة لدعوة البابا . وشرع هذا يصلى ويقدس ويذرف الدموع وقيل ان السلطان سليمان قال : « إني لأخشى من صلوات هذا البابا مالا أخشاه من جميع جيوشهم »

وكان سليمان قد شن الغارة على بلاد المجر وحاصر زيفت Zighet ومات قبل فتحها بثلاثة أيام (٣٠ أغسطس ١٥٦٦) وأخفوا موته عن الجيش الى أن تم الفتح وجاء ابنه سليم الثاني من الأناضول فرأى الأحوال مما يقتضى جنوحه الى الصلح ف عقد هدنة الى ثماني سنوات مع الامبراطور مكسيميليان

أما البابا فلم يفتر ولم يعدل عن مشروعه في جمع كلمة النصرانية على الترك وكان يقول انه يجب على الأئمة المسيحية أن تسير قاطبة لقتالهم . ومما كتبه « ان السلطنة التركية قد تبسّطت تبسّطاً هائلاً بسبب نذالتنا الى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه اعتدائها الا اذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو العام وناشبه القتال برّاً وبحراً ولما كنا نحن على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة لنا من أن ندعوهم جميعاً لقتاله ولخضد شوكة الأتراك أعدائهم جميعاً » فأرسل ملك اسبانية خسين سفينة بقيادة « اندري دوريا » (اميرال شهير)

و «بطرس دومونت» رئيس فرسان مالطة ثلاث سفن ودوق سافواى أربعا وكان أسطول البندقية تحت قيادة «زان» Zanne وأسطول البابا تحت قيادة «كولونا» Colonna وجاء الأسطول العثماني فرسى أمام جزيرة قبرص في أوائل يوليو سنة ١٥٧٠ وفي ٨ سبتمبر جرى هجوم عام وفتح الترك نيقوسيا قاعدة الجزيرة وفر الأسطول الاسباني وانكفأ أسطول البنادقة وأسطول البابا الى كورفو

واذ بلغ هذا الفشل البابا أرسل الى ملك فرنسا يقول له : « إن قضية الحلف المقدس هي عندنا من الأهمية بحيث أنها لم تترك لنا راحة لافي الليل ولا في النهار ولا نرجو لنا راحة الا في دخول جلاتك في هذا الحلف »

ولما أجابه كارلس التاسع معتذراً بالمعاهدات التي بينه وبين تركيا كتب اليه البابا يقول « ان جلاتك لا تبرأ من اللوم اذا كنت لأجل فائدة شخصية أو أية فائدة كانت تستمر على علاقاتك الودادية مع الكفار »

ومراد البابا بذلك انه وان كان ملك فرنسا مرتبطاً بعهود مع الانراك فهو في حل منها وليس عليه أن يرضى عهوداً للمسلمين

فتأمل في هذا وقابله مع شريعة الاسلام التي هي في هذا الموضع محددة بهذه الآية : «إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

ومعنى ذلك أن على المسلم نصر أخيه المسلم على غير المسلم الا اذا كان بين هذا وبينه ميثاق فلا يجوز نقض هذا الميثاق بوجه من الوجوه . وكما جاء في القرآن الحث على حفظ العهود بازاء أى كان مسلماً كان أو غير مسلم . قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) وقال تعالى : (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) الآية وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى أن

يقول : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) وقال تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

فأنت ترى أن الاسلام لا يقيد المؤمن بالعهد اذا كان تجاه المؤمن ويطلقه منه اذا كان بازاء غير المؤمن كما فعل البابا بيوس الخامس الذي يصرح في كتابه ملك فرنسا بأنه لا يجوز له لمصلحة شخصية أو لأي سبب آخر أن يرمى عهوده للاتراك الذين هم غير مسيحيين .
وقابل قول البابا هذا بوصية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه للاشترا النخعي عند ما ولاه على مصر وذلك في كتابه الشهير للاشترا قال كرم الله وجهه :

« وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فخط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ^(١) لما استولوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فانه لا يجترى على الله الا جاهل شقي . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحته وحرماً يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه . ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجوا انفراجة وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبه فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك » اهـ

الخلاصة ان الامام علياً رضي الله عنه استقصى جميع ما يخطر بالبال في باب حفظ العهود ورد عذر كل معذّر في نقضها ولم يجعل العهد مسؤولاً بازاء المؤمن وغير مسؤول تجاه غير المؤمن .

ونعود الى الكلام على حلف ملوك النصارى لمقاتلة الاتراك ونقول ان كارلس التاسع ملك فرنسا أبدى بعض معاذير لكنه كان في الحقيقة مستعداً لنكث عهده مع تركيا اذا ارتضى المسيحيون بتمليك أخيه على بولونيا . وكذلك الامبراطور مكسيميليان كان اعتذر للبابا بمعاهدة بينه وبين السلطان سليم الثاني فرد البابا عذره هذا وأجاز له الخيس بعهده بحيث لم تمض أيام ثلاثة حتى نقض الامبراطور الميثاق الذي بينه وبين السلطان كما

(١) أي حال كونهم دون المسلمين في الأخلاق والعوائد

حرر ذلك « دجفارا » في الصفحة ١٠١ من كتابه

ولما رأى البابا ثقافلا من سجيسموند ملك بولونيا عن اجابة النفير لحرب الاتراك
خاطب ايثن ملك الروسية . ثم انه أرسل الى فيليب الثانى ملك اسبانية يشكو اليه قعود
الاسطول الاسبانى عن مناجزة اسطول الترك القتال ويعرض عليه نفقات الحرب فتقبل
فيليب ذلك بقبول حسن ووضع اسطوله تحت اشارة البابا . ثم ان هذا اختار الدون جوان
النمساوى Don Juan D'Autriche ابن شريك من احدى حظاياه قائداً عاماً للحملة .
وسيرّ أمراء ايطالية بعوئهم فقدم دوق اور بنيو ألف راجل ودوق فرارى ألف راجل و ٣٠٠
فارس ودوق مانتو ألف راجل و ٢٠٠ فارس ودوق ساقواى ألفى راجل و ٢٠٠ فارس وقدمت
جنوة ولوك ألفى راجل و ٢٠٠ فارس والدوق كوسم دومديسيس أربعة آلاف راجل وألف
فارس .

ثم انعقد التحالف فى ٢٥ مايو سنة ١٥٧١ ونشر فى ٢٥ يوليو . وهو الحلف المسيحى
الثالث عشر فى وجه الدولة العثمانية منذ تأسيسها الى ذلك العهد . وقد جاء فى صك هذا
الحلف « ان البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانية وجمهورية البندقية يعلنون الحرب
الهجومية والدفاعية على الاتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التى اغتصبوها من المسيحيين
ومن جلتها تونس والجزائر وطرابلس ^(١)

وكان البابا نفسه قدم للحرب ١٢ سفينة حربية وثلاثة آلاف راجل و ٢٧٠ فارساً
وتقرر توزيع نفقات الحملة على الوجه الآتى : النصف على ملك اسبانية والثلث على جمهورية
البندقية والسدس على البابا . ولما احتشدت أساطيل الحلفاء بلغت ٢٢٥ سفينة حربية و ٧٠
مركب نقل وكان اقلاعها من مرسى مسيني فى ١٥ سبتمبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول
العثمانى ٢٤٥ سفينة حربية و ٨٧ مركب نقل أى أرجح من اسطول الحلفاء

وتلاقى الفريقان فى خليج لبيانت ونشبت الواقعة البحرية الشهيرة وقضى الله
بتمحيص المسلمين وفقدوا ثلاثين ألف مقاتل وأخذ المسيحيون منهم ١٣٠ سفينة و ١٠
آلاف أسير . وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية

وقيل ان السلطان سليما الثانى قال لسفير البندقية بعد المعركة : « نحن عندما نفتتح

تأمل كيف اعتبروا هذه الأماكن من بلدان المسيحيين

لكم مملكة نكسر لكم عضواً لا يمكنكم تعويضه وأما متى خسرنا اسطولاً فلا يكون ذلك
الا كالشعر الذي يذهب بالخلقة ثم ينبت »

والحقيقة ان نجم آل عثمان بعد هذه المعركة بدأ بالأفول وان ركب الاسلام شرع
بالقفول وان واقعة ليبانت كان لها ما بعدها

ولا تسل عن الأفراح التي عمت أوربة بهذه النصره وعن القصائد التي نظمها الشعراء
والخطب التي شققها الفصحاء وبلغ الفرح من البابا مبلغاً لا يحيط به الوصف الا أنه لم يستتم
الى الدعة بعد هذا الظفر بل بقي يعلن على النصرانية ان عدوها لا يبرح شديداً وانها لا تزال منه
بخطر . ولم يكتف باثارة ملوك النصرانية على الترك بل حاول اثارة ملوك المسلمين الذين بينهم
وبين الترك ضغائن . ونقل المسيو دجفارا صورة كتاب من البابا المذكور الى طامهاسب
شاه العجم من جملة ما جاء فيه : « ان تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم
على العثمانيين اذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات »

وأرسل البابا بواسطة البرتغال يستعدى ملك الحبشة والشريف مطهرراً امام اليمن
على الدولة العثمانية ولكنه لم يعيش طويلاً بعد هذه الفرحة لأنه مات في ١ مايو سنة ١٥٧١
وانحلت بموته تلك الرابطة وتصلحت البندقية مع الباب العالي وغضب البابا غريغو ريوس
الثالث عشر على البنادقة وكان هذا البابا قد اجتهد أن يقفوا أثر سلفه في حرب الترك وجع
لذلك الاسبانيول والبنادقة الا ان اسطول الخلفاء تقهقر أمام الاسطول العثماني والتجأ الى
نافارين (١٥٧٢) وانعقد الصلح بين تركيا والبندقية في ٧ مارس سنة ١٥٧٢ وبقيت في
أيدي الترك قبرص والمدن التي كانوا افتتحوها من ألبانيا وقدمت البندقية ثلاثمائة ألف دوكا
للسلطان و ٥٠ ألف دوكا للصدر الأعظم وزادت ما كانت تؤديه من جزية جزيرة « زانتى »
في المورة

ثم جد مشروع ايطالى لمحاربة الترك هو الرابع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٧١
قال المسيو دجفارا ان ظفر المسيحيين في ليبانت أثار الجاسة في رؤوس كثير من
الاوربيين وشرعوا في ترتيب برامج ورسم خطط لمحو الدولة العثمانية من جملتها برنامجان
محفوظان في خزانة كتب « امبروزياما » في ميلانو أشار اليهما « جورغا » Jorga في
تاريخ السلطنة العثمانية وأحد هذين البرنامجين مقدم الى البابا بيوس الخامس وأكثر موضوعه

يدور على ايجاد المال اللازم لغزو الترك . وهو يحسب الاديار ١٤٤٠٠٠ والرعويات ٢٨٨٠٠٠ ويفرض عليها مبالغ معينة ويفرض مبالغ أخرى على الأمراء ويبين كيفية اجتباء المال مما لا حاجة بنا الى ذكره . وأما عدد الجيش اللازم فيقدره صاحب أحد البرنامجين بمائة ألف راجل وخمسين ألف فارس وخمسين ألف بحرى . وهو يدخل في تفاصيل من جهة نفقات الحرب لا حاجة أيضاً الى ذكرها ويشير بسير الامبراطور الجرمانى من جهة البر وبسير اسطول الملك فيليب من جهة البحر وبأثارة نصارى الشرق وبتوزيع الأسلحة عليهم وبمكاتبة شاه العجم لمهاجة الترك من وراء . وصاحب هذا المشروع يرجو هكذا تدمير السلطنة العثمانية ومن بعد تدميرها الاستيلاء على الأراضي المقدسة ويدخل في مشروعه الحاق مصر وقسم من بلاد العرب بالحبشة . وأما شاه العجم فيعامل معاملة صاحب ولو كان مسلماً ويجوز أن تكون هذه المعاملة سبباً لاهتدائه الى الكشلكة . . .

وأما المشروع الثانى المحفوظ فى مكتبة ميلانو المذكورة فهو الخامس والعشرون

وتاريخه سنة ١٥٧٢

وصاحبه يذكر استعداد الأتراك للدفاع خوفاً من عادية الأوربيين ويقول ان لديهم ٢٥ ألف فارس فى المورة ومثلها فى شمالى بلاد اليونان فهو يشير بمهاجة الدردنيل والزحف من هناك الى القسطنطينية وهكذا يضطر الترك الى اخلاء المورة ويحتلها الأوربيون وأما بلاد الجزائر فيخشى ان هوجت أن تقاوم مقاومة شديدة وتأتيها نجدات من سلطان فاس وأما قبرص فهي بعيدة عن أوربة وأما بلاد المورة والأرخييل فأهلها لا يشورون الا بعد انهزام الترك فالرأى الأولى عنده هو الزحف على الاستانة رأساً . وصاحب هذا المشروع يشكو تحاذل المسيحيين ويقول أنهم لو اتحدوا لما أبقوا للأتراك باقية ولكن دوق موسكو وملك بولونيا لا يعتمد عليهما . والنمسا ضعيفة بنفسها ولولا نجدة الألمان لها لأضافها الترك الى ممالكهم . وفرنسة مشغولة بمنافساتها مع الامبراطورية الجرمانية . وانكلترة واكوسيا والدانمرك والسويد بعيدات المزار وهن لا يلتفتن الى نداء البابا

قال صاحب هذا البرنامج : ان الذى يمكنه أن يصارع الأتراك هو ملك اسبانية ومعه ملك البرتغال . وأهم عدو للترك فى الشرق هو الشاه الصفوى لكن يحتاج الى المال والمدافع والكرج يمكنهم أن يدافعوا الترك لكنهم لا يقدررون أن يهاجموهم . ولو كان العرب متحدين

لأمكنهم أن ينتزعوا من أيدي الترك مصر والشام . وكذلك عرب ليبيا وأفريقية ليسوا متحدين . وملك فاس لا يجزؤ على عمل حذراً من جيرانه . والنجاشي يمكن الاعتماد عليه لكنه لا يملك أسلحة نارية ولا أسطولا . قال : ولو كان عند دوق موسكو سفن بحرية لما كان أحد أقدر منه على مهاجمة الاسناتة . والخلاصة أن صاحب هذا المشروع لا يعول في حرب الترك الا على البابا واسبانية والبرتغال وهو يقترح جمع الأموال وجعلها تحت يد البابا ومن رأيه الخدمة العسكرية الاجبارية لمحاربة الترك وأن يتجند الرهبان والقسيسون لهذه الحرب المقدسة

ثم المشروع السادس والعشرون وهو مشروع الكايتان « لانو » La Nune وتاريخه

سنة ١٥٨٧

هذا الرجل كان من أعوان هنري الرابع ملك فرنسا جرح في إحدى الوقائع في يده فقطعوه هاله ووضعوا له ذراعاً من حديد لأجل أن يتمكن من مسك اللجام فسمى من ذلك العهد « ذراع من حديد » وقد عاش في عصر كثير فيه تأود الأوربيين على شقاء نصارى المشرق من أروام وصرب وبلغار ومكدونيين فكتب « لانو » رسالة أشار فيها باتحاد مسيحي على الأتراك وتقسيم سلطنة آل عثمان ، وقال ان الضرر انما وقع من محالفات بعض ملوك المسيحيين لملوك المسلمين أعداء اسم المسيح . وقال ان ملوك المسيحيين لو اتحدوا لطرّدوا الترك في أربع سنوات ! قال دجقارا : ان « لانو » أفرط في التفاؤل فقد لزم بدلاً من أربع سنوات أربع مائة سنة حتى أمكن التغلب على تركيا

وكان من رأى لانو أن يزحف الامبراطور الجرمانى ومعه خيالة المجر والبولونيين من طريق بوسنه الى تراقيا وان يجتمع الفرنسيين والسويسريون والطلينان ويقطعوا الادرياتيك الى ألبانيا فتشور معهم بلاد الأروام وان تسير أساطيل اسبانية والبرتغال قاصدة غاليبولى وان يضم البابا مائة سفينة حربية الى اسطولها . وكان يشير باستنفار الفلاخين والبغدانين أيضاً على الترك الخ

وكان لبرنامج لانو وقع عظيم في اوروبا وقد استؤنف البحث فيه تحت أسماء اخرى

ثم مشروع « رينه دولوزينج » Rene De Lusinge وهو السابع والعشرون

وتاريخه ١٥٨٨

هذا الرجل من اسرة نبيلة في ساقواي حصل العلم في جامعة تورينو والتحق بدوق «ميانزا» الذي كان مع الامبراطور الجرمانى في حرب الترك ثم جعله دوق ساقواي سفيراً له في باريز وله مؤلفات كثيرة باللاتينية والفرنسية منها كتاب اسمه « تاريخ منشأ الترك وتقدمهم وتقهقرهم » ودعا فرسان النصارى لقتال الأتراك بالفاظ مهيجة تناول فيها الاسلام وصوراً ما يجرى من فظائع القتل والنهب على اخوانهم نصارى الشرق

وقبح اعتذارات المسيحيين عن عدم اتحادهم وقال انهم وان لم يتحدوا بعضهم مع بعض فيجب عليهم الاتحاد على العدو العام وقال انه يجب أن يعقدوا هذا الحلف فيما بينهم في زمان السلم

وكان يرى رأى « سانوتو » وهو أن الهجوم على تركيا يجب أن يكون من البحر . وقال ان السلطنة العثمانية متداعية الى الاضمحلال بعوامل داخلية . قال دجقارا : ان لوزينج لم يخطئ في هذا رأى ولقد كان بعيد النظر فيه لانه تحقق بعد أعصر من ذلك العهد ثم مشروع البابا اكليمنضوس الثامن وهو الثامن والعشرون وتاريخه ١٥٩٤ — ١٦٠٠ وقد كان هذا البابا جاداً مشيحاً فلم يجلس على عرش البابوية في ٥ يوليو سنة ١٥٩٢ حتى أرسل الى الامبراطور رودولف يستنفره لحرب غير المؤمنين . وامتاز هذا البابا على غيره بكونه أرسل الى الشرق عدداً كبيراً من القصداد والدعاة لتحريك المسيحيين على الثورة ومقاتلة الترك ومنهم « كوميليو » Cumuleo الذي كانت مهمته أن يجمع على مشاغبة الترك العجم والقوزاق والترانسيلفانيين والفلاخ والبغدان والبلغار . وأشخص الى مصر « كاميليو كاتاني » Camillo Caetani أسقف سرفيا فارسل بطريرك الاسكندرية الى البابا بمقابلة ذلك معتمدين من قبله . ثم أرسل الى براغ (بلاد التشيك) « سيزيانو » أسقف « كريمون » Crémone والكردينال مادروزو Madruzzo وأرسل الى بولونيا « مالاسينو » أسقف « سان سيفرو » Saint-Severo وأرسل الى جبل لبنان اليسوعيين « دانديني » Dandini و« برونو » Bruno وراسل الروس وهم أنفذوا اليه بعض مطارينهم . ولم ينس العجم بل أنفذ الى فارس الاب كوستا والاب « دياغوميراندا » وسعى كثيراً باقناع سچيسموند أمير ترانسيلفانيا بترك الاتراك لأن هذا كان متمسكاً بهم وكان يهون أمر الاتراك على ملوك المسيحيين ويبعث اليهم بما يتراخى من أخبار ديب

الفساد والانحلال في تركيا وكان يوجع البولونيين كثيراً على قعودهم عن حرب الترك وأرسل «كاميل بورغيز» Borghese الى اسبانية يستعدى هذه الدولة على الترك ثم شفعه بمندوب آخر هو «آلدوبرانديني» Aldobrandini الذي هو ابن أخت البابا وما زال يغري هنري الرابع ملك فرنسا بعداوة الترك حتى كتب هذا الى سفيره في الاستانة «بريغ» Brèves قائلاً له : « ان الأب الاقدس يأبى الا ان أنضم الى ملك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين ونحارب الترك »

وكانت رسائله تترى الى جميع الجهات بالاستعداد على الترك سنة ١٦٠٠ أرسل «ريموند دلاتوري» الى فيينا يطلب من الامبراطور الدخول في حلف مسيحي ضد الترك . وكان يقول ان الواجب جمع كلمة المسيحيين وتفريق كلمة المسلمين^(١) وكان يشير بأن يكون الحلف المسيحي عاماً وبأن لا يستثنى منه أحد ولا البروتستانت وأن يكون لأجل مسمى خمس سنوات بالأقل وان ترسل هذه العصبة الكرج والعجم والحبشة والأروام والارناووط والراغوزيين والبولونيين والفلاخ والبغدان وغيرهم . وأرسل الى الامبراطور مع الارشيدوق «ماتياس» برنامجاً ثمانية بنود منها بنود تتعلق بكيفية الزحف على تركيا وكان يهم البابا كليمنضوس أمر الزحف على تركيا الى الحد الأقصى بحيث انه في مجمع سنة ١٦٠٠ تذكر انشقاق ملوك ايطالية وما يخشى من عدم انتظام كلمتهم على حرب الترك فأجهش بالبكاء . وسنة ١٦٠١ انكسر المجر ومن ذهب لنجدتهم ومن جلتهم دوق «مركور» De Mercoeur والجنرال «آلدوبرانديني» ابن أخت البابا وقتل هذان فازداد حزن البابا وشرع يلح على هنري الرابع في محاربة الأتراك وأرسل يسمعه انه يمكن اخراج الامبراطورية من آل «اوتريش» أي عائلة النمسا المالكة وانتخاب هنري الرابع امبراطوراً وكل هذا ليحفزه على حرب حلفائه الترك ثم أراد أن يوفق بين هنري الرابع ملك فرنسا وفيليب الثالث ملك اسبانية على شرط أن يتحدا في محاربة الترك فيينا هو يسعى في هذا الغرض اذ اطلع ملك فرنسا على دسيسة بحقه كان يدسها ملك اسبانية فخطبها الاتفاق

ولم يقتصر البابا كليمنضوس في مناصبة الترك العداء على العوامل الخارجية بل

(١) على نسق سياسة الاستعمار اليوم

مديده الى داخل سلطنة آل عثمان وذلك كما يأتى :

كان فى السلطنة العثمانية رجل من أعظم أركانها يقال له سنان باشا اشتهر اسمه شرقا وغرباً وكان هذا الوزير العظيم طليانياً مسيحياً اسمه « سيبيون سيكالا » Scipion Sicala وقع فى أسر الأتراك فأسلم وحسن اسلامه لأنه كان مساماً عن عقيدة لا عن غرض دنيوى وأسعفته فيما بعد ذلك الاقدار الى ان صار من أعظم رجال السلطنة العثمانية وأصبح هنرى الرابع ملك فرنسا يراجعه فى المهمات التى له فى الشرق . فالبابا اقليمنضوس الثامن فكر فى اعادة سنان باشا الى المسيحية وأرسل اليه الراهبين اليسوعيين « انطونيو وفسنزو سيكالا » اللذين كانا من أسرته . وقد نشر « رينيرى » Rimieri عن هذه القصة وثائق كانت مجهولة وعلم منها ان لوكريس « Lucrece » والدة سنان باشا كانت شاهدت ابنها فى مسينى وراودته على أن يعود الى النصرانية . وذلك سنة ١٥٩٨ ولما لم تظفر ببعيتها راجعت البابا فى الأمر فاجابها بكتاب هنا فيه على مساعيها وقال لها انه يرجو رجوع سنان لا الى أمه الدموية فقط بل الى أمه الروحية الكنيسة الكاثوليكية . ثم أرسل البابا الاب انطونيو سيكالا الى ارشيدوق النمسا وملك اسبانية يشاورهما فى مشروع اعادة سنان باشا الى النصرانية

وكان لسنان باشا أخ بقى مسيحياً اسمه « كارلو سيكالا » تولى بواسطة وجاهة سنان فى الدولة امارة جزيرة ناكسوس من جزر الأرخبيل الاغريق وكان يطمح الى أن يتولى فى يوم من الأيام امارة الفلاخ والبغدان . فكتب البابا الى كارلو سيكالا فى ٨ مايو سنة ١٦٠٠ بمكانه من امارة تلك الجزيرة يرجو منه العمل لاعادة سنان الى المسيحية . وفى اثناء ذلك صدرت الارادة السلطانية الى كارلو سيكالا بامارة جزيرة ناكسوس وبجلب أمه لتكون بجانبه فلحظ الناس من ذلك أن سنان باشا هو الذى استخرج هذه الارادة أملاً بان تجيء أمه وتهتدى الى الاسلام وكان قد كتب الى أخيه يستنجزه وعده بجلب أمه . ثم اجتمع سنان باشا وأخوه فى جزيرة ناكسوس وقدم اليهما ابن عمهما « فسنزو سيكالا » اليسوعى واطلع سنان على اقتراحات البابا وفيليب الثالث ملك اسبانية . وبعد ذلك بسنة أنفذ البابا الأب انطونيو سيكالا الى مجريط يلتمس من ملك اسبانية المعاوضة على اسقاط السلطنة العثمانية التى سيقوم سنان باشا ثأراً عليها بعد رجوعه الى النصرانية . وكان برنامج

البابا أن تتولى أسرة مسيحية عرش الاستانة وأن يُحمَل شعوب تركيا على المسيحية^(١) ووعده البابا سنان باشا بأنه إن ثار على تركيا يكون من ورائه ملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين وان جميع ماينتزع سنان من أيدي الترك من الولايات يصير اقطاعاً له داخلاً في ذلك القسطنطينية وغير مستثنى سوى الأرض المقدسة ودوقية أثينا اللتين ستكونان ملك اسبانية وبلاد المجر وترانسيلفانيا التي ستؤول للامبراطور . وكتب البابا اكليمينزوس الى سنان باشا في ٥ ابريل سنة ١٦٠٣ كتابين في أحدهما يعده بأنه يكون ملكاً على البلاد التركية التي يفتحها على شرط أن يحول أهلها الى العقيدة الكاثوليكية ويؤكد له بأنه في هذا الوعد على وفاق مع الامبراطور رودلف ومع ملك اسبانية الذين سينجدانه بجيوشها وهو يدعوهم أن يجحد الدين الاسلامي أمام شهود وهكذا يغسله من آثامه السالفة . وأما الكتاب الثاني ففيه تذكير سنان بوعده بالرجوع الى حضن الكنيسة ووعده بأنه إن ثار على السلطان يكون الامبراطور وملك اسبانية وجميع ملوك المسيحيين ظهراء له ويختتم البابا كتابه بوضع سنان باشا وعائلته تحت حاية الرسولين بطرس وبولس^(٢)

والحق انه لو تم هذا المشروع لكان ضربة شديدة على تركيا لكنه لم يتم . وسنة ١٦٠٣ حدث شغب في الاستانة ومات محمد الثالث . ثم في السنة نفسها فتح الشاه عباس كرجستان فزحف سنان باشا في ١٥ يونيو سنة ١٦٠٤ على رأس جيحف جرار الى أرمينية فهزمه العجم هزيمة شنيعة في ٦ أغسطس سنة ١٦٠٥ فانتحش سنان الى ديار بكر حيث كان ابنه محمود والياً ومات فيها غمّاً في تلك السنة . وكان له عدة أولاد منهم واحد روى « هامر » انه كان قد تزوج بأخت السلطان محمد الثالث

وأما البابا اكليمينزوس الثامن فمات قبل سنان باشا بتسعة أشهر خائب الأمل فيما

حلم به

ثم مشروع الأب كوموليو Cumuleo وهو التاسع والعشرون وتاريخه سنة ١٥٩٤ وكان هذا القسيس مكدونى الأصل عينه البابا غريغوريوس الثالث عشر زائراً رسولياً للكنائس اللاتينية في تركيا الأوربية وكان بحسب قولهم محمود السجيا ثاقب الفكر نزيه

(١) يريد حملهم على ذلك بالقوة كما حصل بمسلمي الأندلس

(٢) كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا صفحة ١٣٧

النفس على الهمة لا يعرف التعب ولا الملل إلا أنه قضى حياته يتعقب فكرة الانتفاض على الترك ودحرهم إلى آسية

ومشروع « كوموليو » مشتق من مشروع البابا كليمنطوس الثامن إلا أن فيه معلومات خاصة تستحق الذكر

فهذا القسيس أرسله البابا إلى موسكو ففر بالبانيا وترانسيلفانيا في طريقه ثم عاج ببلاد الفلاخ والبغدان وكان يئده مراسيم من البابا إلى ملوك النصارى فيها بيان خطر الترك وتوصية لهم برفض كل معونة للترك وإن لم يمكن الرفض البات فتأجيلها أو وضعها في شكل سطحي فقط . وكان كوموليو مأموراً أن يعرف هل في وسع الفلاخ والبغدان والقوزاق أن يشوروا على الترك أولاً ؟ وإن طلب القوزاق مالا للثورة فكان كوموليو مأموراً بأن يعدهم باثني عشر ألف فلورين لكن على شرط أن لا تؤدي إليهم إلا إذا دخلوا بلاد العدو^(١) وكان « كوموليو » مأموراً بأن يسعى ويبقى دائماً على حذر من المسيحيين الأرثوذكسين وبعد أن طاف في هذه البلدان أرسل إلى البابا بتقرير يقول فيه إن البانيا فيها ٤٠ ألف مقاتل وأنه يمكن أن يخرج من مكدونية وإيروس مائة ألف مقاتل ومن الهرسك وكرواسيا ١٠٠ ألف مقاتل ومن بوسنه وضفاف الطونة إلى بلغراد ٢٠٠ ألف مقاتل ومن بلغراد إلى البحر مائة ألف مقاتل الخ وبالجملة يمكن أن يشور على الترك أربع مائة ألف شاكي السلاح . وكان كوموليو يرى الوسيلة لاثارة هذه الأمم هو أن تبدأ الروسية بالزحف لقتال تركيا فإذا زحف مائة ألف مقاتل من الروسية انضمت إليه هذه المقاتلة من أمم البلقان وبلغ عدد الجميع نصف مليون مقاتل . وأما القسطنطينية فإن فتحها مستطاع بخمسين سفينة حربية . قال دجوفارا : يظهر من هنا أن الأب كوموليو كان عظيم الإيمان سريع الثقة ويظهر من مطالعة تقارير كوموليو إلى الفاتيكان أن أمير البغدان رضى بالدخول في الحلف المسيحي ضد تركيا وأما أمير الفلاخ فامتنع . وكان هذا الأمير هو الأمير الكبير ميشل الملقب بالشجاع وقد صار فيما بعد أميراً على الفلاخ والبغدان وترانسيلفانيا معاً . واجتهد كوموليو كل الاجتهاد في منع الصلح بين النمسا وتركيا . ولكنه أخفق في موسكو وفي بولونيا وعند القوزاق . وآب إلى رومة سنة ١٥٩٨ ومات في أوائل القرن السابع عشر

(١) ماأطبق هذه الدسائس على وصايا الانجيل الذي يبشر به هذا القسيس !

ثم المشروع الثلاثون لتقسيم تركيا المنسوب الى «لوتسيو» Luceio وتاريخه سنة ١٦٠٠
 ويوجد نسخة خطية من كتاب لوتسيو فى مكتبة نابولى وهو مقسوم الى قسمين
 الأول يبحث فيه بحثاً فلسفياً عن عظمة الممالك وسقوطها ويذكر الاشوريين والملايين
 والفرس والمكدونيين واليونانيين والرومانيين وغيرهم ويقول ان المسلمين سيصيبهم ما
 أصاب غيرهم وان سفينة الاسلام العظيمة المشحونة بالذخائر والنقائس لا بد أن تفرق مثل
 غيرها . وكما ذهبت دولة الرومان ستذهب دولة الاسلام . والثانى يبحث فيه عن آل عثمان
 ويذكر تاريخ سلطان سلطان منهم ويقول ان السلطان مراد دخل الى بلاد اليونان من
 آسية ومعه ٦٠ الف مقاتل وان جيش بايزيد كان ٣٠٠ الف وان جيش مراد الثانى كان
 ١٠٠ الف وجيش محمد الفاتح ٣٠٠ الف وان سليمان حاصر قينا بخمسمائة الف . ومن بعد
 فشله امام قينا لم تزل قوة آل عثمان فى هبوط . قال وقد كان قيام السلطنة الرومانية بالفضيلة
 وبحسن الطالع الذى كان يرافق الفضيلة فاما السلطنة العثمانية فليس لها أساس الا حسن
 الطالع لا غير . ولولا الاختلاف بين الروم واللاتين ما أمكن الترك أن يدخلوا أوربة . ثم
 أخذ لوتسيو يشرح حالة الدولة العثمانية وما طرأ عليها من الفساد وقال ان السلطان لا يراه
 أحد وهو عاكف على لذاته وان الوزراء لا شغل لهم الا نهب الرعية وان الديوان ليس
 بمجلس جد بل كل من فيه لا يعرفون الا التملق للسلطان وكم من وزير قتله السلطان لانه
 تجرأ على ابداء رأى مخالف لرأيه . وهكذا ساد فى الدولة الكذب والنفاق واستفاض النكث
 بالعهود . قال «دجوفارا» وكان «لوتسيو» يورد هذه الانتقادات بحق الدولة العثمانية ثم ينسب
 غرضه فيعود فيورد أمثلة لها عند سائر الدول . وذكر ان مناصب الدولة صارت تطرح بالمزاد
 وان الجنود كثيراً ما تبقى بدون ارزاق بينما السلطان ووزراؤه وقرناؤه منغمسون فى الترف .
 وبعد أن وصف كثيراً من مساوئ أحوال تركيا انتهى الى القول بأنه محكوم عليها
 بالانقراض

ولسكه من جهة ثانية كان يئن من اختلاف المسيحيين بعضهم مع بعض ويقول
 ان سبب بقاء تركيا الى ذلك الوقت هو تنازعهم . وكان يدعوهم الى الاتحاد ويبين لهم
 سهولة التغلب على تركيا وقيم الأدلة على أن محاربة تركيا حق وعدل ويقول « أى شئ »
 أفضح من وجود قبر المسيح فى أيدي غير المؤمنين »

وقد أطرى لوتسيو الباباوات الذين دعوا الى الحرب الصليبية وعدّ منهم لاون التاسع وأوربانوس الثاني وغريغوريوس الثامن ونيقولا الثاني وجيلاسيسوس الثاني واسكندر الثاني وكاليكستوس الثاني وهوموسيوس الثالث ونيقولا الرابع واكليمنضوس الثالث وسليستينوس الثالث واينوشنسيوس الثالث ونيقولا الخامس وبيوس الثاني وسيكستوس الرابع ولاون العاشر وبيوس الخامس

وكان رأى لوتسيو على المسيحيين هو المهاجة لا المدافعة وقال انهم اذا كانوا بعيدين عن أوطانهم ازدادت حماسهم . ثم أشار لوتسيو بأن يتولى رودولف الامبراطور الجرمانى قيادة الحملة التى يجب أن تزحف الى تركيا وقال ان هذا الامبراطور يستطيع أن يجند ٢٠٠ ألف ماش و ٥٠ ألف فارس وانه يجب أن يدخل فى هذه الحرب ملك فرنسا وملك بولونيا والروس . وقال ان الروس يقدرّون أن يسوقوا الى ميدان الحرب ١٥٠ الى ٢٠٠ ألف فارس و ٦٠ ألف راجل وان بولونيا تقدر أن تسوق ١٠٠ ألف فارس وليتوانيا ٧٠ ألفاً

قال وأما ملك اسبانية فيمكنه أن يصلى الحرب فى افريقية ويطرد الترك منها وانه يجب على البابا أن يجهز الأساطيل لمحاربة الترك فى البحر . وقد أثبت الله فى أيام البابا بيوس الخامس ان التغلب على الترك انما يكون فى البحر^(١)

وقال انه يجب على جمهوريّة البندقية أن تدخل فى هذه الصليبية ان لم يكن تحمّسا فى الدين فاخذاً بالتأثر عن « كورفو » و « كتارو » و « سريجو » و « زاره »^(٢) وغيرها مما انتزعه الترك من يدها ومما كان يهون به صاحب هذا المشروع من أمر الترك قوله انه ليس عندهم قواد مهرة وان الانكشارية والسباهية أصبحوا لا ينفادون لقوادهم وأن لا أمل لتركيا بنجدة أحد من جيرانها . وأما غنائم الحرب فقد ترك لوتسيو تقسيمها للامبراطور وجعل لملك اسبانية حقاً فى الاستيلاء على افريقية . قال دجوفارا : ان هذه الأفكار التى خطرت لصاحب هذا المشروع كانت منتشرة جداً فى أوربة فى النصف الأول من القرن السابع عشر

ثم مشروع « شافيني » chavigny وهو الواحد والثلاثون وتاريخه سنة ١٦٠٦ .

(١) يشير الى وقعة ليبانت

(٢) بلدة على بحر الادرياتيك يسميها المسعودى زهره

وكان هذا الرجل منجما ولد في « بون » Beaune (فرنسة) وقد كتب كتابا يدعو فيه النصرانية كلها الى الاتحاد على الأتراك ويعدّ الممالك التي ينبغي أن تدخل في هذه العصبة وكان يتألم أشد الألم لرؤية برابرة كالأتراك مسيطرين على المسيحيين ويقول ان السبب في ذلك كله انما هو الاختلاف الذي بين ملوك النصرانية والذي جعل الجيش التركي يمشى الى الأمام في أوربة كما في آسية وافريقية

ومما جاء في هذا الكتاب في مقام التقرير للمسيحيين ان جنودهم لا تعرف الا اتباع الشهوات البدنية وان معسكراتهم فيها من النساء أكثر مما فيها من المقاتلة وجاء فيه أيضاً أنه يجب طرد التركي الى أقاصى آسية الصغرى ويجب حل الأتراك على الديانة الكاثوليكية

أما تقسيم بلدان الاسلام فهو كما يلي :

الجلالة الامبراطورية يكون لها امبراطوريتا الغرب والشرق وتدخل في ممالكها بلاد المجر وتراقيا . ويكون لملك فرنسة بلاد الأناضول والشام . ويكون للانكليز مصر . ويكون للأسبانيول افريقية . ويكون للطليان جميع مراسى البحر المتوسط وجزائره . ويكون للبولونيين والدانمركيين والنورفيجيين والاسوجيين الأقاليم الشمالية وأراضيها الخصيبة

وكان « شافيني » هذا نظر الى الآتى من قبل ما وقع بثلاثة قرون فان كثيراً من هذا التقسيم الذى تخيّل قد تحقق بسياسة الاستعمار الاوربي الحالى

وأما ما جاء في كلامه من التحريض على قتال المسلمين فحدث عنه ولا حرج وقد نقل كلام « جاك سادوليه » Sadolet مطران « كار بنتراس » carpentras في استجاشة المسيحيين لقتال الترك . ونقل كلام « لويس فيث » Vives الأسبانيولى عن « آلام المسيحيين المعذنين تحت أظافر التركي » وذكر استصراخ البابا اوربانوس الثانى لاغاثتهم وذهاب كل هذا الصراخ سدى قال : فالتركي لا يزال قوياً وأحد صدور الدولة العثمانية قال انه لا يخشى المسيحيين ماداموا منقسمين وهم لم يبرحوا منقسمين

قال : وينبغي أن يتولى البابا والامبراطور وملك اسبانية كبر هذه الصليبية وان يدعى ملك فرنسة لنقض عهوده مع الأتراك ... وقال ان الجيش البرى يجب أن لا يقل عن ١٢٠ ألفاً يتكون من الالمان والهولانديين والانكليز والفرنسيين والبولونيين

والبوهيميين والمجر الخ وينقسم الى قسمين أحدهما يسير تحت لواء الامبراطور والآخر تحت لواء الملك المسيحي كثيراً (أى ملك فرنسا) وأما الجيش البحرى فينبغى أن يجهزه ملك اسبانية الذى هو أقوى ملوك النصرانية وان يعضده البابا والبنادقة وسائر ملوك ايطالية ولا يجوز أن يقل عدده عن ٣٠ ألفاً . وتجب متابعة القتال مدة أربع سنوات

ولما كان « شافينى » منجماً كانت أفكاره دائماً مشغولة بالكسوف والخسوف والنجوم ذوات الذنب وقال ان انكساف الشمس لا بد من أن تعقبه حرب كبرى ثم المشروع الثانى والثلاثون من تقسيم تركيا وهو مشروع « سولى » due de Sully وتاريخه ١٦٠٧

وقد كانت ولادة هذا الرجل سنة ١٥٥٩ ووفاته سنة ١٦٤١ واشتهر الى الدرجة القصوى بمعارفه الاقتصادية ولهذا تولى أمور فرنسا المالية . ومشروعه منسوب الى هنرى الرابع ملك فرنسا الا ان تحريره كان من قريحة سولى نفسه . وقد اختلف الناس فى هذه القضية فذهب « درايبرون » Drapoyron الى أن هنرى الرابع هو الذى فكر فعلاً بافتتاح السلطنة العثمانية وتقسيمها وتنظيمها وان هذا رأى كان هو الرأى السائد فى وقته

وأما فولتير فقال ان تقسيم أوربة الى خمس عشرة مملكة خيال باطل لم يفكر به هنرى الرابع

وأما غيزو Guizot فذهب الى أن الناس نسبوا الى هنرى الرابع احلاماً يبعد عن العقل أن يكون تخيلها . وأما « آلبر سورل » Albert Sorel فيقول ان المشروع هو قدح فكرة « سولى » وكذلك المسيو « هاويزر » Hauser فى الانسيكلوبيديا الكبرى والمسيو هانوتو فى مباحثه التاريخية عن القرن السادس عشر والسابع عشر فى فرنسا يقولان ان سولى هو أبو عذرة هذا المشروع وانه لا يتعداه

وذهب المسيو « بوارسون » Poirson صاحب تاريخ هنرى الرابع أن هذا الملك كان فكر فى تأليف مجلس عام يفصل خصومات الممالك المسيحية بدلا من فصلها بالسلاح . وهذه الفكرة الأولى هى لهنرى فجاء سولى وفرّج عنها ما أوصلته اليه مخيلته من الترتيبات والتشكيلات

وقد جاء في كتاب سولي الذي نحن بصدده الموسوم «بتداير هنري الكبير السلطانية الحكيمة» ان غرض هذا الملك المحارب السياسي الكبير كان تأسيس شيء أشبه بجمهورية تكون دائماً سلمية مع المسيحيين وحرية بازاء غير المؤمنين Infideles وكانت الجمهورية الحلفية الاوربية بحسب تخيل سولي عبارة عن خمس عشرة حكومة ١ السلطنة الجرمانية ٢ مملكة البابا ٣ فرنسة ٤ اسبانية ٥ انكلترة ٦ المجر ٧ بوهيميا ٨ بولونيا ٩ الدانمرك ١٠ اسوج ١١ لومبارديا ١٢ البندقية ١٣ الجمهورية الايطالية ١٤ هولاندة ١٥ سويسرة فأنت ترى أنه ليس للروسية ذكر في هذه المجموعة وذلك لأنهم كانوا يعدونها يومئذ مملكة آسيوية

وقد جعل الفلاح والبغدان تابعتين للمجر ولم يشر الى تقسيم الولايات التركية الأخرى وبالجملة فالترك نظير الروس لم يدخلهم سولي في الجمهورية الأوربية المسيحية الا أنه من مبادئ هذه الجمهورية المخيَّلة أن تؤذن تركيا بحرب دائمة أو تخرج هذه من أوربة . وقد اقترح في هذا المشروع الزام كل دولة من الدول المذكورة بتقديم جيش متناسب مع قوتها وثروتها لأجل اصلاء غير المؤمنين (أى المسامين) حرباً دائمة وفي هذه الحرب تكون أرواح الأهالى الأتراك وأموالهم مصونة الا أنهم يعطون مهلة معينة في خلالها ينتقلون بأشياءهم الى البلاد التى يختارون الجلاء اليها أو يدينون بديانة المملكة التى يكونون بقوا فيها (أى بالنصرانية)

تجد هذا الشرط في تاريخ «بوارسون» Poirson كما روى ذلك دجوقارا وأما الروسية فيجب أن تنتظر الوقت الذى تليق فيه للدخول في هذا المجتمع الأوربي ويكون جيش هذه الجمهورية بالغاً ٨٠٠ ر ٢٧٣ جندي و ١١٧ سفينة حربية وعلى كل من هذه الممالك الخمس عشرة المتحدة تأليف جيش متناسب مع قوتها لقتال غير المؤمنين Infidèles (أى المسامين)

ولما كانت الممالك المجاورة لتركيا أشد تعرضاً للخطر فيشير سولي بتقوية بلاد المجر وتحصينها وتحصين فينا وكرواسيا وسائر بلاد النمسا . ولما كان سولي يخشى أن ينفذ بعض المسيحيين من هذه العصبة أو ان لا يقوموا بما يجب عليهم أشار بوضع شروط عسكرية ورسم خطط لا يتيسر بها قتال غير المؤمنين فحسب بل قتال المسيحيين الذين

يخالفون شروط العصبة وذلك بتأليف جيش عرمرم مختلط خاص بالجمهورية المسيحية يتولى قيادته ملك فرنسة . وبهذا الاقتراح ظهر انه كان المقصد منه تحت ستار السلام العام اعطاء السيطرة للدولة الافرنسية وأما هانوتو فيزعم انه كان المراد من ذلك إيجاد الوحدة الدينية واخراج الترك والروس من أوربة

وقد ذهب « سولي » الى انكلترا وقابل الملكة اليصابت ونال منها الموافقة على هذا المشروع وذلك سنة ١٦٠١ وكذلك تم الاتفاق عليه مع البابا وانعقدت به معاهدة وكان أربعة من الأمراء المنتخبين^(١) في ألمانيا أمير « البالاتينا » و « براندبورغ » و « كولن » و « ميانس » وكذلك دوق ساوواي وجهوية البندقية قد اطلعوا على هذا البرنامج ووافقوا عليه . وعمن وافق عليه أيضاً ملك بولونيا وأمراء بوهيميا وترانسيلفانيا والمجر ولم يبق معارضاً الا النمسا . وكان هنري الرابع لأجل أن يقطع حجة المعارضين قد أعلن انه ان دخلت الدول المسيحية في هذه العصبة فانه يكتفي بحدود فرنسة الحاضرة ولا يتطلب الزيادة عليها بل يتعهد بأن لا يأخذ شيئاً من الفتوحات التي سيفتحها المسيحيون في البلاد العثمانية

قال دجوفارا : « وقد كان هنري الرابع هو أول ملك فكر في اقامة تحكيم دولي بين الدول المسيحية وبقيت هذه الفكرة ثلاثة قرون بعد هنري الرابع حتى تحققت بتأسيس محكمة لا هاري . »

فلما وقد تبع محكمة لا هاري تأليف عصبة الأمم التي هي أكبر وأشمل محكمة دولية عرفها التاريخ وقد كانت بنت فكر ويلسون رئيس جمهورية أمريكا ولولا اطماع الدول التي خرجت غالبية من الحرب العامة لكانت أتت بفوائد لا تحصى للمجتمع البشري ولقد انتهى مشروع سولي هذا المنسوب الى هنري الرابع بالحبوط لأن هذا الملك تحقق فيما بعد استحالة تطبيقه بالفعل

ثم المشروع الثالث والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع طلياني وتاريخه سنة ١٦٠٩

(١) بكسر الخاء وهم أمراء المانيا الذين ينتخبون الامبراطور

وأصله ان فرديناند دوق توسكانا ساق اسطولا وأنزل جنوداً في جزيرة قبرص وكان مراده في ظاهر الحال الغارة على فلسطين للاستيلاء على الأراضي المقدسة ولكن الحقيقة انه كان ينوى احتكار تجارة سورية ومصر . ومن قبرص أخذ دوق توسكانا يرسل الامير نخر الدين المعني أمير لبنان وعلى باشا جنبلاط والى حلب

نقل دجوفارا عن « غالوزي » Galuzzi صاحب تاريخ دوقية توسكانا ان الدوق فرديناند اتفق في هذا التدبير مع البابا وأرسل الوزير « ليونسيني » ومعتمداً آخر اسمه « ميشال انجلو كوراي » الى والى حلب ليطلعاهم على الأحوال هناك ويلقيا الفتنة بين المسلمين تعجيلاً لبوارهم وفي ٢٩ سبتمبر سنة ١٦٠٧ عقد مع جانبلاط معاهدة ذات ثلاثين بنداً منها بند يتعهد به جانبلاط بتمكين الافرنج من الميناء الذي يختارونه لتنزيل جنودهم وكان أروام قبرص وعدوا أيضاً بالثورة على الترك وبينما الامور جارية على وفق المراد اذ مات الدوق في ٧ فبراير سنة ١٦٠٩ ومات به المشروع وأما برنامج هذه الغزاة فقد حرره رجل طلياني في القاهرة في السنة نفسها وقد كشف هذا البرنامج المسمى « جورغا » Jorga. أحد أساتيد جامعة بخارست . وقد بدأ محرر هذا المشروع نظير غيره ممن عالجوا الموضوع نفسه بالتحسر على عدم اتفاق المسيحيين وبالحث على انتهاز هذه الفرصة الموافقة وقال انه بعد موت الدوق التوسكاني لا يوجد غير ملك فرنسة للقيام بحملة كهذه وان أهم شيء انما هو ضرب الترك في مركز معيشتهم فيجب لذلك الاستيلاء على الاسكندرية فاذا أخذت من يدهم هذه المدينة سقطوا . ومن هنا يعلم ان المشروع مبني على أساس تجارى مثل مشروع « سانودو »

وأما كيفية أخذ الاسكندرية فستكون بزعمه بسيطة : يدخل المقاتلون بازياء تجار حتى اذا صاروا داخل البلدة استولوا على الأبراج الأربعة التي تحمي الاسكندرية وذلك لكون الحامية التي فيها ضعيفة جداً . وبعد الاستيلاء على الاسكندرية يزحف المسيحيون الى رشيد ويسبرون الى قبرص حيث الاروام مستعدون أن يثوروا على الأتراك . وكذلك يجب الاستيلاء على برقة . وفي هذه الحرب يمكن الاعتماد على الأمير نخر الدين صاحب صيدا وعلى الموارنة وعلى أهل جبل لبنان وهكذا ينتهي الأمر بفتح بيت المقدس ثم تسترجع

الدول المسيحية ما أخذه منها الترك وتسترد البندقية المورة والباينا واليونان الخ
ثم المشروع الرابع والثلاثون وهو مشروع « اسبرينشارد » Esprincharد
وتاريخه ١٦٠٩

وهو تقرير متقدم الى ولى عهد فرنسة وما له كما لغيره من طلب اتحاد ملوك المسيحيين.
وان أحسن طريقة لحطم قوة الترك هى الجل عليهم من البحروان يزحف اليهم مع ذلك
جيش برى وان تثار الأهالى الذين فى داخل السلطنة العثمانية وتوقد حرب أهلية بينهم وان
يعقد اتفاق مع العجم والتتر والمسكوب وينهدوا اليهم جيئاً

وليس فى مشروع اسبرينشارد برنامج مفصل بل هو أشبه بامانى منه برنامج
ثم المشروع الخامس والثلاثون وهو مشروع « مينوتو » Minotto وتاريخه
سنة ١٦٠٩

وهو كمشروع سولى وكمشروع « بريف » Brèves من آثار أفكار هنرى الرابع
الذى طالما فكر فى اصلاء الترك حرباً صليبية .

وقد عثر عليه « زنكيسن » Zinkeisen فى أوراق نظارة الخارجية الافرنسية.
ونشره كله فى الصفحة ٨٥٩ من الجزء الثالث من تاريخه للسلطنة العثمانية وكان أصل نصه
باللغة الطليانية

وكان مينوتو هذا روميا من جزيرة كريد . وقد استهل كتابه بنداء استغاثة من
نصارى الشرق الى نصارى الغرب لينقذوهم وأكد أن جميع الأروام حاضرون لمبايعة ملك
فرنسة ملكا عليهم وانه يجب أن يعرف هل ملك فرنسة يود فتح السلطنة الشرقية كلها أو
يكتفى ببعض مقاطعات منها . فان كان الشق الأول فيجب اعداد ٨٠ بارجة حربية فيها
١٥ ألف مقاتل وثلاثة آلاف فارس وسلاح كاف لخسة وعشرين ألف مقاتل يمكن تجنيدهم
من نفس البلاد

ويبدأ انزال الجنود فى المورة ثم فى جزيرة اغريبوز فتشور الأهالى فيهما ثم تساق
جملة على الاستانة ويشور من فيها من النصارى ويفر السلطان الى اسكدار وتبقى استانبول
فى يد الافرنج . وأما رودس فيمكن أخذها بثمانية آلاف ذهب

وان كان الشق الثانى فيكفى ٢٥ بارجة حربية و ١٠ سفن صغار وتختار المقاطعة.

التي يراد فتحها . فالمورة فيها معادن ذهب وسلانيك وقبرص وشيو ومدللي واغريبيوز كلها توافق لانزال الجنود والأهالي فيها حاضرة للشورة ولميرة الحملة . وهو يطلب شحن ست سفن بالخدائد والجير لأجل تحصين القلاع التي يكون تم فتحها ومينوتو يؤكد نجاح المشروع ويقسم على ذلك ويفدى حياته وحياة أولاده إن لم يتم

قال « زينكيسن » إن هنري الرابع لم يكن ممن يتهافت على أي اقتراح ليتهافت على قبول برنامج مينوتو ولكن مما لامشاحة فيه انه في أواخر عهده نغم على الأتراك في نفسه ثم المشروع السادس والثلاثون وهو اقتراح « برتوشي » Bertucci وتاريخه ١٦١١ وهو تقرير محرر بالطللياني محفوظ في « اينسبروك » Insbruck ومحرره « فرانسكو انطونيو برتوشي » قدمه في ٦ ابريل سنة ١٦١١ الى ملك نابولي وبعث بنسخة منه الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوي . وهو يشير بالاستيلاء على قلعتي اشقودره وكروايا من البانيا لأنهما مفتاح مكدونية . ويقول انه بعد ذلك يمكن الاستيلاء على قلعة كليسا وقلعة كانيسا واثارة ٣٠ ألف ارنأوطي و ٣٠ ألفاً من أهل بوسنة واستجاشة المجر وعند ما تقوم هذه الثورات كلها يتحد أمراء ايطالية والبنادقة ويزحفون على دراج ودلسينو وانتيفاري وغيرها . ثم يزحف البولونيون والقوزاق من جهة ثانية على الأتراك فيضطر هؤلاء الى جمع قوتهم البحرية الى عاصمتهم ويخلو الجو للقوة المسيحية . ويقول برتوشي ان ملك فرنسة كان بالاتفاق مع دوق سافواي قد أرسل معتمدين من قبله يرودون البانيا ويروى ان قائد الجيش البولوني تعهد بتقديم أربعة آلاف فارس لهذا المشروع وهو يوصي كثيراً بكتان السرخشية ان يصل الى من لا يروقه اتمام هذا الخير العظيم

ثم المشروع السابع والثلاثون وهو المنسوب الى الدوق « شارل دونفير »

Charles de Nevers وتاريخه سنة ١٦١٣ — ١٦١٨

وهذا الدوق هو ابن « لويس دوغونزاغ » من الاميرة « هنريه دوكلشيس » دوقه نيفر . وكانت جدته من آل باليولوغ ملوك يزنطية فهو ضارب بعرق ثابت الى مملكة القسطنطينية . وكان من جهة الأب أميراً طليانياً ومن جهة الأم ألمانياً ومن جهة الجدة يونانياً يزنطياً ومن جهة المنصب افرنسياً وهكذا اجتمعت فيه عدة خصال تؤهله أن يتولى كبر هذه الحملة على مملكة آل عثمان . وكان ورد عليه دعوة لهذا الأمر من أهل المورة

ووعده بخمسة عشر ألف مقاتل وأرسل اليهم ثلاثة معتمدين عقدوا معهم اتفاقاً . وفي ١٨ سبتمبر سنة ١٦١٤ أرسل وفداً آخر جمع اناساً من زعماء الصرب والارناؤوط واليوسنيين والهرسكيين والبلغار والدمالتيين وتحالفوا على محاربة الترك وكانوا يرجون عضد أمير الفلاح والبغدان وكان البابا وملك اسبانية عاضدين هذا المشروع . وكان الدوق دونيقيز اتفق في هذا الأمر مع الكردينال ريشليو وزير فرنسة الشهير . ونقل « ناني » في تاريخ جمهورية البندقية ان الدوق نيقير كان ذهب الى رومة واستمد البابا بولس وهذا قد استنفر جمهورية البندقية باعتبار انها أقوى دولة بحرية في ايطاليا فالبنادقة أجابوا البابا أن العمل ليس سهلاً وانه لا ينبغي الدخول فيه الا بعد التحوط التام وبعد تمالك ملوك النصرى على الترك فعلاً لا قولاً . وقالوا ان العدو الذي يريدون مهاجمته عدو شديد المراس وهكذا لم يتم للدوق دونيقيز ما أراد لأن جميع المساعدات التي حصل عليها لم تتجاوز القول والوعد والتمنى . وحبط المشروع بدون أن يكون له أدنى أثر سوى زيادة حذر الترك الذين كانت ترامت اليهم الاخبار عما ينوونه بحقهم

ثم المشروع الثامن والثلاثون لتقسيم تركيا وهو مشروع الأب يوسف مستشار الكردينال ريشليو ويده اليمنى وتاريخه سنة ١٦١٥ الى ١٦١٨

قال « زنسكيسن » ان ريشليو كان قد سعى في التأليف بين فرنسة واسبانية لأجل القيام بحرب صليبية تنتهى بنصب أمير من بيت ملك النمسا من الفرع الاسبانيولى ملكاً على القسطنطينية الا ان رجلاً اسمه « جاك بيير » كان في خدمة الدوق دونيقيز ثم في خدمة دوق سافواى ثم اتصل بخدمة دوق توسكانا ثم خدم البندقية وكان يقال له « الكابتيانو » لأنه من قرصان البحر قد اطلع على هذا السروافشاه بحجة انه هو افرنسى وانه لا يهون عليه أن يجلس أمير اسبانيولى على عرش القسطنطينية . ولما سمع البنادقة بخبر هذه المؤامرة قاوموها وعدوها مكيدة عليهم . وهكذا حبط مشروع الأب يوسف مستشار ريشليو . وقد تكلم قولتير عن الأب يوسف المذكور وطعن فيه وذكره هانوتو فقال انه كان خيالياً أفاقاً متمسكاً بالمشروعات المستحيلة . وقيل انه قضى عمره في املين : تنصير المسلمين واستخلاص الأراضي المقدسة . ولما لم يتم شئ من تدابير اخذ ليشفى غليله يرسل المبشرين والدعاة الى الشرق ونظم قصيدة سماها « التركية » Turciade وكتب في سنة

١٦١٩ كتاباً في تهيئة الحرب ضد الأتراك وتبيين مصالح ملوك أوربة جميعاً في حربهم وكان قلم الأب يوسف لا يفتر عن الكتابة. وكان ينعي دائماً حالة النصرانية في سكونها وعدم مهاجتها للمسلمين

وقال « غستاف فاننيه » Fagniez في كتابه « الأب يوسف ورشليو » ان حياة الأب يوسف كانت كلها مستغرقة في فكر واحد وشعور واحد وهما استخلاص الاراضي المقدسة من أيدي غير المؤمنين والألم من وجودها في أيديهم وكانت عنده أمنية أخرى يريد تحقيقها بواسطة جمع كلمة الامم المسيحية وهي ادخال غير المؤمنين (أي المسلمين) في الدين المسيحي

وكان الأب يوسف جاء الى رومة واستحث حية البابا بولس الخامس لكن هذا كان فاتر العزم وبقى الى سنة ١٦١٨ حتى أرسل دعاة من قبله الى « براغ » و « تريش » و « ميانس » و « كولن » و « تورينو » يستنفر الدول المسيحية الى قتال المسلمين . وفي ذلك الوقت كانت اسبانية تتردد في اصلاء هذه الحرب فذهب الأب يوسف الى مجريط ورجع وقد فاز بمبتغاه وهو عضد الدوق دونفير في الحملة على تركيا . الا ان الخلاف رجع فنشب بين أوستريا وفرنسة وذهبت المساعي لتحقيق هذه الصليبية بالفعل أدراج الرياح وسنة ١٦٢٥ قرر البابا اوربانوس الثامن والأب يوسف ارجاء المشروع الى أجل غير مسمى ثم المشروع التاسع والثلاثون وهو المنسوب الى « فاليريانو » Valeriano وتاريخه ١٦١٨

وهو مشروع لا يزال مخطوطاً غير مطبوع محفوظاً في خزانة « انسبورغ » المسماة Statthalteri Archiv وهو عبارة عن كتاب متقدم من الراهب الكبوشي فاليريانو الى الارشيدوق مكسيميليان النمساوي ومعه مذكرة وهو يقول ان الكونت « دالتان » D'haltan قد تحدث مع أمراء البلدان المجاورة للسلطنة العثمانية ورأى امكان القيام باعمال عظيمة لقهر الأتراك لكن يجب تمكين الجيش المسيحي من المرور ببلاد الأمراء المجاورين للترك وقد عقد الامبراطور وملك بولونيا والبنداقه معاهدات مع آل عثمان منها معاهدات موالاة دائمة ومنها معاهدات هدنة الى مدة عشرين سنة . ومن أجل هذا عند ما عرض الكونت دالتان على ملك بولونيا هذا المشروع أجابه بأنه لا يقدر أن يخفر ذمته ولكنه

يفسح له المجال أن يمر من خليج فنلنده ويأتى من هناك الى البحر الاسود . وكذلك رضى ملك بولونيا بتعيين مكان من بروسيا يحتشد فيه فرسان المسيحيين الذين يقصدون حرب الترك

ثم أخذ « قالريانو » يعد الاماكن التى ينبغى أن تمر بها الحملة الصليبية وقال ان البابا سيكتوس الخامس كان أراد القيام بحملة على الترك يقودها « اتيان باتورى » فاشترط هذا قبل كل شئ الاستيلاء على بلاد المسكوب وقال ان هذا قد يتهيا في سنة ثم يساق المسكوب والعجم على التتار ويساق الفلاخيون والبغدانىون والترانسيلفانيون على الترك . وكان البابا وملك اسبانية يذخران الأموال لهذه الغارة على مدة سنوات الا انها لم تيسر بسبب وفاة البابا سيكتوس

ثم المشروع الأربعون المنسوب الى « سافارى دوبريف » Savary De brèves وتاريخه سنة ١٦٢٠

وكان « دوبريف » سفيرا هنرى الرابع ملك فرنسا في الاستانة . وكانت سفارته حافلة بالفوائد لفرنسة وطالما كتب اليه هنرى الرابع يشكره على جلائل خدماته . وكان لدوبريف مكانة عالية لدى السلطان محمد الثالث . ولما قاد السلطان الجيش العثمانى بنفسه الى بلاد المجر كان دوبريف سفير فرنسا وريكارد سفير انكلترة في معيته وحضرا معه معركة « آغريا »

وكان دوبريف من أوسع الافرنج اطلاعا على أحوال تركيا وكان يعلم فساد الأخلاق الذى كان قد تمكن من رجال السلطنة العثمانية وكان يعلم ماهناك من خلل الادارة البالغ الدرجة القصوى الى أن كتب دوبريف مرة الى هنرى الرابع يقول له : ان الرشوة قد وصلت في هذه الدولة الى حد انه لا يرجى نجاح عمل مهما كان الا بالمال . وأما برنامج المحرر لتقسيم تركيا فقد كان تأليفا عنوانه « خلاصة بحث في أضمن الطرق لمحو سلطنة آل عثمان » وكان مع هذا التأليف وثيقة تاريخية هي معاهدة منعقدة بين هنرى الكبير ملك فرنسا والسلطان أحمد امبراطور الأتراك بواسطة المسير^(١) « فرانسوا سافارى دوبريف » وكان هذا الكتاب ينتهى بثلاثة مكتوبات من البابا ا كليمينوس الثامن وأما المقدمة

(١) أى الموسيو كما كانت تلفظ في ذلك الوقت

فكانت موجهة الى لويس الثالث عشر وكان يقول له فيها : -

« في مدة الاثنتين والعشرين سنة التي قضيتها لدى الباب العالي لخدمة المرحوم هنري الكبير والدك اعتنيت بملاحظة ما تملكه الدولة العثمانية من القوة وما يملكه ملوك المسيحيين من الوسائل لتوهينها أو القضاء التام عليها وحررت ذلك في خلاصة أقدمها الآن لجلالتك بحيث ترى امكان هذا العمل وانى أكون سعيداً بتحقيق آرائى هذه بالفعل وهكذا أكون خدمت ديني وخدمت جلالتك »

وقد خمن « دوبريف » قوى الدول المسيحية البحرية كما يلي :

الملك الكاثوليكي ^(١) يمكنه تجهيز ١٠٠ سفينة وجمهورية البندقية تقدر أن تجهز بكل سهولة ٢٠٠ سفينة وست بوارج كبار مما يسمى ببحال البحر . والبابا يستطيع تجهيز ٨ الى ١٠ سفائن . وفرنسة تقدر أن تسيّر ٥٠ سفينة . ومملكة سافواى ٥ أو ٦ سفن . والتوسكانا ١٠ أو ١٢ وجنوة ٨ أو ١٠ ومالطة ٦ والجميع ٣٨٠ سفينة وست بوارج .

ولم يذكر « دوبريف » شيئاً عن كيفية توزيع اسلاب السلطنة العثمانية وانما أوجب اتخاذ قرار سريع بهذا الشأن وعدم انتظار الملحمة الكبرى لأجل اصداره

ولقد جرت لهذا المترووع معارضات من جهة الساسة الذين كانوا يرون ضرورة المخالفة مع تركيا للوقوف في وجه الامبراطورية الجرمانية . ومن هؤلاء المعارضين كان « لوغاي » LeGay الذي رد على « دوبريف » برسالة اوجب فيها الاتحاد بل الاتحاد التام بين فرنسة والباب العالي ويكفي أن أذكر من هذا الرد بعض عناوين للتعريف بمقاصده . ففي الفصل الثاني يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى القديم . وفي الفصل الخامس يقول إنه يجوز التحالف مع غير المؤمنين بموجب الحق الالهى الجديد . وفي الفصل السابع يقول ان القياصرة وملوك اسبانية وسائر ملوك المسيحيين قد اتفقوا مع الأتراك لأسباب هي أقل بالا من الأسباب التي اتفق معهم من أجلها ملوك فرنسة . وفي الفصل العاشر يذكر أن اتحاد فرنسة مع تركيا لا ينفع فرنسة وحدها فقط بل ينفع النصرانية بأسرها . وفي الفصل الحادى عشر يقول انه لا يجوز أبداً أن ترتفع ثقة التركي من المسيحي . وكذلك هذا الرجل يبين أنه اذا غيّرت فرنسا سياستها تجاه تركيا جاءت أستراليا

وحلت محلها في صداقة تركيا وكذلك أسرعت اسبانيا لموادّة تركيا. ثم انه يقول ان اتفاق فرنسا مع تركيا لم يكن ليضر فرنسا في شيء بل كان يفيدنا وكان هذا التركي الذي يقال انه غير مؤمن وانه وثني يحارب أعداء فرنسا .

ومن هذا التاريخ ظهر أن المصالح الدولية أصبحت هي العامل الأول في الصلح والحرب مع الأتراك وصار الشعور الديني بالمحل الثاني . وقد جاء في رسالة أخرى لأحد نبلاء بولونيا يقول فيها : ان الناس يتهمون فرنسا بأنها ناصرت تركيا وانها استخدمت بولونيا في سبيل أغراضها ولكنهم نسوا أن فرنسا لم تكن قادرة أن تتخلص من شر اوستريا الا بالاتفاق مع الترك . وقال المسيو فاندال : انه لما وقع فرانسوا الأول أسيراً في معركة « بافيا » وانكسر سيفه وسقط فرسان فرنسا من حوله صرعى ولم يجد عند ذلك أية نصرّة من أية دولة مسيحية أجمع على مخالفة الترك وهو عزم بعثه اليأس لكنه صار فيما بعد سياسة متبعة

ثم مشروع فازيل لوبو Vasile Lupu وهو المستروع الواحد والأربعون وتاريخه ١٦٤٦ وكان هذا الرجل أميراً على بلاد البغدان من سنة ١٦٣٤ الى ١٦٥٣ وكان أميراً مشهوراً بكثرة الحركات . وكان أزواج اثنتين من بناته الى بعض أمراء بولونيا والبنات الثلاثة ، وكانت بارعة الجمال ، الى تيموش ابن أمير القوزاق فكانت له علاقات من شأنها أن تجعل له مركزاً منيعاً بازاء الأتراك . وكان التتار سنة ١٦٤٦ شنوا الغارة على بولونيا وعلى بلاد البغدان . وساقوا أربعين ألف أسير وفروا الأمير المذكور وتوارى في الغابات . ثم أخذ ينزق الفرصة للأخذ بالثأر من التتار فاتفق مع ملك بولونيا على التحالف مع موسكو يداً واحدة على التتار والعثمانيين . وكان يرجو أن يستولى على بلاد القريم ومن هناك يغزو القسطنطينية وجاء يقابل ملك بولونيا في جاسي الا أن المجلس البولوني لم يوافق على تلك المؤامرات وأرسل البولونيون معتمداً الى الاستانة يؤكد ولاءهم وبقاءهم على عهد الصداقة مع تركيا . وبعد هذا سقط في يد « فازيل لوبو » ورجع يسفّر بين الباب العالي والروس ويتوسط في اطلاق سراح معتمدى التتار الذين كان الروس قد اعتقلوهم وفي تفريق جوع القوزاق النخمين بقرب أزوف وهكذا تلاشت صليبية الأمير « لوبو » هذا وكانت مدتها قصيرة

ثم المشروع الثاني والأربعون وهو مشروع افرنسي تاريخه ١٦٦٠ وقد ذكر هذا المشروع جورغا Jorga في تاريخ السلطنة العثمانية فقال انه في سنة ١٦٦٠ تصالح الفرنسيين مع الأسبانيول بواسطة الكاردينال مازرين وكان هذا ينوى غزو تركيا وترك في وصيته مائتي ألف ريال لأجل هذا الغرض وانتشرت في فرنسا فكرة الحرب الصليبية وأخذ فرسان البيوتات الافرنسية يتسابقون في هذا المضمار وكان فرسان مالطة والبابا ودوق توسكانا قد حشدوا أسطولاً مركباً من اثنتين وثلاثين سفينة وست بوارج واجتمع هذا الأسطول في « سيريفو » ومنها قصد جزيرة كريد التي كان الأتراك يحاولون فتحها وأبحر ثلاثة آلاف فارس افرنسي ونزلوا في ميناء سودا من بلاد اليونان واشتدت الحرب في كريد وقتل في خانبا القائد حسن باشا وكبير الانكشارية . وكان المسيحيون سائرين الى الأمام واذ جاءهم خبر بأن قوة عثمانية كبيرة قادمة اليهم من قنڊيا فلما سمعوا هذا الخبر وقع فيهم الرعب ونكسوا الى الوراء . ثم أقبل باشا « كاترش يوغلي » على رأس أربعة آلاف عثماني وناجز المسيحيين القتال بقرب قنڊيا الجديدة وقتل منهم ألفاً وخسمائة مقاتل وخارت عزائم الباقين وأرسل الباب العالي ١٨ سفينة حربية الى كريد فأذعن الأهالي للعثمانيين وخنعوا واكتفى العثمانيون منهم بألف جارية ترسل الى الحرم السلطاني وبألف رأس غنم كل سنة

ثم المشروع الثالث والأربعون وهو المنسوب الى « تورين » Turinne وتاريخه ١٦٦٣ ومن المعلوم أن تورين كان من أشهر قواد فرنسة فهل نسبة هذا المشروع اليه صحيحة أم لا ؟ وهل الخطاب الذي يقال انه ألقاه في « مارسال » قد صدر منه أم لا ؟ هذا لا نقدر أن نجزم به لا سيما أننا في جميع الأوراق والوثائق التي خلفها المارشال تورين لم نجد أثراً لهذا الخطاب . وكذلك لم يذكر شيئاً عنه الكونت « غريموار » الذي كتب كثيراً عن تورين . وأما الخطاب كما نسب الى تورين فهو انه اقترح على لويس الرابع عشر أن يعلن تركيا الحرب وذَكَرَهُ بصليبية القديس لويس التاسع الذي ذهب الى مصر وافريقية . وقال ان الجيش الفرنسي مع الألمان والمجر الذين يمكنهم أن يزحفوا لقتال الترك قد يكون ٣٦ ألف ماش و ١٢ ألف فارس وان جيشاً كهذا يمكنه أن ينزل المائة ألف عثماني . وهو يتكلم في مشروعه عن خصب بلاد الفلّاح والبغدان وترانسلفانيا ويقول انه يمكن فتحها وضمها الى فرنسة وقال ان الامبراطور الجرمانى تكون له بلاد المجر السفلى

واقترح أن يقدم السويسريون ألفي مقاتل والأسبانيول خمسة آلاف وأمراء إيطاليا ثلاثة آلاف فارس والمجر والكرواتيون أربعة آلاف ماش وأربعة آلاف فارس . وقال انه يجب على إنجلترا وهولاندة أن تعاونا باساطيلهما لقمع قرصان الجزائر . وقال انه يجب اشراك البرتغال والبولنديين في هذه الصليبية وانه لا بأس بادخال القوزاق والمسكوب والعجم في هذه الحرب . وفي نهاية هذا التقرير يقول تورين بزعمهم ان الضربة القاضية على تركيا لا تكون الا من فرنسا

ثم المشروع الرابع والأربعون وهو مشروع « لينينتز » وتاريخه ١٦٧٢
فالفيلسوف الالماني الشهير لينتز كان قد أعد برنامجاً أيضاً لمحو تركيا واستمر يُحرره أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وقد اعتنى لويس الرابع عشر باقتراح لينتز هذا وتلقى لينتز من نظارة الخارجية الافرنسية كتاباً يقول الناظر له فيه : انتى قدمت جلالة الملك خلاصة كتبك والتقرير الذى معها الذى يتضمن رأياً عظيم الشأن يؤول الى مجد جلالة الملك ومصلحته

وكان لينتز يرى قبل كل عمل فتح مصر ويقول : انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار . وكان يشير بتحريك المجر والبولونيين لمناسبة تركيا الحرب فاذا اشتغل الترك بهؤلاء جاءت الدول المسيحية الأخرى وشتت الغارات على بلادهم فلم يكن أمامهم الا السقوط . وخطب لينتز لويس الرابع عشر قائلاً : انك انت فى حربك مع هولاندة لاتجد حليفاً الا الحليف الذى تشتريه بالمال أما اذا حاربت تركيا فما أكثر انصارك فاسبانية وأمراء ايطالية والبابا وربما الامبراطور وملك بولونيا يكونون معك . واذا تمكنت من فتح مصر فتكون بيدك السيادة البحرية وتجارة الشرق وقيادة المسيحيين العامة وان لم يكن لك من فضيلة سوى تدمير السلطنة التركية لكان ذلك كافياً

وبرغم جميع هذه الأمانى العظام التى تمنهاها لينتز لملك فرنسا لم يحسن الفرنسيين به الظن ويقول المؤرخ « سوريل » ان لينتز لم يقصد بهذا الا ابعاد فرنسا عن الدين وتزيين فتح مصر للويس الرابع عشر حتى يلهو بذلك عن معاركة المانية . وأما « دجوفارا » فيقول ان هذه الأفكار كانت تحوم كثيراً فى ذلك الوقت فى خواطر الناس وكان الفرنسيين بدأوا يحتجون على سياسة فرانسوا الأول والحكومات الافرنسية التى تابعته فى

موالاة الترك . فرأى لينتز كان الرأي العام حينئذ . وقد تعرض لينتز لقضية الحرب ولكنه أغفل قضية قسمة الأسلاب بعد سقوط تركيا ولم يذكر منها الا اعطاء مصر لفرنسة ولعله كان يضمن أن يكون الباقي راجعاً لأوستراليا والمجر وبولونيا

بقي أن نعلم ماذا أجاب لويس الرابع عشر الفيلسوف لينتز على اقتراحه هذا فنقول انه ثبت كونه أجابه بان الحروب المقدسة قد مضى وقتها من زمن لويس التاسع ومن الغريب أن لويس الرابع عشر نفسه بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة عد ففكر في مشروع اقتسام تركيا وان تخرج مصر في نصيب فرنسة فكأنه رجع الى فكرة لينتز

ثم المشروع الخامس والاربعون وهو مشروع ميشل « فابشر » Michel Fébvre وتاريخه ١٦٨٢

وكان هذا الرجل راهباً كبوشياً اسمه الاب يوستينيانوس أصله من « نوفي » بقرب « تور » من فرنسة ارسله السبوشيون الى حلب حيث أقام ثمانى عشرة سنة وتعلم التركية والعربية والكردية والارمنية وكان يتكلم بها كلها جيداً . والف كتاباً اسمه « حالة تركيا الحاضرة » وضعه باللغة الايطالية ثم ترجمه الى الافرنية ثم ترجم هذا الكتاب الى الالمانية والاسبانية . وقد قدّم هذا الكتاب الى لويس الرابع عشر وصدره بخطاب له يقول له فيه : ان أهالى البلاد العثمانية بما هو واقع عليهم من الجور والطغيان وما هم مبتلون به من سوء الادارة ينتظرون بذهاب الصبر استيلاءك على بلادهم

قال دجوقارا : ان هذا الأب الكبوشى كان بدون شك مبالغاً في زعمه ان أهالى تركيا كانوا منتظرين محيى الفرنسيين الى بلادهم ليخلصوهم ولم يجد نداء « فبفر » هذا مجيباً . فنشر كتاباً آخر قدمه الى المونسنيور « لوفوا » الذى كان وقتئذ وزيراً وقال له فيه :

« إنك تعلم جيداً الأسباب التى جعلت الدولة العثمانية تعيش برغم كل ما هى ساجحة فيه من الفوضى واختلال الادارة . وانه ليجب الاستفادة من هذه الأسباب ومحو هذه الدولة واعادة الديانة المسيحية الى البلدان التى لها علاقة بنا . وان جيتك الدينية ياسيدى ومكاتتك من جلالة الملك تساعدان كثيراً على القيام بهذا الفتح المجيد لأن شعور جميع

الأمم هو انه لا يوجد دولة سوى فرنسا تقدر أن ترغب أنوف العثمانيين المتكبرين «
ويعود هذا الأب الى قضية حشد المؤمنين من كل فج لقتال غير المؤمنين^(١) ويشير
بآراء غريبة في سبيل تدويح الأمم الاسلامية ومما قال : انه ينبغي لاختضاع هذه الشعوب
واستجلابها الى عقيدتنا منعها بتاتا من حمل الأسلحة وان ينصب حاكم إفرنسى على رأس
كل ولاية

ويرى دجوقارا هذه الآراء شاذة والحقيقة أنها سواء كانت شاذة أو لم تكن فان
الدول الأوروبية العصرية لم تعمل شيئاً الا وفق ما كان أشار به الأب يوستيانوس هذا فقد
كانوا يتفقون على منع بيع الأسلحة من المسمين لالمسمين الذين في المستعمرات الأوروبية
فقط بل المسمين الذين لا يزالون حافظين لاستقلالهم . وقد صح عندهم هذا العزم أكثر من
كل وقت مؤخراً بعد الحرب العامة التي سقطت بها السلطنة العثمانية فخل لهم ان الغرة لأمة
لنيل كل ارب من الاسلام . ومنذ سبع أو ثمانى سنوات انعقد في جنيف مؤتمر دولي لنزع
السلاح فكان أكثر نزوع الدول الاستعمارية انما هو لمنع بيع السلاح من تركيا وفارس
وافغانستان ومصر وبلاد العرب . ولقد قرر المؤتمر المذكور مناطق ممنوعاً ادخال السلاح
اليها Zanes Prohibées من جملتها مصر وجزيرة العرب برغم استقلال الحجاز ونجد
واليمن وحاول منع بيع السلاح من فارس . الا أنه فشل في ذلك لكون أكثرية المؤتمر لم
تقدر أن توافق على قرار يمنع تسليح دولة مستقلة بجميع معاني الاستقلال مثل دولة فارس
فعادت انكلترة وضربت العجم ضربة ثانية وأبت إلا انفاذها وهي منع تسريب السلاح
الى العجم من طريق البحر وان يكون لانكلترة الحق في تفتيش السفن الواردة الى مراسى
ايران . وقد وافق انكلترة على هذا القرار الأعوج فرنسة وإيطالية واليونان وبعض
دول وأمست الألمانية وأكثر الدول عن ابداء رأيهم فتقرر بسبب امساك هذه الدول عن
اعطاء الرأي تأييد ماطلبته انكلترة من هذه الجهة .

أما جزيرة العرب فلم يخضع ملوكها لهذا القرار ولم تنتظم كلة أوربة على منع بيعهم
السلاح ولما عقد ابن سعود ملك الحجاز ونجد معاهدة « بحره » مع انكلترة اعترفت فيها
هذه بما ينقض قرار ذلك المؤتمر ويجعله حراً في شراء السلاح . وكذلك اعترفت بحق

(١) أى حشد المسيحيين لقتال المسمين

شراء السلاح لامام اليمن دولة ايطاليا وغيرها من الدول ولم تعترف هذه الدول لملوك العرب بما ينقض قرار المؤتمر المذكور الا بسبب الشقاق الواقع بين الدول الغربية والمانيا وبينها وبين البلاشفة فرأت أنفسها عاجزة عن منع تهريب السلاح الى جزيرة العرب وعادت فوافقت على ما كانت جدت في منعه . وعلى كل حال نية هذه الدول كانت معلومة

ومقصودنا ان قضية نزع السلاح من أيدي المسلمين ومنع دخول الأسلحة الى بلدانهم هذه قضية طالما فكر بها الأوربيون قديماً وحديثاً . ولم تفهم ولا ساعة . ولنعهد الى كلام الأب يوستينانوس في معاملة المسيحيين للمسلمين فنقول :

انه في الفصل الثلاثين من كتابه يشير بحمل المسلمين على النصرانية وبأن يتوسل ملوك النصارى الى ذلك بوضع جميع الضرائب على المسلمين دون غيرهم^(١) وهكذا يضطرون بزعمه من شدة عنائهم ويأسهم أن يتنصروا . قال دجوفارا : الا ان الأب يوستينانوس يحذر من تحويل المسلمين عن الاسلام الى الكنيسة الارثوذكسية بل يشترط أن يكون دخولهم الى الكنيسة الكاثوليكية

قلنا ومسئلة الضرائب التي تصورها يوستينانوس وحصر أدائها في المسلمين ان لم تكن نفذت بخدافيرها في هذا العصر بحق المسلمين المغلوبين على أمرهم فقد نفذ ما يشبهها ففي جزائر الغرب مثلاً لا يؤدي الفرنسي الضرائب التي يؤديها المسلمون بل قطعة الأرض نفسها يؤدي عنها الفرنسي شيئاً زهيداً فإذا صارت الى المسلم أدى أضعافه

ثم قال الأب : وأما مهاجمة الدولة العثمانية فيجب أن تكون من جهة مضيق الدردنيل وهذه أيضاً فكرة قد أجرتها أوربة بالفعل بعد الاب يوستينانوس بمائتين وثلاث وثلاثين سنة . إذاً آراء هذا القسيس الكبوشي لم تكن سخيصة

أما اقتسام سلطنة آل عثمان بعد الظفر بها فقد شغل بال الأب المؤلف فرأى أخيراً ان أحسن حل لها هو أن يسبر كل ملك من ملوك النصارى من جهته منفردا بدون أن يختلط بملك آخر . وهكذا يخلصون من مشكل تقدم الواحد على الآخر . فالامبراطور يزحف على بلاد المجر وجوارها . وملك بولونيا على سواحل البحر الاسود . والبنادقة على الدالماسيا والمورة وكريد . وملك اسبانية على المغرب ومصر والقدس . وأما الملك المسيحي

(١) تأمل في عدالة هذا القسيس

كثيراً (أى ملك فرنسة) فينهد الى القسطنطينية رأساً ويحتلها ويستولى بعد ذلك على الأناضول . وعند ذلك يزحف ملك العجم فيفتح ديار بكر والموصل

ثم يقول « فبقر » انه على فرض حصول منازعات بين ملوك النصارى على تقسيم الاسلاب فان البابا يكون الحكم فيما بينهم عند التقسيم . ولكن احتمال وقوع هذا النزاع لا يجب أن يبحث فيه من الآن خشية أن يحصل تردد في مهاجمة تركيا وان يضيع الوقت ثم المشروع السادس والأربعون وهو مشروع لويس الرابع عشر ملك فرنسة بل أعظم ملوكها وتاريخه ١٦٨٥ — ١٦٨٧

كان لويس الرابع عشر قد نسي عضد تركيا لفرنسا في زمان فرنسوا الأول وغلب عليه الشعور الدينى الصليبي فكان له يد في حروب المجر وكانت له نجيدات لجزيرة كريد عند ما فتحها الترك وطارد بحرية الجزائر ورمى تونس والجزائر بالقناير ولما أراد البابا اسكندر السابع تأليف عصبة مقدسة^(١) كان أول من أجاب نداءه لويس الرابع عشر وكانت حماسة الأوربيين للحروب الصليبية قد بدأت تتراجع لعهد الملك المذكور . ونظم له الشعراء القصائد ودعوه الى محو الاسلام . وألف المؤرخون والسياسيون كتباً في استنفر لويس الرابع عشر وملوك النصارى لمحاربة المساميين ومن هؤلاء « دوفينيو » Du Vignau نشر سنة ١٦٨٧ كتاباً أوضح فيه ضعف الدولة العثمانية وسهولة هدم بنيانها وبين كيفية عبور الدردنيل وتفاعل باقامة صلاة الشكر على ذلك في كنيسة القديس بطرس في رومة أو ايا صوفيا في الاستانة

أما برنامج لويس الرابع عشر فقد كان استيلاء فرنسة على المورة وتساليا وسلانيك وصربيا وبلغاريا والروملى وجزر الارخبيل وأن يكون كل هذا تحت تاج أحد أبناء لويس الرابع عشر . ويكون لبولونيا الفلاخ والبغدان . وللبندقية كرواسيا والبانيا ودالماسيا وبوسنه . وكان أرسل لويس الرابع عشر سفيراً الى الاستانة اسمه « جيراردين » Girardin ومعه « دورتيار » ضابط بحرى نظم خريطة فيها وصف القلاع التركية التى على سواحل البحر المتوسط وبيان العمل لكيفية أخذها . وقدم السفير المذكور للملك تقريراً وافياً عن دخل السلطنة العثمانية وخرجها وعن أصناف جيوشها وكيفية اعاشتهم

(١) أى في وجه الاسلام

وكان لويس الرابع عشر يحب بولونيا وكانوا في أيامه فكروا في تزويج إحدى أميرات البيت الملكي بفرنسة من ابن ملك بولونيا وتمويج هذا ملكا على الفلاخ والبغدان وفي ٥ مارس سنة ١٦٨٤ كان قد انعقد حلف بين بولونيا والنمسا والبندقية والنروسية يداً واحدة على تركيا ودعوا شاه العجم للدخول معهم في هذا الحلف . وكانت فرنسة تريد اعطاء الفلاخ والبغدان الى بولونيا بحجة انه لولا الجيش البولوني لكان الترك فتحوا قسماً وان بولونيا مع ذلك لم يكافئها الامبراطور بشيء

ولقد خن « دور تيار » D'ortière كلفة هذه الصليبية لتقسيم تركيا بواحد وثلاثين مليون جنيه . ولم يكن هذا المبلغ اذ ذاك مما تعجز عنه فرنسة . ولكن مشروع لويس الرابع عشر هذا لم ينفذ منه شيء وكان لهذا الملك من حروبه مع اسبانية وهولاندة وانكثرة والامبراطورية الجرمانية شاغل عنه

ثم مشروع الأب « كوپين » Coppin وهو السابع والاربعون وتاريخه

سنة ١٦٨٦

كان هذا الرجل في مبدأ أمره ضابطاً في الخيالة بفرنسة ثم تحول قسيساً وصار قنصلاً لفرنسة في دمياط . وبعد اياه الى وطنه ألف كتاباً سماه « ترس أوربة » Boucher De L'Europe فيه الدعوة الى تقسيم الساطنة العثمانية وفي الفصل العشرين من هذا الكتاب يقول : « كيفية تقسيم الولايات المذكورة في الفصل السابق بين ملوك المسيحيين » . ثم : تقسيم الموره . تقسيم تمالى افريقية . تقسيم أملاك تركيا في أوربة . تقسيم الجزر وهلم جراً . والأب كوپين يعطى البندقية في هذا التقسيم بوسنه والبانيا وشمالى اليونان . ويعطى لوستريا المجر وصربيا وقسماً من بلغاريا ومكدونية . ويعطى بولونيا الفلاخ والبغدان وقسماً من بلغاريا وسواحل البحر الاسود الى أدرنه . ويعطى فرنسة القسطنطينية وأدرنه وبرسا وقورنيتيه ومن آسية الصغرى البلاد الممتدة من برسا الى طرابزون ومن افريقية مصر وعنابة وتونس . ويعطى انكثرة طنجة ومن بلاد اليونان تساليا . ويعطى اسبانية الجزائر ووهران ثم اثينا وتيبة من بلاد اليونان . ويعطى البرتغال طرابلس الغرب وساحل مكدونية الجنوبي وحلب وقسماً من سورية . ولا ينسى هولاندة فيخصها ببرقة ويقسم من المورة . وينعم على دوقية ساثواى بقبرص وقسم من بلاد اليونان ويقسم البقية على

جنوة وفنورنسة ولوك . وأما البابا فيكون له بيت المقدس وقسم من ارقاديا في بلاد اليونان ويصكون القسم الآخر من ارقاديا لدوقيات « مودين » Modène و « بارم » Parme وتكون رودس لفرسان مالطة

قال دجوفارا : ان تقسيمات هذا القسيس العسكري مختلفة متداخلة جداً كما ترى وكأنه تعمّد أن لا يترك مملكة مسيحية بدون شقص من هذه الغنيمة . الا أنه نسي في القسمة دوق موسكو الذي كان مع ذلك كتب الى البابا يستنهضه لحرب صليبية . فالأب « كوين » يقول : ان هذا المشروع يجوز اطلاع أمير موسكو عليه ليعلم ماذا يقترح من الحصص

أما تخصيص « كوين » القسطنطينية بفرنسة فيقول : لأنها دخلت فيما مضى في حوزة الفرنسيين ولأن هؤلاء أقدر على حفظها من غيرهم ولأن فرنسة هي ابنة الكنيسة البكر ولا تليق الامبراطورية الابهة

ثم المشروع الثامن والأربعون من تقسيم تركيا وهو المنسوب الى بطرس الأكبر الروسي وتاريخه سنة ١٧١٠

كثير البحث هل هذا المشروع صحيح النسبة الى بطرس الأكبر قيصر الروس أم لا ؟ فالمؤرخ الروسي « فاليزيشكي » Valiszevski يقول انها كذوبة . وكل من « جوير » Joubert و « مورنو » Mornaud يقول ان بطرس الأكبر لم يحمره بخطه لكن أفكاره كانت هي هذه . ولقد نشر هذا المشروع المسيو « لزور » Lesur سنة ١٨١٢ ولكن المؤرخين الشهيرين « لافيس » Lavissee و « رامبو » Rambaud يذهبان الى أن « لزور » لفق هذا المشروع ترفلاً لنابليون الأول . وزعم « بركولز » Berkholz أن أبا عذرة هذا البرنامج هو نابليون نفسه . وقال « سوكولنيكي » Sokolnicki في كتابه « وصية بطرس الأكبر » ان محرر هذا المشروع هو الجنرال ميشل سوكولنيكي المتوفى سنة ١٨١٦ وكيف كانت الحال فالجميع متفقون على أن خطة الأمة الروسية هي هذه التي تضمنتها هذه الوصية المنسوبة الى بطرس الأكبر . والمؤرخ الروسي « فاليزيشكي » يقول ان المواد الاحدى عشرة الأولى من هذه الوصية المنشورة سنة ١٨١١ قد كانت هي خطة الروسية المتبعة في سياستها في الشرق منذ سنة ١٧٢٥

ولقد كان بطرس هو الذي رقى الروسية الى صف الدول العظام ومن قبله وإلى أواسط أيام لويس الرابع عشر في فرنسة لم تكن الروسية شيئاً مذكوراً .

وقد كان أول من أظهر الطمع من ملوك الروس في القسطنطينية القيصر ايفان الثالث الذي حرر نفسه من حكم التتار (سنة ١٤٨٢) وتزوج بابنة شقيق الامبراطور ميشل باليولوغ فصار يدعى ملك بيزنطية بهذه المصاهرة ولكن الذي بدأ بمقاومة الأتراك فعلاً ونصب نفسه لحاية المسيحيين في الشرق هو بطرس الأكبر . وكان من أول أعماله أنه أرسل الى الفلاح والبغدان دعاة يحركونهم الى الثورة وكان هناك أسقف من القدس يشيع أنه وجد على قبر قسطنطين كتابة تشير الى أن الروس هم الذين سيتردون الترك من أوربة

وأما وصية بطرس فهي ١٤ بنداً أهمها البند الخامس وهو أن يصير الاتفاق مع النمسا على طرد الترك من أوربة ويجهز لهذا الغرض جيش دائم في البر وتبنى دور صنعة لبناء السفن في سواحل البحر الاسود ويستمر التقدم نحو القسطنطينية .

والبند السابع الذي يوصى بالاتفاق مع انكلترة والعمل للسيادة في بحر البطلق والبحر الاسود اذ بدون السيادة على هذين البحرين لا يتم للروسية مرادها

والبند الثامن الذي يذكر أن أعظم تجارة في الدنيا هي تجارة الهند ومن احرزها ساد على أوربة فيجب انتهاز كل فرصة لاصلاء فارس الحروب التي تنهك قواها ومن ثمة يمكن الوصول الى الخليج الفارسي والاستيلاء على تجارة الشرق

والبند الحادي عشر الذي يوصى الروس بجمع كلمة الارووذ كسين تحت حمايتهم سواء الذين في تركيا أو المجر أو بولونيا وبواسطتهم تثار الفتن والحروب على هذه الممالك الثلاث الى أن تتلاشى

والبند الثاني عشر الذي يوصى بايقاد نيران المنافسات بين فرنسا والنمسا وان تتعهد الروسية لكل من هاتين الدولتين سراً وبدهاء عظيم أن تماثلها على قسمة العالم فتقع بينهما الحروب ومن ثمة تتحول حرباً عامة

والبند الثالث عشر الذي يقول فيه إنه بعد أن تنشب الحرب العامة في كل مكان وتنهك قوى الجميع يصير للروسية الخيار في ترجيح الجهة التي تريد ترجيحها على عدوتها . وحينئذٍ تنجح الروسية الى جانب النمسا ثم تزحف الجنود الروسية المنظمة نحو الرين ووراءها

تلك العصابات الآسيوية التي تنتشر في المانية ثم يخرج اسطولان أحدهما من البحر الاسود والآخر من بحر اركانجل وعليهما هذه العصابات الآسيوية فيقذفان بها على ايطالية واسبانية وفرنسة وتأخذ هذه العصابات بالعيث والتدمير وتأخذ قسماً من أهل فرنسة اسرى فيقذف بهم الى سبيريا لاجل عمارة اراضيها الواسعة

هذا أهم ما في هذه الوصية . وفي نظارة الخارجية الافرنسية نسخة من مشروع السيادة الروسية العالمية المنسوب الى بطرس الأكبر يوصى به خلفاءه والأصل كان في خزانة أوراق قصر « بترهوف » Peterhof بقرب بطرسبرج

ثم المشروع التاسع والاربعون المنسوب الى الأب « سان بير » St-Pierre وتاريخه ١٧١٣

هذا الرجل كان من أعضاء الاكاديمية الافرنسية ألف كتاباً أعاد فيه مشروع سوللى Sully وهنرى الرابع وقال ان تنفيذه غير مستحيل وان هنرى الرابع لو كان الله ففسح في أجله لنفذه

إلا ان هذا الرجل امتاز عن سائر أصحاب المشروعات الصليبية بأنه لم يلتزم قضية محو السلطنة العثمانية من الوجود وانما قال انه متى علم الترك بوجود عصبة دفاعية عامة بازاءهم لم يجروا على مناجزة الامبراطورية ولا بولونيا ولا الروسية ولا البندقية حرباً ما لأنهم يعلمون أن هذه العصبة حينئذ تطردهم من كل أوربة

ثم يفسر هذا الأب في اختلاف الأديان التي ستشتمل عليها هذا العصبة وما يخشى من تصادمها بعضها مع بعض لسكنه يعود فيحل هذه المعضلة بقوله انه بواسطة الاختلاط والاحتكاك تكون الديانة الحقيقية هي السائدة على الجميع في آخر الأمر

ويقول في موضوع الصلح بين المسلمين والنصارى كلاماً حرياً بالنقل . فيذكر أن بعض الناس يعترضون قائلين ان الدين الاسلامى يمنع المسلمين من صلح دائم مع النصارى ولا يأذن لهم الابهدة مؤقتة . فالأب سان بير يجب على هذا الاعتراض قائلاً ان هذا يمنع الدين الاسلامى فيما اذا كان المسلمون هم الحزب الأقوى أو المساوى بالأقل . فأما اذا كان أعداؤهم أكثر عدداً وأقوى مدداً فلا يمكن أن يكون الصلح ممتنعاً عندهم لأن استمرار الحرب يجعل الاسلام فى خطر شديد . ثم لنفرض أن الصلح الى أمد غير محدود ممنوع على

المسلمين أفليس لهم أن يعقدوا مهادنات الى ٢٠ سنة وأن يجددوها ؟ الجواب لهم ذلك . فإذا هم يمكنهم أن يعقدوا مهادنات الى ١٠٠ سنة بدلاً من ٢٠ سنة وأن يجددوها . وهل الصلح الدائم غير هذا ؟ قلت لا بأس أن نورد هنا أحكام المهادنة والصلح في الاسلام نظراً لورود هذا المبحث في هذا المحل فنقول :

جاء في « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » للإمام الفيلسوف الفقيه الأصولي القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي الاندلسي في هذا الباب مايلي :

« فاما هل تجوز المهادنة ؟ فان قوماً اجازوها ابتداءً من غير سبب اذا رأى ذلك الامام مصلحة للمسلمين وقوم لم يجيزوها الا لمكان الضرورة الداعية لأهل الاسلام من فتنة أو غير ذلك اما بشئ يأخذونه منهم لاعلى حكم الجزية . اذ كانت الجزية انما شرطها ان تؤخذ منهم وهم بحيث تنفذ عليهم أحكام المسلمين . واما بلا شئ يأخذونه منهم . وكان الأوزاعي يجيز ان يصالح الامام الكفار على شئ يدفعه المسلمون الى الكفار اذا دعت الى ذلك ضرورة فتنة أو غير ذلك من الضرورات . وقال الشافعي لا يعطى المسلمون الكفار شيئاً الا أن يخافوا ان يظلموا لكثرة العدو وقتلهم أو لخنسة نزلت بهم . ومن قال باجازه الصلح اذا رأى الامام ذلك مصلحة ماله والشافعي وابو حنيفة . الا ان الشافعي لا يجوز عنده الصلح لأكثر من المدة التي صالح عليها رسول الله ﷺ الكفار عام الحديبية . وسبب اختلافهم في جواز الصلح من غير ضرورة معارضته ظاهر قوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وقوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) . فمن رأى أن آية الأمر بالقتال حتى يسموا أو يعطوا الجزية ناسخة لآية الصلح قال لايجوز الصلح الا من ضرورة . ومن رأى ان آية الصلح مخصصة لتلك قال الصلح جائز اذا رأى ذلك الامام وعضد تأويله بفعله ذلك صلى الله عليه وسلم وذلك ان صلحه ﷺ عام الحديبية لم يكن لموضع الضرورة . واما الشافعي فلما كان الأصل عنده الأمر بالقتال حتى يسموا أو يعطوا الجزية وكان هذا مخصوصاً عنده بفعله عليه السلام عام الحديبية لم ير أن يزداد على المدة التي صالح عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اختلف في هذه المدة ف قيل كانت أربع سنين وقيل ثلاثا وقيل عشر سنين وبذلك قال الشافعي . واما من أجاز أن يسمح المسلمون المشركين بأن يعطى

لهم المسلمون شيئا اذا دعت لذلك ضرورة فتنة أو غيرها فصير الى ماروى انه كان عليه السلام قد هم أن يعطى بعض ثمر المدينة لبعض الكفار الذين كانوا فى جملة الاحزاب لتخيبهم فلم يوافقهم على القدر الذى كان سمح له به من ثمر المدينة حتى أفاء الله بنصره . واما من لم يحز ذلك الا ان يخاف المسلمون أن يصطاموا فقياسا على الاجماع على جواز فداء اسارى المسلمين لأن المسلمين اذا صاروا فى هذا الحد فهم بمنزلة الأسارى» اهـ .

ثم ذكر الأب سانت پير اعتراضا لبعضهم معناه انه لايجوز أن يدعى الترك الى الصلح قبل أن يعطى البولونيون بلاد التاتار والقوزاق التى على سواحل البحر الأحمر وقبل أن يعطى البنادقة بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريد وقبل أن يرد الى فرسان مالطة جزيرة رودوس فيجيب الأب سانت پير على هذا الاعتراض بقوله اننا لانرى فتح هذه الفتوحات ضروريا لأجل تأمين حياة العصبة المسيحية التى نحن بصدد هائم انه لا يظن ان أكثر ملوك المسيحيين يفضلون فتح هذه الفتوحات لبولونيا والنمسا والبندقية وفرسان مالطة على ادخال الترك معهم فى المجتمع الأوربى قال دجوفارا انه غريب فى الحقيقة ان نجد قسيسا مثل الأب سانت پير معارضا لاستئصال غير المؤمنين أى المسلمين وعاملا بالعكس لأجل ادخالهم فى مجتمع الدول المسيحية .

قلت قد مضى علينا الى هنا تسعة وأربعون مشروعاً من مشروعات تقسيم تركيا ولم نجد فيها كلها مشروعاً واحداً سوى مشروع هذا الأب يتضمن فكرة استبقاء المسلمين . بل جميعها كانت تدابير مقصوداً بها محو تركيا والاسلام بأسره وان كان قد ورد فى بعضها اشراك دولة العجم فى حصة من تقسيمات تركيا فيكون هذا من باب السياسة الحربية حتى يدخل العجم فى العصاة ضد الترك ويزيدوهم ضعفاً ثم بعد ان تسقط تركيا فن البديهي انه لا بد من سقوط العجم . وليس لنا الا ان نترحم على الأب سانت پير الذى كان الوحيد فى ذلك العصر فى طلب توقيف الترك عند حدهم لافى السعى لابطالهم وابادة الاسلام جميعاً .

وقد كان مشروع سوللى Sully السابق الذكر تأليف عصبة أوربية من خمس عشرة دولة قد تقدم ببيانها فى محله . فأما سانت پير فقد جعل تأليف العصبة من ثمانى عشرة دولة ثم اسقط منها واحدة وقال انه يجب ان يدعى الى الدخول فى العصبة الملوك الآتى ذكرهم الأول الأمبراطور الثانى ملك فرنسا الثالث ملك اسبانيا الرابع ملك البرتغال الخامس ملك

انكلترة السادس جمهورية هولاندة السابع ملك الدانيمرك الثامن ملك السويد التاسع ملك بولونيا العاشر قيصر الروسية الحادى عشر ملك بروسية الثانى عشر امير بافاريا الثالث عشر أمير البالاتينا الرابع عشر سويسرة الخامس عشر دوق اللورين السادس عشر جمهورية البندقية السابع عشر ملك ساردانية . ولم يتم شئ من هذا المشروع وبقى أثرا تاريخيا فى الآثار

ثم المشروع الخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧١٨ . وكانت تركيا فى حرب مع النمسا من أجل بلاد المجر والفلاخ وكانت او ستريا أو النمسا احتلت قسما من الفلاخ وفى ١٩ اكتوبر سنة ١٧١٧ كتب الصدر الأعظم الى البرنس أوجين النمساوى يدعوه الى الهدنة فرضيت النمسا بالصلح على الشروط الآتية وهى . ان الباب العالى يرفع سيطرته عن بلاد المجر النائرة ويمتنع عن بيع الاسرى ويراقب الولايات العثمانية فى شمالى افريقية ويمنعها عن الاعتداء ويعطى الرهبان الفرنسيسكانيين الاماكن التى يطلبونها فى القدس ويتخلى للنمسا عن قسم من الفلاخ . وفى ٨ فبراير سنة ١٧١٧ عقد الجنرال النمساوى « ستاكيل » مع « جان مافروثو رداو » أمير الفلاخ معاهدة يتعهد بها الجيش النمساوى بأن لا يقطع نهر « ألوتا » ثم دخلت انكلترا وهولاندة فى الوساطة بالصلح بين النمسا وتركيا فاذا بالنمسا تقترح ضم الفلاخ والبغدان الى الامبراطورية النمساوية فالترك رفضوا ذلك وجاء الخبر بأن ١٨٠٠٠ إسبانيولى نزلوا فى ساحل ايطاليا الشمالية فقلقت من أجل ذلك النمسا وأسرعت بعقد الصلح .

ثم المشروع الواحد والخمسون وهو مشروع ديسلوفاي Disloway وتاريخه سنة ١٧٣٢ وكان ديسلوفاي هذا مجرىاً فى الاصل من حاشية البرنس « راکوتزى » وكان يسمو الى امارة فى الفلاخ والبغدان وكان يقول ان ثمة أرضا بين المجر وترانسيلفانيا تابعة للفلاخ والبغدان عظيمة الخصب تستطيع أن تميز عددا كبيرا من السكان وانه اذا سمح له بها الباب العالى أمكنه أن يعمرها ويكون للباب العالى بذلك فائدة وهى وضع فاصل بين املاكه والامبراطورية الجرمانية وتكون هذه الامارة الحديدية تابعة فى سياستها للباب العالى ، وتكون كاثوليكية المذهب . الا ان الباب العالى امتنع عن قبول هذا الاقتراح لانه كان اتفق مع النمسا بأن لا يروج غرضا كهذا يستفيد منه البرنس راکوتزى وقومه المجر . وقيل ان ديسلوفاي انما كان يعمل ظاهرا لنفسه وباطنا لاميره البرنس المذكور وقد أجمع

الناس على ان هذا المشروع كان خيالاً وهو على كل حال ليس فيه شئ مهم من تقسيم تركيا بل كان موجهاً في الحقيقة لصد النمسا والاستعانة بتركيا عليها .

ثم المشروع الثاني والخسون المنسوب الى الكردينال « البروني » Alberoni وتاريخه سنة ١٧٣٦ وكان البروني هذا طليانياً ولد في « فيرانزولا » سنة ١٦٦٤ ومات سنة ١٧٥٢ وكان من أعاجيب الدهر .

قال دجوفارا ان فيكتور هوغو يذكر لنا رجلاً اسمه روى بلاس Ruy blas كان في أوليته خادم منزل فصار في الآخر الوزير الأول في اسبانية وقد يظن أن هذه الحكاية هي خيالية من نتائج تصورات ذلك الشاعر العظيم ولكن قصة الكردينال البروني كانت حقيقة واقعية وقد تجاوزت قصة روى بلاس Ruy blas فان هذا الرجل كان من الطبقة الدنيا وكان أبوه حارس بستان وقد تربى في دير في مدينة « پلازانس » وتعلم مجاناً ثم صار معلماً لابن أخى المطران « برنى » ثم صار ناموساً للمطران « رونكوڤيه رى » ثم دخل في بلاط دوق پارم Parme وما زال ينال حظوة حتى أرسلوه معتمداً سياسياً في مجريط وهناك أبدى مزيد المهارة في السياسة وذلك ان ملك اسبانية فيليب الخامس كان له حظية قد استبدت بالأمور فزال البروني به حتى اقنعه بالزواج بالأميرة « اليبابت فرينزى » وارثه عرش پارم وبعد ذلك تمكن من نفي معشوقة الملك فلاجرم ان الذى يتصرف بقباب ملك اسبانية الى ذلك الحد يمكنه أن يحمله على السياسة التى يريد لها فلم يلبث أن تولى البروني رئاسة الوزراء في اسبانية ثم صار رئيس أساقفة اشبيلية .

وقد ازدادت في أيامه قوة اسبانية ففتحت جزيرتى ساردانية وصيقيلية ولكن طراً في زمانه أن الأسطول الانكليزى دمر الأسطول الاسبانى في « سيرا كوزا » ثم انعقدت معاهدة رباعية بين انكلترة وفرنسا وأوسترى وهولاندة فخطر في بال البرونى أن يقابل هذه العصبة بعصبة أخرى مؤلفة من اسبانية والروسية وتركيا والسويد . وفى تلك المدة أعلنت فرنسا الحرب على اسبانية أى سنة ١٧١٩ خاف فيليب الخامس من هذه الخطوب المتوالية وطرده البرونى من اسبانية فخرج ذليلاً وهام على وجهه فى الأرض لا يملك شيئاً ثم قبض عليه فى جنوة بأمر البابا اينوشانسىوس الثالث عشر وحكم عليه بالحبس مدة أربع سنوات فى دير ولكنه بدهائه تمكن من نيل العفو وصار فيما بعد معتمداً للبابا .

وقد ألف البروني هذا كتاباً يحتوي أفكاره السياسية قال فيه مخلصته : انه يجب على دولتي فرنسا واسبانيا أن تعضدا دولة النمسا على الدولة العثمانية عدوة المسيحية وهكذا تتمكن النمسا بالاتفاق مع الروسية من طرد الأتراك من أوربا واسترجاع الأراضي المقدسة . وهو يقول انه لو اتفقت دول أوربا لم تطرد الترك من أوربا فقط بل أمكنها طردهم من آسية وافريقية وأشار ب عقد مؤتمر في رهنسبورغ Regensbourg تنعقد فيه معاهدة بين الدول المسيحية ويتأسس صندوق مركزي للمال في البندقية . وأما الجيوش فيجهز الامبراطور مائة الف مقاتل والروس مائة ألف و بولونيا ثلاثين ألفاً والدانيمرك عشرة آلاف والسويد عشرة آلاف وفرنسا ثلاثين ألفاً وكل من حمومات الصيقليتين والبرتغال وسردانية والبندقية وجنوة وسويسرة عشرة آلاف ف مجموع القوه يكون ٣٧٠ ألفاً . ثم انه يمكن تجهيز أسطول مسيحي لا يقل عن ١٠٠ سفينة حربية و ٤٠ بارجة . وقد اقترح « البروني » تجهيز أسطول آخر من سفن فرنسة واسبانية والبرتغال لأجل صد أساطيل طرابلس وتونس والجزائر وذهب « البروني » الى كون فشل الحروب الصليبية انما كان السبب فيه الخلف الذي وقع بين المسيحيين من أجل تقسيم الفتوحات فيجب أن يضع مؤتمر « رهنسبورغ » قاعدة يسير عليها المسيحيون في المستقبل فلا يختلفون

قال البروني : انه يجب أن يعين الدوق « هولستين غوتورب » Holstein-Gottorb امبراطوراً على القسطنطينية بجميع حقوق هذه الامبراطورية وان يكون ارثها في عقبه المذكور وان يضاف الى القسطنطينية أملاك تركيا في آسية وولاية الروملي في أروبة ولما كان الحصن الحصين الأكبر الذي وقى أروبة والنصرانية من عادية الاسلام هو الامبراطورية الرومانية^(١) فيجب أن تضاف اليها بوسنة و صربيا واسكلافونيا ومكدونية والفلاخ وتكون من جملة أجزاء هذه الامبراطورية وأن يكون للامبراطور الروماني حق التقدم على امبراطور القسطنطينية وغيره من ملوك النصرارى ثم قال انه لما كان قد ثبت كون القيصرية حنة صاحبة الروسية ليس لها هم أعظم من نشر الديانة فانتا ترى من باب المكافأة لها على جهادها اعطاءها بلاد التتار وازوف وبمقابلة ذلك ترد هي بلاد فنلاند الى مملكة السويد

(١) أي الجرمانية التي خلفت الامبراطورية الرومانية

وتجب مكافأة اسبانية باعطائها الجزائر ومكافأة البرتغال باعطائها طرابلس الغرب .
ويجب تسليم أزمير وجزيرة كريد الى انكلترة وتسليم حلب وجزيرة رودس الى هولاندة
وأما بولونيا فن حيث كانت مدة طويلة حصناً للنصرانية وقد أصيبت بمصائب كثيرة
فيجب أن تسكفاً بتسليمها بلاد البغدان و بلاد التتر المسماة « بودزياك » وما من أحد ينازع
في اعطاء دالماسيا الى البندقية ولا في اعادة المورة لها وقد انتزعت منها مئتين سنة كما
انه يجب اعطاء جنوة قسماً من بلاد اليونان

فهذه خلاصة تقسيم الفتوحات بين الفاتحين وأنت ترى أن فرنسة وسويسرة
وفرسان مالطة ليس لهم ذكر في هذه التقاسيم وأغرب من هذا عدم اعطاء شيء للبابا .
وكل هذا فيه نظر

ثم ان البروني يقترح أن تكون ديانة الدولة في القسطنطينية وفقاً لصلح وستفاليا
(سنة ١٦٤٨) ولكن مع مراعاة الكنائس الارثوذكسية والارمنية والقبطية^(١) ويقترح
أن تكون المعاملات التجارية واحدة لا ترجيح فيها لاناس على آخرين . ومن جملة
اقتراحاته طمس قلاع الدردنيل

أما كيفية الهجوم على تركيا فتكون على الوجه الآتي :

يزحف الروس صوب شبه جزيرة القريم ويأخذون آزوف . وفي الوقت نفسه
تزحف جيوش بولونيا والدانمرك والسويد وتقطع نهر « دنيستر » وتفتح بلاد البغدان
Moldavie وبلاد التتار وبلاد طرابزون

وتحتشد جيوش الألمان في بلغراد وتهاجم « ودين » و « نيش » وقلاع الطونه
وتهاجم جيوش الفرنسيين وسائر الدول الجنوبية بلاد اليونان . وتجتمع الأساطيل
وتهاجم جزيرة مدلى وجزيرة تنيدوس ثم الدردنيل ثم الاستانة وبعد انتهاء هذه الحرب
بنيل المني ينعقد مؤتمر دائم في « رغنسبورغ » (مدينة في بافاريا) تمثل فيه جميع الدول
المسيحية وتفصل فيه خصوماتها ومن لا يخضع منها للحكم يجبر على الخضوع بالقوة
قال « دجوفارا » ان أربع دول بلقانية لم تنته من الحرب مع تركيا حتى اشتبكت في
حرب بعضها مع بعض لأجل قسمة الفتوحات وهذا برغم امبراطور الروسية الذي كان هو

(١) أى الاعتراف بكل ديانة الا الاسلام

الحكم فيما بينها . فكيف تريد أن تتفق دول أوربة بأجعتها على تقسيم البلاد العثمانية ؟ يريد أن يقول ان اتفاقات الدول على تقسيم الفتوحات هي أسهل في النظر منها في العمل

ثم المشروع الثالث والخمسون وهو مشروع نمسوى وتاريخه سنة ١٧٣٧

كان الروس اتحدوا مع النمساويين وهاجوا الترك سنة ١٧٣٧ الى سنة ١٧٣٨ وصد الباب العالي هاتين الدولتين معاً وأبدى قوة عظيمة الا أنه طلب توسط الدول الأوربية . وكانت فرنسا تعضده بواسطة سفيرها « فيلنوف » Villeneuve الذي كان يشدد الباب العالي ولا سيما في منع الروس من الاتصال بالبحر الاسود خوفاً من وصولهم الى البحر المتوسط . فانهقد مؤتمر الصلح في « نيمروف » من بولونيا وكان طلب الروس أن تكون لهم جميع سواحل البحر الاسود الممتدة من مصب الدانوب الى باطوم مع حرية الملاحة في هذا البحر . وان تنضم الفلاخ والبغدان مملكة واحدة مستقلة الا ان الديانة الارثوذكسية فيهما تكون تحت حاية الروسية . وأما اوستريا فطلبت جميع بلاد الصرب ونيش وودين وبوسنه ونوفي بازار وكانت تسمو أيضاً الى أخذ الفلاخ Valachie فالباب العالي رفض هذه المطالب كلها واستأنف القتال . فدخل الاوستريون بلاد الفلاخ ووصلوا الى بخارست الا ان الترك كسروهم في « مهاديه » Mehadia وأخذوا « ارزوفا » وفي ١٠ نوفمبر سنة ١٧٣٨ تصالحت فرنسا مع السويد وعرضت هذه المحالفة على تركيا

أما الروس فقطعوا نهر « البروت » وفي ١١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ زحف المارشال مونيك الى « جاسي » وكانت فرنسا توسطت في الصلح مع اوستريا وانعقدت معاهدة بلغراد في ١ سبتمبر سنة ١٧٣٩ و بقيت بلاد الصرب وبوسنه والفلاخ لتركيا . ولما رأت الروسية ان استريا تركت الحرب وصالحت تركيا ورأت السويد تهاجم من وراء أعادت الى الباب العالي البلاد التي كانت احتلتها من ممالكه ورضيت بطمس قلعة ازوف واقتنعت بما كانت عليه قبل تلك الحرب من عدم الاتصال بالبحر الاسود

وكان صلح بلغراد هذا آخر صلح مجيد عقده الباب العالي مع أوربة وكوفئت فرنسا على عضدها لتركيا في هذه المصالحة بتجديد الامتيازات الافرنسية في تركيا وبزيادتها ثم المشروع الرابع والخمسون وهو المنسوب الى الماركيز « دارغنسون » Ditrghenson وتاريخه سنة ١٧٣٨

وكان هذا الرجل ناظراً لخارجية فرنسا لعهد لويس الخامس عشر ويقال انه كان على جانب عظيم من استقامة المبادئ حتى قال عنه فولتير : انه احرى بأن يكون وزيراً في جمهورية افلاطون من أن يكون وزيراً عند ملك فرنسا

وفي أواخر القرن الثامن عشر عادت في أوروبا جاسة النصرانية وتجددت العزائم لقتال الترك . وكان فولتير يدعو الى نصره الأروام و « شنيه » Shenier ينظم الاشعار الجاسية لمقاتلة الترك . ونشر الكونت « دومارسيغلي » De Marsigli كتاباً اسمه « حالة تركيا العسكرية وتقدمها وتقهقرها » وكان هذا الرجل طليانيا اشتهر بالعلم وخدم دولة اوسنريا وأسرته الترك سنة ١٦٨٣ فقال في كتابه : « انه اذا اتفق الامبراطور والروس وبولونيا والبنادقة أمكنهم محو السلطنة العثمانية من الوجود » أما الوزير دارغنسون فمع أنه كان يشاطر أبناء عصره هذا الشعور بحق تركيا كان يخالف الجمهور في قضية تقسيم اسلاب هذه السلطنة فيقول : « انه لا يجوز أن نفتح بلدان تركيا ليستولى عليها الامبراطور بحجة انه هو حامى النصرانية وان تقويته لازمة . بل يجب أن يكون لكل واحد حصته من اسلاب تركيا وأن تؤسس على انقراض هذه السلطنة عدة ممالك مسيحية ^(١) وان لا يحصل خلل بالتوازن الأوربي وأن تعود بلاد اليونان الى مثل ماضى مجدها ويعود وادى النيل الجليل الى ما كان عليه وان تعاد النصرانية الى تلك البلدان وترتب ادارة الاراضى المقدسة الخ » وقد تكلم دارغنسون عن وجوب اتفاق الدول المسيحية فقال : انه اجدر بها أن تتحد في شبه جمهورية مسيحية من أن تستمر في قتال بعضها بعضاً وهكذا تفتح ممالك الاسلام في أوروبا وما صاقبها من سواحل افرقية الشمالية التى هي مجاورة لأوربة كثيراً كمملكة مراکش المجاورة لاسبانية ومن سواحل آسية الصغرى وسورية وفلسطين حيث الاراضى المقدسة الخ

ولقد تم هذا كله لكن من بعد زهاء مائتى سنة من العصر الذى كان فيه دارغنسون . وهو يعين العروش التى يرى ايجادها فيقول : يكون ملك لمكودنية وملك لليونان وامبراطور للقسطنطينية له بلاد الاناضول ويكون ملك لسورية وفلسطين وملك لمصر وملك للجزائر وتونس وملك لمراكش الخ

(١) أما المسلمون فلم يفكر بهم دارغنسون في شيء بل وظيفتهم دائماً أن يكونوا تحت حكم المسيحيين

ثم المشروعات الخامس والחסون والسادس والחסون أحدهما لسكاترينا الثانية امبراطورة الروسية والآخر ليوسف الثاني امبراطور اوستريا وتاريخه سنة ١٧٧٢

قال دوجوفارا : سنة ١٧٦٨ أعلنت تركيا الحرب على الروسية فانهمز الجيش العثماني ودخل الروس الى بلاد الفلاخ واستولوا على اسماعيل وبندر واكرمان وكذلك ساعد الانكليز الروس في البحر فظهروا على الاسطول العثماني في « چشمه » فتدخلت اوستريا في الخلاف فعرضت عليها تركيا لارضائها تقسيم بولونيا فرضيت بذلك وانعقدت معاهدة تقسيم بولونيا في ٥ أغسطس سنة ١٧٧٢ وانصرفت بها اوستريا عن البلقان واضطرت الروسية بسبب اتفاق تركيا مع اوستريا ان تخلى الفلاخ والبغدان وتعيدهما لتركيا الا أنه في المعاهدة الصلحية التي انعقدت في « كوجوك فايناردجي » سنة ١٧٧٤ في ٢١ يوليو رضيت تركيا بأن يكون للروسية حق الدفاع عن رومانيا أي مملكتي الفلاخ والبغدان

وكانت اوستريا لا تزال طامحة الى الاستيلاء على رومانيا وكتب البارون « توى غوت » Thugut سفير اوستريا في الاستانة الى حكومته ما يلي : « عند سقوط السلطنة العثمانية القريب ينبغي أن تخرج ولاياتها الشمالية كبوسنة وصربيا والبغدان والفلاخ في نصيب اوستريا »

وفي أيام كاترينا الثانية قيصرة الروسية ويوسف الثاني امبراطور النمسا اشتد الخطر على السلطنة العثمانية أكثر من كل وقت نظراً لاتفاقهما على تقسيم هذه السلطنة . وكانت كاترينا هذه ألمانية الأصل الا أنها أفادت الروس ما لم يفذه أحد من ملوكها وأكملت عمل بطرس الأكبر وأشاد بذكرها كبار العلماء مثل فولتير و« ديدرو » و« دالمبر » وغيرهم وحولوا الرأي العام صوبها . وكان فولتير يوصي فريدريك ملك بروسية بعدم معارضة كاترينا في مشروعاتها المتعلقة بفتح القسطنطينية .

وأما يوسف الثاني امبراطور اوستريا ابن فرنسوا الأول وماري تيريز فكان شديد العاطفة واسع الخيال سريع الحركة وكان فريدريك ملك بروسية يقول عنه : انه يحب العلم لكن ليس له صبر عليه . وقد عرفت كاترينا بدهائها مكان ضعف يوسف الثاني فأخذت تنزف اليه وتطريه بغير ما فيه . وهكذا استولت على أفكاره وصار له بها اعتقاد شديد . وكانت هي التي اقنعت بتقسيم بولونيا ووافقها على ذلك فريدريك ملك بروسية . وهذا

الملك كان يرى أن أوستريا لا يمكنها أن تترك الروسية تستولى على رومانيا فلذلك سعى في التعويض على الروسية من جهة بولونيا . ولكن كاترينا لم تكن لتنزل عن مطامعها من جهة تركيا وكانت تطالب ببلاد آزوف وتضيق على السلطان العثماني في رفع سيادته عن القريم وتحاول الدخول في الفلاخ والبغدان . وكانت أوستريا تعاكس جميع مشروعات الروسية هذه ولذلك انتهى الأمر بالسماح للروس بأخذ الجانب الأعظم من بولونيا ووجدت أوستريا هذا الأمر أهون عليها من تقدم الروسية صوب الاستانة . وكانت أوستريا لو رأت من الروسية اصراراً على فتح رومانيا مستعدة لمناجزتها الحرب . وأخيراً رضيت الروسية بان تترك تركيا لرومانيا استقلالها التام ويولى على رومانيا أمير من بروسية . وما تم ذلك الا فيما بعد إذ جاء أمير من بروسية وجلس على عرش رومانيا بعد ذلك التاريخ بقرن كامل فأما في ذلك الزمن فإن النزاع بين الروسية واوستريا على رومانيا قضى ببقاء هذه تحت السيادة العثمانية . وكان فريدريك ملك بروسية يختار هذا الرأي خشية أن يجر هذا الخلاف الى حرب بين الروس والنمساويين . ولقد جرى تقسيم بولونيا كما تقدم الكلام فداء للنزاع على رومانيا الا أن أوستريا بقيت تواقفة الى أخذ رومانيا وخائفة عليها من الروسية

وكان الروس لا يزالون يقترحون اتحاد الدول الثلاث الروسية واوستريا وبروسية لأجل اسقاط تركيا . وكان ناظر الخارجية الروسية يقول ان مسألة طرد الترك مما وراء نهر « دنستر » لا تستحق اتحاد ثلاث دول عظام بل اتحاد دول ثلاث كهذه يجب أن يقضى على سلطانهم في كل أوربة وفي قسم كبير من آسية . الا أن أوستريا كانت تخشى سقوط الدولة العثمانية التام لما وراء ذلك من استفحال أمر السلاف . وقد قال الامبراطور يوسف الثاني للمسيو « دوسوغور » Segur ان القسطنطينية ستبقى دائماً محل منافسة بين الدول وتمنع من اقسام تركيا . وقد كتبت الامبراطورة ماري تيريز الى الكونت « مرسى ارغنتاو » Mercy-Argenteau بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٧٧٧ ما يلي :

« ان اقسام السلطنة العثمانية لأعظم المشروعات خطراً وأوجها عواقب . وماذا نستفيد لعمرى لو فتحنا كل هذه البلدان حتى صرنا على أبواب الاستانة ؟ اننا لا نفتح هناك الا أقاليم وية الهواء قليلة السكان متأخرة الثقافة أو مسكونة بأروام خبيثاء لئام يكون من شأنهم أن يستنزفوا قوى مملكتنا بدلاً من أن يزيدوها . ثم اننا نخسر بهذا العمل ثقة

الناس بعهودنا وهذا هو الخسران المبين . ان تقاسم السلطنة العثمانية أشد ضرراً من تقسيم بولونيا الذي لم أرض به الا مرعمة حتى أجارى به جيراني . فأنا لا أميل أبداً الى تقسيم تركيا وأرجو ان احفادنا أنفسهم لا يرونهم خارجين من أوربة »
قلت : قد مضى على هذا الكلام مائة وخسون سنة ولا يزال الترك في الاستانة وفي ولاية تراقيا الشرقية من أوربة

ولما ماتت ماري تيريز سنة ١٧٨٠ خلا الجو لكاترينا الثانية وأخذت تعمل دسائسها لدى يوسف الثاني لاقناعه بتقسيم تركيا وأرسلت الى فرنسا أيضاً تقترح عليها الممالة على هذا التقسيم وأن يكون لها مصر من أصل الأسلاب

وفي ٣٠ مايو سنة ١٧٨٠ تلاقى كاترينا مع يوسف وانفقا على اسقاط تركيا واستلحاق بعض أجزائها واعادة الجمهوريات اليونانية القديمة . ثم في سنة ١٧٨٢ كتبت الى يوسف صورة معاهدة سرية واقترحت أن يكون التقسيم بحيث لا يقع بسببه تصادم بين الممالك الثلاث بل تؤسس مملكة من الفلاخ والبغدان مستقلة تماماً تمنع الاتصال بين الممالك الثلاث التي تخشى تجاورها ويكون ملك هذه المملكة الجديدة على المذهب المسيحي الأكثر عدداً في الفلاخ والبغدان

أما الامبراطور يوسف فاستشار في مذكرة كاترينا وزيره البرنس « كوتيتز » Kaunitz الذي أجابه بان قبول اقتراح كاترينا على كل حال أقل ضرراً من رفضه وبانه يخشى أن كاترينا ان يئست من اوستريا تعود فتتفق مع بروسية

فاجاب الامبراطور يوسف كاترينا بكتاب مؤرخ في ١٣ نوفمبر سنة ١٧٨٢ مؤداه انه لا بد لنجاح مشروع التقسيم من قبول فرنسا وانه من جهة تأسيس مملكة ارثوذكسية في رومانيا وأخرى في القسطنطينية فإن هذا كله يتوقف على نتائج الحركات الحربية . وأما من جهة ما تقترحه النمسا في هذا التقسيم لنفسها فهو استلحاق قسم من الفلاخ مع ضفتي الدانوب الى بلغراد ومن بلغراد يكون للنمسا على خط مستقيم الى بحر الادرياتيك مع دالماسيا وايستريا وان تكون حرية التجارة تامة في نهر الدانوب عند مصبه وفي مضيق الدردنيل

ولما بلغ فرنسا هذا المشروع قاومته أشد مقاومة وقالت ان هذا المشروع اشبه بان

يكون اتساع السلطنة الروسية من أن يكون تقسيم السلطنة العثمانية وقال المسيو « قرغن » Vergennes للكونت « مرسى ارغنتاو » ما يلي :

« لا يوجد في أوربة كلها دولة واحدة لا تبذل آخر جندي من جيشها وآخر درهم من مالها في سبيل منع انهيار السلطنة العثمانية »

أما الامبراطورة كاترينا فاجابت الامبراطور يوسف بانها لا تطلب للروسية من الحقوق في الدولتين الجديدتين اليونانية والرومانية أكثر مما ترضى به لاوستريا وان حرية الملاحة في البحرين الاسود والابيض تكون مضمونة . وغاية ما في الأمر انها تقترح عدم تصغير الدولة اليونانية ووجوب تسليمها الموره والارخبيل

وقد ظهر من هنا أن كاترينا بدأت تتعهد باسم الدولتين الجديدتين كأنهما من الممالك التابعة لها

قلت ان هذا المشروع قد تمّ فيما بعد فتأسست دولة يونانية بعد هذا التاريخ بنصف قرن ودولة رومانية بعده بنحو من قرن كامل . ولكن لم يكن للروسية أن تسيطر ولا على واحدة منهما . هي قد غرست ولكن الثمرة لم تكن لها

ثم ان كاترينا أعادت السعي الحثيث لدى الامبراطور يوسف في اتمام مشروع تقسيم تركيا وكان الامبراطور لا يزال يتذبذب في الموضوع نظرا لشدة اعتراض فرنسا على هذا التقسيم . وجاء من فرنسا الى أوستريا مذكرة صريحة بان مشروع تقسيم كهذا شديد الخطر وبلغ الضرر لا سيما بمصلحة اوستريا .

فاجاب عليها الامبراطور يوسف بانه لم يمكن منع الحرب بين الروسية وتركيا ومن أجل ذلك لا يمكنه لاجل سلامة سلطنته في الوقت الحاضر وفي المستقبل أن يشاهد مجرى الحوادث من بعيد

فعند ذلك قدم « برتيلمي » سفير فرنسا في فيينا مذكرة شديدة للنمسا ينتقد فيها خطتها ويقول : « انه بينا الاتراك يحافظون على عهودهم معها اذا هي تنتهز فرصة ضعفهم وتحاول أن تضربهم ضربة قاضية لنقتسم ميراثهم الخ » وفي آخر المذكرة شيء من التهديد بما ساء وقعه جداً على الحكومة النمساوية ووجب توتر العلاقات بينها وبين فرنسا

وفي ٨ يناير سنة ١٧٨٤ اضطر الباب العالي أن يعقد مع الروسية معاهدة يتخلّى

بها لها عن شبه جزيرة القريم

ثم حدثت ثورات في بلاد المجر وترانسيلفانيا حالت دون استيلاء الامبراطور يوسف على قسم من الفلاخ . وأشق من هذا كان عليه خروج بلجيكا من يده . فأتت من بعد هذه الحوادث غمماً وتوقف كل شيء

ثم المشروع السابع والخمسون المنسوب الى « لنغه » Linguet وتاريخه ١٧٧٤ الى ١٧٧٦ كان « لنغه » هذا محامياً صحفياً فرنسياً خدم الامبراطور يوسف عاهل النمسا وبعد أن أقام زمناً في أوستريا وقعت وحشة بينه وبين الامبراطور ففارقه وعاد الى باريس وهناك قتله رجال الثورة الفرنسية بحجة أنه كان مؤيداً للملوك الظالمين كامبراطور أوستريا وملك انكلترا . وقد حرّر « لنغه » هذا المشروع أيام اقامته ببروكسل سنة ١٧٧٥ أو ١٧٧٦ وقدمه الى الخارجية الفرنسية وقد بقيت منه نسخة غير مطبوعة في المكتبة الملكية ببروكسل . وكان « لنغه » كاتباً شهيراً قال عنه فولتير « انه يحترق لكنه في أثناء حريقه يضيء » .

وقد سمي « لنغه » مشروعه « طرد الترك من أوربة وتأسيس توازن سياسي جديد » فقال فيه انه لا خطر على أوربة الا من غارة تركية أو روسية . وقال كلاماً آخر عميق الغور وهو أنه اذا اقتضت السلم العامة اقتطاع نصف تركيا صار الأتراك أشد خطراً من ذي قبل بشدة تمرسهم بالقتال

وقال ان حصن أوربة من جهة الشرق كان بولونيا وهاهي قد سقطت . ولقد بقيت ألمانيا هي الحصن الحصين لاوروبا من غارات الترك ولا شك أن ألمانيا قد أنقذت أوربة من عادية الترك مراراً الا أن الامبراطورية الجرمانية تشتمل على عناصر متعددة هي سبب كبير في ضعفها . فماذا تستفيد اوستريا من هولاندة مثلاً؟

ثم أخذ « لنغه » يذكر أمراض أوربة السياسية ويعدها . وأشار بتوسيع اوستريا من جهة تركيا . وقال ان الروسية لا تقدر أن تمنع تدخل أوربة في هذه المسألة . واجال كلامه هو أن بروسية هي معقل أوربة من جهة الروس وان أوستريا هي معقل أوربة من جهة الترك وانه يجب التعويض على فرنسا لأجل التوازن الدولي باضافة هولاندة اليها

ثم المشروع الثامن والخمسون وهو مشروع «دوكارا» De carra وتاريخه سنة ١٧٧٧

كان «دوكرا» هذا ناموساً لأمير البغدان ثم للكرديال «دوروهان» De Rohan ثم صار قيماً لخزانة كتب الملك في باريس ولما ثارت الثورة الفرنسية دخل في زمرة الجاكوبيين Jacobins ثم انحاز الى الجيروندين Jirondins. ثم قتله رجال الثورة. وله تصنيف اسمه «بحث سياسى يتضمن اقتراح تقسيم تركيا» بدأ فيه بقوله «ان تركيا أصبحت بحالة يمكن فيها الفيلسوف نفسه ان يشير بفتحها» ثم ذكر اتفاق الروسية واوستريا على تركيا وتقدم اوستريا في رومانيا وتقدم الروسية في القريم وكرجستان وبلاد التتر والصين. وقال انه يجب تقوية بروسية لتكون حاجزاً منيعاً بين الروسية والنمسا وكذلك تنبى الموازنة بين قوى النمسا والروسية وبروسية وفرنسة. ثم قال: ان الأتراك هم الاعداء الطبيعيون الابديون للمسيحيين كما أنهم هم أعداء العلوم والصناعات فيجب طردهم من أوربة أما كيفية التقسيم فان «كارا» يشير باعطاء اوستريا الفلاخ وبلاد البلغار والصرب وبوسنه وباعطاء بروسية بلاد البغدان وبسارايا الى البحر الأسود مع قسم من بولونيا والروسية وباعطاء فرنسة المورة واقريطش وقبرص وجزر الارخبيل وباعطاء القريم وازوف للروسية. واما القسطنطينية وسائر تركيا فيجب أن تكون لجمهورية البندقية الا انه يكون أربعة مجالس في القسطنطينية كل منها مؤلف من ١٢ عضواً لمجلس للاستريين وآخر للفرنسيين وآخر للروس وآخر للبروسيين وأما اسبانيا فلها ان تفتح مراکش والجزائر وتونس. ثم يذكر كارا كيفية هجوم الجيوش المتحالفة لفتح تركيا مما يشبه البرامج التي سبقت فلا لزوم لشرحه

ثم المشروع التاسع والخسون ولم يعرف اسم صاحبه وتاريخه سنة ١٧٨٨ وهذا المشروع تضمنته رسالة اسمها «خيال سياسى لتقسيم جانب من السلطنة العثمانية»

وقد ذكر هذا الكاتب المجهول انه يجب اخراج الترك من أوربة والاناطول وسورية وفلسطين وجميع شواطىء البحر المتوسط

وانه يجب تأسيس مملكة مؤلفة من تركية أوربة الى حد بوسنة ومعها سواحل الاناضول الى مايقابل رودس وتكون هذه المملكة لفرنسة

ثم تأسيس مملكة مؤلفة من الاناضول وارمينية وكرجستان تعطى للروسية

ثم تأسس مملكة مؤلفة من بولونيا وكورلندة والبوجاق يدون عليها دوق توسكانا ويكون لفرنسة أيضا مصر وللامبراطور الفلاخ والبغدان وللروسية القريم والقوبان ثم تأسس مملكة مؤلفة من سورية وفلسطين يكون صاحبها الدون فيليب الاسباني . وتأسس مملكة لاسبانية أيضا في مراکش . وتنقسم ايلات الجزائر وتونس وطرابلس بين اسبانية وصردانية ومودينا (امارة في ايطالية)

وتكون حرية البحار مضمونة للجميع وكذلك حرية المرور بالبواغيز مثل البوسفور والدرديل وجبل طارق

وان اتفقت الروسية واوستريا لتمنعا فرنسا من الاستيلاء على الاستانة وتوابعها يجب أن تتحالف فرنسة مع بروسية والسويد والدانمرك وممالك الشمال ويأخذن بيد بولونيا ويضفن اليها الفلاخ والبغدان وباسارايا

ثم المشروع الستون وهو مشروع « فولنای » Volney وتاريخه سنة ١٧٨٦ فالكتاب الافرنسي الشهير فولنای أعلن تأييده للسياسة الروسية السلافية في رسالة نشرها تحت عنوان «اعتبارات في الحرب الواقعة مع الاتراك» وكان الروس قد أعلنوا الحرب على الترك وحبس الباب العالي سفير الروسية في الاستانة ثم انضمت اوستريا الى الروسية وأعلنت الحرب أيضا على تركيا في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٨٨

فبدأ فولنای بذكر المالك التي افتتحها الترك في أقل من اربعمئة سنة وقال انهم أحسنوا فتح أجل بلدان العالم وأعظمها . الا انه من نحو مائة سنة ظهرت دولة اسمها الروسية كانت قبل هذا التاريخ مجهولة فتقدمت بسرعة مدهشة وأصبح المستقبل لها . وسواء كان في العالم المادى أو في العالم الأدبي اذا بدأ الجسم يتحرك كان استمرار حركته بقدر جسامته ثم قال فولنای : ان تركيا يجب أن تنقرض (١) وانه كما أمكن الاتفاق على تقسيم بولونيا بين حكومتى فينا وبطرسبورغ يمكن اتفاقهما على تقسيم تركيا (٢) ولقد أشار

(١) مضى على كلام الفيلسوف فولنای هذا مائة وأربع وعشرون سنة ولم تنقرض تركيا ولم تزل هي صاحبة القسطنطينية والاناتول . وما أصدق تلك الجملة : «الانسان يدبر والقضاء يضحك»
(٢) وهنا أيضا ضحك القضاء من الفيلسوف فولنای فقد نشر الله بولونيا من قبرها بينا الروسية جمهورية شيوعية واوستريا سلطنة في الغابر ين لم يبق منها الا الجزء الثامن مما كانت

قولناى على فرنسا وطنه بالاتفاق مع الروسية وجعلها الخليف الطبيعى لها^(١) وبعدهم معارضتها فى نزاع القسطنطينية من يد تركيا : اما تاج القسطنطينية فيشير قولناى باعطائه الى امبراطور يونانى وان يكون له الموره والارخبيل وان يكون المرور بالبوسفور حراً . واما اوستريا فتعطى البانيا وبوسنه وسواحل الادرياتيكا كما انه يجب ان يؤول الى الروسية بلاد الفلاخ والبغدان والبلغار

وذكر قولناى أن الآراء مقسمة فى فرنسا فيما يجب أن تعترض به فرنسا على افتراض سقوط تركيا . فبعضهم أشار بأخذ المورة واقريطش وقبرص . وآخرون مالوا الى فتح مصر . وقولناى لا يرى فى المورة والجزر طائلا كما أنه يخشى اذا تعرضت فرنسا لمصر أن تقع فى حرب مع تركيا وانكثرة المصريين^(٢) وكان من رأيه أن تتجرد فرنسا وقتئذٍ لاصلاح أمورها الداخلية وتكتفى بذلك

ومما أصاب به قولناى قوله ان مهاجرة هذه الدول لتركيا سيفيد تركيا والشرق ويبعث يقظة عند الشرقيين . وقال ان شعوب تركيا أعظم استعداداً فى كثير من الأمور من الشعوب الأوربية لا سيما أهل الشمال منها . قلنا وبما لا مشاحة فيه ان أهل الأقطار الشمالية من أوربة يغلب عليهم شيء من البلادة لكن هذا الجنس من البشر يمتاز بالثبات والجد فى العمل وهكذا أصبح فى هذا العصر أرقى الاجناس وأكملها مدنية برغم بلادته

ولقد رد على قولناى رجل يقال له «شارل دو بيسونل» Charles De Peyssonnel كان قنصلا لفرنسة فى ازميز ونشر رسالة قاوم فيها السياسة الروسية مقاومة شديدة وسفه رأى قولناى وأظهر تناقض أقواله اذ بينما هو يظهر الخوف من تبسط دول مفرطة الاتساع يشير بزيادة تكبير الروسية فوق ماهى عليه . ثم قال هذا الرجل ان انكثرة ستقاوم توسع دول كبيرة الى هذا الحد لأن وجودها يوقع خلاا بالتوازن الدولى . وان فرنسا يصيبها من ذلك خسار كبير ان رضيت به

ومن أهم ما لحظه « بيسونل » هو انه ان تقدمت الروسية صوب البلدان العثمانية

(١) اما هذا فقد حققته الايام من بعد مائة سنة من كلام قولناى

(٢) فى هذه صح كلام هذا الفيلسوف لأن كل هذا حصل فى زمن نابليون بعد كلام قولناى يضم.

ودخلت هذه في حوزتها جاء وقت تأسف فيه المسيحيون الذين في هذه البلدان على الحرية التي يتمتعون بها في ظل الترك وذلك بما سيقاسونه من فظائع الاستعباد الروسي الذي يعرفه جميع الشعوب التي دخلت تحت حكم الروسية

وأخذ « بليونل » يذكر التوحش الذي كان لا يزال عليه الشعب الروسي وكيف ان أكثره ارقاءً للامراء وكيف ان بلادهم أكثرها غابات أشبه تسكنها الوحوش الضارية وخاطب قولناى قائلاً : « أمن مثل هؤلاء تنتظر الخير » ؟

ثم أخذ بليونل يصف المساحات العظيمة الخارقة للعادة التي يتمتع بها المسيحيون في ظل سلاطين آل عثمان ويذكر الامتيازات المعطاة للأجانب مما لا يمكن أن تعطيه دولة أخرى وقال : « ان جميع ما في تركيا من الأوضاع يهيئها لتكون سلطنة عظيمة وانما هي محتاجة الى رجل عظيم ينفذ ذلك ». وختم بليونل كلامه بما ستعرض له فرنسة من الخطر اذا سمحت للروسية واوسنريا بتقاسيم أملاك تركيا

ثم المشروع الواحد والستون وصاحبه « دو بريون دولاتور » De Brion De la

Tour وتاريخه ١٧٨٨

وهذا الرجل قد رد أيضاً على قولناى واتهمه بالضلع مع الروسية . وحرر هو مشروعاً خاصاً به سماه « اقتسام جلد الدب » أو « رسالة الى صاحب حلم تقسيم السلطنة العثمانية »

وقد بدأ « دولاتور » هذه الرسالة باثبات ان الأتراك لم يكونوا معتدين وان سلطنة الروسية أصبحت واسعة جداً وانه ليس يكون اصلاحاً لحال المسيحيين الذين تحت حكم تركيا ادخلهم تحت حكم الروسية

وقال انه لا يمكن تقسيم سلطنة عظيمة كالسلطنة العثمانية بدون حروب ومنازعات لا سيما بين الروسية واوسنريا

غير ان « دولاتور » أشار بمعالجة المرض باحداث أربع ممالك الأولى القسطنطينية مع تركية أوربة الى بوسنة ومصب الطونة ومعها سواحل الاناضول وقسم من الارخبيل وهذه يتبوا عرشها أمير افرنسى . الثانية الأناضول والقوقاس ويكون عليها الامير قسطنطين ابن أخى كاترينا امبراطورة الروسية . والثالثة بولونيا وكورلاندة وبسارايا ويكون عليها

دوق توسكانا ابن أخى الامبراطور يوسف الثانى . والرابعة سورية وفلسطين ويتولاها دوق پارم

ثم يحدث ممالك فى شمالى افريقية تكون منها مصر ومرا كش تحت سيطرة فرنسة أما الفلاخ والبغدان أى رومانيا فتكون لاوستريا

وقد حدث يومئذ ان انكلترة أرادت التقرب من كاترينا امبراطورة الروسية واقترحت عليها تقاسم النفوذ فى شرق أوربة والشرق الاقصى فامتنعت كاترينا من اجابة اقتراحها . فعادت انكلترة واتفقت مع بروسية بموجب معاهدة ١٣ أغسطس سنة ١٧٨٨ وقررتا أن تكونا يداً واحدة فى أمور الشرق . ثم أخذت انكلترة تدافع من ذلك الوقت عن وجود تركيا توقيفاً لامتداد الروسية . وقد استفادت تركيا مدة طويلة من هذه السياسة ثم المشروع الثانى والستون وهو مشروع « هرتزبرغ » Hertzberg وتاريخه سنة ١٧٩٢

وكان هذا الرجل ألمانياً من « بومرانيا » وكان من العلماء والمؤلفين وتقلد نظارة الخارجية البروسية لعهد فريدريك الكبير ثم لعهد فريدريك ويلهلم الثانى وصار له الحول والطول وفى أيامه صارت برلين مركز السياسة فى أوربة

وكانت خلاصة اقتراح هرتزبرغ أن تأخذ الروسية سواحل البحر الاسود الى مصب الطونه وأن تأخذ اوستريا الفلاخ والبغدان وترد فى مقابلة ذلك غاليسيا للبولونيين وهؤلاء يتخلون عن « تورن » و « دانزيغ » لبروسية

وكان هرتزبرغ قد كتب الى سفير بروسية فى الاستانة فى ٣ ابريل سنة ١٧٨٨ قائلاً له : « اذا كان الباب العالى سيضطر للانزول عن احدى ولاياته فليعمل ذلك بواسطة بروسية ليتمكن هذه أن تنال عوضاً من جهة أخرى فان لم يفعل اضطرت بروسية الى التحالف مع الامبراطوريتين والدخول فى الحرب معه »

الا أن الأتراك كانوا فى أول هذه الحرب غالبين فلم يرعهم هذا الانذار واشتروا على هوتزبرغ لقبول اقتراحه أن يعلن الحرب على النمسا . وفى ٣٠ يناير سنة ١٧٩٠ انعقدت معاهدة الصلح على أن تعود الى تركيا جميع الولايات التى كانت خسرتها ومن جعلتها القريم

نخاب أمل هرتز برغ من جهة استلحاق بلدان كان يرجو الاستيلاء عليها بواسطة هذه الحرب . وكان الامبراطور يوسف الثاني أشد الناس معارضة لتبسط بروسية وكتب في ٧ يناير سنة ١٧٨٨ الى « مرسى ارغنتاو » يقول له : « لا أقدر أن أرى في ملك بروسية الا عدواً لبيتى ولا أرى في كل زيادة يزدادها الا نقصاً من قوتي »

أما فرنسا فقد كانت استحسنّت عدم توسيع بروسية من أملاك بولونيا واتفقت في هذه المسئلة مع الروسية . ولم ينفذ شيء من مشروع هرتز برغ هذا

ثم المشروع الثالث والستون وهو مشروع « تاليران » Talleyrand وتاريخه ١٨٠٥ كان تاليران أشهر من أن يعرف ولد في باريز في ١٣ فبراير سنة ١٧٥٤ ومات فيها في ١٧ مايو سنة ١٨٣٨ وكان ناظراً للخارجية الافرنسية مدة طويلة في أيام نابليون الاول ولويس الثامن عشر . وهو من نوابغ الدهر في السياسة يضرب به المثل . وقد كثر في زمان تاليران التحدث بتقسيم السلطنة العثمانية أكثر من ذي قبل لان عصر نابليون كان عصر حروب وانقلابات وثلّ عروش وهدم ممالك وتأسيس ممالك فلا عجب أن يكون تقسيم هذه السلطنة أصبح محور الكلام . قال « فندال » : « لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة الا وعنده برنامج تقسيم للسلطنة العثمانية هو محتفظ به لوقت الحاجة »

أما تاليران فلم تكن سياسته ترمى الى غرض الاتحاد مع الروسية بل كان يرى تقوية العنصر السلافي خطراً ويجب أن يعزز اوستريا في وجه السلاف . ولتاليران تقرير حرره في ستراسبورغ في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٥ وقدمه لنابليون ومآله الاتفاق مع اوستريا دون بروسية كما أنه يفصل مصالح اوستريا عن مصالح انكلترة ويحاول توجيه الجميع الى مقاومة الروسية . وقاعدة تاليران السياسية في الشرق كانت هي أن الترك صاروا الآن لا تخشى غائلتهم بل صاروا هم يخشون غوائل الآخرين وقد قام مقامهم الروس وصاروا خطراً على أوربة . وليس لأوربة الآن في وجه الروس حصن أمنع من النمسا فيجب تقويتها لتثبت امام الروسية .

وكان تاليران يريد اعطاء الفلاخ والبعدان وبسارايا وشمالى بلغاريا للنمسا منعاً لامتداد الروسية الى الجهة الاوربية . وكان يقول لبونايرت : « بعد أن تهزم جيوش النمسا في معركة فاصلة يكون من باب الجزم أن تقول للنمسا : احتلّى الفلاخ والبعدان وبسارايا

وأنا أجل الباب العالي على تخليتها لك . وان عارض الروس في ذلك كنت معك عليهم . وهكذا تعقد مع النمسا أمثن صلح بعد أن تكون أحرزت عليها أبهر نصر »
 وكان تاليران قاطعاً الأمل من نهضة تركيا ذاهباً الى أن اقتطاع كثير من ولاياتها يزيد قوة ولا يضعفها كما يُظنّ وأنه يمكن اعطاء هذه الولايات الدانوبية لامبراطورية أوستريا وعقد معاهدة بينها وبين الباب العالي تتعهد بها هذه الامبراطورية بالمحافظة على سلامة السلطنة العثمانية . ولكنه كان يريدان يقتطع من أوستريا بعض مقاطعات من جهة ايطالية بمقابلة ما كان يقترحه من اضافة الفلاخ والبغدان وبساراييا الى أوستريا وقد كان رأى تاليران هذا من الصواب بمكان . ولكنه لم يكن ضروريا اعطاء رومانيا وبلغاريا لامبراطورية النمسا من أجل وضع هذه في وجه الروسية فان المناظرة بين هاتين الدولتين كانت واقعة لا محالة بهذا وعدمه .

على أن الامبراطور نابليون رد اقتراح تاليران ومال الى التحالف مع الروسية

كما سترى

ثم المشروع الرابع والستون وهو مشروع نابليون الأول واسكندر الأول وتاريخه

سنة ١٨٠٨

قال نابليون في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة : « تذا كرت مراراً مع الروس في أمر قسمة السلطنة العثمانية وكان ذلك ممكناً لولا القسطنطينية التي كانت دائماً سبباً لمنع الاتفاق فقد كان الروس يريدونها وأنا لم أكن أرضى باستيلائهم عليها فان القسطنطينية وحدها مملكة ومن ملك القسطنطينية أمكنه أن يسود كل الدنيا »

وقال نابليون مرة أخرى « القسطنطينية مفتاح العالم »

الا انه في قضية السلطنة العثمانية لم يكن على رأى ثابت فتارة كان يميل الى مجارة الروسية في فصم عراها وطوراً كان يأبى ذلك كل الالباء . وقد كتب الى سباستياني سنة ١٨٠٦ بخط يده : « انى لا أريد أبداً تقسيم السلطنة العثمانية ولو أخرجوني بثلاثة أرباعها انى لأرضى بذلك أصلاً . وكل ما أريده انما هو تقوية هذه السلطنة في وجه الروسية »

ولكن نابليون كان سنة ١٧٩٧ كتب الى الحكومة المركزية يقول : « اننا من جزر اليونان ومالطة الخ يمكننا أن نراقب أحوال السلطنة العثمانية حتى اذا انهارت كان لنا

نصيب منها »

وقد كانت علاقات نابليون مع اسكندر الأول قيصر الروسية بادئ ذي بدء غير متينة بل كانت أقرب الى التراخي . وكان جماعة اسكندر مثل الكونت « كوتشوبى » و « نوڤوسيلتزوڤ » و « كزارتوريكى » و « ستروغونوف » أعضاء جمعية الخلاص أصدقاء سياسة الاتفاق مع فرنسا وأنصاراً لسياسة الاتفاق مع انكلترا . الا أن نابليون كان يتزلف الى اسكندر وقال لسفيره ماركوف سنة ١٨٠٢ « الا يوجد فى أمراء الأسرة المالكة فى الروسية من يرث عرش القسطنطينية »

ولما توج نابليون امبراطوراً على فرنسا حصل تحالف دولى عليها مؤلف من الروسية والسويد وانكلترا والنمسا وبروسية وتركيا ونابولى واقترح تاليران على نابليون عقد اتفاق مع النمسا الا أن نابليون بقى يؤثر سياسة التقرب الى الروسية وقال للبرنس « دولغوروى » Dolgorouki : « لماذا يحارب بنى الامبراطور اسكندر ؟ ماذا يريد منى ؟ ما عليه الا أن يوسع حدود مملكته من جهة ممالك جيرانه لاسيما الترك وحينئذ يرى أن ليس بيننا وبينه خلاف »

ولما انتصر نابليون فى وقعة « اوسترليتز » الشهيرة (٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥) عقد اتفاقاً مع بروسية تقرر فيه سلامة أملاك السلطنة العثمانية .

وأغرى نابليون الترك بمحاربة الروس فأذنوهم بحربهم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٠٦ وهزموهم وبعد ذلك رضى الامبراطور اسكندر بتدخل فرنسا فى الصلح بين الروسية وتركيا

وكتب نابليون من قارشوفا الى مجلس السنات فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٧ يقول لهم : « إذا سقطت مملكة القسطنطينية لم يمكن أحداً أن يعرف مايتبع ذلك من المصائب والحروب . . . وان ارتفع تاج هذه البلدة على رأس يملك من البلطيك الى البحر المتوسط لم يبعد أن نجد أقواماً من البرابرة هاجمين على فرنسا من جهة البحر » يعنى بذلك الروس غير ان نابليون برغم هذه العبارات لو علم أنه يخرج بشقص يرضيه من انقراض السلطنة العثمانية لما كان يأبى الموافقة على قسمتها

وكتب تاليران فى ٢٧ يناير سنة ١٨٠٧ الى سفير فرنسا فى فيينا يقول له ان عقدة

العقد كلها هي تركيا وانه من الواجب المحافظة على وجودها الى أن نرى امكان حفظها بأجمعها مستحيلا فيجب حينئذ الاتفاق بين النمسا وفرنسا على قضية تقسيم انقاضها ثم انه بعد معركة « فريدلاند » وغلبة نابليون على الجميع تلاقى مع اسكندر في ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٧ في نهر « نيمون » بقرب « تيلسيت » وحضر الاجتماع فريدريك ويلهلم ملك بروسيا ومعه وزير خارجيته البرنس « دوهاردنبرغ » فكانت بروسيا هي التي اقترحت تقسيم تركيا وذلك على ان الروسية تأخذ قسما من الفلاخ والبغدان وبلغاريا والروملى مع البواغيز واوستريا تأخذ دالماسيا وبوسنه وصربيا وفرنسة تأخذ بلاد اليونان والجزر وان بولونيا تصير تحت تاج ملك الساكس ومملكة الساكس تؤول الى بروسيا وقدرضى نابليون وقتئذ بصيرورة رومانيا وبلغاريا الى الروسية الا انه أراد توسيع حصة فرنسة باضافة البانيا أو بوسنة الى بلاد اليونان التي ستكون لفرنسة . وفي ٧ يوليو سنة ١٨٠٧ انعقدت ثلاث معاهدات وتقرر خروج العساكر الروسية من رومانيا الا ان نابليون قال لاسكندر الأول انه لا ينبغي له أن يكثر هذه المسئلة واتفق معه على مقاسمة سرية هذا نصها :

« ان كان الباب العالى لم يقبل وساطة فرنسة أو قبلها ومضت ثلاثة أشهر على المفاوضات ولم تأت بنتيجة حسنة تتفق فرنسة مع الروسية وتخلصان من يد تركيا جميع ولاياتها الأوربية مستثنى من ذلك الاستانة وولاية الروملى (١)

وفي أثناء ذلك مات السلطان سليم الثالث حليف نابليون فقال هذا لامبراطور الروسية : « هذا ائذان لى من الله بأنى صرت فى حِلٍّ من معاهدتى مع تركيا التي أصبحت لاتقدر على البقاء » وأرسل تهديداً بواسطة ناظر الخارجية الى الباب العالى فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٠٧ مآله انه ان كانت تركيا صالحت انكثرة وانفصلت عن فرنسة فقد بحثت عن حثفها بظلفها ويعود الامبراطور (أى نابليون) ويقبل التقسيم الذى عُرِض عليه فى تيلسيت وتنتهى حياة تركيا

وأرسل اسكندر الاول الى الكونت « تولستوى » سفيره فى باريز يطلب بساراييا والفلاخ والبغدان وقلاع بنسدر واكرمان وكيليا واسماعيل وهوتين وساحلا من الساحل

(١) هذا قريب مما هي الحالة اليوم

الشرق من البحر الأسود وان تؤسس امارة لصربيا ونقل « سافارى » سفير فرنسا في بطرسبرج عن اسكندر الأول انه قال له :

« ان الامبراطور قد بدأ يعرف ان بقاء الترك في أوربة مستحيل وانه ان كان لابد من سقوط سلطنتهم في أوربة فالروسية يجب أن ترث قسما منها . وهذا ما فهمته منه في أثناء كلامي معه فانا ما ذكره الا بوعده »

ثم ان سفير الخارجية الروسية « روميا نيزوف » قال لسافارى سفير فرنسا « ان السرعة في العمل أصبحت متحتمة ويجوز ان تسقط السلطنة العثمانية من نفسها بدون هزاهز فتوجد بازاء انقاضها شئنا أم أينا »

وكان نابليون لا يزال متردداً في الموضوع خائفاً من أنه اذا اسقطت السلطنة العثمانية تقوى الروسية كثيراً وتستفيد انكثرة من تلك الفرصة فتستولى على مصر

وكان يجتهد في اقناع الروسية بعدم التهافت على هذا المشروع وكتب مرة الى الجنرال « كولنكوره » Colaincourt الذي خلف « سافارى » في سفارة فرنسا في بطرسبورج يقول له : « ان مراده بقاء السلطنة العثمانية كما هي وان تكون عائشة في سلام مع الروسية وفرنسة ويكون للترك القلاع التي على الدانوب مثل اسمايل . ولكن ان كانوا في بطرسبرج مستعجلين كثيراً في هذا المشروع فانه لا يعاكسهم فيه غير أنه يؤثر ان تقع قسمة السلطنة العثمانية بين الروسية وفرنسة لا غير وذلك بموجب اتفاق من قبل »

ثم ان نابليون كان يبعث الى القيصر اسكندر بأنه هو لا يخلى البلاد التي يحتلها من بروسية الا اذا اخلت الروسية الفلاخ والبغدان

وكان نابليون يقترح على قيصر الروسية ثلاثة وجوه أحدها أن يخلى الروس الفلاخ والبغدان وبمقابلة ذلك يخلى الفرنسيين ما احتلوه من أراضي بروسية . الثاني أن يأخذ الروس هذه الولايات الرومانية وتأخذ فرنسا في مقابلتها ولاية سيليزيا من بروسية الثالث أن يجري تقاسم السلطنة العثمانية على وجه تعرف فيه فرنسا من قبل ماذا سيخرج في نصيبها ؟

اما اسكندر الأول فكان لا يسمح لنابليون بتمزيق بروسية . وكان يبعث الى نابليون بأنه ان كان أخذ الروسية للفلاخ والبغدان يستلزم ان يكون العوض عنه من ملك بروسية فانه يقلع عنه ولا يرضى بمبادلة كهذه ولو كان البدل هو سلطنة آل عثمان كلها

وكان اسكندر الأول يعرض على نابليون بمقابلة سيليزيا ولايات عثمانية مثل الموره والباليا ولكن نابليون كان متمسكاً بسيليزيا . وكان معظم سبب خوف اسكندر من بقاء الفرنسيين في سيليزيا انه يتقى جوارهم للروسية وأرسل الى نابليون قائلاً له : « انت قلت لى ان تجاور الدول الكبرى غير مستحب لأنه يؤدي الى النزاع »

وكان نابليون يوصى سفراءه في بطرسبوج بأن لا يقطعوا أمل الروس من تقسيم سلطنة آل عثمان لكن يجتهدوا ان يعلموا ماذا سيكون نصيب فرنسة من هذه القسمة وأخيراً أرسل الى الروس يقول لهم انه يؤثر تأخير هذا المشروع الى مابعد صلحه مع الانكليز أو الى مابعد نزعه من أيديهم السيادة على البحر المتوسط لأنه ان وقع هذا التقسيم وهم على ما هم عليه من سيادة هذا البحر كانوا هم المستأثرين بانفس اسلاب السلطنة العثمانية

وقد أشار نابليون الى هذا المعنى في كتاب شهر حرره الى القيصر اسكندر في ٢ فبراير سنة ١٨٠٨ يعرض عليه اقتسام سلطنة آل عثمان وهدم دولة الانكليز في الهند ويقول له انه يحسن إغزاء جيش مؤلف من ٥٠ ألف جندي افرنسي وروسى ونمسوى يزحف الى القسطنطينية فيأخذها ويتقدم صوب الفرات فهو لا يصل الى هناك حتى ترجف انكلترة خوفا فترضى بالصلح . وطلب نابليون من اسكندر المواجهة لعقد هذا التدير

ولكن اسكندر كان يأبى الاجل نابليون على اخلاء سيليزيا . وكان يقول ان في يد فرنسة بلداناً مثل « هانوفر » و « البرتغال » و « اتوريا » (من ايطالية) هي كافية للتعويض من الفلاخ والبغدان اللتين يقدر اسكندر أن ينتزعهما من تركيا بدون رضى نابليون اذا شاء

وقيل ان نابليون رضى احدى المرار بأن يعطى استانبول للروسية زاعماً انه يبعدها الى آسية . ولكن هذا لا ينطبق على تصريحاته المتعددة بشأن أهمية الاستانة . وذهب المسيو « فندال » الى أنه ان كان ثبت ان نابليون رضى باستيلاء الروسية على القسطنطينية فيكون على شرط ان لا يكون لها الا البلدة ومضيق البوسفور فقط وان يكون مضيق الدردنيل بيد فرنسة وفي سنة ١٨٠٨ كان هناك برنامجان أحدهما فرنسوى والآخر روسى . فالبرنامج الفرنسوى كان يعطى فرنسة جميع سواحل الادرياتيك واليونان الى سلانيك مع هذه

البلدة . أما الروسى فكان يعطى الروسية الامارات الرومانية وقسما من صربيا الى نهر المريج الى البحر الرومى مع ساحل مرمره الأوربى مع القسطنطينية وبعض سواحلها الآسيوية . ويبقى للترك ساحل مرمره الآسيوى . وأما أوستريا فيكون لها الأراضى الواقعة بين حصتى فرنسة والروسية بحيث هاتان الحستان لاتماسان . ويكون لفرنسة الخيار فى تحديد حدود حصتها مع أوستريا سواء كان فى بوسنة او مكدونيه او كرواسية . ثم يؤول الى فرنسة عدا سلانيك وبلاد اليونان والبانيا جزائر الارخبيل ومصر وسورية والسواحل الغربية من الاناضول (برالقرمان

وبرغم هذا كله بقى نابليون يرضى على الروسية ببلدة القسطنطينية والدردييل الى أن رضى اسكندر الأول بجعل القسطنطينية مدينة حرة . وهى فكرة طالما اقترحها الصحفيون فى القرن التاسع عشر

قال «دجوفارا» الرومانى صاحب كتاب «مائة مشروع تقسيم لتركيا» : «تأمل فى القسطنطينية مدينة حرة محاطة من كل جانب بمملكة عظيمة تعمل للسيادة على الشرق بأسره»

ثم قال : «ان الروسية لم تفتأ فى كل فرصة تعمل للوصول الى القسطنطينية وقد جرى محاورة بين ناظر الخارجية الروسية رومانيتزوف وسفير فرنسة كالنكور قال فيها الناظر ما يلى ملخصاً : —

« كانت فرنسة تتوق دائماً الى الاستيلاء على مصر وفى أيام كاترينا الثانية سمحت لنا بأخذ القسطنطينية على شريطة أن نسمح لها بأخذ مصر . وفى الملاقاة التى جرت بتيلسيت تقرر أن نأخذ نحن الفلاخ والبغدان وبلغاريا وتأخذ فرنسة البانيا واقريطش . وأما أوستريا فلم تعمل شيئاً لناخذ مكافأة . ولكننا نرى أن لا بأس بالاستعانة بها فلتأخذ كرواسيا أو فليجلس ارشيدوق نمسوى على كرسى امارة الصرب . اتنا نحن لانبغى الاستانة الا بمقتضى جغرافية البحر الاسود الذى هو بحرنا »

وفى مجلس آخر وقع بين هذا الناظر وهذا السفير كلام فقال الناظر للسفير : « يمكن فرنسة أن تأخذ عدا البانيا والمورة والارخبيل مصر وسورية . أما نحن فلا نبغى الا الفلاخ والبغدان وبلغاريا وصربيا . وأما أوستريا فتأخذ كرواسيا وقسما من بوسنة »

فقال له السفير : «أرى حستكم ازدادت عما كانت في مجلسنا الأول فاذا كان هذا هو المنهج فاني أراكم آكلين كل شيء» . فقال الناظر الروسي : «لنتكلم عن القسطنطينية انه ان كان لا مناص من تقسيم تام لتركيا فهذه المدينة مع مضيق البوسفور والدردينيل يجب أن تكون لنا . وتكون الصرب يومئذ لاوستريا مع الروملى وقسم من مكدونيه لتفصل بيننا وبينكم . وأتم الفرنسيس يبقى لكم قسم من مكدونيه وقسم من الروملى ومعهم مصر وسورية» . فقال السفير : «ان هذه القسمة لضيضى والقسطنطينية وحدها أحسن من كل ما تعرضونه في أوربة وأنا لا أرى سهلا فتح القسطنطينية لكن لنفرضه ممكننا فلا أرى موافقا أن يكون الدردنيل في يد الدولة التي تملك الاستانة» . فقال الناظر : «لمن يكون الدردنيل اذا؟» فقال السفير : «يكون لفرنسة» . فقال الناظر : «اذا كنتم تأبون الا الدردنيل فيجب أن تكون صربيا لنا» . فقال السفير : «وماذا تبغون لاوستريا ؟ ان الجغرافية تأبى أن تجعل صربيا لكم»

وأما اسكندر الأول فلم يكن يرضى باعطاء الدردنيل الى فرنسة وقال لكونسكور : «أنا لاأريد أن أصير الى جوار أصعب على من مجاورة الترك . فالروسية تريد القسطنطينية مع الدردنيل»

وكتب كونسكور الى نابليون في ١٦ مارس سنة ١٨٠٨ يقول له : «لنفرض انك ضمنت ايطالية واسبانية الى فرنسة وقلبت الدول واشترطت معاونة الاسطول الروسى في البحر الاسود وقسم من الجيش البرى في فتح مصر ونلت جميع التأمينات اللازمة وعملت جميع مائشاء من المعاضات مع اوستريا فان الروسية اذا صارت الى يدها الاستانة والدردنيل عملت فيما بعد كل ما تريد»

وفي ذلك الوقت كتب السلطان كتاباً خاصاً الى نابليون يستمدّه فيه أن يحافظ على سلامة السلطنة العثمانية . فأخذ نابليون يشوق الامبراطور اسكندر في التبسط الى جهة الشمال وهذا استولت الروسية على فنلاند . وبقى الخلاف مشتداً بين الروسية وفرنسة على حيازة الدردنيل . وأخيراً تحررت اقتراحات بالكتابة فكانت اقتراحات الروسية مايلي :— ان كان الاتفاق على محالفة بسيطة يكون للروسية بسارايبا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ولفرنسة البانيا وقسم من بوسنه والمورة واقريطش . ولاوستريا قسم من بوسنه

مع كرواسيا. وتصير صربيا اماره مستقله يليها ارشيدوق نمسوى متزوج بغيراندوقه روسيه»
«وان كان الاتفاق على تقسيم السلطنة العثمانية فالروسية تأخذ الفلاخ والبغدان
و بساراييا و بلغاريا وقسما من الروملى الى نهر المريج . وفرنسة تأخذ بوسنه والبانيا والموره
واقريطش وقبرص وروودس وجميع جزر الارخبيل وازمير وسواحل الشرق الأدنى وسوريه
ومصر . واوستريا تأخذ الصرب ومكدونية الى البحر الاسلانيك وما تبعها مما يجب أن يبقى
لفرنسة . وكرواسيا تكون لاوستريا أو لفرنسة. والدول الثلاث يشتركن في حجة على الهند»
وكان كولنسكور سفير فرنسة في بطرسبورج يبدى اعتراضات ويحتفظ في الأمور
الآتية ١ قضية استيلاء الروس على القسطنطينية ٢ ضرورة استيلاء فرنسة على الدردنيل
٣ تأسيس حكومة مستقله في الاستانة ٤ وجوب اشتراك الروسية في الحجة التي ستساق على
مصر وسوريه وتأخذ عوضاً عن ذلك بلادا مما يلي طرابزون

وفي ١٠ مارس سنة ١٨٠٨ انعقدت الجلسة الخامسة بينهم فاعلن ناظر الخارجية
الروسية روميانزوف أن الروسية مصرة على أخذ الاستانة والدردنيل معاً . فالسفير
كولنسكور لم يسعه الا أن يترك الشاطيء الأوربي من الدردنيل مع بقاء الشاطيء الآسيوى
لفرنسة . وقد رفض ناظر الخارجية الروسية اشتراك الروس في الحجة على مصر وسوريه الا
اذا كانت نفقات الاسطول الروسى على فرنسة

ولما اشتدت صعوبات التقسيم رغب الامبراطور اسكندر في مقابلة نابليون . وبقي
كولنسكور يعارض في استيلاء الروسية على القسطنطينية والدردنيل ويكتب الى نابليون
مخوفاً اياه من عواقب وجود الروسية في القسطنطينية ويدها تلك المضايق

وفي ٢٤ يونيو ١٨٠٨ جرى بين الامبراطور اسكندر الأول وسفير فرنسة المحاورة
التالية :

الامبراطور — القسطنطينية بعد خروج الترك منها لا تكون الا مدينة متطرفة
والجغرافية تقضى بوجودها بيدى لانها ان كانت بيد غيرى لا أكون حراً في منزلى بعكس
غيرى الذى لا تهمه . فالقسطنطينية مفتاح بيتى والامبراطور (يعنى نابليون) لا يقدر أن
ينكر ذلك .

السفير — الا أن هذا المفتاح هو مفتاح تولون وكورفو ومفتاح تجارة العالم .
الامبراطور — يمكننا الاتفاق على أن هذا الممر يبقى حراً للتجارة ولا يجوز سدّه

بوقت من الأوقات .

السفير — لو كان ملك جلالته دائماً لما كان لنا شبهة في هذه التأمينات ولمن قد يأتي امبراطور للروسية لا يدون حليفاً لفرنسة ... فاذا كان لا بد من مجارة الوزير روميانزوف لا يبقى قوة في الشرق الا للروسية ويختل التوازن الذي هو ضروري لحفظ السلام . فالدرديل أو الاستانة نفسها في يد فرنسة لا محذور منهما اذ هما بعيدتان عن فرنسة وأما في يد الروسية فهما قوة هائلة . اهـ

هذا وبينما كانت الروسية وفرنسة تتنازعان على هذه القسمة وكل منهما تشد من جهتها اذ جدت حوادث ذات بال في تركيا واسبانية وأوستريا وكثرت المشكلات على نابليون قال الى التساهل وأرسل الى سفيره كالنكور بانه حاضر لاخلاء البلاد التي يحتلها من بروسية بدون مطالبة الروسية باخلاء الفلاخ والبغدان

ثم تقرر أن الامبراطورين يلتقيان في ارفور Erfurt (من الساكس) وقد وصل اليها نابليون في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ ووصل اسكندر وأقاما بها ١٨ يوماً . وابتدأت المفاوضات في ٢٩ سبتمبر وتقرر أن الامبراطور نابليون يرضى بأن الفلاخ والبغدان تصيران ملكاً للروسية ويصير الدانوب هو الحد الفاصل . ولكن اشترط حفظ هذا السر مؤقتاً وعدم القيام بحركات عسكرية الى ١ يناير سنة ١٨٠٩

ثم تقرر بين الامبراطورين انه ان وجدت صعوبات لم تتمهد بينهما يعودان فيلتقيان مرة ثانية وأما من جهة سائر أملاك تركيا أي ما عدا الفلاخ والبغدان فتقرر بينهما عدم البت في شيء بدون اتفاق سابق

ورجع الامبراطور اسكندر غير راضٍ باطناً من الامبراطور نابليون وصار يتربص به الدوائر . ولما انكسر جيش نابليون في « اسلينغ » Essling (١) كان أول شامت به الامبراطور اسكندر وبلغ هذا نابليون فخذ عليه . ثم في سنة ١٨١٠ حاول نابليون أن يتزوج بالغراندوقة الروسية حنة بافلوفنا فامتنع الامبراطور اسكندر عن مصاهرته وتزوج نابليون بابنة امبراطور النمسا ماري لويزة وكان بذلك انتهاء الصداقة بين نابليون واسكندر ثم جاءت بعدها الحرب بينهما

ثم المشروع السادس والستون من تقسيم تركيا المنسوب الى « ميترنيخ »

(١) في حرب مع أوستريا

Metternich وتاريخه ١٨٠٨

قال دجوفارا : ليس هنا محل ميتريخ وزير أوستريا الشهير الذي قضى حياته يجتهد في تثبيت تركيا كما هو معلوم الا أنه اضطر في آخر الأمر أن يلقي دلوه في الدلاء من جهة هذه المسئلة

وكان ميتريخ يقول : « ان وجود السلطنة العثمانية والمحافظة عليها وان كان فيهما كثير من المخالفة للمدنية المسيحية فهما خير لأوربة »

وكان ميتريخ ممن ساعد انكلترة على منع استيلاء فرنسة على وادى النيل . وكان يشهد للباب العالي بحسن المحافظة على المعاهدات ويقول ان متاخة تركيا كمتاخة البحر لا تتغير بها الحدود بل تبقى على وتيرة واحدة . وكان اذ فكر في استحالة بقاء السلطنة العثمانية وانه لا بد من أن تحل في الاستانة دولة مسيحية يقول : « ان تلك الدولة ستكون حليفة للنمسا » يعنى بذلك أن الدولة المسيحية التي ستتولى القسطنطينية استثنافاً ستكون اليونان أو البلغار

وقال تاليران لميتريخ في ١٨ يناير سنة ١٨٠٨ ما يأتى :

« ان الامبراطور (أى نابليون) يفكر في مشروعين أحدهما مؤسس على قواعد صحيحة والثانى هو من باب القصص والخيال . فالأول هو تقسيم تركيا . والثانى هو غزو الهند . وعلى كل حال ففرنسة والروسية ينويان اقتسام تركيا » فأظهر ميتريخ لتاليران عدم ارتياحه لمشروع تقسيم تركيا . وقال له : « اننا نحن أصح حكماً في مسائل تركيا لأننا نحكم فيها بدون ضلع ولأننا بناءً على ذلك نبغى بقاءها أما الروس فيرون تركيا بنظارات يونانية والنظارات في العادة لا تصلح للسياسة . واني لأؤكد لك أن فتح تركيا يكلف ثلاثمائة ألف جندي قتلاً وموتاً بالأمراض وانه تمضى بعد ذلك ثلاثون سنة على تلك البلدان ولا تكون لمت شعشها ولا عرفت المدنية تحت أى حكم كان »

ثم سأل ميتريخ تاليران عن كيفية تقسيم تركيا ؟ فقال له تاليران : « المورة والجزر ومصر توافقنا (أى الفرنسيين) وأتم يلزم لكم وادى الدانوب وبوسنه وبلغاريا . ولولا كون الروس في القريم لكانت القسطنطينية أولى بأن تكون لكم ولكنهم هم الآن أولى بها منكم » .

وكان تاليران سفيراً للنمسا في باريس فكتب الى حكومته قائلاً : « لا نقدر أن ننقد تركيا فلنجهتهد أن نستأثر منها بالنصيب الأوفر »

ثم بعد هذا الحديث مع تاليران بثلاثة أيام تلاقى ميترنيخ مع نابليون . فقال له الامبراطور : « ما صرتم تحبون بقاء تركيا الا من بعد أن صارت الى حالة العدم التام » ثم صرح نابليون بأنه هو أيضاً يريد بقاء تركيا لولا عداوة الانكليز له فهو يريد مهاجمة الانكليز أينما كانوا

ثم بدر من نابليون كلام يظهر منه أنه مقتنع باستيلاء الروس على استانبول وقال لميترنيخ : « متى صار الروس في استانبول لم يكن لكم غنى عن فرنسة لتساعدكم في وجه الروسية . والذي أراه هو ان نكون معكم متفقين في مسألة تقسيم تركيا . نعم لا ينبغي أن تكتب الى حكومتك أن التقسيم تقرر لكن ينبغي أن تكتب أنه متى تقرر تكون أوستريا معنا لندافع عن مصالحنا ومصالحها معاً فانتم لكم ادعاءات صحيحة وجغرافية على وادي الطونة . وهذه الادعاءات هي التي لها دائماً القيمة الحقيقية »

فاجابه ميترنيخ قائلاً : « اذا كانت فرنسة ستترك صديقتها القديمة تركيا فنحن لا نقدر وحدنا أن نحميها »

ثم سأل ميترنيخ حكومته عن المشروع فجاءه الجواب بالسلب وأبلغه الى الحكومة الفرنسية وكان معناه : « أنه لن يجد الامبراطور عملاً أخسراً وأوجب للندم من الموافقة على هدم تركيا . وان تقسيم تركيا يمكن اذا كان انهيارها أمراً واقعاً ولكن الحالة ليست كذلك » .

وأما تاليران فقال لميترنيخ انه هو شخصياً ضد فكرة تقسيم تركيا ولكن الامبراطور مصمم عليه . فسأل ميترنيخ سفير الروسية في باريس عما يعلمه عن هذه القضية فأجابه الكونت تولستوى : « نعم ان الكلام قد دار بين نابليون واسكندر على هذا التقسيم وانه ان كان لا مفر من سقوط تركيا فينبغي الاتفاق على اقتسامها »

وفي سنة ١٨١٠ كان ميترنيخ يقول : ان مركزنا منيع جداً لأن الجهات كلها تطلب عضدنا . وبالأجلال كان ميترنيخ ضد فكرة تقسيم تركيا الا أنه كان يرى أنه ان حُمّ أجل هذه الدولة ينبغي أن تقوم مقامها دولة مسيحية صديقة لاوستريا

ثم المشروع السابع والستون وهو المنسوب الى « دوتريف » D'hauterive وتاريخه

سنة ١٨٠٨

وكان « دوتريف » من أنصار سياسة تاليران وممن يرون الضرر كل الضرر في دخول نابليون في تقسيم السلطنة التركية وكتب للإمبراطور تقريراً ١٥ صفحة عن عواقب هذا التقسيم المشؤومة . الا أنه اذا كان هذا الأمر لا بد منه فهو يشير بقسمة شبه جزيرة البلقان الى نصفين من الشمال الى الجنوب فيكون النصف الشرقي مع القسطنطينية والدرديل نصيب الروسية . ويكون النصف الغربي مقسماً بين فرنسة وأستريا . وتختص بفرنسة الجزر ومصر . ثم ان هذا المشروع يبلغ الى انكثرة لعلها تنجح للسلم وتريح العالم وبعد هذا التقرير اقترح تاليران على دوتريف تقريراً ثانياً قبل ذهابه الى « ارفور » في أثناء تلاقى الإمبراطورين نابليون واسكندر . فكتب دوتريف تقريراً قال فيه ان تقسيم تركيا وغزوا الهند آتيان لا محالة لكنه يجب تأخيرهما بقدر الاستطاعة غير أن الاتفاق بين الإمبراطورين لم يتم وكان لتاليران اليد الطولى في ذلك لأنه كان يعمل دائماً لابعاد فرنسة عن الروسية

ثم المشروع الثامن والستون المنسوب « لبوزودى بورغو » Pozo di Porgo

وتاريخه سنة ١٨٠٩

وكان هذا الرجل من كورسيكا وقضى حياته عدواً لنابليون خدام الروسية وبروسية وانكثرة واوستريا في جميع سياساتها العائدة لاسقاط بوناپرت . وكان لهذا الرجل مشروع خاص به في تقسيم تركيا ما آله ان الروسية يكون لها بسارابيا والفلاخ والبغدان وبلغاريا . ويكون لفرنسة البانيا وتساليا والموره وكريد . ويكون للنمسا بوسنه وصربيا . ويبقى لتركيا القسطنطينية مع الروملى

وقد روى « دومنتون باك » De Menthon bake بناء على تأكيد السير « روبرت آدير » Robert Adair سفير انكثرة في فيينا ان الإمبراطور اسكندر الأول قد وافق على هذا المشروع . وفي هذا القول نظر لمخالفته لكل ما سبق . ومما رواه « دومنتون باك » ان الإمبراطور نقولا الأول قال : « انى لا أريد الاستانة وأنا من ملكي الواسع في غنى عنها . ولكنى على ثقة بأن هذه المدينة صائرة الى أو الى أولادى في أحد

الايام . وانه لاهون أن يمنع الناس انحدار شلال من جبل من منع الروس أن يصلوا الى البواغيز »

ومن غريب التكهّنات ان « بوزودوبورغو » هذا كتب سنة ١٨٠٦ « ان المشاة والمدفعية الفرنسيين سيقاثلون الروس جنباً الى جنب مع خيالة الأتراك ». ولقد وقع هذا في حرب القريم بعد هذا القول بنصف قرن

ثم المشروع التاسع والستون المنسوب الى « دوفو » Dufau وتاريخه سنة ١٨٢٢ وكان « دوفو » كاتباً افرنسياً أشار بوجوب رئاسة فرنسة على عصبة أوربية تقف في وجهه الروس . وقال انه يجب لذلك تعزيز السويد واعادة دولة بولونيا . أما تركيا فقال انها يجب أن تنقسم بين دول أوربة واليونان فتكون سلطنة يونانية تحت حاية الروس فاصلة بين هؤلاء والنمسيين . ويكون للنمسا صربيا والبانيا وتتأسس امارات يونانية في يانيا والموره الخ وتعطى كريد مع الجزر كورفو واخوانها الى انكثرة وتكون جمهورية جزر في الارخبيل

ثم المشروع السبعون وصاحبه « دوكابوديسترياس » De Capodistrias وتاريخه سنة ١٨٢٨

وكان هذا الرجل يونانياً مولوداً في جزيرة كورفو خدم الروس عندما بسطوا حمايتهم على تلك الجزر وبقي يتقلب في المناصب السياسية عندهم الى أن استقلت بلاد اليونان فانتخب رئيساً لحكومة اليونان سنة ١٨٢٧ ولم تطل المدة حتى نقم عليه الأهالي ونشبت حرب داخلية وأخيراً فتك بعضهم بكابوديسترياس سنة ١٨٣١

ولما انعقد مؤتمر فينّا الدولي سنة ١٨١٥ قدمت الروسية الى ذلك المؤتمر احتجاجاً على أعمال الأتراك القاسية في صربيا لكن المؤتمر لم يطل النظر في هذه المسئلة وسنة ١٨٢١ توسطت الروسية لدى الباب العالي في أمر اليونان وطلبت رفع الجور عنهم ولما لم تقترن هذه الوساطة بنتيجة أعلنت الروسية الحرب على تركيا وظهرت عليها في تلك الحرب واجبرتها على عقد معاهدة أدرنه . وكانت الروسية هذه المرة لا تطالب بنزع عقد السلطنة العثمانية كالعادة وكان ناظر خارجيتها يقول : « لا شيء أنفع لنا من مجاورة دولة ضعيفة كهذه » فكانت في هذه النوبة متفقة مع النمسا على عدم التقسيم

وكان « كابوديستيرياس » وقتئذٍ رئيساً لحكومة يونان فقدم الى الامبراطور نقولا تقريراً في ٣١ مارس سنة ١٨٢٨ يقترح فيه التشكيلات الآتية :

- (١) مملكة للفلاخ والبغدان مستقلة (٢) مملكة ثانية مؤلفة من صربيا وبلغاريا وبوسنه (٣) مملكة ثالثة مركبة من تراقيا ومقدونية والجزر التي أمامها في الأرخبيل (٤) مملكة مشتملة على ايروس والبانيا (٥) مملكة مركبة من بلاد اليونان والجزر (٦) القسطنطينية مدنية حرة ومركز لهذه الممالك الخمس المرتبطة

ولقد أعيد البحث في برنامج كهذا سنة ١٨٥٣ . وان كان « كابوديستيرياس » لم يطلب ضم مقدونية وتراقيا الى بلاد اليونان فقد اعتاض من ذلك باقتراح خمس ممالك ثلاث منها يونانية لحفظ الأكرية في العاصمة لقومه . وقد أمر الامبراطور نقولا بتأليف لجنة للبحث في اقتراحات الرئيس اليوناني مؤلفة من البرنس « كوتشوبي » والمسيو « داشكوث » و « بوزودي بورغو » فقرروا بالاتفاق ان استقواء السلطنة العثمانية أولى وأقل ضرراً من القضاء عليها وغاية مافي الأمر انه يجب عقد صلح شريف معها . فانعقد الصلح في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩

ثم المشروع الواحد والسبعون وصاحبه المطران « دو براد » De Pradt وتاريخه ١٨٢٨

وكان هذا المطران سفيراً لفرنسة في بولونيا وقد كتب سنة ١٨٢٨ كتاباً استجلب فيه نظر دول أوربة الى الاكتراث للخطر السلافي . وقال ان لأوربة سيدين أحدهما بحري وهو انكلترة والآخر بري وهو الروسية . وتذكر كلمة نابليون وهي : « من الآن الى ٥٠ سنة تكون أوربة اما قوزاقاً أو جمهورية »

قال « دجوقارا » كل التكهنات لاتصح ولو تكهنها عبقرى كبير مثل نابليون . قلت : قد مضى على هذا الكلام نحو من ١٢٠ سنة ولم تتحول أوربة قوزاقاً ولا صارت كلها جمهوريات بل صارت نفس الروسية جمهورية . واية جمهورية ! جمهورية شيوعية أما « دو براد » فكان برنامج الاستعانة لصد خطر السلافت باليونان لالترك وان هؤلاء تكون لهم السيادة التي للترك في البلقان . ونسى حضرة الاسقف الجليل رومانيا وبلغاريا وصربيا والبانيا الخ كأن كل هذه لم تكن

ثم المشروع الثاني والسبعون وصاحبه افرنسى مجهول وتاريخه ١٨٢٨
ومحرر هذا البرنامج معتقد انه لامناص من زوال تركيا وانه يخشى من استئثار
الروسية بالقسطنطينية واستيلائها على المشرق . فلذلك هو يقترح اعطاء النمسا بلاد البلقان
والصرب وبوسنه وكرواتيا والباينا العليا على أن تعطى النمسا الى ايطالية الولايات التي
أهلها طليان من بلاد النمسا . ثم يقترح اعطاء عائلة سافواى بلاد لومبارديا والبندقية وپارم
ومودين . وبمقابلة ذلك تتخلى مملكة سافواى عن صردانية لفرنسة . ثم يقترح تأسيس
مملكة اسمها مملكة البوسفور مركبة من الاستانة والروملى ومقدونية وشواطىء البوسفور
وتكون هذه المملكة تحت تكافل جميع أوربة ويكون المرور بالبواغيز حراً وبدون
دفع رسوم . وملك الاستانة يكون دوق مودين . وأما الروسية فيكون لها الفلاخ والبغدان
فقط

ثم المشروع الثالث والسبعون وصاحبه « دبولينياك » De Polignac وتاريخه

١٨٢٩

وكان هذا من نظار دولة فرنسة تولى نظارة الخارجية ورئاسة الوزراء وفي أيامه ساد
الاعتقاد بأن تركيا مُنْهَارَةٌ لاحالة ولذلك حرر ميتريخ وزير النمسا برنامج تقسيم لتركيا
قدمه الى بطرسبرج وبرلين وخشية أن تتفق فرنسة مع الروسية أخرج فرنسة بلا حصة .
فأسرع امبراطور الروسية باطلاع فرنسة على اقتراح النمسا وردَّ هذا الاقتراح بتاتاً .

وكان « نسيروود » وزير الخارجية الروسية أرسل سؤالاً باسم الامبراطور الى جميع
الدول وذلك سنة ١٨٢١ يسأل كلاً منها رأيها في كيفية تقسيم سلطنة آل عثمان . وكان
معنى ذلك اظهاره الرغبة في القضاء عليها . فأجابت فرنسة بطلب برنامج هذا التقسيم من
الروسية في ضمن معاهدة . فامتنع القيصر عن اعطاء ذلك . ثم مات القيصر اسكندر وخلفه
القيصر نقولا . وكان شاتوبريان الكاتب الشهير مديراً لزامم الخارجية الافرنسية وكان
هواه مع الروسية فأرسل الى القيصر يقول له : « اذا شئت الذهاب الى الاستانة فادخل مع
الدول المسيحية في قسمة عادلة لتركية أوربا »

ولما كان بولينياك في وزارة فرنسة سنة ١٨٢٩ وبلغه اقتراح أوستريا تقسيم تركيا
بدون انصاف فرنسة عهد الى الميسو « بوالوكونت » Bois-le-Comte مدير الأمور السياسية

في الخارجية بتحرير لأتحة في هذا الموضوع . فخر هذا لأتحة مؤداها أنه ما من دولة ترضى باستيلاء الروس على الاستانة والبواغيز . ولذلك يجب تأسيس دولة مسيحية في القسطنطينية وان تُرضى الروسية بالفلاخ والبغدان وبارمينية وطرابزون . وتُرضى بروسية بالساكس وهولاندة وان تكون المستعمرات الهولاندية لانكلتره وان يرسل ملك هولاندة ملكاً على القسطنطينية وان تخرج أوستريا من اسلاب تركيا ببوسنه وكرواسيا ودالماسيا والهرسك . وأما فرنسة فتأخذ بلجيكا ولوكسمبورغ والالزاس واللورين وقسماً من هولاندة

وبعد أن تذاكر مجلس نظار فرنسة مدة ثمانية أيام في هذا المشروع صدقه وأرسل بولينيكا الى الروسية يسألها رأيها فيه . ولكن كانت الروسية اذ ذاك قد قررت الصلح مع تركيا . فحبط هذا المشروع واعتاضت فرنسة بفتح جزائر الغرب في أيام كارلس العاشر واغد ثبت أن بروسية اعترضت على برنامج بولينيكا هذا وأبلغت اعتراضها عليه الى باريز وبطرسبرج . وقد كان لهذا المشروع أعظم نصيب من انتقاد المؤرخين حتى الفرنسيين منهم وقالوا : « لو لم توجد وثائقه في أوراق نظارة الخارجية لما كان الانسان يصدق أن حكومة فرنسة تقترحه . وقالوا انه لو بوشر بشر به لأدّى الى حرب عامة »

وكتب الكولونل « روتيه » Rottiers سنة ١٨٢٩ في « رحلة من تفليس الى القسطنطينية » الجلة التالية :

« لقد بينت مراراً الضلالات الشنيعة التي يبني عليها بعضهم برامج استئصال جميع المسلمين أو اجبارهم على الجلاء »

ثم المشروع الرابع والسبعون وصاحبه الجنرال « دوريشمون » De Richemont وتاريخه سنة ١٨٢٩

وكان هذا من نواب البرلمان الافرنسي واقتراحه هو أن تأخذ الروسية الاستانة وان تأخذ اوستريا البانيا العليا وصربيا وبوسنة وتنزل عن سيليزيا لبروسية . وان تأخذ بروسية ماعدا سيليزيا مملكة الساكس ونصف هنوفر . وتأخذ هولاندة النصف الثاني من هنوفر . وتأخذ باقاريا بلاد سالزبورغ . وتأخذ انكلتره جزيرة كريد . ويكون نصيب فرنسة بلاد الرين ولوكسمبورغ وبلجيكا

ثم المشروع الخامس والسبعون وصاحبه « برونيكوفسكى » De Bronikoveski
وتاريخه سنة ١٨٣٣

وقد كان هذا الرجل كاتباً ألمانيا من درس دن وخدم في جيش بروسية ثم في جيش
فرنسة عند ما كان الفرنسيين في بولونيا وبرنابجه يقرب من برنامج « دوفو » المتقدم
الذكر وهو مبنى على تقسيم تركية أوربة وتجديد قوة بولونيا ووضعها حاجزاً حصيناً في
وجه الروسية . ولا يشير هذا الرجل بهدم السلطنة العثمانية في آسية بل يقتصر على ايجاب
تسليم ولايات الدانوب لاوستريا بمقابلة اعادة اوستريا بلاد غاليسيا لبولونيا . ويقول انه يجب
أن تعاض تركيا من ذلك بأخذ بساراييا والقريم وبلاد القوقاس . فكأن مقصوده كله هو
توقيف تقدم الروسية

ثم المشروع السادس والسبعون وهو المنسوب الى الامبراطور الروسى نقولا الأول
وتاريخه سنة ١٨٥٣

كانت نظارة الخارجية الانكليزية نشرت وثائق في احدى جلسات البرلمان سنة
١٨٥٤ يظهر منها ان القيصر الروسى نقولا اقترح على انكلترة اقتسام سلطنة آل عثمان
لكن الوزراء كتموا هذا الاقتراح ولم يفشوه الا في جواب على كتابة ظهرت في « جورنال
دوصان بطرسبورغ »

ففي ليلة سمر عند الغراندوقة هيلانة الروسية ٩ يناير سنة ١٨٥٣ قال الامبراطور
نقولا للسير هاميلتون سيموز سفير انكلترة مايلي :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض ومريض جداً ويكون بالفعل وبالا عظيماً
علينا ان خرج أمره ومن ايدينا »

ثم استدعى الوزير « نسلرود » السفير المذكور الى حضرة القيصر في ١٤ يناير فقال
له أيضا : —

« انت لاتجهل المقاصد والمراعى التى لاتزال في الروسية من عهد كاترينا . وخلاصة
الأمر ان تركيا هي على مقربة منا وان فيها عدة ملايين من المسيحيين من وظيفتى السهر
على مصالحهم ويبدى معاهدات تعطينى هذا الحق . ونحن أمة تلقينا ديانتنا عن الشرق
وعليها واجبات لا يمكن التغاى عنها . وحالة تركيا هي كما قلت لك من قبل وبرغم ما نريده

من بقاءها يجوز أن تموت بالرغم منا وتبقى عبثاً علينا وليس في استطاعتنا نشر الموتى ^(١) أفلا يكون الأفضل بحقنا تفادياً من حرب أوربية ان نتفق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرّة؟ واني أقول لك بكل صراحة اننا ان استطعنا انا وانكلترة ان نتفق في هذا الموضوع لم يهمننا الآخرون . وانا لا اكنتمك انه ان كان في نية انكلترة الاستيلاء على الاستانة فلن أتحمّل ذلك . لأقول ان لكم هذه النية ولكنني أقول ان صحت هذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسي أتعهد أيضاً بأن لا أحتلها مالمّا وأما بصورة موقته على سبيل الاستيداع فقد أَرْضَى . وأما اذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها فقد يجوز اني احتلها قولاً واحداً »

فالانكليز لم يأمنوا للفرق الذي بين « التملك » و « الاستيداع » الموقت ورفضوا مطالب القيصر . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٣ تلاقى السفير سيمور مع القيصر عند القيصرية وقال له :

« ليسمح لي جلالتك بالفول بانه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على شرف الهلاك »

فاخذ القيصر شئ من الحدة وأجابه : « اذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لا تزال فيها عناصر حياة فتكون المعلومات التي لديها غير صحيحة . وانا اؤكد لك ان المريض هو في حالة الاختصار وانه لايجوز أن يموت ونحن غافلون بل يجب أن نتفق من قبل وأنا واثق بأننا نقدر أن نتفق ولست اكلفكم عقد معاهدة أو تحرير صك وانما أطلب كلمة اتفاق عامة وهذا كاف فيما بين الرجال الاكياس » وقد كتب السير سيمور لحكومته بعد سماعه خطاب القيصر للمرة الثانية بهذا الالحاح قائلاً : « لم يبق شك في أن الملك الذي ينكم بهذا الاصرار كله على موت دولة تجاوره يكون مقصده لا انتظار موتها كما يزعم بل تعجيله . ومرمى القيصر هو جرّ انكلترا واوستريا الى اتفاق مع الروسية على تقسيم تركيا بدون أن تدخل في ذلك فرنسة » وقد صرح القيصر مرة أخرى بجميع أفكاره قائلاً « انه لا يوافق أبداً على احتلال فرنسة أو انكلترة للقسطنطينية ولا يوافق أيضاً أبداً على تجديد سلطنة بيزنطية ولا على توسيع مملكة اليونان بحيث تصبح دولة منيعة الجانب ولا يوافق أيضاً على تقسيم تركيا

(١) مضى على هذا الكلام تسع وسبعون سنة ولا تزال تركيا في الحياة ويدها القسطنطينية

جمهوريات يتسلم أزمته ثوار من أمثال « كوشوت » Kossuth (زعيم مجرى) و « مازيني » Mazzini (زعيم طلياني) وغيرهم . وانه يحارب الى أن لا يبقى عنده جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا يرضى بحل مسألة تركيا على وجه من هذه الوجوه المذكورة ومعنى هذا ان القسطنطينية يجب أن تدخل في حوزة الروسية ثم انه يدخل القيصير في التفاصيل مخاطبا سفير انكلترة فيقول :

« تكون الفلاخ والبغدان مملكة مستقلة تحت حاجتي . وتكون صربيا حكومة مثلها أيضاً . وتكون بلغاريا أيضاً من هذا النمط اذا ما منع من استقلالها . وأما مصر فاني لأجهل أهميتها بالنسبة الى انكلترة ولا أرى مانعاً من أنه اذا سقطت السلطنة العثمانية ووقعت المقاسمة بيننا تخرج مصر في نصيب انكلترة . وكذلك جزيرة كريد التي توافقكم »
 فلما انكلترة فن أول الأمر رفضت تقسيم تركيا . وأرسل اللورد « جون روسل » ناظر الخارجية جواباً في ٩ فبراير سنة ١٨٥٣ صريحاً في الرفض . فأجابه نسلرود وزير الروسية بمذكرة تاريخها ٧ مارس يحاول فيها تسكين خاطر الحكومة الانكليزية ويقول ان الأحاديث التي جرت بشأن تركيا « ان هي الا تبادل أفكار والامبراطور لا يرى من الضرورة الكلام في هذه المسئلة قبل حلول أوانها »

بيد أن الحكومة الانكليزية التزمت في هذه المسئلة الجلى تمام الصراحة خشية سوء التفاهم فيما بعد . فأرسلت الى الروسية مذكرة واضحة تاريخها ٢٥ مارس سنة ١٨٥٣ تقول فيها :

« ان حكومة المملكة علمت بمزيد السرور ان الامبراطور يكثر أكثر من انكلترة نفسها لمنع نازلة تنزل بتركيا لأن حكومة المملكة مقتنعة بأنه على سياسة جلالة الامبراطور يتوقف تعجيل أو تأجيل هذا الحادث الذي لجميع الدول الاوربية مصلحة في منع وقوعه . ثم ان انكلترة لا تريد تبسطاً في الارض ولا تقدر أن تدخل في اتفاق من هذا القبيل ولا أن تشارك في مفاوضات ومكاشفات يجب أن تبقى مكتومة عن بقية الدول . وكل ما تراه حكومة المملكة هو أن تركيا لا تحتاج الا الى شيء من التسامح من جهة حلفائها وان هؤلاء لا يتخذون بازائها خطة تمس من كرامة السلطان أو استقلاله وانه يجب أن تعامل بالرفق الذي هو حق الضعفاء على الأقوياء سواء كان بين الدول أو بين الأشخاص » اهـ

وفي ٥ ابريل سنة ١٨٥٣ أرسل اللورد « كلارندون » باسم انكلترة الى الروسية مذكرة جديدة معناها « انه من العبث وضع هذه المسئلة موضع المذاكرة » فأجابه « نسلرود » وزير الروسية جواباً متغير اللهجة عن ذي قبل قائلاً فيه : « ان الامبراطور مستعد للسعي بالاتفاق مع انكلترة في اطالة حياة تركيا وترك كل سبب ارجاف من جهة انحلالها » وكانت جميع هذه المحاورات سرية ولم يكن متوقعاً أن تتعدى خارجتي لندن وطرسبورغ لولا حادث طراً .

وهذا الحادث هو أن الحكومة الروسية قرأت خطبة للورد جون روسل ألقاها في مجلس العموم الانكليزي سنة ١٨٥٤ فأجابت عليها بمقالة ما لها الاشارة الى المفاوضات المار ذكرها والادعاء بأن القيصر كان دائماً صريح اللهجة صادقاً بحق انكلترة فعند ذلك اضطرت الحكومة الانكليزية الى نشر جميع المذكرات التي تبودلت بشأن تقسيم تركيا . وكان لذلك دوى عظيم في العالم . وقال المسيو « روسه » Roussel صاحب تاريخ حرب القريم : « انه لم يوجد أمام العالم وأمام التاريخ ملك حمل عمداً واختياراً من التبعة ماجله الامبراطور نقولا »

وقد عقب ذلك حرب القريم وتحالف فرنسة وانكلترة وتركيا على الروسية وانتهاء الحرب بصلح باريز سنة ١٨٥٦ و بعد هذه الحرب نالت رومانيا استقلالها الداخلي ثم المشروع السابع والسبعون وصاحبه « داندولو » Dandolo وتاريخه سنة ١٨٥٣ وهذا المشروع يقرب من مشروع « كابوديسترياس » ومؤداه انه بعد طرد الترك من أوربة تؤسس الدول العظام خمس ممالك في الشرق ١ بلاد اليونان مع سلافيك وجبل آتوس والجزر المصاغبة ٢ ابيروس والروملي الى أدرنه الى البحر الأسود ٣ الفلاخ والبغدان الى حدود الروسية من جهة واوستريا من جهة أخرى ٤ بوسنه و صربيا والجبل الأسود والهرسك ٥ جرائر اقريطش وقبرص وساموس وما يتبعها والقسطنطينية مدينة حرة لكن يونانية وكان « داندولو » من اليونانيين المتحمسين

ثم المشروع الثامن والسبعون وصاحبه « دالبونو » D'Al.Bonneau وتاريخه

سنة ١٨٦٠

وكان « دالبونو » كاتباً افرنسياً له تأليف عن المشرق

وكان يذهب الى وجوب سد طريق البوسفور على الروسية حتى لاتصل الى البحر المتوسط . ولكنه كان يريد ارجاع المملكة البيزنطية الرومية بحجة أن الروم هم كانوا السبب في محيئ الترك وانه يوجد بين الروم والسلاف عداوة شديدة . وأما نصب أمير أجنبي على القسطنطينية كما كان يشير به لويس الرابع عشر فلا يورث عنده الا القوضى . وكذلك تقسيم تركيا دونه مشكلات ومعضلات لا يمكن حلها . والخلاصة انه يوافق على جعل الاستانة مدينة أوربية تحت ملاحظة مجموع الدول التي ترسل كل منها اليها مندوباً وتكون حرية المرور بالبواغيز مطلقة للجميع . وتؤسس دولة سلافيه واحدة وتستولى الروسيه على ارمينية . وتضاف تساليا ومقدونية والبانيا واقريطش الى مملكة اليونان . وتكون قبرص لبلجيكا ورودس للملكة البيامون

ثم المشروع التاسع والسبعون وصاحبه « بيتزيبيوس » Pitzipios وتاريخه أيضا

سنة ١٨٦٠

- وهذا رجل يوناني كان أشد أصحاب هذه المشروعات التقسيمية تحيلاً كما ستري :-
- ١ القسطنطينية مدينة حرة ومركز للدولة الحلفية الشرقية وفيها مؤتمر دائم تتمثل فيه جميع دول أوربة وافريقية وآسية وأمريكا
 - ٢ مملكة الفلاخ والبغدان
 - ٣ مملكة السلاف : الصرب والبلغار والجبل الاسود وبوسنه والهرسك.
 - ٤ مملكة الأروام : تراقيا ومقدونية وايروس وتساليا وألبانيا والمورة
 - ٥ مملكة جزائر الارخبيل : كريد . قبرص . رودس . مدالي . ساموس . كورفو
 - ٦ مملكة مصر
 - ٧ مملكة تونس وطرابلس
 - ٨ مملكة يون من اليونان
 - ٩ مملكة الأرمن
 - ١٠ الممالك السورية أي المملكة السلوقية القديمة
 - ١١ مملكة قرمان والأكراد أي ممالك الماديين والفريجيين والغلاطيين والسكبادوقيين
 - ١٢ مملكة العراق أي عرب آسية والاثوريين والكلدانيين

١٣ مملكة التركمان

١٤ المملكة العبرانية أى فلسطين

١٥ مملكة اللاز

قال دجوقارا : انه لم يكن كافياً وجود مقدونية التي لم تزل شغلاً شاعراً لأوربة حتى جاء « بيتزيبوس » يخلق لها مقدونيات جديدة يزعم أنه يتحالف فيها السلوقيون والماديون والفريجيون والغلاطيون والكبودقيون والكلدانيون والآثوريون واليهود واللاز ويجلس معهم مثلاً افريقية وأمريكا ! فيا للحماقة

ثم المشروع الثمانون وصاحبه « راتوس » Rattos وتاريخه أيضاً سنة ١٨٦٠ وهو يوناني حذا حذو « بيتزيبوس » في كثرة تقسيماته وانما امتاز عنه ببقية عقل وانصاف جلته أن يترك شيئاً للأتراك العثمانيين وبرنامجهم هو هذا :

١ الاستانة مدينة حرة مع شواطئ البوسفور والدرديل

٢ المملكة التركية تصير مشتملة على جميع البلدان التي جنوبى جبل طورس مثل سورية وفلسطين وبلاد العرب ومصر وطرابلس وتونس . وقال ان العاصمة يجب أن تكون دمشق أو القاهرة أو الاسكندرية

٣ الممالك التي تؤخذ من الترك في الأناضول ومعها أرمينية

٤ مملكة اليونان ومعها تساليا والبانيا ومكدونية

٥ مملكة الفلاخ والبغدان ويكون لها أمير

٦ مملكة الصرب ولها أمير

٧ بوسنه والهرسك ولها أمير أو أميران

٨ الجبل الاسود وله أمير

٩ بلغاريا والروملى ولها أمير أو أميران

١٠ أرمينية وعاصمتها ارضروم ولها ملك

١١ مملكتان يونانيتان في الأناضول لكل منهما ملك

١٢ مجلس عام لهذه الممالك يكون التمثيل فيه على نسبة عدد الأهالى

قال دجوفارا : ان راتوس جعل في برنامج ملوكاً للاروام بل للارمن لكنه لم يسمح
للفلاخ والبغدان والصرب والبلغار الا بامراء
قلت : هذا البرنامج والذي قبله لا يستحقان الذكر الا كأطروفة
ثم المشروع الواحد والثمانون وصاحبه « ستفانوويتش » Stephanowitch وليس
له تاريخ .

وهو على نمط المشروعات السابقين تقسيمات خيالية . وصاحبه يقترح حكومة حلفية
يونانية سلاوية ذات مجلس مركب من ثمانية أعضاء رئيسه نائب للقيصر الروسى
ثم هناك سلطنة يونانية مركبة من تراقيا وتساليا وبلاد اليونان وجزر الأرخبيل
ومملكة مركبة من صربيا ونوفى بازار
ومملكة تتألف من دالماسيا والهرسك والجبل الاسود يليها أمير الجبل
ومملكة ألبانيا ويتولاها أمير روسى
ومملكة رومانيا
وامارة بلغاريا ويليها أمير روسى
ومملكة فريجيا (فى الأناضول)
ومملكة البونت (طرابزون)
ومملكة ارمينية
والسلطان العثمانى يذهب الى بغداد
وسورية تعطى الى الأمير عبد القادر الجزائرى
ومصر نصير ولاية فرنسوية
وقبرص تكون مملكة

وأزمير تكون مدينة حرة . والقسطنطينية مدينة حرة وفيها مركز المجلس العام
لجميع هذه الممالك

ثم المشروع الثانى والثمانون وصاحبه الكومندور « نيجرا » Nigra وتاريخه
سنة ١٨٩٦

وكان نيجرا هذا طليانيا ومبدأ ظهوره فى خدمة « كاقور » وزير ايطاليا المشهور

ثم صار سفيراً لاطاليا في باريز ثم في بطرسبورغ ثم في فيينا ومات في « رابالو » سنة ١٩٠٧
وكانت الحكومة الروسية سنة ١٨٦٣ أجرت احصاء في بولونيا تبعه من العسف
والظلم ما حمل البولونيين على العصيان وتدخلت الدول في الأمر . فاقترح نابليون الثالث
عقد مؤتمر في باريز وأجابه اليه الانكليز والبابا واطاليا واسبانيا والسويد . وأرسل نابليون
الثالث الى اوستريا يعرض عليها أخذ سيليزيا والتخلي عن غاليسيا التي كان يريد اعادتها
الى بولونيا واحياء مملكة بولونيا من جديد . وكذلك عرض على اوستريا امارتي الفلاخ
والبغدان على شريطة أن تترك البندقية لاطاليا ويقال ان هذه الأفكار كانت أفكار
نيغرا وكان هو الذي يروجها في باريز

ولكن انكلترة واوستريا كانتا معارضتين لهذه الفكرة . وكانت ايطاليا اتفقت مع
بروسية سنة ١٨٦٦ على اوستريا وفي الوقت نفسه استدعى أهل رومانيا الأمير كارول من
آل هونصورن وجعلوه أميراً عليهم ثم صار فيما بعد ملك رومانيا . ولم يفلح نيغرا في
تقديم رومانيا لاوستريا عوضاً عن البندقية

ثم المشروع الثالث والثمانون المنسوب لغاريبالدي Garibaldi وتاريخه ١٨٧٣
يقال ان القائد الايطالي الشهير غاريبالدي ترك بين أوراقه برنامج تقسيم للسلطنة
العثمانية وقد تكلم عن هذا البرنامج « انريكو كروس » في رسالة نشرها تحت عنوان
« وصية سياسية للجنرال غاريبالدي »

ما ل هذه الوصية اتحاد بين اللاتين والسلاف على الجرمانيين . ففرنسة يجب أن
تصل الى الرين واطالية يجب أن تأخذ تريستي وكاتارو وبولونيا يجب أن
تعيش وتشيكوسلوفا كيا ينبغي أن تكون جمهورية عاصمتها براغ . ثم تكون جمهورية
بلقانية سلافية عاصمتها الاستانة وتتوسع حدود رومانيا . وتكون اليونان دولة قوية وترفع
عن البحر المتوسط السلطة التي لانكلترة وتعود الدانمرك فتحمل « شلسفيك هولشتين »
وتحصر ألمانيا بين نهري الرين و « الاودر » Oder ويرجع الترك الى برساتهم يذهبون مع
طول الوقت تماماً وتنقسم اوستريا أقساماً على حسب الأجناس التي فيها

قلت قد صح كثير من هذا البروغرام مثل أخذ ايطاليا لتريستي واستئناف استقلال
بولونيا واستقلال بلاد التشيك وتوسع مملكتي رومانيا واليونان واسترداد الدانمرك ولاية

« شاسفيك هولشتين » وتمزق اوستريا قطعا متعددة بحسب الأجناس التي فيها . كل هذا قد تم على أثر الحرب العامة الا ان اتصال فرنسا بالرين واخراج الترك من القسطنطينية وخضد شوكة انكلترا في البحر المتوسط فلم يتم منها شيء

ثم المشروع الرابع والثمانون وصاحبه الكونت « غريبي » وتاريخه ١٨٧٣

وكان غريبي Greppi هذا مستخدما في سفارة اوستريا في رومة وبعد ذلك صار سفيراً لاطالمة

ونشر رسالة عن المسئلة الشرقية قال فيها : ان القسطنطينية يجب أن تكون للجميع مدينة حرة مستقلة ولا يتبعها الا البوسفور

ثم يجلس في الاستانة ممثلو الاتحاد اليوناني السلافي وتضاف مقدونية وتساليا وايروس الى اليونان ويكون لجزر الارخبيل استقلال داخلي لكن ضمن دائرة الاتحاد المذكور ولكن يكون لكل من الدول العظام قاعدة بحرية في إحدى الجزر لتتمكن من السهر على التوازن في الشرق ؟

ثم المشروع الخامس والثمانون وتاريخه ١٨٧٥ وصاحبه مجهول

وقد ظهرت به نشرة أثناء الحرب الروسية التركية وما لها انه يحصل قريبا انقلابات في شرق أوربة فبوسنه واهرسك تصيران الى اوستريا أو الى الجبل الاسود والصرب . والفلاخ والبغدان والروملي وتراقيا تصير الى الروسية . والبانيا ومقدونية وتساليا تضاف الى مملكة اليونان . والصرب والجبل الاسود يستقلان تماما . ومصر تصير مملكة

ولكن صاحب النشرة يشير بجعل الاستانة مركزاً لاتحاد شرقي مركب من خمس ممالك اليونان ومعها البانيا ومقدونية وتراقيا والجزر . ثم الصرب وبوسنه . ثم اهرسك والجبل الاسود . ثم البلغار . ثم رومانيا

ثم المشروع السادس والثمانون وصاحبه أيضا مجهول وهو محرر بالألمانية وبدون تاريخ

وصاحبه يريد دحر الاتراك الى آسية وتخليص صربيا ورومانيا ومصر وتونس وطرابلس منهم . ويشير بجعل الدردنيل والبوسفور وقناة السويس ونهر الدانوب ممر حرة للجميع وان تأخذ الروسية بلغاريا والدبروجه وارمينية وتأخذ اوستريا قسما من البانيا

مع بوسنه والهرسك وتأخذ اليونان تساليا ومقدونية وقسما من البانيا وتعتاض فرنسا وإيطالية من جهة افريقية وتعتاض انكلترة من جهة آسية الصغرى ولقد صح من هذا البروغرام أشياء مثل اعتياض فرنسا وإيطالية من افريقية فان فرنسا من بعد الجزائر استولت على تونس ثم على مرا كش وإيطالية استولت على طرابلس وانكلترة بدلا من آسية الصغرى احتلت مصر وفلسطين وتكبير بلاد اليونان قد حصل كما قال

ثم المشروع السابع والثمانون وصاحبه « رولين » Rollin وتاريخه ١٨٧٦ وهو منشور في رسالة عنوانها « الحل العملي لمسئلة الشرق » نشرها صاحبها عند ثورة الصرب والرومانيين على تركيا وهو يقترح طرد الترك الى آسية وان تحتل أملاكهم في أوربة انكلترة وأوسنربا وبروسية والروسية . وان تحتل هذه الدول أيضاً القسطنطينية وادرنه والروملى وكريد . وان يعطى الاستقلال لجميع أقسام تركية أوربة ويكون لها مجلس عام ومن تأمل في هذا البروغرام الذى انتحل له صاحبه اسم « الحل العملي » وجده أبعد الأشياء عن « الحل العملي » لاسباب لا تحصى لا تخفى عن السياسى الخبير

ثم المشروع الثامن والثمانون وأصحابه آل تستا Testa وتاريخه ١٨٧٦ وهم يشيرون براء لم نجدها الا من باب التسكين الموقت وذلك كاعطاء بوسنه الى صربيا لكن مع بقاء سيادة الباب العالى عليهما . واعطاء الهرسك الى الجبل الاسود . وان تجعل مجالس كبيرة للروملى والبانيا وبلغاريا ينتخب السلطان رؤساءها بشرط أن يكونوا من المسيحيين

وال تستا من الامان

ثم المشروع التاسع والثمانون وصاحبه « ماتياس بان » Mathias Ban وتاريخه

سنة ١٨٨٥

وولد « بان » هذا في راغوزا ومات في بلغراد سنة ١٩٠٣ ورأيه أن الاتفاق متعذر في شبه جزيرة البلقان الا أنه يمكن أن يصار الى التشكيلات الكنسية . ففي القديم لم يكن الا الكنيسة البيزنطية الرومانية ثم جعلوا كنيسة

صربية وكنيسة بلغارية ثم عند دخول الترك الى القسطنطينية الغوا بطريكتي البلغار والصرب . فيجب أن تعاد كما بدأتنا وان تضاف الروملى الى بلغاريا تحت سيادة الباب العالى . وتعطى الى الصرب « ودين » و « ساموكوف » وبعض أماكن من بلاد البلغار . وتسلم الى اليونان والجبل الاسود البلاد التى تقررتهما بموجب معاهدة برلين ثم المشروع التسعون وهو خبر جرائد تاريخه سنة ١٨٩٦

نشرت جريدة الدالينوز الانكليزية والبرلينزنا غبلاط الالمانية خبراً معناه أن الروسية متحفزة لاحتلال ارمينية وحمل الدول على تقسيم تركيا . وذلك على أن تأخذ الروسية القسطنطينية والولايات التركية الشرقية الى أن تنفذ من اسكندرونة . وأن تأخذ فرنسة سورية وفلسطين . وتأخذ انكلترة مصر وسواحل الخليج الفارسى والكويت . وتستولى النمسا والمجر على بوسنه ومكدونية . وايطالية على طرابلس . واليونان على كريد والجزر

ثم المشروع الواحد والتسعون وصاحبه « فون سيكادوف » Von Sydakof وتاريخه سنة ١٨٩٨

وهو محرر بالالمانية وكان محرره من كتاب الصحف فى فينا . وبعد أن ذكر ثورات البلقان وكريد وغيرها والحرب التركية اليونانية قال ان الروسية ستعود الى تأريث نار الحرب الصليبية على الاسلام . كما أن الالبانيين من مسيحيين ومسلمين يطلبون استقلالاً داخلياً تحت سيادة الباب العالى . وكما أن المسيحيين فى مقدونية لا يزالون يطالبون باصلاحات لا يعمل منها الباب العالى شيئاً . فلا مناص من النظر الى هذه الحالة . فهو يرى قسمة البلقان الى شطرين شرقى وغربى ^(١) الفاصل بينهما « الستروما » و « الواردار » بحسب استعداد الأرض . فتكون حصتها اليونان والصرب فى الشطر الغربى . وتبقى البانيا وقسم من مقدونية فتديرهما أوستريا كما أدارت بوسنه والهرسك . وتتحد هذه الممالك البلقانية مع أوستريا - هنكاري اتحاداً اقتصادياً

وأما فى الشطر البلقانى الشرقى فتتحد بلغاريا مع رومانيا تحت تاج الملك كارول ويكون لهما مقدونية الشرقية وتكون لهما القسطنطينية . وقال انه ان لم تكن البلقان أوربية صارت أوربة كلها روسية . فهذا هو الحل الوحيد للمسئلة والطريقة الوحيدة لمنع الروسية

(١) قد تقدم مثل هذا رأى

من تكدير صفو السلام العالمي

و بعد ظهور هذه النشرة بسنة ظهرت نشرة بامضاء « غورلوف » فيها أنه يجب اعطاء
الاستانة والبوسفور وغاليسيا للروسية . وترانسيلفانيا لرومانيا . وجنوبي البانيا لليونان .
والجبل الاسود وبوسنه وهرسك للصرب . وراقيا مع ادرنه الى تشاطلجه لبلفاريا . وأن
تستقل كل من المجر وبوهيميا . وما يبق من اوستريا مع فينا يضاف لألمانية

قلت : وقد صح من هذا بعد الحرب العامة اعطاء ترانسيلفانيا لرومانيا وجنوبي البانيا
لليونان والجبل الاسود وبوسنه وهرسك للصرب واستقلال كل من المجر وبوهيميا (بلاد
التشيك) ويرجح أن فينا وما بق من اوستريا سينضم الى ألمانية في عهد غير بعيد

ثم المشروع الثاني والتسعون وهو روماني Roumain وتاريخه ١٩٠٤
وصاحبه وزير سياسى يخفى اسمه . وهو يشير باتحاد بلقاني تحت رئاسة ايطاليا وذلك
لأن الدول البلقانية لا يرضى بعضها رئاسة بعض . والروسية عظيمة جداً ومخوفة . واوستريا
قريبة . وانكلترة وفرنسة بعيدتان . فايطالية لهذه الرئاسة أوفق من الجميع

وتتألف هذه الحكومات المتحدة من الولايات التركية القديمة ومن تركية آسية نفسها
وتنقسم ولايات تركيا الى ثلاث مناطق : الأولى ألبانيا ومركزها اشقودرة . الثانية
مقدونية ومركزها سلانيك . والثالثة تركية أوربة مع القسطنطينية وادرنة . وينصب في
البانيا ومقدونية حكام طليان ويتخذون طرز ادارة سويسرة وتكون شرطة مسيحية محل
الجيش . وتكون الوظائف على نسبة أجناس الأهالى . ويكون مجلس عام مركزه سلانيك
أورومة . ويكون ملك ايطالية هو حامي هذا الاتحاد .

قلت : لعل موسولينى فيما يحلم به من الفتوحات الرومانية يحلم بهذا أيضاً

ثم المشروع الثالث والتسعون وهو قسمة القسطنطينية وتاريخه ١٩١٢

لما كان أهم عقدة في قسمة أملاك تركيا هي الاستانة فقد فكر بعضهم في قسمة هذه
المدينة نفسها . وسبق الى ذلك جريدة « الاندبندانس بلج » في ٧ يناير سنة ١٩١٢ عن
رسالة من سلانيك يقول كاتبها ان الأتراك لا يقدرّون أن يصلحوا هذه البلدة الطيبة كما
يجب وانه يلزم لهم لذلك عشرة مليارات على مدة ١٥ سنة فلا تجدهم يقدرّون على انفاق
مبلغ كهذا

فاحسن طريقة هي جعلها دولية . فيكون للامان حيدر باشا وقسم من الارض الى جهة آسية . وللفرنسيس بك اوغلي وضواحيها . وللروسية أعالي البوسفور . ولاوستريا غلطة الى البحر والانكليز استانبول أما ايطالية فقد أغارت على طرابلس الغرب فلم يبق لها حق في حصّة من عاصمة تركيا

وهذا الكاتب لم يفكر في كونه أدخل في الاستانة دولاً سبق أنها أخذت كثيراً من أملاك تركيا وأكثر مما أخذت ايطالية ولا حسب حساب تنازع الدول المذكورة على الحدود ولا تأمل في وجود البوسفور في يد الروسية وما فيه من المخدور

وقد أبقى آل عثمان حق رئاسة المجلس الدولي وان تبقى لهم القصور التي لهم في الاستانة . فأما عاصمة تركيا الحقيقية فتصير برسا

ثم المشروع الرابع والتسعون وصاحبه المسيو « رالف دونريكت » Ralf De Nerick وهو يشير باعطاء القسطنطينية للبابا ويكون مركزه بها . قال وهذه كانت فكرة قسطنطين الكبير فتأمل

المشروعان الخامس والتسعون والسادس والتسعون هما معاهدتا باريز وبرلين الاولى سنة ١٨٥٦ والثانية ١٨٧٨

قال دجوقارا : هذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين ومحاولاتهم لمحو السلطنة العثمانية التي كانت من أعظم الممالك التي عرفها تاريخ البشرية . وان لم يكن قد تنفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيرة بخدافيره فما زال تكرر هذه المساعي وتداول هذه الأفكار في كل أوروپة خلفا عن سلف يعمل عمله تدريجاً وينقض من بناء السلطنة التركية الى أن انهارت جوانبها

وقال : بعد واقعة لبيانت (١٥٧١) بدأت الدولة العثمانية تتقهقر . وقد أخذت أملاكها في افريقية كمصر وطرابلس والجزائر وتونس تنفصل عنها ولم يبق لها عليها الا سيادة اسمية ثم ان الحروب الكثيرة التي أصلتها اياها كل من الروسية واوستريا نزعت منها المجر (١٦٩٩) وبانات وطمشوار (١٧١٨) وقسماً من الصرب وقسماً من الفلاخ والقريم (١٧٧٤) وبوكوفين (١٧٧٥) ثم خسر الباب العالي جزر كورفو وأخواتها (١٧٩٧) وكرجستان

(١٧٩٩) وبسارابيا الى حد نهر البروت (١٨١٢) وبلاد اليونان (١٨٢٩) وارمينية القوقاسية . ثم خسر جزائر الغرب (١٨٣١) وسنة ١٨٤١ استقلت مصر استقلالاً داخلياً وسنة ١٨٥١ استقل الجبل الأسود استقلالاً داخلياً أيضاً .

وبمعاهدة باريز ٣٠ مارس ١٨٥٦ نالت الاستقلال الداخلي رومانيا وصربيا وتقررت حرية الملاحة في البحر الأسود والمرور بالدانوب . ثم أخذ الانهيار يتتابع ولاسيما بعد حرب سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ مع الروسية اذ وصل الروس الى ادرنه وأجبروا الباب العالي على قبول شروطهم في ايا استفانو ولكن أورية لم تصدق هذه المعاهدة وتبدلت بها معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) فتقرر الاستقلال التام لرومانيا وصربيا والجبل الأسود وصارت بلغاريا امانة تؤدي الى الباب العالي الجزية وانفصلت ولاية اسمها الروملي الشرقية لكن تحت سيادة الباب العالي ثم استلحقها البلغار (١٨٨٥) واحتلت أوستريا بوسنه وهرسك مدة مديدة ثم اعلنت (١٩٠٨) استلحاقهما . ونزل الباب العالي في آسية للروسية عن باطوم وقارص واردهان . وتخلي عن قبرص لانكلترا

وسنة ١٨٨١ تخلى عن تساليا وقسم من ايروس لليونان وسنة ١٨٨٢ احتل الانكليز مصر وكانت قبل ذلك بسنتين احتلت فرنسة تونس . وسنة ١٨٩٦ نالت كريد استقلالها الداخلي

وبقيت برغم كل هذا بلاد البلقان غير ساكنة والنار تضطرم تحت الرماد الى أن سقط السلطان عبد الحميد (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وتولت عصبة تركيا الفتاة فاستلحقت أوستريا بوسنه وهرسك

ثم شنت ايطالية الغارة على طرابلس الغرب وهذه الغارة هي المشروع السابع والتسعون من تقسيم سلطنة آل عثمان

وكان قبل ذلك في سنة ١٨٩٤ تألفت في باريز عصبة بروغرامها الحاق كريد باليونان وتأسيس حكومة لمكدونية والبايزا وأخرى لارمينية والأناضول وأخرى للقسطنطينية وتراقيا وان تكون البلدة بلدة حرة ومركزاً للخدمات المتحدة

ثم ظهرت حركة أخرى اتفق فيها بعض البلغار والارناؤوط على أن تكون مكدونيه وألبانيا حكومتين مستقلتين تحت سيادة السلطان لكن الباب العالي رفض هذا المشروع

وكانت الحوادث والثورات تتوالى فى البانيا والروملى والقلق يشتد فى شبه جزيرة البلقان فاهتبلت ايطالية هذه الغرة وشتت الغارة على طرابلس وبرقة بعد انذار ابلغته الباب العالى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ فاستمرت تركيا فى الحرب مع ايطالية نحواً من سنة وانهقد بينهما صلح لوزان فى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وخسرت تركيا بقية ما كان بقى لها فى افريقية

واهتبلت دويلات البلقان الغرة من حرب ايطاليا مع تركيا فتحالفن وهجمن على تركيا : الجبل الاسود فبلغاريا فاليونان فالصرب

قلت واعلن كل من ملك اليونان وملك البلغار منشورا على العالم يذكركل فيه الأسباب التى دعت المسيحيين أن يحملوا السلاح لمقاتلة الترك ويشير الى مصارعة الصليب للهلل وغير ذلك من العبارات التى كان ملوك المسيحيين يستعملونها فى الحروب الصليبية وتبعهم فى ذلك ملك الصرب وسرد تاريخ الجلال بين الترك والصربيين وزعم أن تركيا كانت لا تعترف بديانة الصرب وتعارضهم فى حريتهم الدينية وتجبرهم على الاسلام ! وامثال ذلك من العبارات المهيجة

وبينا مناشير الملوك الثلاثة المذكورين ملأى بذكر العداوة بين النصرانية وتركيا والمصارعة بين الصليب والهلل وجيع الكلمات المثيرة للعواطف اذ صدر منشور السلطان محمد الخامس ليس فيه كلمة واحدة مهيجة ولا جارحة بل كله حث على حفظ ذمار السلطنة وتوطيد نفوذ الحكومة مع الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الأعداء والتخرج عن سفك الدماء بدون موجب والمحافظة على الأموال والأرواح وأما كن العبادة وقد نقل المسيو دجوفارا المناشير الأربعة بنصوصها

ثم ذكر خلاصة الحوادث : —

فى ٨ اكتوبر ١٩١٢	اعلان ملك الجبل الاسود الحرب على تركيا
فى ١٨ » »	اعلان ملوك البلغار والصرب واليونان الحرب واحتلال
	البلغار جسر مصطفى باشا
فى ٢٠ اكتوبر »	استيلاء الصرب على بريشتينه
فى ٢٢ » »	الصربيون ينتصرون على الترك فى كومانوفو

في ٢٢ أكتوبر ١٩١٢	الأتراك ينهزمون على قرق كليسه
في ٢٦ » »	استيلاء الصرب على اسكوب
في ٢٨ » »	انتصار البلغار في لوله بورغاز
في ٥ نوفمبر »	فوز اليونان في وقعة بنتيغاديا
في ٨ » »	سقوط سلانيك
في ١٣-١٦ » »	معركة مناستير
في ١٧ » »	معركة شتالجه
في ١٨ » »	جيش الجبل الاسود يحتل آلسيو
في ٣ ديسمبر »	عقد متاركة
في ١٦ » »	اجتماع مندوبي الصلح في لندن
في ٦ يناير ١٩١٣	توقف مفاوضات الصلح
في ٢٠ » »	معركة تنيدوس البحرية
في ٢٣ » »	أنور ومن معه يسقطون كامل باشا
	ويسقط ناظم باشا قتيلاً
في ٢٤ » »	تأليف وزارة محمود شوكة
في ٢٦ » »	قطع المفاوضات في لندن
في ٣٠ » »	رفض تركيا التخلي عن أدرنه
في ٣٠ فبراير »	رجوع المعارك
في ١ مارس »	قبول الترك وساطة الدول
في ٦ » »	فتح اليونان لياانيا
في ١٨ » »	اشتداد المعارك في شتالجه
في ٢٥ » »	استسلام جاويد باشا للصرب في «سكومي»
في ٢٦ » »	تسليم أدرنه
في ١ ابريل »	تركيا ترضى باقتراحات الدول

١٠ في	ابريل ١٩١٣	حصار الدول لساحل الجبل الاسود
٢٢ في	» »	احتلال الجبلين لشقودره
٢٥ في	» »	اجبار الدول لملك الجبل الاسود على اخلاء شقودره
٣٠ في	» »	عقد مواد الصلح الاساسية

وزبدة هذا الصلح ان السلطان يترك جميع الأرضين الواقعة شمالي خط يَضْرَب من أنوس الى ميديا ماعدا البانيا . ويترك لامبراطور ألمانيا وامبراطور اوستريا هنكاريار ورئيس الجمهورية الفرنسية وملك انكلترة وامبراطور الروسية وملك ايطاليا الاعتناء بتحديد حدود البانيا مع البلاد المجاورة لها

وكذلك يتخلى ملوك الدول المذكورة عن جميع حقوقه على جزيرة كريد ويترك لهم تسوية القرار اللازم بشأن الجزر العثمانية في الأرخبيل

ولكن هذه المعاهدة بقيت بدون امضاء لأن الدول البلقانية تحاربت بعضها مع بعض بسبب الاختلاف فيما بينها على تقاسم البلاد . وهي حرب لسنا الآن في صدها وقد استوفى حوادثها المسيو دجوفارا فعادت تركيا واستفادت من هذه الفرصة وسيرت جيشا استرجع ادرنه فبقيت لها في أوربة القسطنطينية وادرنه وما بينهما
أى بقى لتركيا في أوربة زهاء مليون ونصف من السكان بعد أن كان لها أملاك يسكنها اليوم زهاء ٤٠ مليون نسمة في أوربة خلا آسيا وافريقية

بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف المسيو دجوفارا الرومانى مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة من رجل أجنبي عنا بل رجل سياسى مسيحي بلقانى كانت الأمة التى ينتمى اليها من جلة الأمم التى تحررت من حكم تركيا

الخلاصة

قال المسيو دجوفارا مايلي :

« مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية . وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الاقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينه مما يناهز مائة

الا ان الجاسة الدينية التي كانت تلتهم في القديم فترت بمرور الأعصر فلم يبق عند هذه الشعوب تلك الحرارة التي كانت تجمعها على غير المسيحيين . وصارت المصالح الاقتصادية والمناظرات بين الملوك تفرق بين أولئك الذين كان الصليب يؤلف بينهم من قبل . فلما جاء الوقت الذي صاروا فيه يتكلمون عن « الرجل المريض » تنبّهت المنافسات وثارّت المنازعات وتحقق ان احتلالاً عسكرياً لتركيا سيجرّ بلا نزاع الى حرب عامة

ولا نغني بهذا ان كل فكر في تقسيم السلطنة العثمانية انقضى أو ان كل أمل في الاتفاق على اسلابها قد انقطع . فمذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقوّل على سقوط سلطنة آل عثمان وفي سنة ١٧٨٤ كتب « ديز » Diez سفير بروسية في الاستانة ان الروس لا يلبثون أن يأخذوا تركيا في مدة ١٠ سنوات . وكذلك تنبأ نابليون بمثل هذا ولم تصدق نبوته

وكانت الدول العظام لاتفكر ان هذه الأمم التي تتألف منها السلطنة العثمانية يمكنها أن تدير أنفسها بأنفسها . بل كان عندها ان هذه الشعوب لم توجد الا لتكون تحت حكم الأجنبي . وبقى هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمة الى أيامنا هذه فاذا قلت لبعض رجال السياسة : ان هذه شعوب يمكنها ان تتحرر وتستقل بأنفسها هزأوا بك . ولم أجد سوى رجل واحد نظر الى بعيد وهو المسيو كونستان سفير فرنسة سابقاً في الاستانة فقد كان يقول : « ان المستقبل في الشرق انما هو للشعوب الصغيرة »

على ان السلطنة العثمانية ان لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة في مدة هذه الأعصر الطوال التي كانت أوربة تناصبها فيها العداء فإذا كان السبب في هذا السقوط ؟

الجواب ان الأسباب كثيرة منها السبب الذي نشأ عنه سقوط اكثر الممالك العظمى في العالم وهو سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة واختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها في بوتقة واحدة وصعوبة اعطائها كلها فكرة قومية متحدة ثم فساد الادارة وارتخاء النظام وتردى القوة العسكرية

واضف الى ذلك اختلاف الاديان بين سكان هذه السلطنة فالاسلام لا يأتلف مع النصرانية لاسيما انه لا يكتفى بأن يكون ديناً روحياً يعزى الأنفس بل هو المسيطر على

الادارة ويتدخل في أمور الحكومة (١)

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سهاوى : ولم يكن القرآن مانعاً لامن العالوم ولا من المعارف ولا من الصناعات . ولو كان ذلك لما كانت المدينة العربية الباهرة ممكنة

وكذلك لولا التسامح الدينى العظيم عند الاتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً . ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم أيضاً الحرية المدرسية وما يجب أن نعترف به أن هذه الحرية الدينية التى منحتها الدولة العثمانية لرعاياها المسيحيين مع حرية التعليم هى التى كفلت نموهم وترقيهم وجعلتهم يسيرون فى طريق الاستقلال المطلق ولا جدال فى ان النصرانية عروة دينية وثيقة كانت جامعة للأمم البلقانية فصارت هذه الأمم تتأهب للمقاومة وما كان من الأمور يقبل العذر فيه من فى مملكة مختلفة الأجناس مثل اوستريا - هنكازيا أو سويسرة كانوا لا يقبلون العذر فيه اذا صدر من مملكة غير مسيحية . على انه قد جرت حوادث كثيرة كان فيها النصارى على النصارى أغلظ من المسلمين على النصارى . وذلك كما جرى من البنادقة على أهل أثينا . ولكن الغيظ فى أواسط العائلات سريع الزوال فالعداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية . وقد قال المؤرخان « لافيس » Lavissee و « رامبو » Rambaud (٢) : « ان محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الترك والمغول بعيداً عن كل اضهاد دينى . وكانت حمومة الترك لا تعارض أحداً فى دينه وكان الاتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الارثوذكسية » ثم نقل هذان المؤرخان من القرآن هاتين الآيتين الكريمتين : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ثم : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

الا أن العداوة الدينية للاسلام لم تكن لتُنسى . فكل ما كان يفعله المسيحيون بالمسيحيين من الجور والظلم كان منسياً . وأى شئ وقع من الترك على النصارى كان

(١) سيأتى فصل فى هذا الموضوع نبين فيه وجهة الاسلام الحقيقية

(٢) هذان من أشهر مؤرخى فرنسة وكتبهما تدرس فى مدارس الحكومة

يقابل بالصيحة : ياللاتقام

وهناك سبب آخر لعدم الائتلاف وهو اختلاف السلائل فالترك طورانيون في السلالة ومثلهم البلغار . اما الروم والصرب والرومانيون فأريون . ثم ان هناك اختلافا في المشارب والأوضاع فالتركي جواد يكره ادخار المال والشح . والقرآن يمنع المسلم من الدين بالربا^(١) ولذلك كان من الصعب أن يثبت التركي في مجتمع مبني على المضاربات وتشمير رؤس الأموال . ولا جرم في ان هذه المبادئ شريفة في ذاتها ولكن الحكومة التي تأخذ بها لا تلبث ان نجد خزائنها فارغة وان كان لايسع الانسان الا الأعجاب بمنازع عالية نادرة كهذه
ثم ان احترام المعاهدات والعمل بموجب الكامة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ العثماني كله . فان كان الشعب التركي الآن قد غلب فانه قد فقد كل شيء
الا الشرف

ثم ذكر دجوقارا ملخص تاريخ الحركات الوطنية البلقانية وخروج الروملى من أيدي الترك وانهاء هذا الخلاف الذي استمر هذه القرون المتطاولة بين الترك المسلمين والبلقانيين المسيحيين وقال في اختتام انه لا يزال في أيدي الترك القسطنطينية وادرنه والبواغيز وبهذا السبب لهم دور عظيم وبعده كثيرا اتفاق الدول العظام على اخراج هذه الأما كن من أيديهم

قلت : قد تحقق قول هذا السياسي الروماني بعد الحرب العامة . فقد جد بعد الحرب العامة مشروعا تقسيم اتركيا هما أهم كل ما ذكره من مشروعات التقسيم : أولهما معاهدة سيفر ١٩٢٠ التي أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على امضاءها والتي نزع من يد تركيا جميع البلدان العربية وجعلت بلاد الأناضول التركية مناطق مقسمة بين دول الحلفاء وجعلت القسطنطينية نفسها - وان كان سيبقى فيها السلطان مقيا - تحت حكم لجنة دولية . فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركت تركيا أثرا بعد عين

ولكن الأتراك ثاروا عليها واعتصموا بالأناضول وجعلوا مركزهم أنقرة ورماهم الحلفاء بجيش اليونان فقاوموه واحتل اليونان قسما من بلاد الأناضول الا أن الأتراك نهضوا

(١) ويذكر هنا دجوقارا الآيات القرآنية التي تنهى عن الربا وتحث على امهال المديون الى وقت المسيرة

ونشطوا واستماتوا في سبيل استقلالهم فما زالوا حتى دحروا اليونان وأخرجوهم ومزقوا شملهم فاضطرت الدول أن تعود لمصاحبة تركيا على غير قاعدة معاهدة سيفر المنبوذة وعقدت مع تركيا معاهدة لوزان التي أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وأدرنه وأخرجت من يدها البلاد العربية كلها وكل ما كان لها في أفريقية وجزائر بحر الارخبيل الا الجزر المصاحبة للمردنيل تنيدوس وما جاورها

ولقد كان العامل الأعظم في بقاء تركيا وعدم اخراج الترك من الاستانة هذه المرة أيضاً هو اختلاف الدول وخوفهن من أن تحتل انكلترة الاستانة ولا تخرج منها فآثروا أن تبقى تركيا في الوجود وأن تبقى لها القسطنطينية على أن تكون لانكلترة وألفوا لجنة للبواغيز دولية ومنعوا تحصينها . وهكذا ثبت أن هذا الموقع العظيم الذي هو استانبول لا يزال بأهميته الجغرافية والسياسية والعسكرية هو السبب الأكبر في وجود تركيا

ولنعد الآن الى ذكر التسامح والتعصب وأى الفريقين أحق بأن يقال انه متسامح الاسلام أم أوربة ؟ مما كان هو أصل البحث الذي ساقنا الى تلخيص « مائة مشروع تقسيم لتركيا » فنقول :

قد شهد هذا الرجل الضليع في علم السياسة المطلع على تاريخها بما يندر أن يطلع عليه عالم آخر ان أشد التبعة في هذه العداوة المستمرة بين الاسلام والنصرانية انما هي واقعة على المسيحيين . قال هذا في مقدمة كتابه هذا المصدر بمقدمة من قلم « لويس رنول » Louis Renault من مشاهير أساتيد الحقوق والعلوم السياسية .

ثم ذكر في خلاصة كتابه أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للامم المسيحية التي كانت خاضعة لها لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالاً وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فانها الحقيقة التي لا شائبة فيها . ولذلك نجد ملاحظة انقرة يجعلون من حجة حججهم في التفصى من الشريعة الاسلامية قولهم انه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التي لزمتهام مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين وبأن

الشريعة كانت تمنع السلاطين من اجبارهم على الدخول في الاسلام أو الجلاء وقالوا ان السلطان سليما الأول أراد توحيد عناصر السلطنة واجبار المسيحيين على احدى خطتين الاسلام أو الرحيل فقام في وجهه زنبيللى على افندى شيخ الاسلام وقال له : « لا يحق لك هذا والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم »

ولقد كانت في السلطنة العثمانية عشرات ملايين من المسيحيين يعيشون وافرين مترفين كاسبين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الاسلامي . فلما جاءت الجمهورية التركية الحاضرة وبطل العمل بالشرع وأخذ الترك باوضاع الافرنج وقلدوهم في كل شئ وعولوا على سياسة « التمغرب » (غربلاشقى) لم يبق في جميع الأناضول الا فئة قليلة جدا من المسيحيين عدة آلاف . وان كان بقي في الاستانة نحو من مائة وخمسين الف نسمة فهؤلاء قد أبقاهم الدول بالاتفاق مع تركيا في مقابلة مسامى تراقيا الغربية الذين أبوا أن يتركوا أوطانهم ويرحلو الى تركيا عندما تقررت مبادلة السكان وأجلت الدول بمقتضى معاهدة لوزان المنعقدة سنة ١٩٢٣ المسامين الذين في الروملى الى الأناضول والمسيحيين الذين في الأناضول الى الروملى والمورة

وهذا برهان ساطع على سماحة الشرع الاسلامي وامكان تساكُن المسلم والمسيحي واليهودى في ظله بالأمان ولاطمئنان وعدم سماحة الطريقة الأوربية التي منذ أخذ بها الترك أصبحوا لا يقدرّون أن يساكنوا المسيحيين ورفضوا أن يدخلوا في مجلسهم النيابي نائباً واحداً مسيحياً أو يهودياً . وقد كنت أخصى عندما كنا في مجلس الأمة أيام الدولة العثمانية عدد نواب الأروام بخمسة عشر ونواب الأرمن بخمسة عشر وكان بيننا خمسة نواب من مسيحيي العرب أربعة منهم عن سورية ولبنان وواحد عن الموصل . وكان أيضاً عدد من نواب اليهود . وقبل الحرب البلقانية التي ذهبت بست ولايات من الولايات العثمانية سلانيك ومناسر وقوصوه واسكوب واشقودرة ويانيا وبقسم من ولاية ادرنه كان نواب المسيحيين في المجلس ضعف ما كانوا يوم كان محرر هذه السطور نائباً عن حوران من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٨

وبالاجال لما كان العمل في تركيا بمقتضى الشريعة الاسلامية كانت روح التسامح

والمساواة في الحقوق والوظائف هي السائدة في هذه المملكة. فلما اتخذ الأتراك خطة التفريخ أو « التمغرب » على رأيهم حصروا تركيا كلها بالترك وجدهم بدون نظر الى الأجناس الباقية عندهم . وكأنهم عاملوا بقية المسيحيين واليهود الذين في تركيا معاملة فرنسة لمسلمي الجزائر وإيطالية لمسلمي طرابلس مثلاً

ومن طالع تاريخ الاستعمار الأوربي وتاريخ الاستيلاء الأوربي سواء كان في القديم أو في الحديث علم أن الأوربي بمقتضى فطرته لا يطبق وجود غيره ولا يرى إذا ساد حقاً إلا لنفسه . فهو لا يقف بمجرد الوجدان كما يقف المسلم عن استصفاء حقوق من يستولى على بلاده بل إذا وقف لا يقف إلا بسبب قوة تصادمه أو بسبب موازنة يترجح بها عنده نفع الوقوف على ضرره . فأمّا إذا وجد نفسه قادراً أن يفعل ولا يلحق به ضرر فانه قلما يتوقف عن هضم حقوق الذين تغلب عليهم إلا نادراً . ولقد تراد من شدة أثره وطمعه واعتقاده أن له أن يمحصر كل شيء في نفسه أن يسمح لرعاياه أن يمارسوا شعائر دينهم مثلاً عند ذلك منة كبرى وأقامها حجة على تسامحه الديني . فقد قرأنا كثيراً من الخطب والمقالات لرجال الفرنسيين يمتنون فيها على مسلمي المغرب بأنهم لم يعارضوهم في دينهم وكأنهم يرون ذلك في الذروة العليا من العدل والنزاهة وكمال المدنية.

وقد نسوا أن الحرية الدينية حق طبيعي لكل إنسان وانها من أقدم الحقوق المقررة في تاريخ البشر منذ وجد البشر وأن لكل إنسان بحسب علم الحقوق العامة أن يدافع عن اية حرية دينية جرى عليها حجر أو تضيق في اية بقعة من الأرض وانه لم يعهد أن أمة مهما بلغ بها التوحش ان قامت وعارضت قوماً في دينهم . وان فعلت ذلك كما فعل الاسبانيول بمسلمي الاندلس مثلاً أصبح هذا الأمر حديث الاجيال وعده التاريخ وصمة أبدية لفاعليه على مر الأيام والليالي

ويا ليت الفرنسيين وقد تبجحوا باعطاء مسلمي المغرب حريتهم الدينية قد فعلوا وقرنوا القول بالعمل . والحقيقة أنهم منذ نصف قرن ساءرون في افريقية على خطة الكردينال لافيجرى والأب فوكو واضرابهم ممن زرعوا في عقولهم أنه مادام مسلمو المغرب مسلمين تبقى سيادة فرنسة على هذا القطر تحت خطر الزوال . وانه لأجل أن تأمن فرنسة على مستقبل أمرها في شمالي افريقية لا مندوحة لها عن تنصير المسلمين . ولقد

بدأوا بهذه السياسة في الجزائر ورأوا أن الأمة البربرية بكونها أبعد عن الاسلام من الأمة العربية تكون أكثر قبولاً للنصرانية فبثوا الدعاة والقسوس في كل مكان ولا سيما في جبل زواوة والبلاد التي يكثر فيها البربر وشادوا المستشفيات والملاجئ والمدارس الافرنسية الاكبريكية وكل ذلك على نية تنصير الأهالي وفرستهم وتعمدوا رفع التعليم الديني الاسلامي بقدر الاستطاعة. وهذا قد أشرنا اليه في الجزء الثاني من هذا الكتاب في بحث جزائر الغرب وفي الرد على روجر لا بون^(١). ولقد جدنا بعد ذلك حادث عظيم أبلغ الحق في العالم الاسلامي منتهاه وهو أن السلطة الافرنسية أجبرت سلطان المغرب مولاي محمد الشاب لمضى أيام قلائل على توليه السلطنة أن يوقع على ضهير يلغى العمل بالشريعة الاسلامية بين البربر وباشرت ذلك بالفعل وألغت المحاكم الشرعية في قسم كبير من بلاد البربر بالمغرب وسنت لهم قانوناً من العرف البربري يسيرون عليه بحجة أن البرابر طلبوا ذلك.

وأصبح البربر أجانب عن الاسلام لا في الأحوال الشخصية ولا في المعاملات المدنية. وفي الوقت نفسه أصدر الفرنسيين أوامر بعدم دخول الفقهاء والقرءاء ومشايخ الطرق الى بلاد البربر لاجل عزل هؤلاء عن الاسلام بالمرّة وتسهيل عمل القسوس في تنصيرهم. وقد بلغ بالسلطة الافرنسية الهوس في هذا الموضوع ان أصبحوا لا يسمحون لأي مسلم من العرب أو من سكان المدن عامة تاجراً كان أو صانعاً أو زارعاً أو غير ذلك أن يدخل بلاد البربر الا برخصة خاصة ومن يقدم على الاختلاط بالبربر أو يذهب الى قراهم بدون رخصة من الحكومة يعاقب. وفي أثناء ذلك تركوا الرهبان الفرنسيين وغيرهم من الدعاة يجولون في بلاد البربر كما يشاءون ويبنون المدارس الدينية والملاجئ والمستشفيات ووقع أن مسلمي قسبة اسمها زمور كانوا مباشرين ببناء مسجد لهم ففنعهم من بنائه الحاكم الافرنسي الذي يلي أمورهم وأعطى فسحة الأرض التي كانوا يريدون أن يبنوا فيها الجامع الى الرهبان لينبوا فيها كنيسة. والحال أنه ليس في هذه البلدة مسيحي واحد الا الحاكم الافرنسي. ووقع أيضاً أن أناساً من البربر استدعوا اماماً يصلي بهم في رمضان فمما بلغ الضابط الافرنسي الذي في ذلك المكان هذا الأمر قبض على الامام وحبسه ثم طرده. ووقع أن بعض زعماء البربر جاءوا الى مدينة رباط الفتح لأجل طلب ابقاء قضاتهم الشرعيين فألقتهم السلطة في

(١) راجع صفحات ١٧٥ — ١٨٧ وصفحات ٣٠٤ — ٣٥٩ من الجزء الثاني

السجن . وكان بعض زعماء البربر يرسلون أولادهم الى فاس ليتعلموا العقيدة الاسلامية واللسان العربي فمنعواهم من ذلك وأنذروهم ان فعلوا بعزلهم عن القيادة . والحاصل أن الساطة الافرنسية باشرت عملاً كان يحلم به لافي جري وفو كو والآباء البيض وتستكشف الحكومة عن الموافقة عليه بصورة رسمية فهذه المرة لم تستكشف عن ذلك وحاولت تطبيق البر وغرام الذي طالما حام في خواطر الكاثوليكين الافرنسيين وأرادوا الحكومة الافرنسية عليه ولم يتمكنوا . وقد أصدرت فرنسة هذا الظهير الذي انطلق عليه اسم « الظهير البربري » في شهر مايو سنة ١٩٣٠ أى منذ سنتين وزيادة وكان بطل هذه المعركة المقيم الافرنسي العام في المغرب المسمى سان الذي اشتهر بالنحامل على الاسلام وكان من قبل المقيم الافرنسي العام في تونس وفي أيامه انعقد مؤتمر الاخاريستيا - أى استحالة الخبز والخر بالتقديس الى جسد المسيح ودمه - في قرطاجنة وأنكر المسلمون ذلك وعدوه مظاهرة مسيحية دينية في بلاد سلامية وكان للمسيو سان هذا اليد الطولى في جعل هذه المظاهرة الصليبية في تونس ثم ان الفرنسيين رفعوا درجته وجعلوه المقيم العام في المغرب فجمع حوله عدة من متعصبة الكاثوليك كالجنرال « نوغيس » Navies والمسيو « سوردون » والمسيو « كورديه » واضرابهم واندرأوا يهيئون الطرق اللازمة لما أملاوه من تنصير البربر وتحقيق حلم كان المشددة من كاثوليك الفرنسيين يحامون به من زمن طويل . وجرأهم على هذه الخطوة الغربية ما رأوه من استنامة شيوخ المغرب والفئة المعجمة الى كل ما يراى بهم وعدم معارضتهم في قليل ولا كثير لارادة السلطة المحتلة ومن مملائة أكثر رجال « الخزن » أى الحكومة المغربية مثل الوزير المقرئ وغيره ممن لا يفكرون الا في ما آربهم الخاصة ويخشون على وظائفهم فيما اذا وقفوا في وجه السلطة المحتلة . وزاد جرأتهم على العمل انهم وضعوا على كرسي السلطنة شاباً هو ثالث أولاد المرحوم مولاي يوسف لا الأول ولا الثاني وجعلوا له مرشداً جزائرياً اسمه « المعمرى » يسوق السلطان الشاب الى ترويح مرضى الساطة الافرنسية في الدقيق والجليل بلا نزاع بل بلا تردد ويبين له انه ان أبدى أقل تلکوف في تنفيذ ارادة الدولة الحامية كان نصيبه الخلع والنفي وما أشبه ذلك . ولكن الفرنسيين في هذه النوبة لم يصح حسابهم ولا أصاب تقديرهم ورأوا من أهل المغرب في الحركة البربرية هذه غير ما كانوا ينتظرون . وقد كان الفرنسيين أرادوا مولاي يوسف

على اصدار الظهير الذي اجبروا ابنه على توقيعه فأبى أشد الآباء فما كاد يوارى التراب حتى جاءوا يضطرون على ابنه مولاي محمد في امضاء هذا الظهير الغريب وبواسطة المعمرى والمقرى تمكنوا من مرادهم وحسب لوسيان سان هذا فوزاً مميناً . ويؤكد العارفون انه كان بين الفاتيكان ولوسيان سان مراسلات خفية في قضية البربر وان الفاتيكان وعد سان اذا منع الاسلام من دخول بلاد البربر بدفع مبالغ طائلة نفقة بناء مدارس وكنائس ومستشفيات تبشيرية . وأخيراً صحت نيتهم على العمل وأرادوا أن يلبسوا هذه المسئلة ثوباً غير ثوبها الحقيقي وهو ان جل مرادهم بهذا الظهير هو ادخال اصلاحات عدلية واقامة البربر على اعرافهم كما يشتهون . الا ان هذا لم يقع أحداً لأنه لو كانت المسئلة مسألة اصلاحات عدلية لكان ذلك ممكناً بدون الغاء المحاكم الشرعية التي كانت تفصل في قضايا الأحوال الشخصية ولما كانت السلطة الافرنسية تمنع اختلاط العرب وأهل الحواضر بالبربر ولا تتعرض لمنع التعليم الاسلامي واللسان العربي بين البرابر وتصد عن بناء المساجد الى غير ذلك

فأهل المغرب ثاروا بأجمعهم من أجل قضية البربر هذه . فقد وجدوا السلطة المحتلة لم تكف بالاستئثار باراضيهم ومرافقهم ومعادنهم وحقوقهم السياسية والاقتصادية بل مدت يدها الى دينهم الذي تعهدت فرنسة في معاهدة « الحماية » التي بسطتها على المغرب باحترامه قائلاً « ان جميع الاصلاحات التي تقوم بها داخل المغرب لا تمس الدين الاسلامي في شيء ولا تجلب أي ضرر على الحالة الدينية ولا تلحق أدنى مساس بنفوذ السلطان » وعليه كانت ضوضاء شديدة هذه القضية وأكثر ما يحتاج لها الشبان والطلبة وخطبوا في جامع القرويين وجوامع اخر احتجاجاً على الظهير وطلبوا الغاءه وساروا جماعات في الشوارع صاخبين فلجأت السلطة الى القسوة وجلدت بالسياط نحو مائة شاب من الطلبة القرويين والقت في السجون مئات وقيل ألوفاً وغرّبت عدة من رؤوساء الحركة وكل هذا لم يفد فتيلاً في تسكينها . وأوفدت فاس وفداً الى السلطان في الرباط مؤلفاً من أعيان البلدة وعلمائها وقدموا له عرض حال وبكوا على الدين وعلى مساس سلطة السلطان التي حلت محلها على البربر السلطة المحتلة . ولكن لم يكن في يد السلطان شيء . وبقي لوسيان سان متمسكاً بتنفيذ ظهيره . فوصل صريح المغاربة الى مصر والشام والعراق والهند والجاوى وغيرها وأيقن المسلمون انهم ان خذلوا مسلمي المغرب في هذه المسئلة لم يمض زمن حتى تعرضت جميع الدول المسيحية للدين

الاسلامى أما على سواء أو بخط منحني وحاولت تحويل المسلمين عنه . ولذلك نشر أعيان مصر احتجاجاً شديداً على عمل فرنسة في قضية البربر أمضاه منهم الأمير الكبير عماد الاسلام وثمال كل مستضام الأمير عمر طوسون وزهاء مائة من كبار مصر وعلمائها وزعمائها وتوالت الاحتجاجات على فرنسة من كل فج وإلى جمعية الأمم وقامت الصحف الاسلامية وقعدت لهذا الحادث . ولما انعقد المؤتمر الاسلامى في القدس الشريف في أواخر السنة الماضية أصدر قراراً بالاحتجاج على الظهير البربرى وكل قانون تقصد به احدى دول الاستعمار رأساً أو بالواسطة تحويل المسلمين عن الاسلام وأبلغه المؤتمر الى جمعية الأمم بواسطة الوفد السورى الفلسطينى في جنيف . وكان قد بسط القضية البربرية المذكورة في المؤتمر الشاب الأديب الفاضل السيد مكى الناصرى الذى كان من ممثلى المغرب في المؤتمر . كما انه نشر بعد ذلك رسالة قيمة عنوانها « فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى » جمعت كل الوثائق والأدلة التى لا تقبل الرد ولا المباحكة على المراد الحقيقى من قضية هذا الظهير البربرى وهو تحويل البرابر عن الاسلام الى النصرانية بطول الزمن وبقطع شأفة الشرع الاسلامى والتعليم العربى من بينهم . وكان شبان المغاربة في باريس نشروا رسالة بالفرنسية في هذا الحادث عنوانها « عاصفة فوق مراکش » Tempete sur Le Maroc فمن شاء الاطلاع الوافى على هذا البحث فليقرأ هذه الرسالة ورسالة السيد مكى الناصرى المار ذكرها . وفي ٦ صفر سنة ١٣٥١ نشر كاتب هذه الأسطر رسالة في « الجامعة العربية » في القدس الشريف في هذا الموضوع آثرت أن أنقلها الى هذا الكتاب لنستغنى بها عن اعادة الشئ نفسه وهى :

ان الحكومة الافرنسية عند ما تتبرأ من دسيمة تنصير البربر وتزعم أنها بالغائها المحاكم الشرعية من بين البربر لم تقصد اخراجهم من الاسلام وانما قصدت معاملتهم بمقتضى عرفهم الذى هم متمسكون به ! تدخل في مأزق ضيق لا مخرج لها منه الا بالرجوع عن هذه السياسة العقيمة السقيمة التى ثلمت اسم فرنسا في العالم وألحقت بها ضرراً كبيراً

أولاً — ان مسلمى المغرب بالاجال متفقون على أن هذا الظهير لم يكن الا دسيمة لاجراج البربر من عقائدهم وأوضاعهم الاسلامية وانه ليستحيل تواطؤ أمة عدة ملايين على الكذب

ثانياً — انه من سنتين كاملتين لا تزال احتجاجات أهل المغرب متواصلة منها ما هو

بتلاوة الأدعية العامة في المساجد ومنها بالخطب ومنها بالكتابة في جرائد فرنسا ومنها بنشر كتب خاصة بالفرنسية والعربية ومنها بتوزيع منشائر بين الأهالي ومنها بغير ذلك .

ثالثاً — قد ضرب من أحل القيام على هذا الظهير نحو من مائة شاب من طبقة القرويين بفاس وجلدوا بالسياط جلداً مبرحاً وحبس مئات في فاس والرباط والدار البيضاء ومكناس ونفي عدد كبير من الوجوه والطلبة والادباء ولا يزال بعضهم منفيين الى هذه الساعة ويستحيل أن يكون كل هذا من أجل محض توهم .

رابعاً — قد تألف وفد بعد صدور الظهير بشهرين وذلك من أعيان فاس وعمامتها وتجارها وقصدوا السلطان في الرباط وشكوا له من هذه الفادحة التي فيها ما فيها من الخطر على الدين الاسلامي في المغرب وعلى سلطنة السلطان نفسه وأبدوا له ما فيها من التناقض مع تعهد فرنسا في المعاهدة الافرنسية المراكشية باحترام الدين الاسلامي وأوضاعه وقدموا له عريضة وصلت اليها صورة فوتوغرافية منها فنشرناها في مجلتنا « لاناسيون آراب » في العدد الثامن من اعداد سنة ١٩٣٠ وشاع يومئذ ان السلطان الشاب كان يبكي مما سمعه من وفد فاس ولكنه لم يقدر على شيء كما لا يخفى

خامساً — لم يكن المسمون وحدهم هم الذين شهدوا بأن قضية الظهير هي قضية مقصود بها اخراج البربر من الاسلام ، بل شهد بذلك عدد كبير من كتاب الفرنسيين أنفسهم من الأحرار ومن ذوى الوجدان لأن في هذه الأمة من الشرف والنزاهة وحرية الفكر ما لا ينكره أحد ، ولم يكن هؤلاء الذين كتبوا واحتجوا في الجرائد هم الاشتراكيين فقط بل احتج على قضية الظهير البربري رجال ليس بينهم وبين الاشتراكيين أدنى صلة مثل الميسو اوجين يونغ ومثل الميسو دريمنغهم العالم الفاضل الذي هو معدود من كتاب المسيحيين . . . وقيل لي ان المستشرق الشهير الميسو ماسينيون وهو كاثوليكي النزعة أيضاً يريد خلاص فرنسا من قضية هذا الظهير الذي شان سمعتها

وكل من يحب فرنسا ويحب كرامتها لا يرضى لها بهذه الدسيسة البربرية التي جرّها اليها الميسوسان وبعض أشخاص من الفئة الاستعمارية الذين يقولون بقول الكردينال لا فيجري وأمثاله بأنه لا يمكن أن تأمن فرنسا على شمال افريقية الا بتحويل مسلمي المغرب الى الدين المسيحي . . . ان هذه المبادئ لو أعلنت في القرون الوسطى لأنكرها

الناس وأكبروها فكيف في هذا العصر وانه ليستحيل على المسامين أن يرضوا بتعرض فرنسة للدين الاسلامي في المغرب لأن المسامين لو قدر وساموا كل شيء يملكونه على وجه الأرض فإن أمرين لا يتساهلون فيهما أبداً ما دام في الدنيا مسلم واحد وهما عرضهم ودينهم سادساً — انه غير معقول وغير متطابق وغير منطقي أصلاً قول الحكومة الافرنسية اننا نحن لم نقصد اخراج البربر من الاسلام وانما ألعينا المحاكم الشرعية من بينهم نظراً لتمسكهم بعرفهم ! فإن المسلم لا سيما في الأحوال الشخصية لا يكون مسلماً الا اذا اتبع شريعة الاسلام وما دام البربر يقولون انهم مسلمون فلا بد من أن يكون لهم قضاة مسلمون والا فيكونون معدودين قد خرجوا من الاسلام أو يكون المقصود تهية خروجهم منه ويكون بقاؤهم على الاسلام بالاسم موقفاً الى أن يكون انقرض منهم طبقة البالغين الحاضرين سابعاً — لنفرض الحال وان الغاء المحاكم الشرعية لا يعنى به الغاء الاسلام من أصله فنحب أن نسأل الحكومة الافرنسية ما معنى منع فقهاء المسامين وحفاظ القرآن الكريم والأئمة والمؤذنين وكل خدام للدين الاسلامي من التجوال في بلاد البربر ؟ فإن هذا المنع قد وقع فعلاً وكان كل انسان يريد الذهاب الى قرية من قرى البربر لشغل خاص أو لتجارة أو أى عمل من الأعمال لا يؤذن له في الذهاب الى هناك الا بتذكرة جواز يعلم عليها. وقد شددت الحكومة الافرنسية في المغرب في هذا المنع تشديداً ارتفع به عويل الناس الى السماء لأن البلاد مختلطة بعضها ببعض وعلاقات العرب والبربر وأهل المدن متشابكة وبرغم هذا كله بقي المسيو سان مصراً على منع الاختلاط بين العرب والبربر ولم نسمع انه بدأ الناس يحولون في القطر المغربي بدون تذاكر جواز وعاد مشايخ الدين وحلة القرآن يترددون الى قرى البربر التي كانوا يترددون اليها الا منذ عهد قريب وذلك أيضاً تحت المراقبة

ثامناً — بمقابلة منع الفقهاء وحفاظ القرآن من التجول في بلاد البربر كان القسوس والمبشرون قد ملأوا السهل والوعر وباشروا بناء الكنائس والمدارس وذلك في أما كن ليس فيها مسيحي واحد وقد حصل ان أناساً من البربر كانوا يريدون بناء مساجد جمعوا لها أموالاً وأوقفتم السلطة الافرنسية عن بنائها. وحصل أيضاً ، وعندنا اسم المكان والحاكم الذي فعل ذلك ، ان أهالي قصبة كانوا مبشرين ببناء مسجد في أرض خاصة بالوقف الاسلامي فنعمهم الحاكم الافرنسي الذي بتلك القصبة من البناء وأعطى قطعة الأرض نفسها للربان

الفرنسيسكانيين وبنوا فيها كنيسة وهذا وليس في تلك القصة التي يقال لها زمرور مسيحي واحد . ان الفرنسيين يحتجون على عملهم هذا بكون الاتراك الانقيريين أبطالوا العمل بالشريعة الاسلامية وانهم هم لا يجب عليهم أن يحافظوا على الشرع أكثر من الاتراك المسلمين أنفسهم ، والجواب على هذا ان الاتراك وان كانوا خالفوا الشريعة في بعض القوانين التي أدخلوها في حكومتهم فلا يزال أهالي تركيا مسلمين ولا يزال لهم رئاسات دينية في كل بلدة ولا يزال المقتون هم المنفذون للشريعة والحكومة تمنع اية دعاية دينية مسيحية بين المسلمين كما تمنع أية دعاية اسلامية بين المسيحيين أو اليهود فالمسلمون في المغرب لا يحاولون بث الدعاية الدينية الاسلامية بين المسيحيين ولكنهم يطالبون فرنسا بعدم ترويج الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين و بعدم حمايتها بالقوة العسكرية والسياسية فان فرنسا تزعم انها دخلت المغرب لأجل أن تحمي السلطان وتحافظ على الدين الاسلامي وشعائره وهذا صريح في المعاهدة التي وقعت بينها وبين مولاي عبد الحفيظ والحال اننا نراها اليوم كأنها انما دخلت لترويج دعاية دينية كاثوليكية وتحميها بالقوة السياسية والعسكرية . وغريب جداً ان أمة تعد نفسها في مقدمة الأمم المتقدمة تنقاد الى سياسة كهذه ارضاء لخواطر بعض الاكابر يكيين من الفئة الاستعمارية .

تاسعاً — ان المؤامرة في قضية الظهير البربري لم تقع على الدين الاسلامي وحده بل على الثقافة العربية بأجمعها فانهم منعوا التعليم العربي بين البربر بتناً وقد ثبت أن بعض زعماء قبائل البربر كان لهم أولاد يتعلمون العربية في فاس فأندروهم بسحب أولادهم من هناك أو يقطعوا لهم رواتبهم وقد ثبت أيضاً انهم لا يريدون ان يتعلم البربري الا اللغة البربرية وبجانبها اللغة الفرنسية فقط وهذا كما ثبت ان بعض زعماء من البربر جاءوا الى الرباط يلتمسون ابقاء القضاء الشرعي في ديارهم فقبضوا عليهم والقوهم في السجون ارباباً لهم ولغيرهم وسدأ لهذا الباب .

عاشرأ — ان كثيرين من الافرنسيس كانوا لا يصدقون باجراء هذه السياسة المقصود منها تحويل البربري عن الاسلام ويعتقدون ان المسئلة عبارة عن اصلاحات عدلية عماله عادة ان يجري في تركيا ومصر اللتين أدخلتا في بلادهما كثيرا من القوانين الاوربية . ولكن لما مضى على ذلك زمن واطلعوا على الحقيقة وعرفوا ان المسئلة ليست مسألة

اصلاحات عدلية وان كل المقصود هو انسلاخ الامة البربرية من الدين الاسلامي ، ولما كان التعرض للاديان من الامور التي يستقبحها الرأي العام بأسره والتي هي مخالفة للدستور الافرنسي فقد شرعوا يقبحون هذه السياسة في المغرب وقد اطلعنا منذ أشهر على مجلة راديكالية تطالب الحكومة بالرجوع عن هذه السياسة وتقول ان فرنسا لم تكن قط دولة دينية ، بل حرية الاديان فيها مقدسة . وأخيراً اجتمعت الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان في باريس وقررت ما يلي :

« ان الشعبة الخامسة من جمعية حقوق الانسان بعد أن اطلعت على ماجريات القضية البربرية وعرفت ما حصل في المغرب على أثر الاحتجاجات التي قام بها الاهالي على الظهير الصادر في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ طلبت من اللجنة المركزية ان تسعى لدى الحكومة الافرنسية في المغرب بتخلية سراح المنفيين محمد اليزبدي وعبد اللطيف الصبيحي وعبد اللطيف العنابي ومحمد شماعو الذين أبعدها بسبب القضية البربرية وبالاحتجاج على خطة الساطة الافرنسية في المغرب بتكافلها مع الرهبان الفرنسيين في تعرضهم للاسلام مما أقام العالم الاسلامي كله على فرنسا . وان الشعبة المذكورة تطلب من جميع جمعيات حقوق الانسان الفرنسية أن تقوم عصبه واحدة وتذكر الحكومة الافرنسية بان حرمة العقائد والضمائر ينبغي أن تكون أساساً لعلاقات فرنسا مع جميع الامم من كل الاجناس والاديان وان تحتج على سياسة الادماج التي هي جارية في المغرب وذلك بناء على أنه من الحق الطبيعي لكل شعب أن يترقى ضمن دائرة ثقافته الخاصة »

فمن هذه الأسباب كلها نقول ان سياسة فرنسا في القضية البربرية كانت سياسة تهوور حملها عليها ماجد بعد الحرب العامة من الاعتقاد عند بعض الاوربيين ان سياج الاسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مد اليد الى دين المسامين كما امتدت الى دينهم . وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الاوربي بحقائق أحوال العالم الاسلامي مهما زعم انه مطلع عليها . ومن حيث انه كما قلنا نجد كثيراً من الافرنسيين حتى من غير الاحزاب الاشتراكية يستنكرون هذه السياسة البربرية ويودون لو ترجع حكومتهم عنها ، فقد صرنا بعد فوز الفرق الشمالية في الانتخابات نرجو ان تتألف حكومة راديكالية تبتعد عن الصبغة الاكيريكية أكثر من الحكومات السابقة وتقضي على هذا الظهير البربري الذي ألحق

باسم فرنسا عيباً كبيراً وآسف كل محبيها

ومن قبل ان تأتى هذه الحكومة الجديدة وصلت الينا معلومات جديدة بالنأمل وهي مطابقة لما كنا نعتقد من ان الحكومة الفرنسية لابد أن تعود الى التبصرون ترضى لنفسها بهذه الضوضاء القائمة حول الظهير البربرى وذلك ان نظارة الخارجية الفرنسية قد استفتت بعض العلماء المتخصصين في الامور الاستعمارية وسألتهم عن رأيهم فيما يجب أن يكون العمل به في العدلية البربرية وعلمنا ان من جملة من استفتتهم فرنسا العلامة سنوك هوركرونييه المستشرق الهولاندى الشهير المعداد الآن رأس المستشرقين في أوروبا فقد سأله هكذا: «ماذا كان موقف الحكومة الهولاندية أمام القانون العرفى المعروف عند الاهالى بالعادات فى الجاوة وماقولكم فى جمع عوائد البربر بشكل قانون وتطبيقها عليهم مع العلم بانهم مسامون لاشك فى اسلامهم ؟ »

فاجاب الأستاذ هوركرونييه بتقرير طويل قائلاً فيه : « ان هولاندا لم تحاول قط أن تجعل من العادات الأصلية القديمة قوانين رسمية تعاقب من يخالفها وجل ما عملته فى هذا الباب أنها جعلت فى بعض النواحي طائفة من العادات وأعطتها اسم قانون خاص Gode Privé ولم تجبر الاهالى على الخضوع له . أما فى القضية البربرية فان جمع عوائد البربر بشكل قانون ومحاولة تطبيقها يعد خطأ فاحشاً وذلك أن الفائدة هى فى تحويل العرف وتطبيقه على روح المجتمع الحاضر فاما اذا جعلت تلك العوائد وجعلت قانوناً فانها تصير عقبة فى وجهه ترقى المجتمع لأن العرف البربرى هو عبارة عن عادات وأوضاع نشأت فى وسط متأخر بسيط فتطبيقها الآن بعد أن ارتقى المجتمع وكثرت المعاملات واشتبهت المصالح وصار البربر أهل عقار وتجارة هو مما يرجع بهذا القوم الى الوراء وقد يضر الفرنسيين أيضاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان وسطاً متديناً كالوسط المغربى لا يفيد فيه الا قانون له صبغة مقدسة بحيث يعد خرقه جريمة لا أمام ضمير الانسان فقط بل أمام الله تعالى . وليس العرف البربرى بذى صبغة دينية بل هو ، مع تأخره وسذاجته وعدم موافقته لمجتمع راق ، فاقد الصفة المقدسة التى تجعل من خالفه يخاف من ربه » وقال العلامة هوركرونييه : « ان من مصلحة فرنسا الحقيقية أن لا تحكم فى المغرب الا بالقانون الذى له أكبر حرمة فى نفوس أهل المغرب والذى هو مرتبط بعقيدتهم الدينية وان بذلك لو تأملت فرنسا زيادة فى تأمين

حقوق المستعمرين . »

فلجنة المصالح الاسلامية في الخارجية الفرنسية نصحت الميسوسان المقيم العام في المغرب بالرجوع عن خطئه واستشهدت له بما فعلته هولاندا في الجاوة . فكان جواب الميسوسان بالاصرار على تطبيق الظهير البربري زاعماً أن هولاندا طبقت العوائد القديمة على كثيرين من مسلمي الجاوة وتأتى لها ذلك . وحقيقة الحال أن هذه المحاولات ان كانت من فرنسا أو من هولاندا هي صادرة عن مبدأ واحد وهي محاربة الشريعة الاسلامية التي تزرع في قلوب المسلمين روح الاستقلال . ولكن لا فرنسا ولا هولاندا تتجنى من هذه المحاولات سوى عداوة الاسلام ويجوز أن تكون هولاندا في بعض أمانا كن من الجاوة قد أرادت أن تجرب هذه التجربة من بعد ما بدأت بها فرنسا في المغرب لا من قبل ذلك ، نستدل على هذا من الاحتجاجات التي حصلت من مسلمي الجاوة في المؤتمر العظيم الذي عقدوه مؤخراً والذي احتجوا فيه أيضاً على عمل فرنسا في المغرب^(١)

فالمسلمون غير مخطئين في خوفهم من التساهل مع فرنسا في القضية البربرية لأنها قضية متعلقة بالدين الاسلامي فاذا ساع لفرنسا أن تقطع وتصل فيما يتعلق بالدين الاسلامي في شالي افريقية لم تبق دولة أوربية لها رعايا مسلمون الا حذت حذوها وربما زادت عليها ومن المعلوم أن ثمانين في المائة من الثلاثمائة والخمسين مليون مسلم الذين على وجه الأرض هم رعايا لدول غير اسلامية . فاذا بدأ البشق الديني كما بدأ البشق الديني ولم يصدده المسلمون من الآن بكل شدة كان الخطر على الملة الاسلامية باجتماعها أكثر مما يتصور المتصورون وذابت ذوباناً في الأمم الأخرى بعد أن كان القرآن لها جامعاً مانعاً

حدانا الى هذه المقالة ما نأمله من الحكومة الافرنسية الآتية قريباً من المحافظة على شرف فرنسا والرجوع مع الاسلام الى السياسة التي تزول بها هذه الضوضاء القائمة من أجل قضية البربر وبهذه المناسبة نوصي القراء بمطالعة الرسالة الأخيرة التي ظهرت في هذه المسألة تحت عنوان « فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى » المتضمنة تقريراً مقدماً الى المؤتمر الاسلامي العام وجميع مسلمي العالم من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب والمصدر بمقدمة لندوب الأمة المغربية في المؤتمر الاسلامي السيد محمد المنكي الناصري الذي شفا

(١) اقرأ جريدة حضرموت عن جلسات هذا المؤتمر

الغليل من هذا الموضوع بحسن بيانه وقوة برهانه وبالوثائق التي لا تمكن المكابرة فيها وبأدلة لا يستطيع الخصم نفسه أن يمارى في شئ منها . فعسى أن الحكومة الافرنسية الجديدة تتوخى في هذه المسألة الخطأ التي ترضى العالم الاسلامي وتحفظ المبدأ العام الذي اتفقت عليه الأمم والاقوام من عدم المساس بالاديان وتلغى الظهير البربرى الذى تدهورت فيه بدلالة أناس اكليريكيين كان من أقبح الآراء أن يعهدوا اليهم بالادارة في بلاد اسلامية . » انتهت المقالة »

فمن كان يظن أن حكومة تقول انها لادينية وتدير أمة راقية من أرقى الأمم كالأمة الفرنسية ترضى لنفسها ولأمتها بالسير على خطة دينية تبشيرية مخالفة للنزاهة وللحرية الدينية المقدسة ولعهود فرنسة نفسها . ومن كان يظن أن لوسيان سان وهذه الزمرة التي حوله يتغلبون على الحكومة الافرنسية الراقية ويسوقونها الى ما لا يليق بسمعتها فضلاً عما يضر بمصلحتها

وهذا كله انما هو راسخ من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التي لم يتمكن العلم العصري من اقتلاع جذورها من رؤوس الاوربيين لا سيما الأمم اللاتينية منهم وتأمل في الأعمال التي أقدمت عليها ايطالية في طرابلس الغرب والموبات التي ارتكبتها جنودها منذ عشرين سنة في ذلك القطر البائس^(١) مما لم يسبق له مثيل الا في القرون الوسطى وقد يكون من باب النادر في القرون الوسطى نفسها ومن جملة ذلك أنهم أخرجوا ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة وأسكنوهم في صحراء قاحلة من أرض « سرت » وأماتوا بذلك جانباً كبيراً منهم وجميع مواشيهم وارتكبوا في هؤلاء المساكين من الفظائع والشنائع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وأخيراً اغتصبوا من أيديهم أطفالهم من ذكور وإناث ممن فوق سن الأربع الى سن ١٥ سنة وحاولهم الى ايطالية لأجل تنشئتهم في الدين المسيحي وهذا برغم آبائهم وأمهاتهم وبرغم الصراخ الذي ملأ الفضاء في ذلك اليوم . وقد فصلوا الطفل عن أبيه، وأخذوا الطفلة عن ذراع أمها ولم ترق قلوب الطليان لبكاء ولا لعويل ولا تأملوا في عار ولا شئ ولا في مخالفة هذا العمل لحقوق الأمم التي لا تجعل للحكومة سلطة

(١) راجع رسالة الفظائع السود الحمر أو التمددين بالحديد والنار التي انتشرت في هذه السنة

على القاصرين في وجود آبائهم وأمهاتهم ولا في مخالفته للعاهدة التي بين تركيا وإيطاليا على طرابلس والتي تعهدت فيها إيطاليا بحفظ حقوق المسلمين في عقائدهم وأعراضهم وديانهم وأموالهم . وأغرب من هذا كله أنهم يعترفون بعملهم هذا ولا يرجعون عنه وتفتخر به حكومة الفاشيست في مجلس الامة الطليانية تصدر به القرارات وتنشر في الجرائد . وقد عم الصريح العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه بما جرى من الطليان على مسلمي طرابلس وملأت الاحتجاجات رومة وجنيف وغيرهما ولم يزل الفاشيست على غيهم ولم يزل العرب المطرودون من الجبل الأخضر ساكنين في بادية سرت ورواية جرائد إيطاليا هي أن منهم خمسة آلاف نسمة أذنت لهم الحكومة في الرجوع الى بيوتهم . وما كان المقصد من اقصاء هؤلاء الثمانين ألفاً من العرب الا أخذ أراضيهم وتسليمها للمستعمرين الطليان يتمكنون منها ولا ينازعهم أحد

اتنا اذا تأملنا في هذه الاعمال وعلمنا أنها صادرة من أمم تزعم أنها تريد أن تلقى دروس التهذيب على العالم وجدنا أن أعرق الامم الاسلامية في الغباوة والبداءة لا تتنزل الى مثلها . فلا وجه اذاً للمقايسة بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي في التسامح وعدم التسامح . ان الاستبداد المطلق لا سيما في الدين هو منزع أوربي محض ولا يقاس المسلمون بالاوربيين في هذا الامر في قليل ولا كثير

ولم يستطع الفيلسوف الافرنسي ارنت رنان Benan انكار ذلك لكنه حاول نعليه بكونه تراثاً مسيحياً أخذه النصارى عن اليهود . قال في الصفحة ٢٣٨ من « حياة يسوع » طبعة سنة ١٩٢٥ ما يلي

« نعم قد كانت المسيحية غير متسامحة في الدين ولكن عدم تسامحها هذا لم يكن مسيحياً في جوهره بل هو وضع يهودي فان اليهود هم أول من قرروا الحصر المطلق في الديانة وزعموا أن كل مبتدع ولو جاء بالمعجزات أدلة بين يديه يجب المسارعة الى رجمه وبدون محاكمة . ولا انكار أن العالم الوثني كان أيضاً غير متسامح احيانا لكن لو كانت عنده هذه القاعدة لما كان ممكناً أن يتنصر . فاليهودية هي التي أعلنت عقيدة سرمدية مسلحة بالسيف . فلو كانت النصرانية لم تتابع اليهود في بغضائهم العمياء ولو كانت الغت ذلك النظام

الذي كان السبب في موت مؤسسها لكانت بدون شك أثبت مبدأ ولنفعت النوع الانساني
أكثر بكثير « اه

ونحن لا نوافق رنان على هذا التعليل من جهة حصر منشأ هذا التعصب الاعمي في
تراث المسيحيين عن اليهود . بل نقول ان أعظم السبب فيه هو الغريزة الاوربية المبنية
على الاثرة والطمع والجشع وحب التسلط في كل شيء مما يثبت بالحروب الكثيرة الاوربية
التي منشؤها الاطماع وناهيك بالحرب العامة شاهداً . فالنصرانية كانت دين سلام ورفق وحلم
وتوصية بالفريق وبكاء على الخزين وفيها هذا المبدأ الشريف : « أحبوا أعداءكم فان
كنتم تحبون أصدقاءكم فأى فضل لكم » فلما دانت بها الامم الاوربية تلونت بلون الآنية
التي انصببت بها وانقلبت الى ما نراه عليه الآن من الاستبداد والحصار وامتاز أتباعها من
الاوربيين لا سيما اللاتين بسدة العداوة والشنآن خلافا لما كان يأمر به السيد المسيح على
خط مستقيم

مباحث اجتماعية

تدخل في غرض هذا الكتاب

المشكيب

خلط الاوربيين في قضية الشرع الاسلامي ورميهم اياه بالجود
لتعلقه بالمعاد والمعاش معاً

قرأنا وقرأ غيرنا وما زلنا نقرأ هذه الخرافة التي معناها أن سبب تقهقر المسلمين هو
النشريعة الاسلامية بسبب كونها أحاطت بامور المعاد والمعاش معا وجاءت بأحكام سرمدية
لا تتغير ولا تتبدل وقضت بتطبيقها في كل زمان ومكان بدون نظر الى اختلاف الأزمنة
والأمكنة الى غير ذلك من الأقاويل التي منهم من يلقفها من دون روية ولا انعام نظر ومنهم
من يعلم سر المسئلة لكنه يتجاهل ذلك عمداً كراهية منه للإسلام وعملاً لهدمه ، ومنهم
من يرويهِ كحكاية حال ويظن أن لهذا الأمر بعض التأثير في الحالة التي آل اليها المسلمون
وهؤلاء كصاحب كتاب « مائة مشروع لتقسيم تركيا »

وأغرب من هذا أن بعض المسلمين الجغرافيين وفي طليعتهم الأتراك الاتقريون
شيعة مصطفي كمال قد وافقوا هذه الفئة من الأوربيين على مزاعمها هذه وذهبوا الى أن
تأخر الممالك الاسلامية وتأخر تركيا انما جاء عن اختلاط أمور الدين بالدنيا وعن عمل
المسلمين بشرع سماوى أرادوا أن ينفذوه مفرداً وأن يجعلوه سرمداً وأن يردّوا اليه كل شيء
ولهذا كان لا مندوحة للامم الاسلامية بزعمهم اذا أرادت الرقي في معارج الفلاح من أن
تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التي أصبحت لا تصلح لعصر كعصرنا هذا ولا مفر لها من
الآخذ بشرائع وقوانين انما صلحت لهذا العصر لكونها وُضعت بهذا العصر . وطابت
للأتراك الكماليين كلمة أخذوا يلوكونها بألسنتهم ويظنون أنهم أتوا فيها بالقول
الفصل ! وهي : « نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول » . وطابت

لمقلدة الاتراك الانقريين من أهل مصر وغيرهم وان كانوا نزرأ في عددهم أن يرددوا ما يردده الكاليون بدون تأمل في حقائق الامور ولا في حقائق تلك الالفاظ التي يلوكونها وحقيقة الحال أنه ليس في الدنيا شرع ولا قانون يخلو من « قال » و « قالوا » ولا يستقي في منابعه الى قواعد وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئتين من السنين وربما من آلاف من السنين .

فكون الانقريين عملوا بمقتضى « قلنا » و « نقول » وأرادوا مساوقة العصر الحالى هو غير صحيح . وهم ما أرادوا الا « التفرنج » لا غير . ولم يكن عمل الاتراك بمجلة الاحكام العدلية هو الذى منع تركيا من الرقى بل كان عملها بمجلة الأحكام العدلية في المعاملات المدنية هو عين الحكمة والصواب لان القاعدة في القوانين هي أنها لا تفيد الا اذا كانت مطابقة لأذواق الأقوام التي تطبق في محاكمهم وموافقة لمشاربهم وعاداتهم وأخلاقهم .

فعندما أخذ الاتراك بقانون سويسرة المدنى وبقانون الجزاء الايطالى أخذوا بقوانين بعيدة عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم بعد المشرق عن المغرب وما اظلم استفادوا منها شيئاً الا التحير في القضاء والصعوبة في التطبيق وقد بلغنى أنهم اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة في هذه القوانين بعد ان كانوا قبلوها على علاتها وحاولوا تطبيق قوانين جارية في زوريخ وبرن على أهالى وان وبتلس ومعمورة العزيز

فأما خلو القوانين التركية الجديدة من « قال » و « قالوا » فقد كفانا اظهار ما في ذلك من السفسطة « موريس برنو » Pernot الكاتب الافرنسى في رحلته المسماة « في آسية الاسلامية » على كون هذا الكاتب المفكر هو من أشد الاوربيين ابتهاجاً بخلع أنقرة للتقاليد والقواعد الاسلامية . لم يلم الاتراك الكاليين على العمل بقوانين أوربية وانما انتقد زعمهم أنهم انما أخذوا بقوانين لا تستند على أقوال ماضية .

ففي الصفحة ١٩٠ من كتابه هذا يذكر برنو جلسة في مجلس النواب بانقرة ألقى فيها الغازى مصطفى كمال خطبة في معنى التجدد قال فيها : « ان التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لاحوال الزمان لا للبادئ ولا للتقاليد » قال برنو : « وبعد رئيس الجمهورية قام محمود أسعد بك ناظر العدلية وورقى المنبر

وقال : « ان الشعب التركي جدير بان يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . وقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة « قال » المقدسة . فاما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن وان نقول نحن » وقد قوبلت هذه الجمل بعد كلام الغازي بابتهاج شديد وأشد من رأيته مبتهجا بها أحمد أغايف القوقاسي ويونس نادى ومختار بك وذلك لأن هذه الافكار هي أفكارهم وفي تصفيقهم كانوا يصفقون لفوزها » قال موريس برنو :

« الا أن هذه القضية التي قررها الغازي ومحمود أسعد فيها نظر . فاذا نظرنا الى القانون المدني الذي استعارته تركيا من سويسرة فهل يجهل مصطفى كمال أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما روماني والآخر مسيحي ؟ وهل يجهل الدور الذي تلعبه في هذه القوانين العادات القديمة والعرف الجاري الذي يريد هو الغاءه ؟ لعمري أن كنا نريد أن نأخذ بمبدأ الغازي هذا لزم أن نقول أن على أهل كل عصر أن يلغوا الاحكام القضائية التي كان يعمل بها أهل العصر الذي سبقه وان لا يعملوا الا باحكام جديدة بحجة أنها أوفق للزمان الذي يعيشون فيه » . اهـ

ان موريس برنو هو من الفئة التي استحسنّت كل ما فعلته أنقرة من الخروج على العقائد والقواعد الاسلامية ومع هذا فلم يقدر أن يهضم هذه السفسطة التي معناها أن القوانين العصرية لا يجوز أن يكون فيها مبادئ وأصول قديمة . وان هذا القانون المدني السويسري التي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولاً وقواعد ترجع ان التشريع الروماني القديم فهي أقدم عهداً من الفقه الاسلامي الذي يزعم مصطفى كمال أنه الغاء بسبب توغله في القِدَم^(١)

وأما قانون العقوبات الايطالي الذي اتخذته تركيا لنفسها أيضاً فهو قانون روماني مسيحي وايطالي كاثوليكي وفيه من الاوضاع الالائنية القديمة والاعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره الا المكابر فكيف يكون مصطفى كمال سيّر أمته على نهج عصرى محض لا مدخل فيه لقال ولقالوا ولا رأى عتيق ؟ ولقد نسي الغازي أن القوانين ينبغي أن تكون لا وفقا للزمان فقط بل للكان أيضاً وان بين المكانين تركيا وسويسرة وايطالية

(١) فكيف يكون القديم مكروهاً منبوذاً والأقدم منه مقبولا معولا عليه في وقت واحد .

بونا شاسعا في المشرب والمذهب والعرف والعادة . وناهيك أن جميع سويسرة بلاد مرتبطة بعضها ببعض وسكانها لا يبلغون أربعة ملايين وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد بل تجد في المقاطعة الواحدة قانوناً غير قانون المقاطعة الثانية وذلك بحجة اختلاف الاعراف والعادات بين المقاطعتين . فاذا كان هذا هو تأثير الخلاف بين مقاطعة ومقاطعة في سويسرة فكيف تكون لعمري درجة الاختلاف بين سويسرة وتركيا . واذا كان القانون الذي تمشى عليه جنيف لا يوافق أهل لوسرن مثلاً وكل المسافة التي بينهما بضع ساعات فكيف يوافق قانون سويسرة أهالي ديار بكر وسيواس وقره حصار مع أنك اذا عرفت هذه وعرفت تلك ظننت أن الارض غير الارض والسموات

ان الذي قصده مصطفى كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفريط وان تفهم أوربة انهم هم نبذوا التقاليد الاسلامية ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط وأقاموا مقامها قوانين أوربية . وليس أدل على ذلك من كون المجلس الانقري يوم قرر اتخاذ قانون سويسرة المدني قرر قبوله بأصباره بدون مناقشة ولا تعديل وبقيت قضاة تركيا مدة طويلة لا تكاد تفهم من هذا القانون شيئاً . وما باثروا تعديل القانون السويسري الذي اتخذه قانوناً مدنياً الا بعد اتخاذه ببضع سنوات . أما قانون العقوبات الايطالي الذي اتخذه للأموور الجزائية فان ايطالية نفسها عادت فأدخلت فيه تعديلات توخت فيها زيادة المطابقة بينه وبين مبادئ الكنيسة .

وسواء كان هذا أو ذاك فليس في أوربة قانون غير متأثر بالتعليم المسيحي والتشريع الروماني . وعليه يكون من الخطأ البين الاعتقاد بأن القوانين الأوربية هي كلها من باب التشريع الانساني الصرف وأنه لا مدخل فيها للمبادئ الدينية ويكون تحكما القول بأن الشريعة الاسلامية وحدها هي التي جعلت بين أحكام الدنيا والآخرة ! ومن طالع الشرائع الانسانية عرف أنها بأجمعها سهاوية بشرية أي أنها راجعة الى أصول دينية واجتهادات بشرية معلقة عليها . وليس الشرع الاسلامي وحده ناصاً على أمور الدنيا والآخرة بل الشرع الموسوي أيضاً وديانة سيوا التي هي عقيدة أهل الهند وديانة بوذا التي هي عقيدة أهل الصين . وأما الانجيل فليس كتاب تشريع وانما هو كتاب مواعظ وآداب أراد بها السيد المسيح صلوات الله عليه تهذيب النفوس وتطهير الأخلاق واعادة الخلق الى روح

الشريعة الموسوية فلم يرد الاتيان بشرع جديد لكنه نبه على وجوب اتباع الشرع القديم فالعهد الجديد اكمل للعهد القديم لا نقض له كما صرح بذلك المسيح نفسه . فيكون الانجيل أيضا لم يخرج عن الشرع السماوي وتكون دعوى بعضهم من أن الانجيل لم يتعرض لأمر الدنيا غير صحيحة . وبعبارة أخرى اذا نظرنا الى الحقيقة نجد الشرائع كلها راجعة الى أصل سماوي ولكن قد فرّع الناس منها بقدر الاستطاعة وبحسب احتياجاتهم وبعد التجارب المتعددة ومع مراعاة الأزمنة والأمكنة وأخذ بعض الناس في هذا عن بعض فكل قبيل قلد قبيلًا فيما هو موافق لحاله ونبذ ما هو غير موافق لحاله وجميع المسترعين انما يقصدون الرفق بالعباد وحيطة الحق ما أمكن ويرمون الى غرض واحد هو مصلحة الأمة . وهذا ما يسميه المسلمون بالاجتهاد وقد بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم وقد عظم على من تضيق صدورهم بالاسلام أن يكون فقهاء الاسلام بلغوا من الاحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجود أحكامها ما بلغوه فزعموا أن أئمة الاسلام انما أخذوا مأثورا به عن الفقه الروماني . وهذا من أغرق المزاعم في الباطل ولقد تقدم لنا في هذا الكتاب البحث في هذه المسئلة ونقلنا فيها كلام العلامة صاوا باشا الرومي الذي فنّد هذا الزعم وأثبت كون أئمة الاسلام انما فرعوا على أصليين هما القرآن والحديث ولكنهم أضافوا اليهما الاجماع والقياس فتوسعوا في الفقه ما ندر أن يكون تيسر لغيرهم وكل من زعم ان الفقه الاسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا يكون اطلع على شيء من تاريخ الرسول ولا أصحابه ولا التابعين . فالشرع الاسلامي هو شرع سماوي باعتبار الأصل وتشريع انساني باعتبار الاجتهاد والتفريع . وكذلك القانون الروماني نفسه بعد ظهور النصرانية تلوّن بلونها . وصاوا باشا يقول طبق ما أسلفناه في أول هذا الفصل وهو : ان السيد المسيح قد اقتصر على الوعظ بأدب عالية كانت أعلى من كل ماعهده البشر من نوعها ولكنه لم يقصد تبديل الشرائع التي كانت موجودة في عصره وانما تأثر الفقه الموسوي والفقه الروماني بالعقيدة المسيحية التي كانت قد بدأت تنتشر في المجتمع وما كان لشريعة قوم من الأقوام الآن تتأثر بديانتهم . فالآداب المسيحية قد كان لها تأثير عميق في الفقه « الروماني البريتوري » وأما الفقه اليوستينياني ^(١) فقد كان تشريعا مسيحيا بحتا الخ

(١) نسبة الى الامبراطور الروماني يوستينيانوس

وقد ألف فائز بك الخورى من أدباء المسيحية السوريين والحقوقيين البارعين تأليفاً في الفقه الروماني والفقه الاسلامي وأثبت عدم اشتقاق هذا من ذاك . وعلى أى الأحوال لم يكن الفقه الاسلامي وحده هو الذى يرجع الى وحى سماوى بل جميع الترائع قد بنيت على أصول دينية أو تأثرت بها . وهذه الأصول الدينية قسمان عبادات ومعاملات فقسم العبادات متعلق بالبارى تعالى الأزلئ الأبدى الذى لا يتغير فلم يكن من شأن عبادته أن تتغير ولا كان دين من الأديان ولا الدين المسيحى مما جرت العادة أن تتغير أصوله بحسب الزمان والمكان . وأما قسم المعاملات فهو وإن كانت له أصول من القرآن والسنة فقد كان فيه مجال الاجتهاد واسعاً وكانت مصدحة الأمة هى المحور الذى يدور عليه ذلك الاجتهاد . وأينما تكون المصلحة فتم دين الله .

ومن نظر الى الكليات الفقهية مثل قولهم : العرف قاضٍ والعادة محكمة ولا ينكر تبدل الأحكام بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات وإذا ضاق الأمر اتسع وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن وعلم أن المذاهب الأربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلئ قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلأ أدرك من مرونة الشرع الاسلامئ ومن سعة مذاهبه ومن تنزله على كل الحوادث ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل ولا يريد أن يدركه المتعنت . ولا شك أن جود بعض فقهاء الشرع الاسلامئ وشدة تعصبهم لكل شئ قد سبق العمل به وشدة نفورهم من كل أمر محدث ولو لم يكن فيه منافاة للشرع وعدم اجازتهم العمل الا بما علموه ولو كانت المصلحة المتعينة تقتضى خلافه وتهافتهم على الجزم بحرمه مالم تثبت حرمة برغم ماورد من التشديد والتدمير على كل من يقول بالخلال والحرام بغير علم كل هذا قد اتخذ اعداء الاسلام حجة على الشريعة الاسلامئة بأنها جامدة وبأنها لا تلتوى مع الوقت وبأنها لا تسع جميع الحوادث وبأنها قد تخالف المصلحة وقد يضطر المسلمون الى ترك المصلحة من أجلها وغير ذلك مما ترمى به الشريعة ظلاماً وعدواناً . والحق فيه ان الشريعة لا يمكن أن تخالف المصلحة لأن هذه انما جاءت لمصالح العباد والله لا يشرع لهم الا ما ييسر أمورهم ولا يجعل عليهم فى الدين من حرج . وكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون مخالفة للشريعة وما يقال انه مخالف منها للشريعة فغير معترف بكونه مصلحة فان تعين المصلحة ليس بالأمر السهل وقد يظن

بعضهم المصلحة في شيء يظن غيرهم انها في خلافه لاختلاف الذوق وقد يجمع أكثر الأمم على اصطلاحات وعادات هي في الواقع مخالفة للمصلحة مثل اجاعهم على الربا الذي مهما يكن من عمل العالم المتمدن به فليس هو من المصلحة الحقيقية فلا يجوز أن يقال ان تحريم الشرع اياه مخالف للمصلحة وأما المصلحة الحقيقية فلا يمكن أن يأبى الشرع بضدها وقد رأينا أموراً عدل فيها الفقهاء الى العرف وتركوا نصوص الكتب الشرعية وذلك بعد أن تبين لهم ان المصلحة هي في اتباع العرف الجاري في ذلك المكان المعين وقد رأينا أموراً ترك فيها المسامون ظاهر الشرع لضرورة قضت عملاً بكون الضرورات تبيح المحظورات وبأن الأمر اذا ضاق اتسع . وليس بصحيح ان المسلمين لا يعملون الا بنص من الكتاب أو السنة بل هم يعملون بالنص ما وجدوه فان لم يجدوه عملوا بالقياس . وما منع علماء الاسلام العمل بالرأى لافي القديم ولا في الحديث . وغاية ما في الامر انهم اشتروا في الرأى بلوغ مرتبة من العلم يصح بها اعطاء الرأى . وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئاً لأن الاجتهاد له شروط لا يصح بدونها . وليس لكل انسان أن يجتهد وان يستنبط أحكاماً شرعية . وهذه رتبة عالية جداً لا يرقاها الا من أحاطوا بالكتاب والسنة ووصلوا الى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشري ما تتجلى لهم به وجوه المصالح ويظهر مكان سد الذريعة . واما الرأى في نفسه لمن قدر عليه فلم يمنع احد وكل رأى اتفقت عليه الامة اجازوه وقالوا ان الامة لاتتفق الا على صواب واستدلوا على جواز العمل برأى الامة بقوله تعالى : (وأمرهم شوى بينهم) وقال ابن قيم الجوزية في « اعلام الموقعين » كانت النازلة اذا نزلت بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم . وعن شرح القاضي قال قال لى عمر بن الخطاب : « افض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ فان لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فان لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصالح . » وكتب عمر الى شرح : « اذا حضرك أمر لا بد منه فانظر ما في كتاب الله فاقض به فان لم يكن ففيما قضى به رسول الله فان لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فان لم يكن فانت بالخيار . فان شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك وان شئت أن تؤمرني ولا اري مؤامرتك اياي الا خيراً لك . »

ومن كتاب لعمر الى أبى موسى الاشعري : « ثم الفهم الفهم فيما ادلى اليك بما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ثم قايِس الامور واعرف الامثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق »

ولما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل والياً على اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال اقضى بما في كتاب الله : قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيي لا آلو . ففرح رسول الله ﷺ بقوله هذا وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله

وربما قيل : الا ان رأى في الفقه الاسلامي لا يصح الا اذا كان ضمن دائرة الاسلام ولم يصادم الكتاب ولا السنة . وكأنهم لا يرون القضاء موافقاً للدينية العصرية الا اذا كان غير مقيّد بالكتاب والسنة . وليس هذا الافلات بضروري أصلاً اذا كان الكتاب والسنة لا يأمران الا بما فيه المصلحة ولا يحملان الناس على ما فيه ضرر لهم ومادام خير الأمة اينما كان هو رائد الشريعة فن الظلم ان تهم الشريعة بضيق العطن ونقول انها لاتسع النوازل وهي قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الاصول الكلية التي يرجع اليها والحاصل ان جميع الشرائع تقريباً لها أصول دينية مرعية مقدسة عند اتباعها ولم تختص بذلك الشريعة المحمدية . وجميع الشرائع أيضاً قد توسعت وتكملت بالاجتهادات البشرية التي اختصت منها شريعة الاسلام بالقسط الأوفى . ولم تختص بذلك القوانين الأوروبية وحكاية جود الشرع الاسلامي على وتيرة واحدة وأنه لا يتقدم ولا يتأخر ولا يراعى تغير زمان ولا مكان هذه من جملة الدعايات التي يبشّرها أعداء الاسلام ورواد الاستعمار الأوروبي ويدخلون بها على ناشئة المسلمين بالشبه التي تكره اليهم هذا الشرع وتحجب اليهم المروق منه وهذا جل ما تبغيه أوربة من الدعاية في هذا العصر بين المسلمين لمعرفة انها ما دام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين كان هؤلاء يرون خضوعهم للأجانب ذنباً لا يغفره الله لهم الا بالاستقلال التام وعاراً لا يرحضه الا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التي تغلب فيها عليهم . وأية مصيبة على أوربة أعظم من هذه !

قضية فصل الدين عن السياسة

ويدخل في هذا الباب قضية « فصل الدين عن السياسة » وزعم الفئة الدساسة من رواد الاستعمار وأعداء الاسلام ان أوربة قد فصلت الدين عن السياسة بتاتاً وطلقت هذه من هذا ثلاثاً وانه لم يبق من يخلط الدين بالسياسة ويجعل للحكومة صبغة دينية الا المسلمون الذين لم ينظروا الى ما حولهم من المحدثات العصرية التي من جعلتها جعل الدين في واد والسياسة في واد . وقد مشت هذه الأغلوطة على كثير من المسلمين وآمنوا وصدقوا ان الدول الأوروبية تفصت من كل نزعة مسيحية وأنها لا تعرف شيئاً سوى الانسانية العامة وان الدين المسيحي لا تهتم به حكومة من حكومات أوربة أكثر مما تهتم بغيره من الأديان ! وانه ان كان المسلمون يريدون أن يفلحوا فلا مناص لهم من الاقتداء بالأوربيين في هذا المشرب ولما كان الأوربيون قد نزعوا من حكوماتهم كل صفة مسيحية كان على المسلمين المقتدين بهم في طلب الفلاح أن ينزعوا عن حكوماتهم كل صبغة اسلامية بحيث تنظر الى الدين نظر من لا ناقة له في الأمر ولا جل . ويسمون هذا المنزع « باللايقية » Laïcisme ومعناها مالميس « باكليريكي » ويجزمون بأن أوربة قد نزعت هذا المنزع وعضت عليه بالنواجذ وانه لم يبق من يقيم للدين وزناً الادول الاسلام ومن أجل هذا هي متأخرة متقهقرة !

ولقد روج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقرة لغرض في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجاً من العقيدة الاسلامية وصرفهم عن اللغة العربية فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الاسلامي أجنياً عن الحكومة التركية كما ان الدين المسيحي هو بزعمه أجني عن الحكومات الاوربية الراقية ! وتابعه في ذلك الحزب الذي يسمى في تركيا « خلق فرقه سي » والذي هو من أوله الى آخره أشبه بجند لمصطفى كمال تحت قيادته لا يملكون معه قبضاً ولا بسطاً . فألغوا جميع ما تشتم منه رائحة الاسلام من أوضاع الحكومة التركية وأبطلوا المحاكم الشرعية بعد أن أبطلوا العمل بالشرعية وألغوا الوزارة التي كان اسمها « مشيخة الاسلام » وجعلوا مكانها دائرة صغيرة تابعة لنظارة الداخلية سموها « ديانت ايشي » أي أمور الديانة . وحذفوا من دستور تركيا المادة التي فيها « ان الاسلام هو دين الجمهورية التركية » وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا إقامة مراسيم العيدين النحر

والفطرو قالوا ان الحكومة التركية لا تعرفهما ولكنهم وجدوا فيما بعد أن المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبي لا بد لهم من الاحتفال بهذين العيدين فعادوا في السنة الماضية يعطلون دوائر الحكومة فيهما وعاد رئيس الجمهورية يقبل فيهما التهنئة

وأما الكتابة التركية بالحروف العربية برغم كل ما جرى لها من المعارضة فقد كان تحليلها في ظاهر الحال تسهيل التعلم على النشء وتقصير المدة اللازمة للقراءة وللمن الغرض الحقيقي منها كان اقضاء الترك عن العرب وابطال قراءة القرآن تدريجاً وأهم من ذا وذا اقناع أوربة بأن تركيا قد تفرنجت تماماً وأنه صار من العدل أن تدخل في العائلة الأوروبية ولهذا الغرض الأخير نفسه حمل مصطفى كمال الأتراك على لبس القبعة ليزدادوا اندماجاً في الأوروبية . ولقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا في حياتها العلمية والأدبية والاقتصادية والتجارية وتعذرت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية فأنحصرت في فئة قليلة وقلت المكاتبات والمراسلات بين الناس وقل جداً عدد القراء للكتب والجرائد وأصبحت الجريدة التي كان عدد قرائها يحصى بالالوف لا يقرأها ولا خمسمائة شخص وصارت الحكومة مضطرة أن تقوم باودها .

وازدادت الكتابات الرسمية صعوبة فتأخرت أشغال الناس لدى الحكومة . ودفرت ملايين من الكتب غفرت بذلك بيوت لا تحصى . وأما من الجهة الفنية فالحروف اللاتينية برغم ما أدخلوا من العلامات على بعضها لا يتواءم اللفظ التركي حقه لا تؤدي اللفظ التركي الصحيح في كثير من المواضع فلذلك قد تغير بها اللفظ التركي عن أصله وصارت كأنها لغة جديدة . ثم ان الحروف اللاتينية المنفصلة وإن كانت أسهل في القراءة والكتابة فإنها تأخذ من الفسحة على القسطاس وتستغرق من الوقت للكتابة أكثر مما تستغرق الحروف العربية بكثير وإن الكتابة العربية هي أشبه شيء بالاختزال Sténographie وإنها أوقع على مبدأ الاقتصاد في الزمن والمكان وأقرب أن تكون كتابة العصر الحالي المبني كل وضع فيه على الاختصار والاقتصاد

ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة في تركيا ولكن الغازي لا يزال مصمماً على جعل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حباً بالنفرت

والذين لا يعلمون حقائق الأحوال يظنون أن الأتراك راضون مغتبطون بالغناء

الشريعة الاسلامية من المحاكم ورفع التعليم الدينى من الكتاتيب والمدارس واجبار النساء على السفور وخلط الاناث والذكور فى دور العلم وحمل الأوانس على الزفن مع الشبان ولبس القمعة والكتابة بالحروف اللاتينية الى غير ذلك مما أحدثته الحكومة الأنقرية الكمالية ويقولون انه لولا رضى الترك بذلك لثاروا بحكومتهم ولأسقطوها ولردوها عن ثنديات الطرق ! ولكن الذى يتأمل فيما تحمله الشعب التركى من المصائب وما نوجز من الحروب المستمرة بدون انقطاع ويعلم أن جيران الاتراك كلهم واقفون لهم بالمرصاد ينتظرون أول غرة ليهتبلوها وينقضوا عليهم ويعيدوهم أثراً بعد عين والذى يفكر فى أن آمال الاتراك كانت بعد الحرب العامة قد انقطعت من الاستقلال وان كثيرين منهم ومن جلتهم عصمة دشا رئيس وزارتهم الحالية كانوا يذهبون الى طلب « انتداب » أمريكا أى وصايتها على تركيا ومع هذا فقد أذن الله بأسباب متعددة يطول شرحها أن تتمكن تركيا من استرجاع استقلالها وأن تعود دولة كسائر الدول ولوم من الدرجة الثانية نعم الذى يستعرض أمام نظره جميع ما أناخ على تركيا من المصائب والنوائب التى تدك الجبال يفهم لماذا هى صابرة على مرارة هذه الاوضاع الاجتماعية التى هى مخالفة لمذهبها ومشرعها وعاداتها وذوقها ولماذا هى تفضل الخضوع لها على الثورة والانتفاض والتطريق للاعداء أن يعودوا فيقضوا على تركيا كما كانوا قرروا على أثر الحرب العامة

أما العقيدة الاسلامية فلم تززعها حتى الآن فى تركيا هذه السياسة اللادينية ولا يزال الشعب التركى شديد الاعتصام بعروة الدين الوثقى تدل على ذلك مظاهره الدينية فى استانبول وغيرها مما لم يخف على الافرنج الذين أشاروا اليه فى جرائمهم . ولن يكون خطر على اسلام الشعب التركى الا ان استمر الحكم الحالى مدة طويلة ونشأت الافواج الجديدة على ما هى عليه من فقد التعليم الدينى . والانقريون يزعمون أن المدارس الاميرية فى فرنسة ليس فيها تعليم دينى وانهم هم انما يقتدون بفرنسة . ولكنهم يتجاهلون أن المدارس الخاصة والمدارس العائدة للرهبان وللأساقفة وللجمعيات الدينية من كاثوليك وبروتستانت هى فى فرنسة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولذلك التربية الدينية لا يمكن أن يخشى عليها هناك . هذا من جهة فرنسة . ونعود فنقول من حيث ان تركيا اتخذت لنفسها قانون الجزاء الايطالى ومن حيث انها على أتم الموالاة لاطالاية وبين الدولتين اتفاق سياسى كما لا

ينبغي فلماذا لا تريد ان تقتدى بايطالية في جعل التعليم الدينى من أهم برامج المدارس الاميرية . وأيضاً فالأمة الالمانية التى هى فى الذروة العليا من المدنية تفرض التعليم الدينى فى جميع مدارسها . وأيضاً فالأمة الانكليزية التى هى أعظم الدول قوة وسلطاناً فى الارض تعتنى مزيد الاعتناء بالتعليم الدينى فى مدارسها الابتدائية والثالية والعالية . ولا نعلم من حكومات الارض كلها الا ثلاثاً يحاربن الديانات وقد الغين التعليم الدينى من مدارسهن وهن الروسية والمكسيك وتركيا

ثم ان فرنسا وان كانت حكومتها ذات صفة لادينية فى القانون فانها تظهر فى كل فرصة بمظهر دينى مسيحى لا يقدر القائل ان يجد فيه مقالاً . ولما مات المسيو بريان استدعت الحكومة رئيس اساقفة باريز وصلى على جنازته فى نفس نظارة الخارجية . ولما مات المارشال فوش والمارشال جوفر أقيمت لهما مراسم دينية فى فرنسا وفى سفارات فرنسا فى الخارج . ومن شهرين أقاموا حفلة دينية فى كنيسة الانقياليد بباريز تمثلت فيها الحكومة الافرنية وذلك شكراً لله على انتصار الجيش الفونسوى فى المغرب وافتتاحه لواحة تافيلالت واستمطاراً للرجة على أرواح الذين قتلوا منه فى المعارك . الى غير ذلك من المظاهر الدينية التى تقوم بها الحكومة الافرنية والتى شهدنا منها نحن فى سورية أيضاً مالا مجال فيه للراء . ولولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الافرنية تعضد الآباء البيض والفرنسيسكانين وسائر المبشرين الجائلين فى الجزائر وتونس والصحراء والسودان الغربى وتمد بضيعهم وتسهمل امامهم عقبات تنصير الأمم الاسلامية وغيرها . وهذه القضية البربرية التى قام لها العالم الاسلامى وقعد ولا يزال الفرنسيين متمسكين بها ان هى الامظهر تحت حكم الجمهورية الثالثة من مظاهر فرنسا فى أيام لويس التاسع . فكيف تكون فرنسا الرسمية قد خلعت عنها الرداء الكاثولىكى وكيف يسوغ فى الاذهان قول ينفى فيه ظاهر الحال

وهذه الدولة البلجيكية قد جعلت فى بروغرام حكومتها الرسمى العمل لتنصير زنوج مستعمرتها الكونغو . وهذه الدولة الايطالية - صديقة تركيا - جعت الوفا من أطفال عرب طرابلس أخذتهم من بين أيديهم والديهم بالقوة وحملتهم الى ايطالية لأجل تربيتهم فى الديانة الكاثوليكية ولم تبال مافى ذلك من خرق العهود والاعتداء على أقدم حرية بشرية وهى الحرية الدينية . وهذه الحكومة الالمانية الحاضرة قد ضبطت منذ أشهر نشرات شيوعية

بحجة انها تتضمن دعاية لهدم الدين المسيحى. وكان الدكتور شترزمان قد أعلن في الرايخستاغ قائلاً : « ان الثقافة الالمانية مبنية على النصرانية » . وقبل الحرب العامة كان امبراطور المانية وملك بروسية هو الرئيس الرسمى للكنيسة اللوثرية كما ان ملك انكلترا الآن هو الرئيس الرسمى للكنيسة الانكليكانية

وماذا يقول الانسان في تدين الامة الانكليزية الشديد كبارا وصغاراً ومن جميع الطبقات حتى من طبقة الاشتراكيين . وكل أحد يعلم المناقشات التى ثارت في مجلس اللوردة الانكليزى ومجلس البرلمان الانكليزى من أجل سر استحالة الخبز والخمر بتقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فانه لم يعلم الناس مسألة أخذت من الأهمية في انكلترا ما أخذته هذه المسألة حتى ان المرضى من اللوردة حضروا جلسة هذه المسألة محمولين بالأسرة . وتحرير الخبر ان في الكنيسة الانكليكانية التى عليها دين المملكة الرسمى خلافاً قديماً في قضية الخبز والخمر . فالجناح الأيمن من رجال الكنيسة يقولون بما تقول به الكثلركة وهوانه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز الى جسد الرب والخمر الى دمه بناء على كون المسيح فى العشاء السرى مع الحواريين ناولهم من الخبز وقال لهم : « هوذا جسدى ومن الخمر » وقال : « هوذا دمي »

فالكنيسة الكاثوليكية والمحافظون من الكنيسة الانكليكانية المنشقة عنها يقولون انه كلما قدّس الكاهن على الخبز والخمر ولفظ هذه الجملة التى قالها السيد المسيح ينقلب الخبز الى نفس جسد المسيح الحقيقى والخمر الى دمه . وأما الوسط والجناح الأيسر فيقولون ان هذه الاستحالة مستحيلة بذاتها مخالفة للعلم والفن وأن الخبز لا يمكن أن يتحول الى جسد المسيح ولا الخمر الى دمه بالمعنى الحقيقى وانه يقدر كل يوم ملايين من القسوس فكم مليون مرة كل يوم يقع هذا التحول لجسد واحد ؟ فلا يمكن أن يكون كلام المسيح هذا الارمزاً بحيث إذا حصل التقديس يتذكر الناس جسد الرب ودمه تحت صورة الخبز والخمر . وقد طال هذا الجدل بين الفريقين ولم تكن فئة منهما توافق الثانية واستظهر حزب الوسط والشمال بكتاب الصلاة الذى فيه عقيدة الكنيسة الانكليكانية والذى بمقتضاه لا يكون هذا الكلام الارمزاً . فاعترض حزب اليمين على ذلك وطلبوا تعديل هذا البند من كتاب الصلاة . ولما كان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترا وفيه نص بأنه لا يجوز أن يعدل منه لا كثير ولا قليل الا بقرار مجلسى اللوردة والعموم جاءت هذه المسألة الى هذين المجلسين .

وكانت الحكومة قد حولت هذه المسئلة الى مجلس مؤلف من كبار المطارين وذلك من سبع وعشرين سنة جرت المذاكرة في هذا المجلس الأسقفي ولم يحصل اتفاق بين المطارين أنفسهم على هذه النقطة وهى : «هل استحالة الخبز والخر حقيقة أم رمز»؟ ثم قرر المجلس الأسقفي بالأكثرية كون الاستحالة حقيقة وطلب تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بها . وعند ذلك عرضتها الحكومة على مجلس اللوردة فبعد مناقشات شديدة قرر اللوردة بالأكثرية تنفيذ قرار المجلس الأسقفي الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربرى أكبر أساقفة انكلترة . ولما كان لابد لأجل تعديل كتاب الصلاة من قرار مجلس العموم أيضاً طرحت الحكومة هذه القضية فيه وانبرى ناظر الداخلية واعترض على اقتراح تعديل كتاب الصلاة وصرح بأنه لايرضى بالرجوع الى عقيدة الكنيسة الرومانية وان كتاب الصلاة هو دستور كنيسة انكلترة فلا يمكن تعديل شئ منه الا برضى أكثرية الأمة ثم رد على مزاعم الفئة الثانية وقال إن هذه الاستحالة المسماة عند الكاثوليك بسر الانفراستيا مشروط فيها الابتهاال الى روح القدس وان هذا الابتهاال الى روح القدس لم يكن واقعاً فى الكنيسة الانكليزية فلا يمكن تمام هذه الاستحالة مع فقد هذا الشرط . وأبدى الناظر المذكور وأعاد فى هذا الموضوع بحيث عند الاقتراح كانت الأكثرية فى جانب عدم التعديل لكتاب الصلاة وفى جانب ان قضية الخبز والخر لم تكن الا شيئاً مجازياً . وما اتفق مجلس العموم يومئذ الاعلى اضافة جل دعائية جديدة تتلى لأجل الملك والعائلة المالكة ويبتهل فيها الى البارى تعالى بنصرهم وتأييدهم الخ . فالبرلمان الانكليزى المؤلف من نواب ليست لهم صبغة دينية نقض قراراً دينياً محضاً متعلقاً بالعقيدة كان قد قرره مجلس أساقفة تحت رئاسة رئيس أساقفة كنتربرى فأنت ترى أن مسألة دينية صرفة كهذه قد كانت مدار جميع هذه المناقشات فى مجلسى الشيوخ والنواب فى أعظم دولة أوربية وأعلاها كعباً فى المدنية . وترى أيضاً أن ملك هذه الدولة هو نفسه رئيس كنيستها وهو الذى يدعى له على منابر كنائسها بموجب دستور ايمانها كما يدعى للخليفة على منابر الاسلام . بل الدعاء للخلفاء والملوك فى المساجد لم يتفق على وجوبه جميع مجتهدى الاسلام . وأما الدعاء لملك الانكايز فى الكنائس فقد اتفقت عليه شيوخ الأمة الانكليزية ونوابها . فهذا الذى يسمونه بفصل الدين عن السياسة ؟ ويزعمون أن أوربة اتخذته قاعدة أساسية لسياستها . لاجرم أن هذا تضليل للأذهان وبهتان

ما وراء بهتان

ان فصل الدين عن السياسة هو فصل ادارى كما هناك فواصل في سائر فروع الادارة بعضها عن بعض وانه ليس من المعقول ان الدول الراقية لا تنكثرت لامور الدين وهو الذى عليه يحيا ويموت السواد الاعظم من رعاياها . فالدولة التى لاتهتم بأموار رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرّة . وأما ان تنفصل الامور الدينية عن الامور الدنيوية فذلك ضرورى لانزاع فيه الا أنه لايفيد ان الدولة بفصلها هذا عن ذاك قد أهملت تعزيز ديانة قومها . بل نحن أولاء نجد ملوك أوربة ورؤساء جمهورياتها ورؤساء جمهوريات امريكا لا يدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحى والتصريح على الملأ بالعمل فى سبيله الا انتهرزوها . ولقد مرّت بي خطبة لرئيس جمهورية الولايات المتحدة وخطبة أخرى لما زار يك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا كل منهما صريحة فى هذا المعنى

وهذه هى الامة اليابانية التى هى اليوم أرقى أمة شرقية ومن أرقى أمم البسيطة أمة شديدة التمسك بعري دينها وعاهلها هو رئيس الكهنة الاعظم وايام تنويجه اقامته الحكومة مراسم احتفال استمرت شهراً وكانت كلها مراسم دينية . ومما يعتقدون به ان العاهل هو من سلالة الآلهة ابنة الشمس وانه لا بد ان يؤاكلها فى احدى الحفلات الارز المقدس وهم يزرعون هذا الارز من قبل الاحتفال بأشهر وتزرعه الحكومة تحت إشراف الكهنة حتى لاتشوب قدسيته شائبة . ولقد كنت من بضع سنوات نشرت فى الصحف نقلاً عن « الجورنال » الباريزى بقلم المسيو « سان بريس » تفاصيل المراسم الدينية الملوكية التى أقيمت لعاهل اليابان عند تنويجه . وكذلك نشرت فى الصحف خلاصة مناقشات الخبز والخمر فى مجلسى اللوردة والعموم فى انكلترة . وهذا ليفهم الشرقيون وبخاصة المسمون تضليل أولئك المضللين الذين يحاولون اقناعهم بهذه المغالطة وهى انه لما كانت الامور الدينية منفصلة بحكم الضرورة عن الامور الدنيوية كان يجب الاستنتاج من هذه التفرقة الادارية البراءة من الدين ونقض اليد منه !

وأما عضد الدول الأوربية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحى فهذا موضوع ذوبال وطويل الأذبال قد نذكر له خلاصة فى مكان آخر الا اننا نوصى فيه القراء بمطالعة كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » تأليف المسيو « لُ شاتليه » رئيس تحرير مجلة « العالم

الاسلامى » الافرنسية المترجم بقلم السيدين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب صاحب جريدة « الفتح » التى لها فى النضال عن الاسلام المواقف العظام والخدمات التى لا يحصىها مرور الايام

وخلاصة القول ان فصل الدين عن السياسة لم يكن معناداً فى أوربة والممالك المتمدة اهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته اذ أن الحكومات انما هى ممثلة للشعوب فكما تكون الشعوب تكون الحكومات وما دامت شعوب أوربة وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولاً واحداً . وما دامت أمة اليابان طاوية فحكومتها طاوية وما دامت الصين بوذية فحكومتها بوذية وما دام أهل صيام يعبدون الفيل الأبيض فحكومتهم تسجد للفيل الأبيض

وليس فى الدنيا سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطنياً وظاهراً وهى الجمهورية الجزائرية والروسية والجمهورية الكمالية الانقرية وحكومة المكسيك وذلك كما قال المسيو « شارل موراس » الكاتب الافرنسى المشهور

أما سبب محاربة البلاشفة للأديان فهو انهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين فى مملكة عد أهلها ١٤٢ مليوناً كلهم متدينون وهم يعامون انه ان عادت الكنيسة الارثوذكسية الى الظهور كان لابد من اعادة الحكم القيصرى أو تأسيس حكومة جمهورية مسيحية فلا تبقى منهم ولا تذر وستتأثر من البلاشفة عن كل ما سفكوه من الدماء التى أسالوها أنهاراً . فالبلاشفة فى محاربة الدين يجاحشون عن خيوط رقابهم لا أكثر ولا أقل

وأما المكسيك فان أحبار الكتلثة كان لهم فيها الكلمة العليا وكانوا مستبدين بكل الأمور فوق الخصام بينهم وبين رجال الحكومة واشتد الى أن تحولت الحكومة نفسها الى عدو لدود للديانة . وهذا أمر لا يلبث أن يزول ويعود الدين هناك كما فى سائر البلاد الامريكية . وأما أنقرة فان الغازى يعلم أن المبدأ الدينى فى تركيا هو والسلطنة توأمان فهو يعمل لتوهينه اتقاء رجوع آل عثمان الى السلطنة والقضاء على الجمهورية التى هو الالف والياء فيها . فهو يعمل لتوهين مبدأ ان عزّ وتغلب كان فيه سقوطه وسقوط الحزب الذى يرأسه فى شر مستطير ويوم عبوس قطير

يكثّر في الشرق الآن كلام الخلق في « فصل الدين عن السياسة » ويظن بعضهم ان الأوربيين فصلوا الدين عن السياسة فصلا تاما وان الحكومات في الغرب لا تعنى بشئ من أمر الدين وغير ذلك من الترهات التي هي أبعد الأمور عن الواقع

ومن أغرب الأمور ان حكومة انقرة هي التي أعلنت كونها حكومة لا دينية عملا بمبدأ فصل الدين عن السياسة وهي نفسها لا تزال كل يوم تصدر أوامر وتسن قوانين متعلقة بأمور دينية محضة من جلستها الصلاة باللغة التركية التي من أجلها ثارت الافكار في تركيا في هذه الأيام ورفض الا كثرون امتثال أوامر الحكومة بها وقلوا انه لا بأس بأن ياقى الخطيب خطبة الجمعة بالتركي فأما الصلاة نفسها بالتركي فهي مخالفة للسنة

وعلى كل حال فحكومة تركيا الكمالية تناقض نفسها بنفسها عند ما تدعى الاقتداء بالحكومات الراقية في فصل الدين عن السياسة وهي تتدخل كل يوم في الأمور الدينية الصرفة على حين ان « فصل الدين عن السياسة » معناه ان الحكومة لا تتدخل أصلا في أمور الدين وتترك هذه الامور لرؤساء الدين وحدهم

وحكومة تركيا الكمالية لا تصدق رعيته القول أصلا عند ما تقول لهم ان دول أوربة قد نبنت الديانة المسيحية ظهرياً وان رقيها المادى لم يتهياً لها الا بنيد العقائد الدينية .

فأوربة وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة اليها باقية على نصرانيتها تماما لم يتغير شئ من صبغتها المسيحية بل لم يتغير شئ من عقائدها الكنسية التي كانت عليها من قرون

نعم يوجد في أوربة أقوام يجاهرون بعدم الاعتقاد ويناصبون الاديان وبخاصة الديانة المسيحية . ولكن هذا الجنس من الاوربيين لا يزال قليلا بالنسبة الى السواد الأعظم والاوربيون يعلنون بأجمعهم ان ثقافتهم هي الثقافة المسيحية وأن مدينتهم هي المدنية المسيحية وان حكوماتهم — ما عدا الحكومة البلشفية الروسية — هي الحكومات التي يتألف منها ما يقال له « العالم المسيحي »

وان المكابرة في هذه الحقيقة هي مكابرة في المحسوس لا غير

ولقد استرعىنا أنظار المسامحين مراراً في مقالات متتابعة في الجرائد وفي الفصول المنقدمة الى مظاهر الحكومات الاوربية المسيحية من قبيل المناقشات التي وقعت في قضية الخبز والتمر وقول أصحاب الجناح الايمن من أبناء الكنيسة الانكليكانية الانكليزية — أى الكنيسة الرسمية — ان الخبز والتمر يستحيلان بتقديس القسيس فعلاً الى جسد المسيح ودمه . مما لا نحتاج لاعادة ذكره

فهل رأى القارئ المسلم الآن كم يخدعه المضلون بقولهم ان الحكومات الاوربية لا سيما الراقية منها لا تعنى بامور الديانة المسيحية وان الديانة عندها منحصرة في الكنائس لا غير ! فهل مجلس اللوردية ومجلس الامة الانكليزية من الكنائس ؟ وهل في أوربة حكومة أرقى من الحكومة البريطانية ؟

مما لا مشاحة فيه ان بين الديانة والسياسة فصلاً إدارياً بحيث كل منهما لها دوائر تختص بها . ولكن مرجع الجميع الى الحكومة . والحال في بلاد الاسلام لا تختلف عن ذلك . فشيخة الاسلام منفصلة عن سائر النظارات المدنية

إذاً خرافة فصل الدين عن السياسة في أوربة التي لا يزال يتشدد بها بعض المضللين في الشرق ليس لها أصل الا بالمعنى الادارى الذى هو جارٍ أيضاً في بلاد الاسلام .

والحكومات الكاثوليكية بأجمعها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الكاثوليكي . ولا يشذ عن ذلك الا الحكومة الفرنسية التي اتفقت مع الفاتيكان اتفاقاً يحدد العلاقات بين الكنيسة والحكومة والتي لا توجب التعليم الدينى في المدارس الرسمية . ولا يجب أن يؤخذ من ذلك أن الحكومة الفرنسية تعارض التعليم الدينى في غير المدارس الرسمية بل التعليم الدينى مالى فرنسة بواسطة المدارس الأهلية . والحكومة الفرنسية في مستعمراتها ومناطق نفوذها تحمى الدين المسيحى ولا سيما المذهب الكاثولىكى أكثر من كل حكومة مسيحية وهي تعلن نفسها حامية النصرانية في الشرق وتوجب على رجالها شهود الشعائر الدينية الكاثوليكية في جميع الأعياد والمواسم وتحافظ على الرسائل الدينية والرهبانيات بأجمعها كاليسوعية والعازرية وغيرهما . ومما لا يحتاج الى التعريف أخذها بيد الكردينال لافيجرى والآباء البيض وأصناف المبشرين بالدين المسيحى في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر وعدم مراعاتها شعور المسلمين الذين هم أهل هذه الأقطار بما تظهر به من هذه المظاهر

الكاثوليكية فيما بينهم الى حد أن بعض الجوامع الكبرى في مدينة الجزائر قد تحولت الى كنائس وان بعض البربر من سكان الجرجرة من الجزائر هم حسبما روى المؤرخ الثقة السيد أحمد توفيق المدني في « كتاب الجزائر » هم على شفا التحول عن الاسلام بما نشبت فيهم من برائن الرسائل التبشيرية فأما قضية الغاء فرنسة الشريعة الاسلامية من بين البربر وحمايتها للرهبان الفرنسيين الذين يعملون لتنصير البربر ولغيرهم من الرهبان فهي مشروع قديم العهد بقى الفرنسيين يحدثون أنفسهم به مدة طويلة الى أن أنفذوه من ثلاث سنوات في أيام الميسو لوسيان سان الذي كان مقيماً عاماً في تونس وفي أيامه وبمساعيه عقد الكاثوليك مؤتمراً دينياً اسمه مؤتمر الانخار يستيا في تونس فكانت لذلك ضجة شديدة بين المسلمين الا أنها لم تبلغ درجة ضجتهم شرقاً وغرباً عندما أجبر الميسو سان حكومة سلطان المغرب بعد أن صار مقيماً عاماً عنده هذه الحكومة على اصدار ذلك الظهير البربري الذي يخرج عدة ملايين من البربر من الاسلام وبعد أن منع تجوال فقهاء الاسلام وحفاظ القرآن ومشايخ الطرق من التجوال في قرى البربر وحظر على قواد البربر وزعمائهم أن يرسلوا أولادهم الى فاس أو غيرها من المدن لتعلم العقيدة الاسلامية واللغة العربية . كما تقدم وبالاختصار فان الدولة الافرنسية التي يزعم بعضهم أنها حكومة لادينية أو لا ييكية كما يقال هي أشد الدول حامية للنصرانية عموماً ولاكتلكة خصوصاً . وان الحزب الحر الذي يلتزم الحرية الدينية التامة ووقوف فرنسا موقف الحياد التام بازاء الأديان لا يزال في فرنسة ضعيفاً .

وأما ايطالية فبعد أن غلب عليها حكم الفاشيست أعادت الى المدارس الأميرية التعليم الديني الكاثوليكي ونصبت الصليبان في المدارس وفي المحاكم وعدلت قوانين العدلية تعديلاً موافقاً لمبادئ الكنيسة . وأعلنت بدون محاباة أنها دولة مسيحية كاثوليكية وبتت أيضاً في مستعمراتها القسوس والمبشرين وزادت على غيرها أنها أخذت صغار المسلمين من حجبهم أمهاتهم قسراً لأجل أن تربيههم في الكاثوليكية في نفس ايطاليا كما ذكرنا من قبل . وهذا لم تفعله فرنسة حتى الآن وغاية ما فعلت هو أنها تركت الكردينال لافي جري ورهبانه البيض يضطادون بعض أحداث من المسلمين في أثناء المساعب التي هي كثيرة الوقوع في الجزائر ويربونها في النصرانية . وقد ذكر السيد توفيق المدني في كتاب

الجزائر أن هؤلاء بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص وإن منهم من رجع الى الاسلام بعد أن بلغ رشده ومنهم من بقي مسيحياً حقيقياً

ولنعد الى سائر الدول الكاثوليكية ومواقفها بازاء الدين المسيحي فنقول انها باجعتها على أشد ما يكون من الاعتصام به . ومنذ أربع سنوات تشكلت في بلجيكا وزارة أعلنت من جلة بر وغرامها العمل لتنصير أهالي مستعمرة الكونغو . وكان في هذه الوزارة وزراء من السوسيا ليست ولم يعترضوا على دخول الحكومة في قضية التنصير . ففي هذا مجال للتأمل . ولم تكن بلجيكا الى الآن مهمة هذا العمل الديني لأنه من التسعة الملايين الزوج الذين تتألف منهم مستعمرة الكونغو قد تنصّر حتى اليوم نحو من مليون منهم ثمانمائة كاثوليكي ومائتا الف بروتستانتي وكل ذلك بمساعي القسوس وعضد الحكومة . ولا يخفى ان في مستعمرة الكونغو عرباً ومستعمرين يبلغ عددهم حسباً قرأنا في كتب البلجيكيين الذين كتبوا عن الكونغو نحواً من مائتي الف نسمة . ولكن الحكومة تراقبهم أشد المراقبة . ومن البديهي انها تمنعهم من بث الدعاية الاسلامية . وهذا دليل آخر على كون الحكومات الأوربية الراقية غير مهمة العمل لنشر الدين المسيحي كما يزعم أولئك الذين لا يفتأون ينصحون الحكومات الاسلامية باتخاذ الصبغة اللايكية أو اللاتيكية كما يقول الترك . ويزعمون أن رقي رعاياها متوقف على هذا الشرط !

ان بلجيكا هي من أرقى ممالك أوربة بلا نزاع والحكومة البلجيكية هي هذه التي تنص في بر وغرامها على قضية تنصير أهالي الكونغو

وأما الدول البروتستانتية فكلها تعلن أن ثقافتها مسيحية وان مدينتها انجيلية وانها لا تحيد عن هذا الطريق . وكثيراً ما تعلن هذه الدول ذلك في برامجها أمام المجالس النيابية . وناظر معارف هولاندة افتتح مؤتمر المستشرقين في ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب قال فيه : ان هولاندة لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحي . ولقد كنا نحن سمعوا هذا الخطاب وصرح شترزمان ناظر الخارجية الالمانية في احدى خطبه امام الريخستاغ قائلاً : « ان ثقافة المانيا مبنية على الدين المسيحي »

ولم يمض الى غاية تحرير هذه السطور الا أيام قلائل (فبراير ١٩٣٣) على اعلان هيتلر رئيس الحزب القومي الاشتراكي الالمانى عند ما ولاه المارشال هيندنبورغ رئاسة

الوزارة برناجاً وزارياً صدقه جميع الوزراء استهلاله : « ان أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الالمانية هو العمل لأجل الوحدة الروحية واحياء العقيدة النصرانية في الأمة والتقاليد المجيدة الماضية » كما قدمنا

ومن قبل محيى هيتير الى رئاسة الوزارة كان فون بان رئيس الوزارة سابقا والذي هو الرئيس الثانى للوزارة لاحقاً قد خطب خطبة شهيرة أودعها الكلام نفسه

وكان الشيوعيون الالمان قد بشوا منشورات حلوا فيها على الدين المسيحى فامرت الحكومة بجمعها ومنعها وأصدرت بلاغاً رسمياً قالت فيه : انها منعت توزيع هذه النشرات لما فيها من التحامل على الدين المسيحى

هذا وغيره خاف ان امبراطور المانيا ومك بروسيا حكان الرئيس الأعلى للكنيسة اللوثرية ولا يزال حتى الآن برغم نزوله عن العرش لأن أتباع هذه الكنيسة لا يزالون يرجون اعادة الامبراطورية . كذلك غير خاف أيضاً ان الكاثوليكين في المانيا الذين هم ثلث المملكة لهم حزب فى الرايستاغ يقال له « الوسط » أساس تأليفه هو المحافظة على الكتلكة

ولدى كتاب واف اسمة « الأديان فى المانيا » ان سمح لى الوقت ونسأ الله فى الأجل أريد أن أترجه الى العربية ليعلم أهل الشرق لاسيما المغرورون منهم أية قوة للدين المسيحى فى المانيا وكيف ان التعليم الدينى مقرون بالتعليم المدنى فى جميع المدارس الرسمية وغير الرسمية وانه لا يوجد مع ذلك أحد يقدر أن يزعم ان الأمة الالمانية أمة غير راقية أو أمة غير عصرية بل لأحد يقدر أن يقول انه يوجد أمة أرسخ منها قدماً فى العلوم والصنائع وأعلى كعباً فى المدنية

ان المصلح المسيحى الأشهر كلفين الذى كان هو ولوثير سبب وجود البروتستانتية فى العالم كان يقول مايلى :

« ان الدولة المسيحية رأسها هو الله . فلاجل أن يكون الانسان تابعاً لهذه الدولة ينبغى له أن يقسم الايمان بعدم الخيد عن خطة الانجيل وبالمواظبة على اقامة الشعائر المسيحية وبتناول القربان أربع مرات فى العام . وذلك لأن الاشتراك فى المائدة الالهية هو عبادة لله

رأس الدولة المسيحية وليسوع المسيح رأس الكنيسة . فهاتان السلطان الدينيّة والروحية باتحادهما من شأنهما تنفيذ ارادة البارئ تعالى . فالسلطة السياسيّة بيدها السيف ولها حق القصاص ان لزم . كما ان السلطة الروحية لها حق الوعظ وحق التحريم والتحليل وكلا نوعي الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبنى على الكتاب المقدس

« والرئاسة الأولى هي للسلطة السياسيّة خلافاً لرأى البابا غريغور يوس السابع وذلك لأنّه يجب أن تتحد السلطة المذكورة من الرق الاكبر يكي . ولكن لايعنى بذلك ان الدولة يجب أن تنفصل عن الكنيسة بل يجب أن تلازمها »

ويقول كلفين : « ان الملك الذى لاينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وانما هو يقيم لصوحيّة . وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة لان النظام المدنى فقط بل النظام الدينى أيضاً والنظام الأدبى والاجتماعى وعليه أن يعاقب اللصوص والفساق والمومسات والقذّبة والقاذفين بالدين واتباع البابا الذين يشهدون القداس وأن يحرق بالنار السحرة ويجزى بالصرامة من يشتغلون يوم الاحد ومن يهملون إقامة الشعائر الدينيّة الخ » (١)

فروح هذا البروغرام هو السارى الى هذه الساعه فى الحكومات البروتستانتيّة ولن تجد الحكومة السكّاليّة فى تركيا ولا مقلدوها فى البلاد العربيّة جواباً واحداً مقنعاً على هذه القضايا التى قدمناها . وما بعد الحق الا الضلال

(١) (اقرأبروغرام كلفى فى كتاب فينريد موندو Wilfred Mondo المسمى La Nuée de Femains

المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٩)

احصاء المسلمين

للأمير شكيب

سبق لنا تعليق^(١) على قول ستودارد ان المسلمين ٢٥٠ مليوناً وقلنا إن المؤلف تابع غيره من المؤلفين الأوربيين الذين يخطئون في احصاء المسلمين وان الحقيقة هي أن المسلمين يزيدون اليوم على ثلاثة ثلثائة مليون

ولقد ظهر لنا بعد ذلك اننا نحن أيضاً أخطأنا في تقدير عدد المسلمين وانه أكثر من ٣٠٠ مليون بكثير وقد يناهز ٤٠٠ مليون

فسامو الجاوى وسومطرة بلغوا في احصائهم الاخير ٥٠ مليوناً وليسوا ٣٥ مليوناً كما ذكرناه نقلاً عن احصاء قديم لا يزال جغرافيو أوربة يحررونه . ولقد نشر في العام الماضي رجل سويسرى كان في الجاوى مقالة في « جورنال دو جنيف » قال فيها ان مسلمى المستعمرات الهولندية بلغوا ٦٤ مليوناً

أما مسلمو الصين فلا تزال الاقوال متضاربة في عددهم فن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليوناً ومنهم من يحزرهم بأكثر من ذلك بكثير . وفي هذه الايام لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشوريا أبرقت الجمعية الاسلامية في الصين الى أوربة بتلغراف احتجاج على اليابان قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليوناً من مسلمى الصين ثم ورد تلغراف من توكيو يرد على مسلمى الصين زاعماً أنهم ١٥ مليوناً لا ٥٠ مليوناً . وفيه أن في منشوريا مليونين من المسلمين يزعمون الى تحرير منشوريا وما لا شك فيه أن التلغراف اليابانى بنحس مسلمى الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان .

ولقد حزرنا عدد المسلمين في العالم في مجلتنا « الأمة العربية » La nation arabe التى نصدرها أنا وسعادة أخى احسان بك الجابرى في جنيف نحن الوفد السورى الفلسطينى

(١) انظر صفحة ٢٢ من الجزء الاول

في أوربة وذلك بنحو من ٣٣٣ مليوناً هذا على تقدير أن مسلمي الصين ٢٠ مليوناً فقط
أما اذا ثبت أنهم خسون مليوناً فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة
وتفصيلها هذا : الجزيرة العربية ١٢ مليوناً . وسورية ٣ ملايين . وفلسطين
وشرقي الاردن مليون . والعراق ثلاثة ملايين ونصف . وتركيا أربعة عشر مليوناً .
وايران ١٠ ملايين وأفغانستان ٩ ملايين . والهند الانكليزية ٧٨ مليوناً . والصين ٢٠
مليوناً . وصيام نصف مليون . والروسية الآسيوية ٢٥ مليوناً
فهذه ٢٧٦ مليوناً في آسية

والروسية الأوربية قازان والقريم ٤ ملايين . وليتوانيا وبولونيا ٢٠ ألف نسمة .
ويوغوسلافيا مليون ومائتان وخسون ألفاً . والمجار ثلاثة آلاف . ورومانيا ٢٥٠ ألفاً .
وبلغاريا نصف مليون . وبلاد اليونان ١٠٠ ألف . وألبانيا ٩٠٠ ألف
فهذه سبعة ملايين و٢٣٣ ألفاً

ومصر مع سودانها ١٨ مليوناً . وطرابلس ٧٠٠ ألف وتونس مليونان . والجزائر
خمس ملايين ومراكش ٨ ملايين . والصحراء الكبرى ٣ ملايين . والحبشة ٣ ملايين .
والغالا والصومال ٦ ملايين . وشرقي افريقية (زنجبار وسواحلها ودار السلام) ٦ ملايين .
والكونغو والأوغاندة مليون . والآداموا والكامرون مليونان . وغينية وفوتاجالون مليون
والسنغال مليون . وسلطنة سوكونو ١٥ مليوناً . وبورنو ٥ ملايين . وواداي ٥ ملايين .
وكانم مائة ألف

فهذه ثلاثة وثمانون مليوناً في افريقية

والمستعمرات الهولندية (أندونيسيا) ٦٤ مليوناً . والفيليبين مليونان
فهذه ستة وستون مليوناً في البحر المحيط الباسيفيك

فيكون جملة المسلمين ٣٣٣ مليوناً و ٣٢٣ ألفاً . أما ان صح أن المسلمين في الصين
٥٠ مليوناً فيكون الجميع ٣٦٣ مليوناً هذا بالتقريب لأن بعض المالك احصاؤها مضبوط
كمصر وتركيا وسورية والعراق وطرابلس والجزائر وتونس وايران والروسية والجاوى والهند
وبعضها نصف مضبوط كجزيرة العرب والحبشة ومراكش وسوكونو وواداي الخ وهذه
تؤخذ بالتقريب من الجغرافيات والرحلات على أن بعض الناس يرون احصاءنا لجزيرة

العرب ناقصاً ويرون فيها ١٥ مليوناً وأكثر. ثم اتنا علمنا فيما بعد أن مسلمي يوغوسلافيا مليون وثمانمائة ألف نسمة وان مسلمي البلغار ثمانمائة ألف وان مسلمي رومانيا أربعمائة ألف أى أكثر مما ذكرنا بما يقرب من مليون في الممالك الثلاث المذكورة وقد فاتنا ذكر مسلمي قبرص وهم ٧٠ ألفاً ورودرس واستاتكوى وهم ٢٠ ألف نسمة

مسلمو الفيليبين

جاء في « مجلة العالم الاسلامي » الفرنسية تحت عنوان « السياسة الاسلامية » بقلم الكاتب المطلع على أحوال الشرق المسيو شاتليه Chatelier المجلة الآتية : —

« ان الحروب التي كان الكاثوليكيون الذين افتتحوا الفيليبين^(١) يصلونها مسلمي « سولو » لم تأت يثمرة من جهة منع أولئك القرصان عن اجتياح جزر ذلك الأرخبيل ، الا في أواسط القرن التاسع عشر ، بعد وصول السفن الحربية على البخار . ولكن لما استولى الأميركيون على الفيليبين ، وكانوا أطف ملكة من الاسبانيول ، تحولت حركة تلك المقاطعة الاسلامية من الاوقيانوس عن الدعارة الى التجارة .

« وبينما كان الماليزيون في بروني Brunei وسارافاك Saravak وبورنيو يترقون في درجات المدنية ، ويقتدون بالأوربيين مثل مسلمي ملقا ، وتجد منهم أعضاء الأندية والتجار والسامسة ، كان مسلمو الهند النيرلاندية يعرجون أيضاً في مراق الحضارة الا في آتجه Atjeh حيث قوة الدين لا تبرح ظاهرة بمظاهر المقاومة الحربية ، أما فيما عدا هذا المكان من الجاوى وسومطرة والجزر القريبة ، فانك ترى الاسلام أبعد عن الفتن من الهيئات الاجتماعية التي ترجع الى نصاب هندي . ومضى زمن طويل على الماليزيين كانوا فيه تحت ضغط اداري هولاندي من مبادئه القهر والاحتكار . فكانوا لا يتجاوزون أفق العمل لغيرهم كرها ، فأما في هذه الآونة الأخيرة فقد نالوا شيئاً من الحرية ، وبدأوا بالصعود المادى والمعنوى والاجتماعى ، فاتسعت أنظارهم الى ما يشمل عالم القارات الكبرى ولا ينحصر في عالم هاتيك الجزائر .

(١) راجع صفحات ٣٥٨ — ٣٦٣ من الجزء الأول

« وفيما يتجاوز الجزر التي تملكها هولاندة توجد جاليات من المسامين مبعثرة في جزر الباسيفيك كلما تباعدت من القاعدة الماليزية قل عددها ، ولكنها على كل الأحوال أكثر في هذه الأصقاع البعيدة من الجاليات الأوربية ، وهي تبت الاسلام هناك بالتجارة والأخذ والعطاء عوضا عن الفتح والغزو . وهكذا ففي نفس استراليا من جالة الافغان وتجار الهنود وصيارفة الماليزية ، جالية اسلامية لها جامع شهير في برث Perth ، كما أنك تجد مسلمين كثيرين من الهند في فانكوفر Vancouver من أميركا ، وتجد مسلمين ومسيحيين من أبناء اللغة العربية من سورية في الولايات المتحدة والارجنتين وزنوجا مسلمين من افريقية في البرازيل » اهـ ثم قال : ان اسلام الشرق الاقصى نقطته النهائية في ماليزيا ويقدر بنحو ٤ مليوناً عدد المسامين في مستعمرات هولاندة وبورنيو وسائر الجزر الى « بابوازيا » الى « الفيليين »

قفقاسيا

ومما وجدته في كمناشاتي التي أخذت ما فيها عن أوثق المصادر ما يلي :^(١)
ان قافقاسيا ثلاثة أقسام كرجستان والطاغستان وبلاد الجيركس
فكرجستان تحتوى أمة الكرج وهي أمة لها لسان خاص بها ومنهم مسامون ومنهم نصارى ولكن النصارى أكثر . وعاصمة كرجستان تفليس ومن مدنها باطوم ومن أشهر أمراء الكرج المسامين سنجاق بكى زاده ابراهيم بك وحسين بك ولابراهيم بك ولد اسمه أرسلان بك وولد اسمه حسن بك وولد اسمه محمد بك . وهذا قد نقته الروسية الى موسكو في أثناء هذه الحرب العامة وهذه الاسرة مناسبة مع أسرة جوروك صو على باشا زاده محمود باشا وأخوه أحمد باشا في تركيا . ومن مشاهير الرجال الذين خرجوا من الكرج المرحوم حسن فهمى باشا ناظر العدلية السابق في تركيا وكان من أعز أصدقائنا . وجميع الكرج ثلاثة ملايين المسلم منهم وغير المسلم . وفي كرجستان لا سيما في جوار تفليس مليون ونصف أرمنى . وفي كرجستان قوم يقال لهم (اجاره) مسلمون أصابهم ضرر كبير أثناء هذه الحرب وأفنى الروس أكثرهم بحد السيف بحجة ميلهم الى الدولة العثمانية . أما الطاغستان فهي

(١) راجع صفحات ١٨٨ - ١٩٣ من الجزء الثانى

قسمان طاغستان لركى والثانى طاغستان التركى فاللركيون يتكلمون ويكتبون بالعربية ومحاكمهم لسانها العربى . وأما الطاغستان التركى فيتكلمون ويكتبون بالتركى أما الشيخ شامل فهو من اللركيين من قرية « كمره » كان من مريدى القاضى ذى الجناحين محمد السكمرأوى تلقى عنه العلم والفقه وهما من قبيلة (اوار) التى منها الأمير حزة اخنزاخى وهذا كان من الأمراء . وكلهم قد جاهدوا فى حرب الروس جهاداً شديداً . وأول من استشهد القاضى محمد فلما استشهد نصب الطاغستان مكانه الأمير حزة فاستشهد بعد سنة من الحرب فاتتخبوا مكانه الشيخ شامل . وعدد الطاغستان من ٧ الى ٨ ملايين وكلهم من أصل واحد ولكن بعضهم يتكلم بالتركى لكون الاتراك تولوا البلاد قبلاً وبعضهم يتكلم العربى من زمان الفتح العربى اذ اختلطوا بالعرب وبلادهم باب الابواب مدفون فيها كثير من الصحابة وفى الطاغستان اليوم كثير من السادات . ومن عاداتهم ان الانسان لا يدخل مقبرة لهم بدون وضوء . وأما الجركس فهم من مليون الى مليونين وهم قبارتاي وابزاخ وشابسوخ واوبوخ . أما القوموق والشاشان والخيذاك وتابسران وكراه وكوباه والجار وشكيشروان وباكو وكنجه وقره باك واغداش وطاليس جيلان فكلها من الداغستان

ترجمة القرآن

ثم انه بعد تحرير هذا الفصل^(١) ظهرت كتابات فى موضوع ترجمة القرآن الكريم لجهندين عظيمين من جهابذة الاسلام السيد رشيد رضا صاحب المنار ومصطفى صبرى افندى التركى شيخ الاسلام السابق فى السلطنة العثمانية رحما الله لايحوز لمن أراد أن يرتوى من هذا الموضوع أن يعرّد عنها

ولقد اشتمل كتاب مصطفى صبرى افندى على كلام شديد بحق الأستاذ فريد وجدى المصرى الذى سوّغ للاتراك الكماليين ترجمة القرآن والصلاة بها بدون قيد ولا شرط وآلم الناس أن يكون مثل فريد وجدى من يذهب هذا المذهب وهو صاحب المواقف المشهورة فى الذب عن الحقيقة الاسلامية ولا سيما فى مقالاته الأخيرة « الاسلام دين عام خالد » ولا جرم ان التساهل فى أمر الصلاة بترجمة القرآن بدون ثبوت العجز التام عن قراءة آية من آياته لا يلتئم مع تأييد الدين الاسلامى الذى يقتضى تأييده قدسية نص الكتاب الالهى والمحافظة

(١) راجع صفحات ٢٠٥ - ٢١٣ من الجزء الاول

عليه كما نزل والاعتقاد بأن الصلاة بترجمته بدون عنر مقبول إنما هي فك من عراه الوثقى وما ل ذلك الى التصرف بالصلاة الى الحد الذي لا يعرف منتهاه
ان زعم بعضهم ان الدين هو مجرد علاقة بين العبد وربه وانه مسألة قلبية يكفي فيها الخلو وحسن النية الى ما أشبه ذلك من الأقاويل هو قول داحض اذا دقق المفكر فيه النظر ظهر له بطلانه فان الدين لأجل أن يسان في القلوب وان تعتصم به الشعوب يجب أن تقرر شعائره الظاهرة كما يجب أن تخلص فيه النية الباطنة وان يكون بعيداً عن التصرف والتغيير والتبديل الذي يؤول بالعقائد الى الفوضى وربما انتهى بزوالها بالمرّة . لقد سنت البشر كلها قوانين تجزى بالشدة كل من يخرق هيبة الملك أو يمس مقام الحكومة ملكية كانت أو جمهورية وما كان ذلك الا حرصاً على بقاء تلك الهيبة في صدور الناس وتفادياً من ان تقتحمها العامة فيضعف بذلك الوازع الضروري بين البشر . وكما كانت هيبة الملك واجبة ضرورية فهيبة الدين أيضاً ضرورية ومن أهم شروطها حرمة نصوصه وتقديس آياته كما نزلت

وأما ترجمة القرآن لأجل فهمه وتفسيره بكل اللغات فليس ذلك بجائز فحسب بل نراه واجباً على الأمة الاسلامية

مسألة الصلب وقول ابن حزم

وأما ابن حزم الأندلسي الفيلسوف الشهير البهائية الكبير فرأيه في مسألة الصلب^(١) هو مايلي : —

إن صلب المسيح عليه السلام لم يقله قط كافة ولا صح بالخبر قط لأن الكافة التي يلزم قبول نقلها هي إما الجماعة التي يوقن أنها لم تتواطأ لتنابد طرقهم وعدم التقائهم وامتناع اتفاق خواطرها على الخبر الذي نقلوه عن مشاهدة أو رجوع الى مشاهدة ولو كانوا اثنين فصاعداً . واما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق في الطبيعة على التماذي على سنن متواطأوا عليه فأخبروا بخبر شاهدود ولم يختلفوا فيه . فإنا نقله أحد أهل هاتين الصفتين عن مثل إحداهما وهكذا حتى يبلغ الى مشاهدة فهذه صفة الكافة التي يلزم قبول نقلها ويضطر

خبرها سامعها الى تصديقه وسواء كانوا عدولا أو فساقا أو كفارا ولا يقطع على صحته إلا يرهان .

فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام فوجدنا كواف عظيمة صادقة بلا شك في نقلها جيلا بعد جيل الى الذين ادعوا مشاهدة صلبه فان هنالك تبدلت الصفة ورجعت الى شرط بأمورين مجتمعين مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل والنصارى مقرون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهائياً خوف العامة وانما أخذوه ليلا عند افتراق الناس عن الفصح وانه لم يبق في الخشبة إلا ست ساعات من النهار وانه أنزل أثر ذلك وانه لم يصلب إلا في مكان نازح عن المدينة في بستان غار متملك للفخار ليس موضعاً معروفاً بصلب من يصلب ولا موقوفاً لذلك . وأنه بعد هذا كله رشي الشرط على أن يقولوا ان أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك وان مريم المجدلانية وهي امرأة من العامة لم تقدم على حضور موضع صلبه بل كانت واقفة على بعد تنظر هذا كله في نص الانجيل عندهم فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة بل بخبر يشهد ظاهره على أنه مكتوم متواطئاً عليه وما كان الحواريون ليلتشد بنص الانجيل إلا خائفين على أنفسهم غيباً عن ذلك المشهد هار بين بأرواحهم مستترين وان شمعون الصفا غرر ودخل دار قيقان الكاهن أيضاً بضوء النهار فقال له أنت من أصحابه فانتقي وجحد وخرج هاربا عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحد تطيب النفس عليه على أن نظن به الصدق فكيف أن ينقله كافة (هذا) معنى قوله تعالى (وَلَٰكِنَّ شُبَّانَ لَّهُمْ) إنما عني تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطأوا عليه هم شبهوا على من قلدتهم فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه وهم كاذبون في ذلك عالمون أنهم كذبة ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذى حاسة سليمة لبطلت النبوات كلها إذ لعلها شبهت على الخواس السليمة ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها ولا يمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس وفيمن يجالس وفي حيث هو فلعله نائم أو مشبه على حواسه وفي هذا خروج الى السخف وقول السوفسطائية والجاقة وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا اندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيري نعشاً فيه شخص مكفن وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة في بيت وخارج البيت أبي رحمه الله وجاعة عظماء البلد ثم صلينا في ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا وبويع بعد ذلك بالخلافة ودخلت أنا عليه وغيري وجلست بين يديه ورأيت به وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام . انتهى

عود الى رأى المستشرق هورغرونيه

من بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتيت لنا أن تتلاقى مع الاستاذ المستشرق الشهير سنوك هورغرونيه^(١)

وذلك أنه في أواخر سنة ١٩٣١ انعقد مؤتمر المستشرقين في ليدن من هولاندة وجاء نحو من ألف مستشرق من جميع الأقطار وكانت رئاسته معقودة اللواء للاستاذ هورغرونيه . وكان محرر هذه السطور من أعضاء هذا المؤتمر وألقيت في منتدى القسم الاسلامي منه محاضرة في علاقة اللهجات العربية بالناريخ نشرتها مجلة المقتطف . ومما لامرته فيه أن هذا المؤتمر كان حافلاً بالفوائد وأنه قد أقيمت فيه نقائس من المحاضرات في كل قسم من أقسامه نادرة في بابها

ولما حصلت المعرفة بيني وبين الاستاذ المشار اليه قال لي ان بيننا نقطة خلاف لا بد من ازالة الشبهة فيها ولكن بعد أن يتسع لنا الوقت . فقلت له : انى منتظر هذه الفرصة وانفض المؤتمر بعد عشرة أيام من انعقاده لكن لم يتيسر لنا الاجتماع من كثرة الاشتغال وشدة الازدحام . وغاية ما حصل أنى لما ودعت الرجل قال لي : اننى أنا لم أقل شيئاً ماساً بالاسلام . فقلت له : أنا انصفتك وذكرت مالك وما عليك . فقلت انك عارضت القائلين من الهولانديين بأن جميع المسامين فى أندونيسيا ليسوا بمسامين والقائلين بأن هولاندة أن تحملهم على النصرانية . وهذه مأثرة لا تُنسى لك . وكذلك عارضت القائلين بمنع الحج وقلت انه لا ضرر على هولاندة من الحج . ولكنك قلت ان سن القوانين من الشريعة الاسلامية هو غير موافق لأنه ينبغي لنا أن نفهم المسلم أنه لا يقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية وهو متمسك بشريعته وأنه يجب أن يعلم أن شريعة الاسلام لا تتسع لقبول المدنية الحاضرة . وهذا غير صحيح لأن المدنية التى أمكنها أن تنطبق على النصرانية يمكنها أن تنطبق على الاسلام . فقال : لكن القانون يحتم العمل بوجه واحد والشريعة لا تحتم الأخذ بمذهب واحد من مذاهب الفقهاء . فقلت : للسلطان أن يرجح أحد المذاهب ويوجب العمل به وهكذا فعلت الدولة العثمانية . فسكت . ثم قال لي : ان الملاحدة من مسامى الجاوى هم أشد تعصباً على هولاندة من المتدينين . قلت : نعم ومع ذلك فأنتم وجميع الاوربيين لا تكرهون الاحاد والملاحدة كما تكرهون الاسلام والمسامين بل العدو الاكبر

(١) راجع صفحات ٣٣٨ - ٣٥٧ من الجزء الاول

عندكم هو الاسلام والحال ان الاسلام كدين يتفق مع النصرانية في مبدأ مقاومة الاحاد والاباحة وفي معارضة الشيوعية . واني لانصحك أن تنصح قومك الهولانديين لانك مسموع الكلمة بينهم في الامور الاسلامية أن لا يروجوا في بلاد أندونيسا سياسة التنصير وأن يلزموا الحياض في الدين ولا يجعلوا الحكومة آلة لأجل دعاية دينية فلا تجنى هولاندة من سياسة كهذه سوى الضرر لنفسها . فأوأمأ الى بأن هذا صحيح

ثم كتبت اليه وكتب لي عدة مرار . وأرسلت اليه برسالة « لماذا تأخر المسمون وتقدم غيرهم » فقرأها وأجابني بأنه يوافقني على كثير من نظرياتى الا أنه يخالفني في بعضها وذلك مثل قولى ان اليابانيين تقدموا الى أقصى ما تقدم اليه الاوربيون من المدنية الحاضرة ولبشوا من أشد الامم اعتصاماً بعقيدتهم وتقاليدهم . فقال : ان اليابانيين ساكنون في جزائر ليس بينهم أمم أخرى تخالطهم الخ

فأجبت : ان موضوع البحث هو هذا : هل يمكن المسامين أن يترقوا ترفى الأمم الاوربية أو الامة اليابانية مع بقائهم مسامين ومعتصمين بعقيدتهم وتقاليدهم أم لا ؟ فنحن نقول : نعم : ممكن ونضرب مثلاً على ذلك هو كون أوربة ترقى هذا الترقى المادى كله و بقيت متمسكة بديانة هي أقدم عهداً من الاسلام باكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان رقت هذا الترقى نفسه وهي معتصمة أشد الاعتصام بعقائد وتقاليدهم هي أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون . فياليت شعرى لماذا المسامون وحدهم هم الذين لا يمكنهم الرقى الا بخلع الدين الاسلامى ؟ كما يزعم بعض أعداء هذا الدين . ولماذا هذا الاستثناء للاسلام ؟ فلم يحرر الاستاذ على هذا جواباً

وفاتنى أن أذكر أن ناظر معارف هولاندة عند ما افتتح مؤتمر المستشرقين في ليدن في خامس يوليو سنة ١٩٣١ قرأ على ذلك الحشد الكبير من العلماء من كل قطر خطبة ترحيب فيها قال :

« ان تبسّط الأمة الهولاندية في المشرق لم يكن المقصد منه مجرد المكاسب المادية بل أكثر ما قصده هولاندة بذلك هو نشر فضائل النصرانية »

فذكرت هذا في حديثى لسنوك هورغرونيه وقلت له : كيف تدعون المسامين الى ترك الاهتمام بأمر دينهم ورجالكم الرسميون يعلنون مثل هذا الكلام في محفل كهذا المحفل . فوجم الأستاذ من سماع كلامى هذا ولحظت من وجهه انه كان متألماً من هذا التظاهر الرسمى بالدعاية المسيحية . فان الحكمة عندهم هي في العمل بدون اعلان

ولقد سمع كل من كان في المحفل هذه الجملة ومنهم الوفد التركي الانقري الذي كان يمثل حكومة لا تفتأ تقول للمسلمين : ما دتم متمسكين بالعقيدة الاسلامية فلا يرجي لكم نجاح أفلا ترون الأوربيين كيف نجحوا وأفلحوا بعد أن نبذوا النصرانية ؟
وأن نبذ الأوربيين النصرانية ؟ لا نعم أين ! ولا متى !
وكان في هذا المحفل حاضراً هذا الخطاب أيضاً الوفد المصري وبينهم الدكتور طه حسان

السيد احمد الشريف السنوسي

إنه من بعد ظهور الطبعة الأولى^(١) من هذا الكتاب قد جد من أخبار السيد أحمد الشريف السنوسي ما يلي :

إنه كان آخر إقامته بتركيا في قرية خريستيان كوي بظاهر مرسين وكانت الحكومة التركية تجري عليه الأرزاق التي تكفيه كضيف كريم كان حليفاً للدولة العثمانية ثم بعد سقوطها انحاز الى جهة الحكومة الوطنية في أنقره واستعمل نفوذ كلمته في الأناضول سواء كان في قونية أو في بلاد الأكراد لأجل تأييد الحكومة الكمالية التي كانت تمثل الاستقلال التركي . وبقى الأتراك الكماليون يكرمون الأستاذ السنوسي ويحسنون معاملته إلى أن فازوا على اليونانيين وتم الفوز بعقد معاهدة لوزان التي ضمنت استقلال تركيا . فمن بعد ذلك فترت تلك المودة التي كانوا يظهرونها للسنوسي وصاروا يتربصون فرصة لأجل التخلص منه والاشارة إليه بالخروج من تركيا التي وجوده فيها قد يغيظ إيطاليا . ورأوا بالاختصار أنه لم يبق عوز إليه كالمضى عندما كان مصطفى كمال يقول له إن تركيا كلها طوع وإرادته وإنهم هم إنما ينوبون عنه في الحكم وانه لو شاء يبائعونه بالخلافة . وبينما هم يفكرون في التخلص من السنوسي إذ سنحت لهم هذه الفرصة بهفوة صغيرة جسّموها عمداً وهي أنه قد جاءه في أحد الأيام شاب تركي من طلبة العلم كان تلقى الطريقة السنوسية وقال له إنه متوجه الى بيروت لزيارة الأمير سليم كبير أولاد السلطان عبد الحميد المقيم بتلك البلدة وإنه يلتبس منه كتابا الى الأمير سليم توصية به فاعتنر له السيد بأنه لم تسبق مراسلة بينه وبين الأمير فألح الشاب المذكور عليه وبكونه مريداً للطريقة لم يجد السيد

(١) راجع صفحات ٦٤ - ١٦٥ من الجزء الثاني

بدءاً من إعطائه ذلك الكتاب الذي ختمه السيد بقوله (والله مع الصابرين) وهي آية كريمة توافق الحالة التي عليها الأمراء آل عثمان بعد سقوطهم هذا من أعلى الدرجات الى الهاوية التي أصبحوا فيها الآن . فذهب الشاب التركي بهذه الوصاة من مرسين قاصداً بيروت ففي اجتياز الحدود بين ولاية أطنه وحلب قبض عليه الخفراء الأتراك الذين على الحدود وفتشوا في جيوبه فوجدوا ذلك المكتوب فقدموه الى أنقرة فصدر الأمر من أنقرة بارسال الرجل إليها حيث استنطقوه بمزيد التدقيق والتشديد فاخبرهم بأنه هو الذي ألح على السيد باعطائه هذه التوصية واعترف بأنه كان قاصداً زيارة الأمير سليم أفندي ابن السلطان عبد الحميد . فأحالوه الى محكمة الاستقلال التي كانت تحكم بدون استناد على مواد قانونية بل بمجرد الوجدان بزعمها وقتلت على هذه الصورة ألوفاً من الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى كونهم في ذات صدورهم لا يحبون الحكومة الجمهورية ومن جلتهم هذا المسكين الذي أصر وأبرم حتى نال تلك الوصاة من السيد السنوسي بدون ارتياح منه . ولما فرغوا من قتل الرجل عادوا الى السيد فأمرؤا الى مرسين بأن يقول له ليخرج حالا من تركيا . فلما أبلغه الوالي الأمر وكان لم يوجد في يده ما يساعده على السفر استمهل الحكومة بعض أيام حتى يتمكن من بيع بعض أشياء يستعين بها على الرحيل فصدر الأمر ثانية بعدم إمهاله ولا ساعة واحدة : وكانت حكومة أنقرة وعدته بأنه إذا أراد مغادرة تركيا بأنها تؤدي اليه التي جنيه يستعين بها على السفر فنسيت الحكومة الأتورية هذا الوعد وعدت هذا الكتاب الذي كتبه السيد السنوسي الى الأمير سليم أفندي خيانة فظيعة لها ولا سيما استشهاده بالآية الكريمة (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . ورأوا في ذلك إشارة الى كون السنوسي يتمنى رجوع آل عثمان الى الملك فأكبروا هذا الأمر إكباراً ونشروا صورة السيد في بعض جرائدهم ووضعوا تحتها هذه الجملة (بزى خيانت ايدن سنوسى) وبالجملة فقد حققوا ما ينسب اليهم من قلة الوفاء وقلبوا ظهر المجن لاجل هفوة غير مقصودة لرجل بقيت تركيا في طرابلس الغرب عدة سنوات تقاتل بسيفه وسيوف رجاله وتحافظ على شرفها بين الدول بواسطة اتباعه . ثم بعد ذلك أعملت لديه الوسائل حتى جلته على ترك مدينة بورصة والمجيء الى الاناضول منحازا الى الحكومة الانتورية ثم لجأت اليه في تسكين ثورة قونية ثم في تسكين قبائل الأكراد عند مابعدوا بالعصيان على أنقرة وتمكن السيد ذلك اليوم

من ابقائهم في دائرة الطاعة . هذا وخرج السيد مباردا وقصد دمشق الشام ومنها جاء الى بيروت ثم زار القدس الشريف ثم عاد إلى الشام ومنها ذهب بالسيارات الى المدينة المنورة . وقد قام الأمير سعيد الجزائري من إضافته واكرامه مقاماً يحمد . وبعد أن استقر السيد السنوسي في المدينة المنورة مدة من الزمن جاء الى الحج وأقام عدة أشهر في مكة ثم قصد بلاد عسير ضيفاً على السيد حسن الادريسي أمير صيبا وجيزان . وبقى عنده زمناً لما بين هاتين الاسرتين من القرابة والعلاقة ثم عاد السيد الى مكة وأقام مدة بالطائف ومدة بالزواية السنوسية في جعرانة بقرب مكة ولما حججنا سنة ١٣٤٨ تلاقينا معه في مكة وكان أوانئذ على أوفاز قاصد المدينة المنورة وهو في هذه الايام أيضاً مقيم بها . قصدنا الحاق هذه الاخبار بترجمته إذ لا تتم الا بها . وهو خاتمة كبار السادة السنوسية وبقية السلف الصالح رجه الله رحمة واسعة

تقرير

عن القضية الطرابلسية البرقاوية

نضم الى هذا المبحث (١) هذا التقرير الذي تقدم الى المؤتمر الاسلامي في القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أن أخذ الاوربيون يشنون الغارة على البلاد الاسلامة بحجة الاستعمار لم تفجع بلاد اسلامية — بعد الأندلس — بمثل ما فجعت به طرابلس — برقة ، تلك البلاد التي منذ سطا عليها الايطاليون وسيوف نقتهم لم تبرح أعناق أهلها بدون رحمة ولا شفقة ، حتى آلت الى مجزرة بشرية ومرسح تمثل فيه أفظع الأدوار الهمجية .

لا نريد أن نطيل البحث في مناقشة الوسائل التي تذرعت بها الدولة الايطالية لاحتلال طرابلس — برقة التي لا تربطها بها أية علاقة ، ونكتفي هنا بنظرة عامة في تطور القضية الطرابلسية منذ الاحتلال الايطالي الى يومنا هذا ، اذ أن المجال لا يسمح بسرد جميع الحوادث مفصلة :

لقد أغارت الدولة الايطالية على القطر الطرابلسي — البرقاوي في ٥ تشرين الأول سنة ٩١١ على حين غفلة من أهله ، وكان مع خلوه من المعدات الحربية لم يكن به من الحامية العثمانية سوى ثلاثة آلاف جندي مبعثرين في عدة مناطق . بيد أن سكان تلك

البلاد الذين كلهم كتلة عربية - اسلامية واحدة قد فطروا على عزة النفس والاباء . لذلك قاموا في وجوه الغاصبين قومة رجل واحد يدافعون عن أوطانهم ويذودون عن حياضهم بقلوب ملؤها الايمان بالله والاعتماد عليه .

واستمرت الحرب سنة كاملة لم تتمكن في خلالها الجنود الايطالية من التقدم شبراً عن مرمرى مدافع اسطولهم ، الى أن اضطرت الدولة العثمانية الى عقد صلح مع الايطاليين منحت فيه الطرابلسيين استقلالهم الادارى وسحبت جنودها وهي مرغمة

وعقب ذلك أخذ الايطاليون يدعون أهالى البلاد الى السكينة ويظهرون لهم حسن النية خبير تلك البلاد فوضعت الحرب أوزارها وألقى أكثر أهالى طرابلس - برقة السلاح وعادت السيوف الى أغمادها . ولكن رجال الدولة الايطالية ما كادوا يظفرون بتجريد الأهالى من السلاح حتى قلبوا لهم ظهر المجن واخذوا يسومونهم سوء العذاب وينتقمون من كل من حرض الناس على قتالهم فيخلقون لهم تهماً واهية ويزجون بعضهم فى أعماق السجون ويرمون بالبعض الى جزر ايطاليا .

فنارت نائرة القوم من تلك الأفعال المنافية للعهود والمناقضة للوعود فانقضوا على ايطاليا . وكانت أول وقعة دموية جرت وقعة تسمى بوقعة « القرضائية » وهو مكان قرب خليج سرت . جرت تلك الوقعة فى أوائل سنة ١٩١٤ أضاع فيها الايطاليون ما ينيف على « ٨٠٠٠ » جندى . وعقب ذلك ازداد حقد الايطاليين على الأهلى فانهالوا على الغزل منهم بالقتل والتعذيب فقتلوا فى يوم واحد من الأعيان ورؤساء القبائل رمياً بالرصاص ٣٠٠ نسمة فى قضاء سرت وأخذوا يقتلون الأبرياء والشيوخ والأطفال من النساء والرجال

وعلى أثر ذلك اشتعلت فى البلاد نار حرب سرى لهيبها فى كل ناحية من النواحي وظلت الفتن تتقد الى أن نشبت الحرب العالمية فارسلت الحكومة العثمانية بعض القواد العسكريين منهم نورى باشا شقيق أنور باشا الشهير . عندئذ اضطرت الجنود الايطالية أن تنسحب من كل المواقع التى أشغلتها أثناء السلم وتحصن فى مدينة طرابلس ، زواره ، الخس ، بنغازى ، درنه ، طبرق ، الى أن انتهت الحرب الكبرى فخرجت ايطاليا منها وعسكرها منهوك القوى لما لاقى من الهزيمة تلو الهزيمة فى ساحات الحرب الاوربية .

ورغم ذلك سافت عدة فيالق من جيوشها الى طرابلس — برقة وجهزت منهم مائة ألف جندي زحفت بهم على خطوط المجاهدين في منطقة طرابلس . وما كادت تدور رحى الحرب بين الفريقين حتى انهزم ذلك الجيش العرمرم شر هزيمة وغنم المجاهدون منهم أسلحة ومعدات حربية كثيرة

ولما بأت الدولة الايطالية في تلك التجربة بالفشل وعلمت أنها غير قادرة على اخضاع الشعب بقوة الحديد والنار عمدت الى التضييل والتمويه فسنت قانوناً سميته « القانون الأساسي » وأعلنته في سنة ١٩١٩ ومع انه جاء غير ضامن لحقوق الأهلين قبلوا به بغية حقن الدماء وراحة الفريقين وانتظروا من رجال الحكومة الايطالية تنفيذه ثم ما لبث أن ظهر أنهم اتخذوه غشاوة على أعين الناس وأخذوا يبشون بذور الفساد من وراء الحجب ويزعجون على بعض سخفاء العقول المبالغ الطائفة من الأموال والسلاح والذخائر الحربية لايقاد نار الفتن بين الأهلين والتفريق بين الوطن وبنيه والاخ وأخيه . وكادوا يصلون الى رغائبهم ويوقعون البعض في تلك الحبال التي نسجتها أياديهم الاثيمة ، لو لا ان عقلاء البلاد أدركوا تلك الدسائس وتلافوا الأمر بعقد مؤتمر عام في مدينة غريان ضم نخبة من رجالات البلاد في سنة ١٩٢٠ فتبادلوا الآراء وفكروا فيما ينقذ البلاد من الفتن والفوضى . وكان الجيش الايطالي وقتئذ كما ذكرنا آنفاً منحصراً في بعض المدن الساحلية.

وبعد المداولة في جلسات متوالية قرروا بالاجماع مايلي :

« ان الحالة التي آلت اليها البلاد لا يمكن تحسينها الا باقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحتمه الشرع الاسلامي من الأصول تحت زعامة رجل مسلم منتخب من الأمة لايعزل الا بحجة شرعية وقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وان يشمل حكمه جميع البلاد بمحدودها المعروفة .

وقد تناقش المؤتمر في أن ذلك لا ينافي منافع دولة ايطاليا التي جاءت الى وطننا من أجلها مع اللزوم القطعي لراحتنا وسلامتنا وبين ثقة في أن الشعب الايطالي لا يرضى في هذا الزمن الذي تنال فيه كل الأمم أكبر أمانيتها ، أن يقيم نفسه من أجل مطامع وأوهام فئة المستعمرين عقبة في سبيل النظام والامن والعدل في طرابلس الغرب ولذلك لا تزال للامة

ثقة في أن تسعف بضرورياتها وان لا تصادم في أمنية لا ترضى ولا يستقر لها حال غيرها
وقد أنبنا للمطالبة بذلك وفداً من حضرات نوري بك السعداوي ومحمد خالد بك
القرقني ومحمد فرحات بك ومحمد الصادق بك ابن الحاج ليراجع كل مصدر يرى ضرورة
مراجعته لتحقيق الغاية المذكورة في القرار المبين أعلاه داعين المولى جل شأنه أن يوفقهم
وأن يحقق أماناً أمتنا حرر في ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩

ثم انتخب المؤتمر هيئة حكومة عهد اليها ادارة شؤون البلاد الداخلية التي عمت فيها
الفوضى بسبب الفتن التي خلقها رجال الحكومة الايطالية . وذهب الوفد المشار اليه في ذلك
الحين الى رومية ليبلغ حكومتها ما أجمع عليه الشعب من المطالب وأخذ يراجع المقامات
الرسمية وغير الرسمية فلم يكن حظه من رجال الحكومة الايطالية سوى الاعراض
والاستخفاف بمهمته .

أما هيئة الحكومة الوطنية التي عهدت اليها ادارة شؤون البلاد فانها أخذت في اقرار
دعائم الامن وتنظيم الشؤون الادارية كالدوائر المالية والقضائية وتنظيم الجيش لما سيحدث
من الطوارئ فساد الامن ورجعت الطمأنينة بعد الخوف الذي استولى على النفوس
وانصرف الاهلون الى معائشهم ومصالحهم

أما منطقة بنغازي فان نوري باشا الذي أوفدته الحكومة العثمانية اليها خلال الحرب
العالمية جل الاهالي على التعرض على القطر المصري وهي خطة رسمتها وزارة الحربية
العثمانية فجهز جيشاً مؤلفاً من « ٥٠٠٠ » مجاهد بالاتفاق مع السيد أحمد الشريف السنوسي
وتجاوزا به الحدود المصرية وترك السيد أحمد الشريف وكيلاً عنه في برقة ابن عمه السيد
ادريس السنوسي .

ولما دخل المجاهدون الحدود المصرية اصطدموا بالجيش الانكليزية وبعد حروب
بين الفريقين تراجع المجاهدون بصورة غير منظمة وخلال ذلك عمت الفاقة منطقة برقة
واشتدت المجاعة

فرأى السيد ادريس من الحكمة أن يعقد هدنة مع الايطاليين وأوقف رجلي الحرب
وبعد انتهاء الحرب الكبرى بايعه الشعب البرقاوي بالامارة ووافقت على ذلك الحكومة
الايطالية بمقتضى معاهدة عقدت بين الفريقين .

بيد أن رجال الحكومة الإيطالية كعادتهم في كل عهد يعقد معهم أخذوا ينقضون العهود ، فاضطر الأمير السيد ادريس أن يوحد مساعيه مع حكومة طرابلس الوطنية وعقدت الاتفاقية بين الفريقين المعروفة باتفاقية « سرت » المتضمنة توحيد القطرين الشقيقين والنضامن على المطالبة بحقوقهما معاً ؟ وتنص المادة الخامسة من هذا الاتفاق على توحيد الزعامة وتنصيب أمير واحد للقطرين .

وما كادت هذه الاتفاقية تتم حتى هاجم الإيطاليون سواحل مصراته في منطقة طرابلس سنة ١٩٢٢ فأعلنت الحكومة الوطنية الحرب في كل المناطق واستمرت الحرب بشدة هائلة ثلاثة أسابيع عجز الإيطاليون خلالها عن التقدم ولو كيلو متراً وضحت البلاد بالوف من الخلق في سبيل الدفاع ، كما أن الإيطاليين خسروا اضعاف ذلك لأنهم كانوا المهاجرين . ولما أيقنوا بالخيبة والفشل طلبوا توقيف القتال بغية التفاهم وانتدبوا للذاكرة السنيور « ييلا » والسنيور « رابكس » وخرجا في الموعد المضروب الذي قرره الحكومة الوطنية في مكان يسمى « فندق الشريف »

وقد كتبت الحكومة الوطنية للوالى الكتاب الآتى : « باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدثت في البلاد حالة فوضوية وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج فاضطرت الأمة الى عقد مؤتمر في غريان بلغت مقرراته الصائبة الى الحكومة وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه الا الاعراض والاستخفاف بمهمة ذلك الوفد مع استمرارها على خطة المراوغة والتفريق

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرّة على تلك السياسة المنقورة . وتحقق أهل القطرين طرابلس — برقة ان حياتهما محفوفة بالخطر في الحال والاستقبال وان ما دهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما ان ادارتهما الى عهد الاحتلال واحدة عندئذ تبادل عقلاء الفريقين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الاخاء ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية في سبيل الحياة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسى .

فقرر الفريقان بالاجماع في سرت اتفاقية من جهة فصولها المطالبة بتوحيد ادارة

القطرين وهو الحل النهائي الذي لا يبقى معه ريب لهذه القضية المعضلة التي لا تزيدنا سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد الا تحكيميا في عقد الخلاف فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها فضلاً عما تصاب به الامتان من الخسار وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى

أما نحن أهل القطرين فان الادوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا الى صورة حل هذه المشكلة حلاً لا حظنا فيه المنافع الايطالية سياسية كانت أو اقتصادية وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الامة وتكون له السلطات الادارية جميعها مع السلطة الدينية ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد ان تجردت عن ملاحظة الاشكال والاعتبارات ووجهت دقيق نظرها الى الحقائق والجوهريات . كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة وعامنا خلاها ان سفركم الى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحيية واسعة تحول لكم المفاوضة معنا للوصول الى ما يرفع الخلاف الذي لا تتحمل البلاد دوامه ورعاية لاحكام اتفاقية سرت المذكورة فاننا في انتظار مندوبي برقة الذين قرب وصولهم بالنظر لاشعار سمو الأمير السيد محمد ادريس ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التي لا نشك أنها ستبنى على أساس الاخلاص وحسن النية والأمل وطيد في أن دواتكم ستضمون الى تاريخ حياتكم السياسية نفراً آخر في حل المشكلات واقبلوا يادولة الوالي عاطر التحية وفائق الاحترام

وبعد استمرار المذاكرة ثلاثة أشهر والايطاليون يراوغون في أحاديثهم مراوغة الثعالب تبين أن الغاية من توقيف القتال وتلك المذاكرة الاستفادة من الوقت لاعداد العدة للحرب وقد تجلت فكرتهم هذه في تكليفهم الأخير وهو طلبهم تسليم السلاح الذي بيد الأهليين قبل كل حل والا الحرب ، عندئذ لم تر الحكومة الوطنية بدءاً من رفض هذا الطلب وخوض غمار الحرب ، واستؤف القتال الذي لم يزل شرره يستطير من ذلك التاريخ الى يومنا هذا

ان الحكومة الايطالية بعد ان اتخذت كل ما في وسعها من الوسائل لتفريق كلمة أبناء البلاد ولم تنجح ورأت ذلك الشعب متضامناً مستميتاً في سبيل الشرف والمطالبة بحقوقه عمدت الى تنفيذ سياسة الشدة والارهاق خصوصاً بعد استلام الفاشيست زمام الحكم فانهم أضافوا الى تلك الشدة فكرة ابادة ذلك الشعب ومحائه لتخلو لهم الديار ويستخلفوا

فيها المستعمرين من أبناء جلدتهم الذين ضاقت بهم أرضهم وهكذا أخذ الفاشيست في تنفيذ سياستهم الغاشمة وما يرحوا ينزلون بذلك الشعب العربي ضروب العذاب فلا يرجون طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً

فانهم يحكمون البلاد بأحكام عسكرية وأعمدة المشانق منذ الاحتلال حتى يومنا هذا لم تزل منصوبة في كل بلد من ذلك القطر فادارة البلاد تحت حكم عسكري مطلق اليد لا يسئل عما يفعل وله في كل لواء وقضاء وناحية حكم اداري وجيع الدوائر المالية والعسكرية والبلدية يدبرونها بمعرفتهم وليس للأهلين مشاركة في شؤون بلادهم ولا يستخدمون منهم حتى الخدم ولا الحجاب أيضاً الذين يقفون على الابواب وجيع المعاملة باللغة الايطالية والأغرب من هذا كله ان جباة الأموال من الفاشيست فيطرحون الضرائب ويجبونهم من المكلف وهو لا يدري ما عليه ولا يعرف باية نسبة تجبي منه تلك الضريبة بل انه مرغم على ادائها عن يد وهو صاغر واذا سأل سائل عن أساس الضريبة يعدد خائناً ويعاقب العقاب الأليم .

وبالجملة فان السياسة المرهقة التي تمشي عليها الحكومة الفاشستية لم يسبق لها مثيل منذ ان عرف التاريخ ، فسفك الدماء وقتل النفوس البريئة والتجاوز على الاعراض والنفي والحكم بالسجن المؤبد وسلب الأموال وغصب الاملاك والأراضي من أيدي أصحابها وقذف البشر من الطيارات والقاء بعضهم مكبلين بالاغلال في لجج البحر وقتل الاسرى وهتك حرمت الدين ودوس القرآن الكريم تحت الاقدام امام جماهير المسلمين وهدم اضرحة بعض الصحابة الكرام والاولياء واتخاذها اصطبلات للحيوانات والترنم بالاناشيد في الطعن بالدين الاسلامي حدث عن ذلك ولا حرج ، ولا نريد أن نأتي في هذه العجالة على ذكر الفظائع التي كتب فيها تأليف خاص يغنينا عن التفصيل فان فيه من الفظائع ما تنفطر منه الاكباد ويذيب الفؤاد

ومنه يعلم القارئ أن سياسة الفاشيست في ذلك القطر ترمي الى ابادته أهله فقد كان عدد الشعب الطرابلسي — البرقاوي قبل الاحتلال الايطالي يربو على « ١٥٠٠٠٠٠ » نسمة وقد صرح الجنرال غرتسياني قائد الحركات العسكرية انه بعد الاحصاء الدقيق تبين أن سكان طرابلس — برقة لم يتجاوز عددهم « ٧٠٠ » ألف ولا ريب في أنهم قد قضوا

على ذلك الشعب المسلم بين قتل وتهجير والبقية الباقية أيضاً محكومة بالفناء لأن الضغط الشديد وشد الخناق على الاعناق لابد أن يؤدي الى تلك النتيجة وعدا ذلك فان مرافق الحياة في تلك البلاد قد استولوا عليها جميعاً فالمسلم لا يتمكن من الاشتغال بالزراعة ولا بالتجارة ولا بأية حرفة تؤمن معاشه فالتاجر لا يمكنه النوسع بالتجارة والتجول في البلاد لتوسيع نطاق عمله بل أنهم يحددون له المبالغ التي يمكنه أن يتاجر بها والايام التي يتغيبها في الاقطار المجاورة وصنف البضاعة واذا تغيب عن الاجل المضروب له أو تاجر بأصناف غير مسموح له بها تسحب من يده اجازة التجارة ويعاقب ، زد على ذلك انهم أطفأوا نور العلم وتركوا ذلك الشعب يتخبط في دياجير الجهل فلم تكن في تلك البلاد الا بضعة مدارس ابتدائية أسست في عهد الترك يعامون فيها الاطفال باللغة الايطالية للوصول الى امانة اللغة العربية حتى لا تبقى ناحية من مقومات ذلك الشعب الا ويقضى عليها القضاء المبرم

ولما رأت الجاليات الطرابلسية البرقاوية التي تقطن مختلف الاقطار الاسلامية مأحاط ببلادها من الاخطار فكرت في تأليف لجنة للدفاع عما حل ببلادها من الضيم الفظيع والظلم المريع وانتخبت هذه اللجنة ووضعت أساساً لعملها «الميثاق الوطني» وهذه مواده :

١ - تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية لطرابلس - برقه يرأسها زعيم مسلم

تختاره الامة

٢ - دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد

٣ - انتخاب الامة مجلساً حائزاً على الصلاحية التي يخوله اياها الدستور

٤ - اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم .

٥ - المحافظة على شعائر الدين الاسلامي وتقاليده القطر في جميع ارجائه

٦ - العناية بالاوقاف وادارتها من قبل لجنة اسلامية

٧ - العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه

٨ - تحسين العلاقات بين الامة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطالية بمعااهدة .

يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي

ومنذ تأسست هذه اللجنة أخذت على عاتقها معالجة القضية بشتى الوسائل الداخلية

في حيز امكانها فأذاعت على الملأ السياسة الهوجاء التي تتمشى عليها الدولة الايطالية في تلك

البلاد بواسطة الصحف والنشرات والرسائل وهي ترسل في كل موسم حج الى مكة المكرمة عشرات الآلاف من النشرات لتحيط المسلمين في جميع الأقطار علماً بما هو حادث في تلك الديار النائية ولم تكتف بذلك بل خاطبت طاغية الفاشيست وبيّنت له عقم سياسة الحديد والنار التي يتعقبها في طرابلس برقة ولكن نصحبها له لم يزد الا غروراً وعتواً كبيراً وقد اقتنعت بعدم الفائدة من مراجعة أولئك الطغاة الذين لا يرضيهم الا تمزيق اللحوم والولوغ في دم البشر

لذلك يتحتم على المسلمين الاهتمام باخوانهم في الدين والقومية في تلك البلاد النائية أولئك المساكين الذين تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت في وجوههم السبل الا سبل الموت وفي الموت راحة البائسين ولطالما ملأنا الفضاء بأصواتنا ورفعنا شكوانا الى العالم الاسلامي ليصرخ في وجوه وحوش الفاشيست عسا هم يرجعون عن غيهم ويؤوبون الى رشدهم رحمة بالانسانية وشفقة على البشرية ولكن اني للمسلمين الذين تفرقت كلمتهم وانحلت عرى جامعهم أن يتضامنوا على القيام بمثل هذا الواجب ، ولما كان المؤتمر الاسلامي الموقر من ضمن واجبه التفكير في مثل هذه الشؤون الهامة فيها اننا نبسط بين يديه قضية من أهم القضايا التي يجب العناية بها فان ذلك الشعب المفجوع في وطنه ودينه اذا لم تشمله عناية المخلصين من اخوانه المسلمين الذين يهمهم أمر الدين سيصبح « لاسمح الله » أثراً بعد عين وفي ذلك مافيه من المسؤولية الكبرى والبلاء العظيم

فيا أيها السادة الأكارم

إن الشعب الواقف في وجوه أعدائكم منذ احدى وعشرين سنة هو منكم ، والدين المهان في تلك الديار هو دينكم . وأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله هم شهداؤكم ، هنالك في تلك الصحارى المحرقة والقيافي المقفرة اخوان لكم « صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا »

أحل . إن اخوانكم في تلك الديار النائية يستصرخونكم ويناشدونكم الله أن تعملوا على معالجة شؤونهم ونشلهم من براثن الأعداء قبل أن يقضى عليهم فيموتوا وبذلك تفقدون قطرا اسلاميا فتحه جدودكم الكرام ورفعوا فيه راية الاسلام منذ أربعة عشر قرناً .

وقد أصبحت اليوم تلك التربة التي خضبت بدم الشهداء تخيم عليها سحابة سوداء
تمطر ظلاماً وجوراً على اخوانكم البؤساء ، هنالك تسمعون الصراخ والعويل والبكاء
والنحيب ، هنالك الانسانية المعذبة ، هنالك تحار الأفكار وتزيغ الأبصار ، ولا منجد ، ولا
مغيث ، ولا منقذ ، ولا معين .

فان في تلك البلاد طائفة من المسلمين لم يزالوا شاكين السلاح يذودون عن أوطانهم
ويدافعون عن كياناتهم وعدوهم الجائر يترص بهم الدوائر ، فترجو أن تفكروا فيما يخفف
عنهم المصائب التي تحل بهم قبل أن تمزقهم القوى العاشمة ولا نخال أنها تعوزكم الوسائل
لمزيد المساعدة لاولئك البؤساء وأتم رجال الاسلام الذين تمثلون « ٤٠٠ » مليون مسلم في
الكرة الأرضية والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات

٢٦ رجب سنة ١٣٥٠

الطرابلسية البرقاوية

٦ كانون اول سنة ١٣٥١

بشير السعداوي

رئيس الجامعة الاسلامية

بجمهورية ليبيريا

نكرم بزيارة هذه الجريدة^(١) سيدي أفاريل رئيس الجامعة الاسلامية بجمهورية
سبيريا . وقد كان سيادته وزير الحرية ثم رئيس الوزارة . وكان في وسعه أن يكون رئيساً
للجمهورية لولا أنه آثر رئاسة الجامعة الاسلامية وهي أكبر منصب ديني في البلاد عين
فيه سيدي أفاريل هذا لمدي حياته كلها في حين أن رئيس الجمهورية تنتهي مدة رياسته
في مدى أربع سنوات ولا يستطيع تولى منصبه الا بموافقة سيدي أفاريل بوصفه أكبر
رئيس ديني لمسلمي الجمهورية

وسيدي أفاريل يمثل اللون الافريقي الأصلي ولكن ملامح وجهه وسيماه وتناسقه
غير ما تراه في بعض الزوج فهو أقرب الى سماحة الوجوه العربية وفيه جاذبية تستريح اليها
النفس وطيبة مرسمة في محياه لا يشك فيها أحد

(١) نقلا عن جريدة السياسة الغراء

وسيدى افاريل يزور الديار المصرية للمرة الثانية . فقد زارها في العام الماضى وظل فيها أياماً معدودة وكذلك تكون زيارته قصيرة هذا العام . ومهمته تجارية فهو بالرغم من صفته الدينية يحمل تفويضاً من حكومته في عقد الاتفاقات التجارية مع الحكومات الأخرى .

وسيدى أفاريل يرتدى ملابس عسكرية وشيقة على الطراز الحضرى وهو في مصر يلبس « الطربوش » ويزدان صدره بنياشين عدة يأخذك بريقها الجذاب ترى بينها نيشان اللوجيون دونير الفرنسى ونيشاناً فرنسياً آخر وثلاثة نياشين أمريكية ونيشاناً انجليزيا واثنين من ملك الحجاز وواحداً من الحكومة التونسية

وهو يتكلم اللغتين الفرنسية والانجليزية ويعرف بعض العربية وقد تلا علينا المعوذتين وسورة الفتح من دون لحن ولا غموض

وسيدى أفاريل من سلالة الملوك الذين تعاقبوا على عروش السنغال وليبيا وسيراليون ستة قرون ونصف قرن وقد بلغ عددهم ستين ملكاً . ولقد كان آخرهم والد ضيفنا المحترم كان ملكاً على السنغال وحارب الفرنسيين ثلاثين عاماً . وما زال والده حياً وقد بلغ من العمر مائة عام وتسعة أعوام ولم تنفرط ثنية من ثناياه حتى اليوم . وكذلك والدة سيدى افاريل . بلغت من العمر ثمانية وتسعين عاماً وهي كزوجها في عافية وصحة ولقد اضطرت الظروف القاهرة سيدى افاريل أن يحارب جنبا لجنب مع الجنرال غورو في سوريا أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٧

ومن مهامه في زيارته الحاضرة لمصر أن يخاطب ذوى الاختصاص في تعيين قناصل يمثلون مصالح ليبيا التجارة في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد . وسيدى افاريل ينوى كذلك أن يعقد اتفاقاً مع بعض المدرسين المصريين الذين يحسنون اللغة العربية ليسافروا الى ليبيا ويتولوا التعليم في مدارسها .

ولما كان سيدى افاريل قد أصبح الرئيس الدينى الأكبر في البلاد فسترسل حكومة الجمهورية ولديه الى الازهر الشريف في العام القادم لكي يدرس العلوم الاسلامية دراسة متقنة تمكن احدهما من أن يتولى منصب قاضى قضاة المسلمين هناك وتمكن الآخر من

تولى منصب ديني آخر حتى اذا وافي الأجل أباهما خلفه أحدهما في رئاسة الجامعة الاسلامية بديار ليبريا

وحكومة ليبريا وأهلها قوم أشداء في الاحتفاظ باستقلالهم غاية في الغيرة على مرافقهم وحقوقهم القومية لا يفرطون فيها ولا ينزلون عنها لأحد . ولقد بلغ من حرصهم على بلادهم انهم لا يسمحون لاجنبي كائنا من كان ولا سيما الغربيين بأن يشتري شبرا من الارض في ديارهم .

حدثنا رفيق كان يصحب سيدي افاريل في زيارته لجريدتنا قال : — توصل أحد المستعمرين الانكليز الى أن يستحوذ على منجم لتعدين الذهب في ليبريا فلما توجس خيفة على نفسه وعماله استنجد بمائتي جندي بريطاني فلم يكذ هذا النبا يصل الى مسامع حكومة الجمهورية حتى أئذرت الرجل بأن ينسحب هو وجنوده من البلاد والا نزل بهم من المكاره مالا يحبون في أربع وعشرين ساعة . فانسحب الجند ووقف العمل ولم يسع القنصل الانكليزي سوى ان ينصح للجنود بسرعة الخروج من البلاد والا لم يكن أحد مسئولا عن حياتهم سواهم

وقد أخبرنا سيدي افاريل أن عدد أهل ليبريا يبلغ خمسة ملايين وان كانت المراجع الجغرافية تحدد العدد الأقصى بمليونين وربع مليون . لكننا قد نرجح صحة الرواية التي رواها سيدي افاريل لعلمنا ان الاحصاء الدقيق في مثل تلك الأصقاع يكاد يتعذر .

ومما ذكره سيدي افاريل وأقرته عليه المراجع الجغرافية أن الأجانب لا يزيدون في بلاد الجمهورية عن مائتي شخص كلهم في البلاد الكبرى وفي هذا دليل واضح على أن أهل الجمهورية ينفرون من العناصر الأجنبية كل النفور .

ولا عجب فان أمريكا التي تعهدت هذا الشعب منذ حوالي مائة عام أسلمته قياد نفسه في النهاية وعلمته الحذر الشديد من تدخل الأجانب في شئونه فأحسن الشعب الليبيري تلقن هذا الدرس الثمين وجرى عليه حتى يومنا هذا .

وفي ليبيريا زهاء ١٢٠٠٠ من الزنوج الامريكان لعل الشفيح لهم في البقاء بين أبناء الجهورية أنهم من طائفة الزنوج فلمهم باهل افريقيا قرابة الجنس وانهم ينتمون الى الأمة الامريكية التي أحفست رعاية ليبيريا يوم كانت قائمة بشئونهم القومية منذ مائة من السنين .

وسألنا سيدى افاريل كم عدد المسلمين بين أبناء الجمهورية فقال ان من الخمسة الملايين الذين يتألف منهم أهل ليبيريا ثلاثة ملايين لا يزالون في حالة البداوة الاولى لا تكاد تكون لهم حضارة أو دين . وبينهم زهاء مليون ونصف مليون من المسلمين وزهاء نصف مليون من المسيحيين الذين اعتنقوا المسيحية بجهود المبشرين الامريكان وغير الامريكان وسألنا سيدى افاريل من ذا يقوم بنشر التعاليم الاسلامية في بلاد الجمهورية فاجاب . بأن بين مسلمي السنغال رجالا متفقهين في الاسلام الذى هو دينهم فمنهم نستمد المعلمين الدينيين .

وفهمنا من سيدى افاريل أن في الجمهورية نهضة حديثة ترمى الى ترقية البلاد في نواحي مرافقها المختلفة من تجارة وتعليم ومواصلات . والخدمة العسكرية عندهم تتناول أبناء الجمهورية جميعا وقت الضرورة من سن السادسة عشرة الى سن العشرين وخدمة الجمهورية تشتري آلات مدرعة حربية كبرى من أمريكا يبلغ ثمنها ١٨ مليون دولار كما أخبرنا سيدى افاريل

وقد ظل سيادته في دار الجريدة زهاء خمس وأربعين دقيقة ثم نهض منصرفا فودع بمثل ما استقبل به من الاكرام . والشرقى على الشرقي عطوف . وقد طلب اليها سيادته أن ترسل اليه أعداد السياسة في مقره بليبيريا التي يصل اليها بعد شهر من الزمان يقضيه في رحلته من القاهرة الى بور سعيد الى جبل طارق الى اسبانيا ومن ثم يركب السفينة الى بلاده بسلام

أما من جهة عدد سكان جمهورية ليبيريا فقد سمعنا روايات تختلف عن رواية سيدى افاريل صاحب هذا الحديث وذلك اننا كنا اجتمعنا مع مندوب ليبيريا في جمعية الأمم وهو معتمد هذه الجمهورية في باريز هولاندى الاصل وقد توفى منذ ثلاث سنوات ولما اجتمعنا به سألناه عن عدد أهالى ليبيريا والمسلمين منهم فقال لنا انهم مليون ونصف مليون . المسلمون منهم مليون ومائتا ألف نسمة والمسيحيون ٣٠٠ ألف وربما يكون أهمل الوثنيين لأننا لا نزال نعتقد أن رواية سيدى افاريل رئيس الجماعة الاسلامية في ليبيريا هي الصحيحة « وصاحب البيت أدري بما فيه »

الدفاع عن الحروف العربية

بيننا لقرائنا^(١) في رسالة سالفه تلك التيارات الحائمة حول قبول الحروف اللاتينية والاحتفاظ بالحروف الحالية بتعديل أو بغير تعديل . واليوم قد سنحت لنا الفرصة للدفاع عن الحروف العربية حيث قد اطلعنا على رسالة تركية حديثة الظهور ، يصح لنا أن نعتبرها حجة قوية لم يستطع أنصار الحروف اللاتينية أن يقابلوها بمثلاً بعد .

وهذه الرسالة عبارة عن محاضرة شائعة ألقاها الأستاذ اللغوي عالمجان شرف بك في مؤتمر باكو الذي انعقد في أوائل العام الحالي من مندوبي جميع الشعوب التركية للنظر في تاريخ الأمم التركية ولغاتها وآدابها واصلاح حروفها . انما كانت أهم مسألة وضعت على بساط البحث هنالك مسألة الحروف ، وكان حضرة الاستاذ السالف الذكر أبلغ مدافع عن الحروف العربية . لقد ألم حضرته بالموضوع من جميع جهاته وخرج من بحثه مبرهنأ أن الحروف العربية أفضل من الحروف اللاتينية من وجهة الرسم والخط وسرعة القراءة والموافقة للصحة وسهولة الطباعة وجمال الشكل وهلم جرا

لهذا رأينا من الموافق أن نلخص هذه الرسالة للقراء نظراً لأهمية الموضوع من جهة ولا اتصاله بجميع الأمم التي تستعمل الحروف العربية من جهة أخرى

الشعوب التركية والحروف العربية

ان تسعين في المائة من أفراد الشعوب التركية يستعملون الحروف العربية أما البقية وهم جماعة على الديانة المسيحية فانهم يستعملون الحروف الروسية المعدلة . ومع ذلك فان فريقاً من هؤلاء الاتراك المسيحيين القاطنين في قازان قرروا ترك الحروف الروسية وعادوا الى استعمال الحروف العربية ، كما ان فريقاً آخر وهم قبيلة « الياقوت » تركوا الحروف الروسية وقبلوا الحرف اللاتينية

نتائج تبديل الحروف

فاذا ما اتجهت الأنظار اليوم الى تبديل الحروف العربية بغيرها فلا شك أن سيكون لهذا التبديل نتائج مدنية واقتصادية واجتماعية عظيمة . وأولى هذه النتائج ضرورة تعليم

(١) لمراسل السياسة في الاستانة بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٦

المتعلمين أجمعين مرة أخرى ، ونشر المؤلفات بالحروف العربية والحروف اللاتينية سنين عديدة وبذل الجهود لتعليم الناس القراءة بنوعين من الحروف ، وتهذيب المعامين وتربيتهم من جديد واصلاح جميع الآلات الفنية والعملية وتعديلها . أضف الى ذلك ، تلك الزلزلة الروحية الاجتماعية التي تقع بين الشعوب التركية بتبديل الحروف العربية والتي تجعل مسألة الحروف أهم مسألة اجتماعية اقتصادية تهتم الشعوب التركية

مقارنة الحروف العربية بالحروف اللاتينية

اتنا إذا قارنا الحروف العربية بالحروف اللاتينية وجب علينا أن نقرر أولاً ان الحروف العربية أوفق لافادة الكلمات التركية . كانت تتكون الحروف العربية من ثمانية وعشرين حرفاً . زاد عليها الأتراك ثمانية حروف فبلغت ستة وثلاثين حرفاً أربعة منها حروف متحركة وباقيها حروف ساكنة ، أما الحروف اللاتينية فعبارة عن ستة وعشرين حرفاً في الأصل ستة منها متحركة وعشرون ساكنة . لذلك فانه لما شرع الآذريون في قبول الحروف اللاتينية لم يجدوا فيها الا تسعة عشر حرفاً (أى ٥٦ في المائة) من أربعة وثلاثين حرفاً تلزمهم لتكوين حروفهم الهجائية .

وعليه فانهم زادوا عليها حروفاً روسية وحروفاً أرمنية لتفي بالمطلوب .

أما قبيلة الياقوت التركية فانهم لم يستطيعوا أن يجدوا في اللاتينية الا سبعة عشر حرفاً تنفعهم ، ثم زادوا عليها حروفاً أخرى لا كمالها وكذلك أتراك (قازان) و (باشقيرد) لم يستطيعوا أن يقتبسوا من الحروف اللاتينية إلا تسعة عشر حرفاً . وقد ثبت من ذلك أن الحروف اللاتينية لا تفي بحاجة اللغة التركية إلا بدرجة (٤٧) في المائة أو (٥٦) في المائة على أعظم تقدير . وهذا أسطع دليل على أن الحروف العربية أوفق للغة التركية .

سرعة القراءة

إذا تبين ذلك أمكننا أن ننتقل الى موضوع « سرعة القراءة » . اتنا اذا قرأنا لا ننظر الى الكلمة حرفاً حرفاً بل يقع بصرنا على الكلمة بأجمعها دفعة واحدة فنميزها كما نميز الأشياء والأشخاص .

ان الحروف اللاتينية ترسم في الغالب بخطوط مستقيمة ويمزج قسم منها برسم حرف O

فتتجلى كزوايا مستقيمة . فيكون السطر المطبوع مصفوحاً بين خطين متوازيين وترصف الكلمات كأحجار مرصوة .

أما الحروف العربية فليس لها خيطان متوازيان أو زوايا مستقيمة . بل ليس للسطور فيها الا خطأ أساسياً تمتد منه خطوط مستقيمة أو معوجة الى أعلاه وأسفله بحيث تكون مجهزة النقط أو الاشارات الصغيرة . وهذه الحالة الخاصة بالحروف العربية تسهل لنا تمييز الكلمات دفعة واحدة بخلاف الحروف اللاتينية التي ليست كذلك .

أى الحروف أوفق للصحة

يدعى بعضهم ومن بينهم الشيخ (جوزى مندلى) وهو عربى مسيحي تعلم فى المدارس الدينية الروسية ثم كان رقيباً على الصحف التركية أيام القيصريّة الروسية أن كثرة النقط والخطوط فى الحروف العربية تجعلها ضارة بصحة البصر . وذلك خطأ . وقد دلت التجارب على انه خطأ . ويكفى أن يحىء الانسان بشيء مكتوب بالعربية وآخر مكتوب باللاتينية وأن يقرب كل منهما الى بصره ثم ينظر فيهما ليتبين له انه يستطيع قراءة الحروف العربية من مسافة أبعد من المسافة التى يستطيع بها قراءة الحروف اللاتينية . وقد تبارى طلاب مدرسة المعلمين التركية فى قازان مع طلاب مدرسة المعلمين الروسية فى موضوع سرعة القراءة والكتابة ففاز الأتراك بنسبة ٢٦ فى المائة فى القراءة ونسبة ٣٢ فى المائة فى الكتابة .

قراءة المخطوطات اليدوية

ثم إن المخطوطات اليدوية العربية تشبه الخطوط المطبعية كثيراً ولذلك تسهل قراءتها هذا بخلاف المخطوطات اليدوية اللاتينية والروسية فانها تصعب قراءتها . وتسهل قراءة المخطوطات العربية من جراء النقط ومن اتحاد الرسم المطبعى والرسم اليدوى .

سرعة الكتابة

ان الحروف العربية كالعلامات الستوغرافية ولذلك فانها تكتب بكل سرعة . واذا ما جربتم الكتابة بالحروف العربية واللاتينية ألفتيم أن فرق السرعة بينهما بنسبة ٣٠ فى المائة .

الحروف والطباعة

يمكننا بعد ذلك أن نقارن الحروف العربية والحروف اللاتينية من وجهة الطباعة ان الحروف اللاتينية الكبيرة والصغيرة التي تستعمل في المطابع الآزرية اليوم يبلغ عددها (١١٠) حروف مع الأرقام

أما الحروف التركية فرغما من أن لكل منها أربعة أشكال فأنها لا تزيد على (١٥٠) حرفاً وليس هذا بالفرق العظيم الذي يلجىء الى تبديل الحروف . وقد استطاع عبدالرحمن بورناش أفندي تقليل عدد الحروف التركية بحيث ساوى ما بينهما وبين الحروف اللاتينية. وإذا ما نجح عبد الرحمن أفندي في وضع شكلين لكل حرف كما هي غايته فسيكون عدد الحروف العربية أنقص من عدد الحروف اللاتينية وهناك لا يبقى اعتراض من وجهة الطباعة أيضاً

تعليم الحروف

أما اذا نظرنا الى مسألة تعليم الحروف وجب علينا أن نعرف قبل كل شيء أن عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة بين الأتراك ليسوا كثيرين ، بل انهم تتراوح نسبتهم بين خمسة في المائة وخمسة وعشرين في المائة . انما اذا تبدلت الحروف فقد هؤلاء كذلك . لكن المسألة مسألة سهولة التعليم

ان لكل حرف من الحروف اللاتينية أربعة أشكال : كبير وصغير للطباعة وكبير وصغير للكتابة . وأكثر هذه الحروف غير متشابهة في الرسم . أما الحروف العربية فلثلاثة عشر منها شكلان ولبقيتها أربعة أشكال انما تتشابه جميع الاشكال ولهذا فان تعلم الحروف العربية أسهل بكثير من تعلم الحروف اللاتينية

الشعوب المتآخية والحروف الهجائية

لا جرم ان لاستعمال الشعوب المتكلمة بلغة واحدة أو بلغة متقاربة حروفاً مشتركة قيمة عظيمة . لا سيما اذا كانت هذه الشعوب مرتبطة بروابط جغرافية واقتصادية ، اذ هنا لك يسهل لهذه الشعوب تبادل كل شيء كما تقوى بينها العلاقات المدنية والاقتصادية

وحيث ان أحسن الحروف التي توافق اللغة التركية هي الحروف العربية وجب على جميع الشعوب التركية الاحتفاظ بهذه الحروف

أى الحروف أجل ؟

ثم اننا اذا سئلنا بعد ذلك عن أى الحروف أجل ، وجب علينا أن نعترف أن هذه المسألة مسألة شعور شخصي . بيد اننا رأينا ان الشيخ (جوزي) السالف الذكر يدعى أن الحروف العربية قبيحة المنظر ، في حين ان الكثيرين من كتاب الأوربيين ينقضون قوله ويقولون ان الحروف العربية التي تتنوع أشكالها أجل بكثير من الحروف اللاتينية التي ليست الا عبارة عن أشكال هندسية . وعليه فان الحروف العربية تمتاز على غيرها بانها :

مزايا الحروف العربية

- ١ — تقرأ الكلمات العربية بها بكل سهولة
- ٢ — تكتب الكلمات العربية بها بكل سرعة .
- ٣ — ومن الممكن اصلاح الحروف العربية بلا عبث يصيب شكلها وهنالك تسهيل الطباعة .
- ٤ — والحروف العربية أسهل للتعليم . كما ان
- ٥ — الحروف العربية هي الحروف التي تستعملها الشعوب التركية المتجاورة ، المتكلمة بلغة واحدة فينبغي الاحتفاظ بها .

الجهة السياسية

ان تسعين في المائة من الشعوب التركية يشتغلون بالفلاحة . فلا شك أن الاقدام على تغيير الحروف يؤثر في جميع هؤلاء الفلاحين أسوأ تأثير . وقد فطن (لنين) الى هذه النقطة فقال (لاغا معلى الاذرى) الذي يستهدف لتغيير الحروف « كيف يرى الفلاح هذا العمل ؟ » وهذا سؤال لا يصح الاستخفاف به . نعم ان الفلاح التركي متأخر . لكن تأخره غير ناجم من الحروف الهجائية بل من حالته الاقتصادية ومن الارهاق الذي يصيبه وليس للحروف الهجائية أى تأثير في انحطاطه . ولهذا فلن يفيد تغيير الحروف في رقيه المدني والاقتصادي بل يضاعف في تأخره . وهذا ما لا يصح اقتراحه .

اظهار محاسن الاسلام

للعالم الايطالى لورا فكشيا فاليري

من الكتب المهمة التي ظهرت في الأيام الأخيرة في الدفاع عن الدين الاسلامي كتاب اسمه « إظهار محاسن الاسلام Oppalogie de L'Islamisme بقلم « لورا فكشيا فاليري من علماء ايطالية Laura Veccia Valglieri وهو يقول في مقدمة كتابه هذا المترجم الى الافرنسية إنه مما لا شك فيه أن وصف محمد بتلك الأكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديانتته قد خفت كثيراً في هذا العصر وصار الناس ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذي قلب وجه العالم . ولكن مما لامرأه فيه أن صوت المسلم الحر الذي يحب الله ورسوله ويرى في الاسلام الحسنات التي لا نهاية لها في الدنيا والآخرة لا يزال غير مسموع تماماً والنادر من الأوربيين يعلم هذا الصوت فمحاسن الاسلام لا يمكنها أن تظهر بتدقيقات المؤرخين من الافرنج مهما كانوا منصفين لأنها تدقيقات جارية على أقلام أناس غير معتقدين بالاسلام وبحسب طرق ومفاهيم خاصة بالأوربيين . ومع ذلك فإن مستشرقين مشاهير مثل موير Muir واسبرنجر Sprenger وغولد سيهر Gold-Ziher ونولدكه Noldek وكاتاني Caetani وغيرهم قد وصلوا بعد التمحيص الى الاعتراف بصدق محمد في دعوته والى الحكم بأنه كان ملهماً إلهاماً اختلفوا في سره ولم يفسروه على وجه واحد بل عله كل واحد بشكل . وبعض هذه الأشكال لا يقبلها حتى غير المسلم . فمن هؤلاء من يقول ان العقائد التي بنى عليها الاسلام أكثرها نتيجة نمو هذا الدين بعد وفاة واضعه وأنه هو لم يضع إلا أسساً أولية فقط وأن المساميين فيما بعد قد فرغوا عليها . ثم بعد أن جردوا صاحب الشريعة الاسلامية نفسه من وضع هذه العقائد وردوا إليه مبادئها فقط عادوا فحسوا أقواله وأعماله التي لم يشكوا في نسبتها إليه وفصلوا هنا بين الوحي الذي كان يوحى إليه وبين المعلومات الشخصية التي اتصل بها بثمرة اجتهاده واطلاعه على الأديان الأخرى واحتكاكه بالحوادث أي إنهم فصلوا بين الالهى والبشرى في الدعاية المحمدية

قال كاتاني : إن محمدا لم يجمد على حالة واحدة بل مر بأطوار متعددة بحسب مقتضيات الزمان ووفقا للحوادث . وتغير هذه الأطوار ملحوظ جداً سواء في القرآن أو في السنة لمن عرف أن يفهمها حق الفهم . فالفرق عظيم بين محمد في أوائل بعثته وبينه بعد أن هاجر إلى المدينة واضطر أن يعلن المقاومة بالقوة لمن أشركوا بالله

فالمسلمون متفقون مع هذه الطبقة من المستشرقين على أن في ديانتهم نقاطا كثيرة متفقة مع النصرانية واليهودية ولكنهم يرون هذا زيادة في تأييد رسالة محمد وبرهانا على أنه خاتم الرسل . ولكن بين المسلمين وبين هؤلاء المستشرقين اختلافا في كيفية فهم القرآن . فعند المسلمين أنه كتاب قديم غير مخلوق وغير قابل للمعارضة . وقد نزل على رجل أمي لم يتعلم شيئا إلا ما أوحاه الله إليه وقد أوحى إليه هذا القرآن وألهمه أيضاً أعمالاً لا يجوز الجدل فيها على حين المستشرقين الذين نعتهم يرون القرآن تمثيلاً لحالة محمد الروحية ويزعمون أن فيه تفاوتاً وأن محمداً أضاف من نفسه إلى ما هو من ربه بحسب مصلحته وأن هناك تناقضاً بين بعض أقواله إلى غير ذلك من الآراء . فلاجل هذا الفرق العميق بين المسلمين وبين مؤرخي الاسلام من غير المسلمين اقتضت كثيراً في إيراد آراء المستشرقين المحدثين إلا ما أخذته من تدقيقات غولد سيهر وعولت على أقوال المسلمين أنفسهم تاركا أقوال الطبقة الماضية من علمائهم حتى أقوال مثل الامام الغزالي ولو كانت آرائه توافق مباحثي بما فيها من المعاني العالية . عولت على المسلمين المحدثين الذين احتكوا بالحياة الغربية وأحبوا الاسلام حباً جماً ورأوا فيه ديناً يأنلف مع الأعصر الحديثة ويقبل كل ثقافة فقد كتب هؤلاء كتباً تعجز جميع انتقاداتنا العصرية عن المكابرة فيها . فأخذت اذاً من الكتب الآتية :

الاسلام والرد على منتقديه للشيخ محمد عبده . والاسلام والنصرانية لمحمد عبده أيضاً . والعروة الوثقى لجمال الدين الافغانى ومحمد عبده . والرسالة الجديدة لحسين الجسر . والمدنية والاسلام لمحمد فريد وجدى . وإظهار الحق لرجة الله بن خليل . ومقال للزهرأوى في ائتلاف الاسلام مع المدنية . وروح الاسلام لأمير على الهندى . وعبقريّة الاسلام لعثمان بك قبرصلى زاده . وتقرير لنعمان كامل بك في مؤتمر المستشرقين العاشر . وتقرير آخر في المؤتمر المذكور لعمر لطفى

وقد استقيت من هذه المنابع كلها مختاراً منها ما أريدهُ بدون مراعاة الترتيب بل
 بمراعاة المعنى وإيراد الشواهد المتطابقة فيه من أى موضع من الكتب المذكورة
 ثم ذكر صاحب هذا الكتاب فصلاً فصلاً عن الاسلام فالأول سرعة انتشار الاسلام
 وإن ذلك بيد الهية والثانى بساطة العقيدة الاسلامية وانطباقها على العقل . والثالث حكمة
 كل شعيرة من الشعائر الاسلامية . والرابع معالى الفضائل والآداب الاسلامية وبعد تأثيرها
 فى الخلق . والخامس ائتلاف الشريعة الاسلامية مع المدينة والسادس قيمة التصوف فى
 الاسلام . والسابع الاسلام فى مناسباته مع العلم
 فنحن نوصى ناشئة المسلمين باقتناء هذا الكتاب وهو ١٢٥ صفحة مختصر مع
 الافادة معتدل مع الاجادة

طرابلس و برقة أيضا

ولتمام الفائدة نذكر هنا كتابا مطبوعا في مرسيلية سنة ١٨٦٣ بقلم «شارل ادوارد غين» Charles — Edouard Guys قنصل فرنسة في الشرق ومن أعضاء جمعيات علمية متعددة وعنوان هذا الكتاب «معلومات عن جزائر بومبا و بلات و خليج بومبا ونواحيه^(١)» قد أخذها هذا الكاتب عن أبيه الذي كان قنصل فرنسة في طرابلس الغرب ومنه علمنا أمراً غريباً وهو أن الحكومة الروسية تدخلت لدى والي طرابلس سنة ١٧٧٢ حتى ينزل لها عن جزيرة بومبا بمقابلة شيء تؤديه له لكنه أبى اجابتها الى طلبها هذا خوفاً من تركيا وفرنسة (كذا) وكان طلب الروسية هذا في اثناء حروبها مع تركيا

ويقول المسيو غيزان الامريكيين أيضاً أرادوا أن يكون لهم مرسى في البحر المتوسط فحاولوا الاستيلاء على جزيرتي بومبا لكنهم لم يأتوا اليهما بقوة كافية وانصرفوا وهو يصف ما في خليج بومبا من المراسى الامينة للسفن ويرى في هذا المكان مركز علائق بين الغرب والشرق ذا بال عظيم

ويقول ان جزيرة بومبا بنفسها صغيرة صخرية لكنها تشمل على ميناء من أحسن ما يوجد وكان اللاسيديمونيون (من اليونان) قد عمروها قديماً وجعلوها مرسى لاصلاح سفنهم وصارت مدينة وهي تبعد عن الساحل أربعة فراسخ وموقعها شمال غربى من الخليج وشرقيها جزيرة صغيرة اسمها «باردة» والبحر هناك كثير السمك ومحيط الجزيرة الكبيرة ثلاثة فراسخ ونصف وفيها أراضٍ قابلة للزراعة وأشجار. ويقول ان العرب لاوائل مجيئهم الى برقة كانوا يقيظون في هاتين الجزيرتين نظراً للطف هوائهما وبرودة نسماتهما. ومن هنا سموا الصغرى منها باردة. وهو يمتدح عرب برقة بحسن الضيافة وجودة الاخلاق

ثم يقول ان جزيرتي بومبا تقابلان رأس التين أى مرسى درنه ويذكر انه مرّ بنفسه من هناك في سفينة فرنسوية استقلها في «لارنكا» (قبرص) قاصدةً مرسيلية وذلك

(١) انظر صفحات ٦٤ من الجزء الثانى وما بعدها

في شهر يوليو سنة ١٨١٧ فساقتهم الريح نحو جزيرة اقريطش ثم بعد ذلك اضطروا ان يتقدموا نحو ساحل برقة ومنها ساروا امام السواحل حتى وصلوا الى مدينة طرابلس لعهد يوسف باشا القرمانلي

وهو يذكر ان الامريكيين كانوا نزلوا براس التين وقصدوا الاستقرار بدرنه لكن والى طرابلس كتب الى متصرف درنه فحشد العرب وطردهم . ثم انعقدت معاهدة بين والى طرابلس وامريكا بأن يكون لها قنصل صغير في درنه لملاحظة تجارتها

وهذا المؤلف يشير على اوردته بأن ترسل الى جزيرة بومبا فرسان ماريوينا اورشليم الذين اخرجهم الانكليز من مالطة و تراهم يرتادون لانفسهم محلاً يلجأون اليه ويقول انه لما كانت ترعة السويس ستفتح (١) فيتسع مجال الحركة البحرية فان عمارة هذه الجزيرة بالاوربيين أصبحت ضرورية (تأمل)

ومن أهم مآثراته في هذا السفر الصغير هو ان سكان حضر برقة كان يقدر عددهم لتلك العهد بثلاثمائة ألف نسمة عدا العرب البوادي والخال انه عند محي الطليان كان عددهم ٣٠٠ ألف داخلاً في ذلك العرب البوادي . واما الآن فقد نزل عددهم عن هذا المقدار

ولقد شاهد محرر هذه السطور جزيرتي بومبا وخليج بومبا يوم ذهبت الى جهاد طرابلس وبتنا بساحل هذا الخليج ليلة وفي زاوية أم أرزم ليلة وفي زاوية مرطوبة ليلة وذلك قبل وصولنا الى معسكر أنور فوق درنه

(١) قد فتحت بعد طبع هذا الكتاب بأربع سنوات

جواهر الشريعة

دوله وسعوبه وماضييه وحاضره

تأليف الكاتب الكبير

محمد لطفي جمعة المحامي وعضو المجمع العلمي بـ

احتاج لمراجعة ٥٠ كتاباً من أنفس ما ألف باللغات العربية والفرنسية والانجليزية وما كتب في أمهات الجرائد العربية والفرنجية وهو في ٣٨٤ صفحة من القطع المعتاد مطبوع على ورق أبيض ناعم عال ومهما قيل في الكتاب فلا يكفي للتعريف به لذلك نكتفي بأن نحث كل مشتغل بالقضايا الشرقية أو العربية أو الاسلامية بمراجعة هذا السفر النفيس فيجد فيه زبده اجاث مؤلفه الفاضل ويغنيهم عن مراجعة كتب عديده ويوفر عليهم أوقاتهم

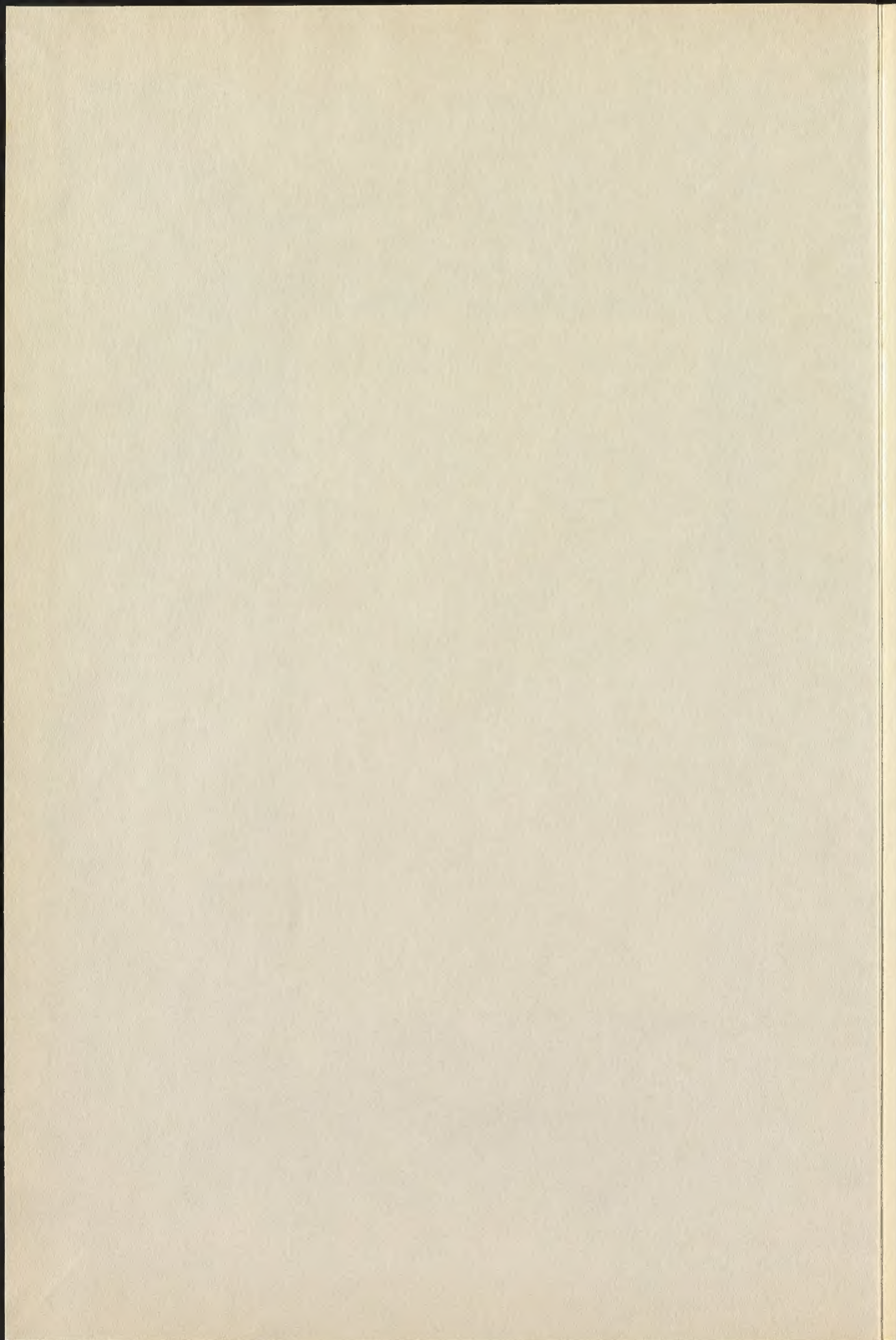
الكتاب الجامع للأصول

تأليف
الشيخ منصور علي ناصف

ألف هذا الكتاب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ منصور علي ناصف من علماء الأزهر الشريف والمدرس بالجامع الزينبي وقد جمعه من كتب الحديث الخمسة المعتمدة . وقسم الكتاب الى أربعة أقسام . الأول في الايمان والعلم والعبادات وهو موضوع الجزء الأول الذي تم طبعه . والكتاب مزدان بشرح جامع يوضح الغامض ويشتمل على تراجم الذين ورد ذكرهم في المتن والشرح ولقد توسع المؤلف الفاضل في بعض الأبواب فافتتحها بآيات من القرآن الكريم وزاد في الأحاديث ما جاء في موطأ الامام مالك ومسند الامام الشافعي والامام أحمد وغيرها والكتاب مطبوع طبعاً متقناً بالشكل الكامل على ورق جيد . ويقع في ٤٤٤ صفحة بالقطع الأكر فنحت رجال العلم وطلاب الحديث على اقتنائه لاجتناء ثمراته . وجارى طبع الجزء الثاني الذي قارب على التمام ويتلوه باقي الأجزاء







DATE DUE		
FEB 15 2007		
FEB 09 2007		
JUN 01 2012		
MAY 28 2013		
GAYLORD		PRINTED IN U.S.A.

MAY 28 2013

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0023570776

893.791
St644
3

108 79692

E FOUND

JAN 10 1957

